التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم

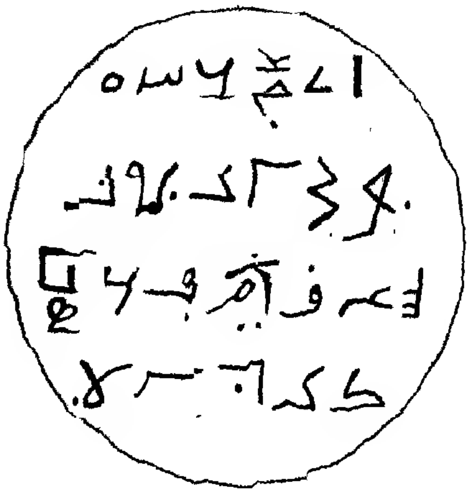

المجلد الثامن

السعديين

تأليف

عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1408 - 1988

تحدثت كتب التاريخ عن المراسلات بواسطة الرموز حفظاً للأسرار.. ومن بين الدبلوماسيين المغاربة الذين كانوا يستعملون هذا النوع من الاشكال، عبد الواحد عنون سفير المنصور السعدي إلى الملكة إليزابيث، انظر المجلد الثاني من هذا الكتاب ص 54 ـ 57 وانظر هذا المجلد الثامن ص 204 ـ 205.

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الميثاق

وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر
إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق

صدق الله العظيم
سورة الأنفال - الآية 72

علاقات المغرب بالعثمانيين وبلاد المشرق على عهد السعديين

- نشأة الدولة السعدية وتطورها...
- العلاقات مع الجزائر وتدخل سليمان القانوني.
- التحالف العثماني الفرنسي وآثاره على العلاقات المغربية الإسبانية.
- اغتيال محمد الشيخ وحمل رأسه إلى اسطامبول !
- محاولة العثمانيين لإصلاح موقفهم مع المغرب.
- مساندتهم مولاي عبد الملك.
- تصلّب الموقف بعد انتصار وقعة وادي المخازن !!
- تغيير نظام باي لارباي واستقرار الأحوال بالمغرب !
- تبادل السفارات بين السلطان أحمد المنصور والباب العالي.
- موقف العثمانيين من تحرك المنصور في سُنْغاي.
- صلة السعديين بقادة المشرق ومحاولة إطلاعهم على الحالة في المغرب...
- وفادة تشيرلي وعلاقتها بالصراع الفارسي التركي.

عرفت أيام السعديين معركة وادي المخازن التي انتصروا فيها على البرتغال ....

علاقات المغرب بالعثمانيين وبلاد المشرق على عهد السعديين نشأة الدولة وتطورها

بالرغم من أن الوطاسيين كانوا في أيامهم الأخيرة ينعتون أنفسهم بالأشراف إلا أن المعروف أن الدولة السعدية هي ثاني دولة تنتسب لبيت الرسول ﷺ بعد الأدارسة الذين أنشأوا الدولة المغربية الإسلامية، وقد ورد في إحدى الرسائل المرفوعة من السلطان إسماعيل جد الدولة العلوية القائمة إثر السعديين، إلى الملكة اليزابيث عاهلة أنجلترا، ورد نعت السلطان أبي العباس أحمد السعدي بالعم، كما ورد في جوابٍ لملك المغرب سيدي محمد بن عبد الله وقد سئل عن السعديين : إنهم بنو عمنا، جدُّنا وجدهم واحد، وقريتنا وقريتهم واحدة بالينبوع يقال لها «بنو إبراهيم...» هذا علاوة على أن السعديين في جلّ رسائلهم الرسمية كانوا يتعمّدون إشعار مخاطبيهم بانتسابهم لآل البيت ليظهروا استحقاقهم دون غيرهم ـ لتحمّل رسالة الحكم...

ولهذا فإن وصفهم بالسعديين إنما أتى لاحقاً ـ على ما يذكر ـ بعد أن حالفهم السعد في كثير من حركاتهم وبخاصة أيام السلطان العظيم أحمد المنصور الذي لقّب بالذهبي اعتباراً لما توفر عليه من أموال ليس فقط لفتحه السودان ولكن نتيجة كذلك لافتداء الأسر الغنية في البرتغال لأقاربهم الذين وقعوا في قبضة المغرب عند وقعة وادي المخازن.

لقد كان احتلال الإسبان والبرتغال لبعض الشواطئ المغربية نقمةً في طيّها نعمة، وتجلت هذه النعمة في انتفاضة أهل المغرب وإلهاب حماسهم الوطني وغيرتهم الإسلامية، وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه بنو وطاس يشتغلون بمحاربة العدو المغير على شمال المغرب بقيت ناحية الجنوب معرضة للخطر فاجتمع الناس قرب تارودانت على أبي عبد الله محمد القائم، أول أميرٍ من هذه الدولة فترأس سنة 916 = 1510 ـ 1511 حركة الجهاد عن حوزة الوطن في الجنوب.

نسب الأشراف السعديين

نسب الأشراف السعديين : محمد المهدي بن محمد القائم بأمر الله، بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد ابن الحسن بن عبد الله بن محمد المدعو بأبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد الملقب بالنفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المومنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله.

ولما توفي عام 923 = 1517 خلفه ابنه أبو العباس أحمد الملقب بالأعرج فواصل النضال ضد العدوان البرتغالي وحقق انتصارات طارت بها شهرته، حيث دخلتْ مدينة مراكش في طاعته سنة 930 = 1524 وأصبحت عاصمة مملكته مستقلةً عن مملكة فاس التي بقيت إلى الآن بيد الوطاسيين ! وجلا الأجنبي عن ثغر أسفي وأزمور كما أجلوا عن أصيلا.

وقد كَتَبَ لأبي العباس هذا أخ اسمه محمد «أمغار» يعني الشيخ كان وزيره وسنده، لكنه لم يلبث أن استقل بالملك دون أخيه وتلقب بالمهدي وساعده يمن الطالع بفتح حصن (فونتي) بعد أن ظلّ بيد البرتغاليين زهاء اثنتين وسبعين سنة وبنى بقربه حصن أكادير،[1] ثم أعاد سنة 948 = 1541 فتح أسفي وأزمور بعد أن كانت الأطماع الأجنبية قد اكتسحتهما من جديد وما لبث أن أجهز على مملكة فاس فاستولى على عاصمة الوطاسيين سنة 956 = 1549 طارداً عنها سلطانها أبا حسون...

غير أن هذا لم يلبث أن عاد إلى العاصمة فاس بتاريخ 3 صفر 961 = 8 يناير 1554 فأمسى يدعو للعثمانيين على المنابر طوال بضعة أشهر بيد أن السعديين استطاعوا أن يعيدوا الكرة من جديد على العاصمة ويحتلوها بصفة نهائية أوائل جمادى 2 عام 961 = 1554.

وقد فاتح الباب العالي العاهلَ المغربي 959 = 1552 في البيعة وأن يدعوَ للعثمانيين على المنابر..! بيد أن سلطان المغرب محمد المهدي الشيخ رفض الرضوخ للتبعية مما أدى إلى التآمر على اغتياله سنة 964 = 1556..!

1) د. التازي : أكادير إيغير من خلال التاريخ الدبلوماسي للمغرب محاضرة بجامعة القاضي عياض : كلية الآداب ـ أكادير 10 أبريل 1986...

ولقد كان من أولاد محمد الشيخ : عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور.

وقد تميزت بداية أيام السلطان عبد الله الغالب بصد زحفٍ تركي على فاس من تلمسان سنة 965 = 1557 وإرغام الزاحفين على العودة إلى مواقعهم كما تميَّزت بمحاصرته مدينة الجديدة وتضييق الخناق عليها سنة 969 = 1561، حيث كان على وشك أن يفتحها لولا تخوفه من مهاجمة الأسطول التركي الذي وصلت الأخبار عن تردده على بوغاز جبل طارق وازماعه على تهديد العاهل المغربي..!

وهكذا اضطر المغرب لمهادنة البرتغال في الجديدة بل وإلى عدم معارضة الإسبان - على ما يقال - في احتلال جزيرة بادس مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب التي لايملك العاهل المغربي أُسطولاً كافياً لحمايتها من الأتراك...

غير أنه لما قَضى السلطان عبد الله الغالب سنة 981 = 1573 إثر أزمة صدرية، استأثر بالعرش ابنه محمد المتوكّل، فكان ذلك مما أثار حفيظة عمه عبد الملك اللاّجئ في الجزائر والذي كان يرى نفسه أولى بالحكم ! وهكذا التجأ إلى اسطامبول مصحوباً بالأميرة الوالدة يلتمس النجدة، وقد عاد عبد الملك مزودا بما يلزم[2] واقتحم مدينة فاس سنة 983 = 1576. بينما انتهى محمد المتوكل إلى جزيرة (بادس) ومنها إلى لشبونة حيث اجتمع بالعاهل البرتغالي الشاب دون سباستيان ملك البرتغال مستصرخاً به على عمه عبد الملك، وعبثاً كان اعتماد محمد المتوكل على اسبانيا بادئ الأمر فقد أحكم الحصار على هذه بوهران من طرف الأتراك الذين كانوا معززين من حليفتهم فرنسا التي كانت تغريهم باسبانيا على ما سنرى.

☆ ☆ ☆

وقد رأى التاج البرتغالي أن هذه فرصة سانحة لامتلاك المغرب فتقدم بجيشٍ كثيف انتهى إلى وادي المخازن على مقربةٍ من مدينة القصر الكبير.

---

2) كان مما وعد به الأمير عبد المالك السلطان مراد الثالث. أداء تعويض خمسمائة ألف دينار ذهبي، والالتزام يعقد حلف للهجوم على اسبانيا، والتخلي للأتراك عن ميناء العرائش ليصبح كقاعدة انطلاق لعملياتهم...

وقد بعث المتوكل في هذه الأثناء برسالةٍ إلى أعيان المغرب يتوعدهم مشيراً بما سماه «المسوغات» التي حملته على الالتجاء إلى طلب حماية الأجنبي، لكن علماء الدين أجابوه برسالةٍ صارخةٍ تشجب صنيعه وتؤكد خلعه عن العرش..!

وأخيراً كانت «وقعة وادي المخازن» واصطدمت الفئتان يوم الاثنين 30 جمادى الأولى 986 = 4 غشت 1578 فانتصر المغاربة انتصاراً منقطع النظير وأتى القتل على معظم الجيش البرتغالي بعد أن استعصى عليه الفرار عبر القنطرة المنسوفة ! وكان على رأس لائحة القتلى ملك البرتغال والملك المخلوع اللذان عثر على جثتهما في الوادي..!!

وقد حدث أثناء هذا اليوم أيضاً أنْ أدركت الوفاةُ السلطان عبد الملك متأثراً بفرحة النّصر على ما تذكره المصادر التركية، فتمت البيعة للسلطان أحمد المنصور الذي أنشأ مجلساً استشارياً أطلق عليه اسم «الديوان» كان هو مرجع الدولة في سياستها وقرارها... كما عُني بتنظيم جيش قويٍّ منظم مستفيدٍ دون شكٍّ من الخبرة التي اكتسبها وهو مقيمٌ بين ثكنات جيش الاستانة.(3)

وقد عمد المنصور سنة 987 = 1579 إلى تنصيب وليّ عهده محمد المأمون وكانت آماله عريضة، فقد أخذ يطمح إلى استرجاع باقي السواحل المغتصبة ليمد يده إلى إخوته بالأندلس الذين اضطروا لتسليم مفاتيح الحمراء سنة 987 = 1579 إلى فيرناندو وإيزابيلا في أعقابِ «عقد الستين شرطاً...»

ومن هنا وردت عليه فكرة العمل على ما سمّاه «جمع الكلمة» ولم يكن ذلك يعني في نظره غير التوسل للمزيد من القوة استعداداً للمعركة، للمزيد من حماية الظّهر....

وهكذا اتجه في خطوةٍ أُولى نحو الجنوب ليقطع الطريق على تدخُّلاتٍ أجنبية محتملة تهدف لتهديد الصحراء مستعينا برجال الصحراء أنفسهم على

3) لابد أن نشير هنا للمؤامرة الفاشلة التي دبرها بعض القادة الأندلسيين للانقلاب على أحمد المنصور على ما نقرأه في كتاب مناهل الصفا.

MERCEDES GARCIA ARNAL: LOS ANDALUSIS ENELEVÉRCITO SA DI, ALQANTARA T. 5 MADRID 1985 P. 169 – 202

قبر مولاي عبد الملك
في القلّة المشرفة على فاس...

ورد في المخطوطة المجهولة المؤلف التي نشرها جورج كولان تحت عنوان تاريخ الدولة السعدية والتي ألفت في حدود عام 1090 = 79 ـ 1680 من مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ـ الرباط 1353 = 1934 أن أحمد المنصور لما دخل مدينة فاس بعد تحقيق النصر في وقعة وادي المخازن قام بدفن أخيه مولاي عبد الملك بالقلة أي قلة بني مرين...

وقد ورد في تاريخ الجنّابي (999 = 1590) كما هو الأمر في (نزهة الحادي) لليفرني 1155 = 1742، أنه لما توفي عبد الملك حمل إلى مراكش فقبّر بها...

ومعلوم أن أحمد المنصور انتقد الجنّابي بشدة وأرسل سفيره إلى المؤلف في بلاد الشام ليصلح معلوماته على ما نقرأه في الرسائل السعدية التي نشرها عبد الله كَنون...

وحسب إفادة الطبيب الخاص لمولاي عبد الملك التي أوردها الكونت دوكاستري (S I.H.M - ENG. T.1 p.320) فإن جثة مولاي عبد الملك نقلت فعلاً **إلى فاس وهناك** دفنت في احتفال كبير إلى جنب قبر أخيه مولاي محمد الحرّان... الأمر الذي تؤكده طائفة من الكُتاب المعروفين بأمانتهم وتثبتهم من أمثال لاريدو (Larédo) وكذلك ڤاجدا[1] (Vajda)..

ومع أن هناك احتمالاً لنقله من جديد إلى مقابر السعديين بمراكش فإن عدم وجود نقش على القبر المحتمل أنه له، مع ما نعلمه من تعلّق المغاربة، وعلى رأسهم المنصور ـ به، كل ذلك يبعد أن تكون الجثة نقلت من فاس إلى مراكش.[2]

1) Hesp. 1948 – p. 197 – 323

2) Deverdun. Marrak. 411

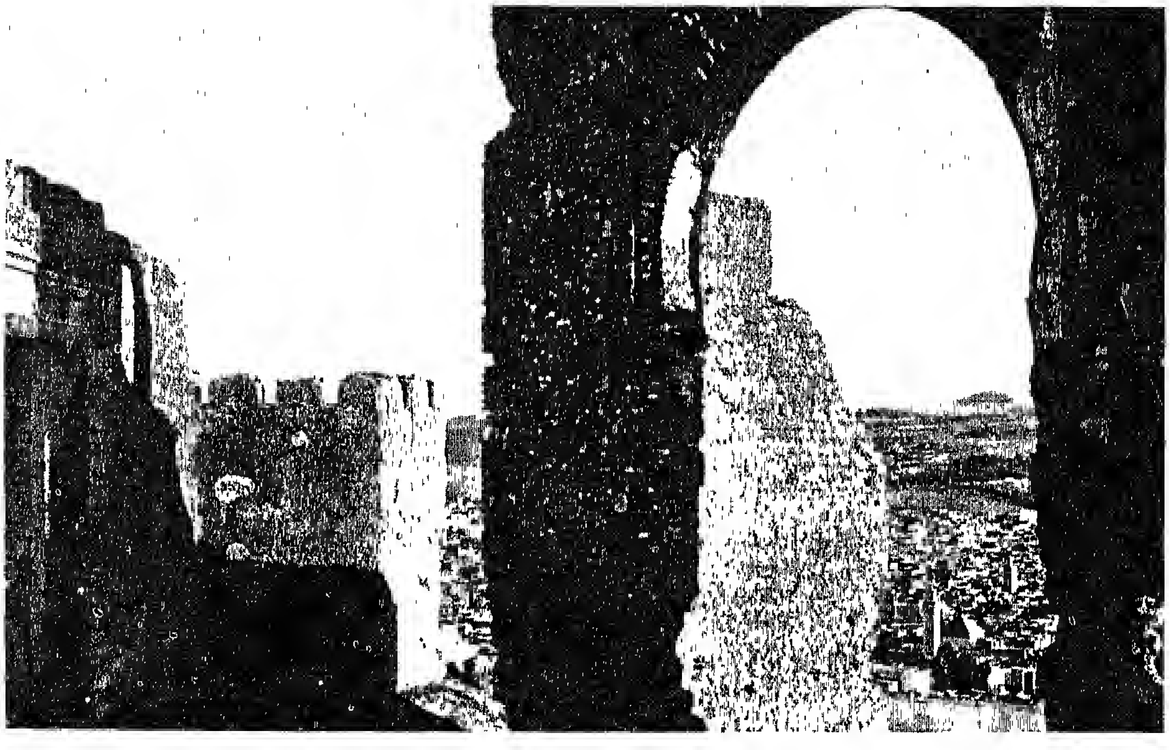

قلة بني مرين المشرفة على المدينة العتيقة...

تحقيق أهدافه، فذاع صيته في بلاد السودان وراسله أبو العلاء ملك بُرنو بهداياه يرجو الدخول في طاعته، وأردف هذه الفتوح ـ بعد أن بلغه عن تحركاتٍ مشبوهة من أتراك الجزائر تقصد إلى تطويقه ـ أردفها بإرسال بعثةٍ إلى السلطان إسحاق من آل سكية ملك سُنْغَاي الذي أخذ ـ على ما يبدو ـ يصيخ بسمعه لإغراءات أتراك الجزائر واسطامبول، وهكذا لم يلبث أن أتبعها ـ بعد فشل المهمة ـ بالزحف على تخوم السودان عبْر تنبوكتو سنة 1000 = 1502...

وقد عكست كل تلك الأحداث آثارها على الساحة الدولية والبَلاطات الأُروبية التي تهافتت على الأمبراطورية المغربية تخطب الود وتطلب النجدة، لكن المنصور ـ وقد شب الخلاف بين بنيه ـ عمد إلى ترضيتهم بتوزيعهم أُمراء على الأقاليم عام 992 = 1584 فعقد ـ علاوة على المأمون ـ لأبي فارس على السوس، ولأبي الحسن على مكناسة ولزيدان على تادلة... وهنا كانت بداية النهاية !

ومات المنصور في ربيع النبوي 1012 = غشت 1603 فعاش المغرب ظروفاً كئيبة قصمت ظهره وأسلمته إلى سلسلةٍ حزينة من الأحداث الجسام، فقد جعل أبناؤه يتقاتلون على الحكم، وكانت مملكة بفاس على رأسها زيدان، وأُخرى بمراكش على رأسها أبو فارس... وزاد في متاعب الحاكمين عام 1017 = 1608 هجرة كثير من الغرناطيين نحو بلاد المغرب، وقد التجأ (المأمون) إلى اسبانيا مستصرخاً بملك اسبانيا، على إخوته فاشترطت عليه هذه تسليم ثغر العرائش، وفي هذه الأثناء أسرع الأعداء إلى التوسع في البلاد فانتشر البرتغال في أنحاء (الجديدة) وامتد نفوذ الإسبان من (العرائش) إلى (أصيلا) شمالاً و (المعمورة) جنوباً، وضيقوا الخناق على مدينة (سلا)...

وقد ظهرت، نتيجةً لهذا التدهور، طائفة من الزعماء والقادة، كل كان يرى نفسه أولى بتطويق الخطر، وعرفت فاس وحدها زعماء اللمطيين الذين اصطدموا مع زعماء عدوة الأندلسيين، وعلاوةً على النقسيس وأبي اللّيف، ظهرت إمارةُ العياشي وإمارة غيلان وابن أبي محلّي ويحيى الحاحي وأبي حسون والدلائيين والشبانات، وربط بعض هؤلاء صلاتهم بطائفةٍ من ملوك أُروبا كانوا يشجعون التمرد والتفكك ! بينما ظلّت فلول السعديين تقاوم

مستنجدة تارةً بالإسبان وتارة بالبرتغال وثالثة بالأتراك... إلى أن انقرضت دولتهم بصفة نهائية سنة 1069 = 1659.

☆ ☆ ☆

وقد تميزت الدولة السعدية بطائفة من المظاهر الحضارية التي سجلها المنثور والمنظوم واتسمت بطابعٍ أعطاها صفة الأمبراطورية وخاصة أيام عاهلها المنصور، فلقد نظم البريد بسائر أطراف البلاد تنظيماً بديعاً وسريعا ـ على نحو ما كان أيام الموحِّدين ـ جعل الدولة على علمٍ من كلّ ما يجري بالمملكة، وعمد المنصور الذهبي إلى الترجمة عن ذلك الرفاه والبذخ الذي وصلت إليه الدولة ببناء عددٍ من المعالم كان في أبرزها قصر البديع الذي شرع في بنائه بعد خمسة شهور من وقعة وادي المخازن ـ وهو أثر يمكن أن نضيفه، غير مبالغين، إلى عجائب الدنيا التي تحدثت عن عظمتها الأجيال سيما وقد تضافرت على تشييده وتأثيثه طاقات خلاقة من مختلف جهات المعمور : بما فيه قبة الزجاج، والقبة الخمسينية، وقبة النصر وقبة التيجان وبساتينه التي تذكر فيما روى عن الجنائن المعلّقة في بابل (بالعراق)... وفيه تسافر بك مخيلتك إلى تاج محل (بالهند)، وفواراته وضاياته تغنيك عن السفر إلى قصر بيترس بورغ.!! تدفئة وتكييف في سائر المرافق، سراديب ودوالايب... وحصون وبروج، عاج وآبنوس من الهند... رخام من أجود وأصفى ما أنتجته مصانع إيطاليا... وزجاج من أثمن وأرفع أنواع الكريستال في البندقية... ذاك قصر البديع الذي أخمل ذكر ما صنعه بنو العباس ببغداد وبنو مروان بالشام وبنو عُبَيد بالقاهرة... وما يعزى للقياصرة والأكاسرة على حدّ قول الوزير الفشتالي...[4]

وقد سمعنا عن المعاصر المتعددة للسكر، وعن مئات الحقول التي كانت تزوّد تلك المعامل بما تحتاجه لتزويد البلاد من جهةٍ ولإرضاء الطلبات المتكاثرة من مختلف عواصم أروبا التي كانت تجد في السكّر المغربي نكهةً لا يتوفر عليها أي إنتاج آخر في العالم....

4) د. التازي : قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا ـ مطبعة فضالة 1977.

وقد احتفظت المؤلفات المعاصرة للفترة السعدية بنظام التخاطب السري في المواضيع الخطيرة بحيث نجد الإشارة الدقيقة لما دأبت الحكومات اليوم على تسميته (الشفرة)، وهكذا كان العاهل وولي عهده ومن دعت الحاجة إلى خدماته يتوفرون على لغة تخصهم ولا يعرفها غيرهم. مما فصلناه في مقدمة هذا الكتاب.[5]

على أن الدولة لم تغفل أيضاً جانب الشّعار الذي يميزها عن غيرها فكنا نشاهد العَلَم الأبيض على رأس الريات التي ترمز إلى الفرق العاملة في الدولة، وكنا نسمع أصداء الموسيقى المنظّمة التي لم تعرف آنذاك إلا في بلاط العثمانيين، كما نسمع عن الطبول التي يدوي وقعها في الأرجاء مما يحتفظ إلى الآن بآثاره الفولكلورُ المغربي في الجنوب... هذا طبعاً إلى الترتيبات التي أعدت لحماية الدولة من التفكك والضعف والتداعي والانهيار مما فصّلته المؤلفات التي عنيت بتاريخ السعديين وخاصة منها المؤلفات التي اهتمت بترجمة الكتب المتعلقة بصنع المدافع على نحو ما رأيناه في كتاب «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» الذي ألفه الحجري الأندلسي...

علاقات المغرب بتركيا في عهد السعديين...

لقد وجد السعديون أنفسهم أمام قوةٍ مجاورةٍ عرفوها بصفةٍ خاصّةٍ، عندما انتزعوا سنة 957 = 1550 فاس العاصمة من يد أبي حسون آخر ملوك بني وطاس، ولم تكن تلك القوة سوى الأمبراطورية العثمانية الحنيفية المذهب التي استنجد بها قادة الجزائر في أعقاب الفراغ الذي كانت تعيش عليه البلاد.

☆ ☆ ☆

5) د. التازي : الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة 1403 = 1983.المجلد الثاني من هذا الكتاب ص 43-44.

وقـد كـان من المفروض أن يتحـد قـادة المغرب مـع الـوالي التركي على الجزائر من أجل القيـام بعملٍ مشتركٍ ضـد مراكز الاحتلال المسيحي في كـلٍّ من الجزائر والمغرب فإن كلاًّ من البلدين كان مهدداً وعليهما معاً أن يطوقـا الخطر... وهو الأمر الـذي توقعـه حـاكم وهران الإسبـاني، الكونت ألكوديت (ALCAUDETE الذي كتب من وهران بتاريخ 21 أبريل 1549 يقول : إن مولاي محمد الشيخ قـد كتب إلى بـاشـا الجـزائر واقترح عليـه القيـام بعمليـاتٍ مشتركـة لتحرير وهران والمرسى الكبير وأنـه بعث بهـدايـا إلى أمير البحر درغـوث بـاشـا يقترح عليـه الدخول في حربٍ ضـد اسبـانيـا...[6] وإن كثيراً من رؤسـاء البحر سينضمون إلى درْغوت ليكونوا جميعاً في خدمة محمد الشيخ.[7]

كـذلـك كـان المفروض، فـإن المغـاربـة بمن فيهم الـذي كـان يقيمون خـارج المغرب، كـانـوا يعلقـون آمـالاً كبيرة على ظهـور العثمـانيين من أجـل مقـاومـة التسلط الأجنبي وكانوا نتيجةً لذلك لا يتصورون أن يحملوا السلاح ضـد أولئـك المجاهـدين، وهكـذا رأينـا المغـاربـة المقيمن بمصر يرفضـون طلبـاً لسلطـان مصر بتقديم ألف من شجعانهم للخروج معه ضد العثمـانيين مؤكـدين أنهم لا يقـاتلون سوى الأفرنج ولا يقـاتلون المسلمين، الأمر الـذي جعل السلطـان المـذكـور يهـدد بإبادتهم إذا لم يمتثلوا للأمر على ما ترويه المصادر التاريخية.[8]

فهل إن المغاربة وجدوا في أتراك الجزائر مـا كـانوا يتوقعون ؟ لقـد حـدث في هذه الأثناء أن كـانت تلمسـان تلفـظ أنفـاسهـا الأخيرة، وهكـذا وجـدْنـا بعض أمرائهـا يستصرخ بـالإسبـان ضـد البعض الآخر الـذي يحتمي بـالأتراك، ولم يكن غريباً علينـا أن نشهد الإسبان يناصرون المستصرخين بهم ضد الأتراك الذين أصبحوا

---

6) ينبغي أن نرجع لما قلناه عن العهد الوطاسي عنـدما تحدثنـا عن «المركبين» الموجهين إلى تونس والجزائر من لدن محمد البرتغالي...

7) Les sources inédites de L'histoire de Maroc, I Serie Espagne v. 1, p : 266

8) د. ليلى الصبـاغ : الـوجـود المغربي بـالمشرق في العصر الحـديث (المجلـة التـاريخيـة المغـربيـة) (تونس) عدد 7 ـ 8 ـ 1977 ص : 95. د. عبد الجليل التميمي : الخلفية الدينية للصراع الإسبـاني ـ العثماني ـ المجلة التاريخية المغربية. عدد 10 ـ 11 ـ يناير 1978. البكري : نصرة أهل الإيمان في دولـة آل عثمـان مخطوط بـالخزانـة العامة رقم د ـ 527 لوحـة 42 ـ أ ـ ابن إيـاس : بـدائـع الـزهـور تحقيق محمد مصطفى ج 5 طبعة ثانية ص : 137.

مع فرنسا كتلة واحدة، وهكذا أصبح الصراع في الواقع بين قوى خارجة عن المنطقة، تهدف لتحقيق أغراضها السياسية على حساب المسلمين المتنازعين.!! وبمقتضى التقارير التي تحمل تاريخ 28 مارس 1349[9] فإن العاهل المغربي استقبل عدداً من أشياخ تلمسان يحملون إليه ولاء المدينة مؤكدين انضمامهم إليه ومساعدتهم له على فتحها تخلصاً من أولئك وهؤلاء.

وهكذا وفي فاتح ربيع الثاني 956 = نهاية أبريل 1549 انطلقت القوات المغربية نحو شرقي البلاد حيث تقدمت نحو تلمسان التي دخلتها يوم 23 جمادى الأولى 957 = 9 يونيه 1550... ولم يدر بخلد العاهل المغربي أن هذه المبادرة قد تقلق «المجاهدين» الأتراك، فقد سبق له أي محمد الشيخ أن وعد حسن باشا بمساعدته على انتزاع وهران حالما يصل المنطقة على ما يقول التاريخ العثماني.[10]

لقد كان رد الفعل عنيفاً حيث شاهدنا معارك دامية بين الأتراك والمغاربة أسفرت عن انسحاب القوات المغربية عن تلمسان أواخر سنة 1550 ومصرع الأمير مولاي عبد القادر بن السلطان محمد الشيخ وإرسال رأسه إلى حسن باشا !![11]

ولا شك أن السلطان سليمان القانوني كان يقدر ما ستخلّفه مثل هذه التدخلات من أثرٍ في نفوس المغاربة، وهكذا نجده يبعث برسالة إلى السلطان محمد الشيخ يخبره فيها بعزل حسن باشا الذي لم يحسن الجوار، ويحيطه علماً بأنه عين صلاح باشا الذي يتمنّى أن تكون علاقاته به حسنة...

وهذا نص الرسالة التي كانت تحمل تاريخ أوائل محرم 959 = يناير 1552[12]:

9) Les sources inédites de L'histoire de Maroc, I Serie espagne vol. 1, p : 208

10) مخطوط الترجمان المعرب، بالخزانة العامة د 658 / 441 ـ S.I.H.M – S.1 Esp. T.1. P 267.

11) S.I.H.M. S.1 Esp. 1. P 532.

12) قصر طوبقبو، مكتبة قوغوشلر ـ دفتر الأمور المهمة رقم 888 ص 9. خليل الساحلي : تقليد صالح باشا ولاية جزائر الغرب سنة 1552 ـ المجلة التاريخية المغربية عدد 2 يوليه 1974 ص 125.

هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني، وخطابنا المنيف السامي الخاقاني، لا زال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني والصون الصمداني أصدرناه إلى الجناب العالي الأميري الكبيري الأكرمي الأفخمي الأكملي الأرشدي الأعدلي الهمامي الماجدي النصيري الذخيري الحسبي النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشريف محمد دام علوه وزاد سموه.

أصدرنا هذا المثال الشريف العالي إلى جنابه العالي نخصه منا بسلام بتكميل صلاة (صلات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد :

فإن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ أقامنا في دولة هايلة نركب خيولها ونعمة طايلة نسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضُحَيها وسعادة ساعية كالقمر إذا تليها[13] وخصنا خلافة جليلة عضد الأيمان بها منصور، ومنحنا سلطنة سنية ساعد الإسلام بها مرفوع، لا جرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا أداء (شكر) هذا اللطف الجسيم والإحسان العميم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وكان أبداً دأبنا ودائماً عادتنا الاهتمام بإجراء الشرع المبين وإنفاذ سنى سنن سيد المرسلين عليه الصلوة وعلى آله أجمعين والقيام في إطفاء نايرة الكفر والطغيان، وطى الظلم والعدوان، ونشر العدل والإحسان.

ولما بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأُمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف، ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف، وسد باب الاتحاد من المجاهدين حماة الدين لذلك بدلناهم غيره فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية، وخلاصة خدام أعتابنا الجليلة أمير الأُمراء الكرام كبير الكبراء الفخام، ذي القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام، المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا دام إقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا إليه تلك الديار وأمرناه لإقامة شراع (الشرع) الشريف المتين وإحياء تواتر سيد المرسلين وصون الرعايا

13) اقتباس من الآيتين والشمس وضحاها، وقد اتبع الرسم القرآني.

تحريراً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة بمقام ادرنة

[illegible]

وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى وأن يكون من الأهالي الإسلام على أكمل اتحاد وأجمل اتفاق مجدا فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مثابراً على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على أن أقصى مراد حضرتنا العلية إحياء مراسم الإسلام وإطفاء نائرة الكفرة اللئام وذلك المرام يكون باتفاق أُمراء الإسلام، واتحاد أُمناء شرع سيد الأنام، ويتم به النظام وينفى آثارهم في الشهور والأعوام.

وأمرناه أيضا أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفاق والمراحم، وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكار(م) ليكونوا في أيام دولتنا العادلة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولا بد لكم آن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء وأحفاد سيد الأصفياء سمعنا عدلكم وإنصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم ولذلك الشأن كتبنا إليكم منشوراً يوجب مضمونه المصافات (كذا) ويشفي مكنونه أن تكون المودة في أقصى الغايات ولكم أن تنبئوا بأخبار صحتكم إلى أعتابنا العالية...

السلطان سليمان القانوني

وبعث إليه في التاريخ ذاته برسالة أُخرى ودية، ولكنها تحمل بين سطورها ما ينم عن أن السلطان سليمان القانوني على عظمته - لم يعرف عن هذا المغرب شيئاً !! فقد كان يعتبر محمد الشيخ أحد ولاته ! ولذلك فقد بعث له على طريق الصلة - بثلاث خلع واحدة له واثنتان لولديه !!

هذا مثالنا (الشريف) إلى آخره... أصدرناه إلى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد... إلى آخره نخصه منا بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد :

فإن الله جلت قدرته وتعالت عظمته منذ أقامنا في دولة هايلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضُحَها... وامضاء سنن سيد الأولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدة الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع بسدتنا العلية حسن إقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك في الذّب عن المسلمين وقمع أعداء الدين ولذلك الشأن حباك إحساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فانعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسج المودة بيننا على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام وحماة دين النبي عليه السلام في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إن شاء الله تعالى.

تحريراً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة

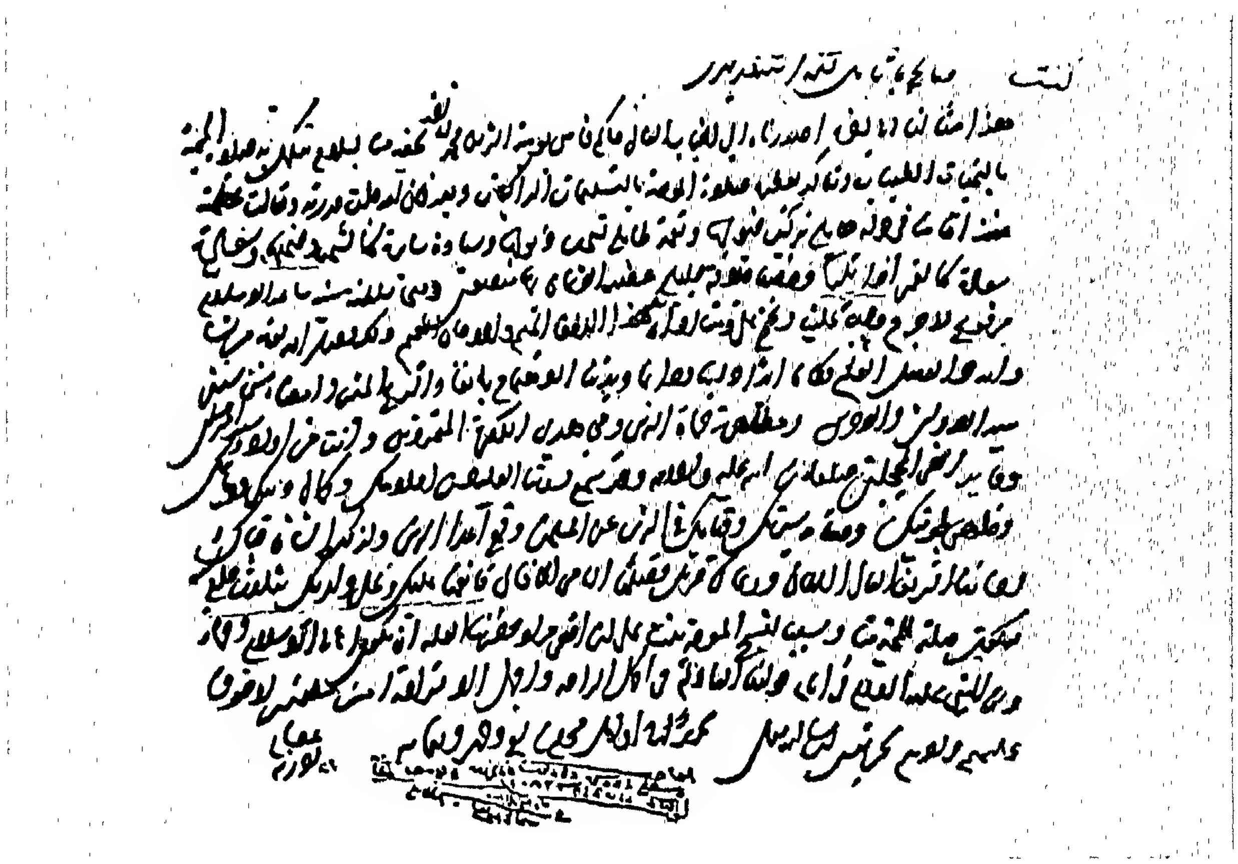

ولم يكتف السلطان سليمان ببعث الرسائل، ولكنه شفع ذلك بإرسال سفارة هامة إلى مراكش برئاسة العلامة الصالح أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي القارقاريشي نزيل الجزائر وذلك «سنة تسع بمثناة وخمسين 959 = 1552 بقصد المهادنة بين السلطانين وتحديد البلاد بينهما» على حدّ تعبير صاحب النزهة[14]

وإذا كنا لا نتوفر على المصادر التركية التي تحدثت عما دار من محادثات أثناء هذه السفارة، فإن المصادر المغربية ـ تساندها المراجع الأُروبية ـ تذكر أن السفير الخروبي جاء فعلاً ليقترح على العاهل المغربي عقد السلام بين البلدين كما يطلب إليه تعيين الحدود بين الإيالة التركية والمملكة المغربية، ولكنه يطلب إلى ملك المغرب أن يعترف بالسيادة العثمانية وأن ينقش اسم السلطان العثماني على قطع العُملة المغربية على نحو ما كان أواخر العهد الوطاسي كما يقول الزياني في (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب).

وقد ورد في تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول أن رسول السلطان سليمان أعاد لذاكرة العاهل المغربي ما كان عليه أسلافه في الدولة السابقة من توادٍّ وتحاب وتقارب للباب العالي... وأن ملك المغرب سكت ولم يجب السفير بشيء... بالرغم مما كان يلقاه من تكريمٍ وتقدير...

وعندما عزم السفير على العودة إلى الذين أرسلوه استأذن محمد الشيخ في الانصراف وطلب إليه هل ما إذا كانت عنده من رسالةٍ يبلغها إلى السلطان سليمان... وهنا نجد المؤرخين يذكرون أنه أي محمد الشيخ بقدر ما ارتاح من المطلبين التركيين الأَولين اشتط غضباً وهو يسمع عن مساومته في السيادة على البلاد...[15] وهكذا فإن المصادر المغربية تروي أن محمد الشيخ قال للخروبي : سلم على سلطانك «أمير القوارب»، وقلْ له إن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر، ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله..!

14) اليفرني : نزهة الحادي ص 41 ـ 42. الاستقصا 5، 27 ـ 31. الزاوي : أعلام ليبيا ص 306. المصراتي : لمحات أدبية عن ليبيا. التازي : ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي ـ طبعة المحمدية 1976 ص : 16 ـ خليل الساحلي، المجلة التاريخية المغربية (تونس) عدد يوليه 1974.

15) تاريخ الدّولة السعدية، ص 27.

ويذكر اليفرَني أن محمد الشيخ لما تم استيلاؤه على المغرب تاقت همته إلى بلاد المشرق فكان يقول : لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك... وكان لا يسمي سلطان العثامنة إلا «سلطان الحواتة»،[16] ويؤكد اليفرَني أن محمد الشيخ قال للأرسال العثامنة : (أخبروا صاحبكم أني مفتتح عليه بلاده ومتوجّه إلى لقائه !!).

ونتساءل هنا : هل إن السلطان محمد الشيخ لم يقم بإرسال سفارةٍ إلى الباب العالي للتأكد من فتح الصفحة الجديدة مع اسطانبول ؟ إن هناك إشارةً تدل على وجود «سفير الخلفاء العالم أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي الدرعي الجزولي في المشرق» فقد اجتمع في مصر ببعض أهل المكاشفة الذين سألوه عن السلطان محمد الشيخ المهدي وعن أولاده على ما يقول صاحب النزهة...[17]

وقد تحدث أبو الحسن علي بن محمد الجزولي التمكّروتي سفير السلطان أحمد المنصور الآتي الذكر أن (أخاه سيدي محمد رحمه الله ـ وقد كان توجه رسولاً إلى تلك البلاد قبلنا، قال له عن حصن كَلِبُلِ (Galliboli) أنه لا يصله إلا من بكى وقد صدق...)[18]

وهكذا نسجل مبادرة مغربية جميلة في أعقاب سفارة الخروبي لدي محمد الشيخ، فهل كان لها من أثر ؟ يتأكد لدي أن العاهل المغربي كان مقتنعاً أتم ما يكون الاقتناع بالنوايا الحقيقية للباب العالي إزاءه... ولم يهضم بأيّة حال تقاعس العثمانيين عن تحرير وهران في حينٍ يستضعفونه هو !

فهل عمل صالح باشا على تحسين الجوار ؟ أو بالأحرى هل كان السلطان سليمان مجدّاً فيما يقول ؟ إن الأحداث تؤكد أن الباب العالي إنما كان يقصد إلى تطمين العاهل المغربي سيما والسلطان سليمان بصدد تحرك حربي في أوروبا على ما تقوله المصادر التركية ذاتها ![19]

---

16) الحواتة جمع حوات : الذي يصطاد الحوت، يقصد أنه إنما يهتم بالسفن والمراكب !

17) نزهة الحادي ص : 79 ـ 80.

18) النفحة المسكية في السفارة التركية ترجمة وتعليق الكونت دوكاستري 1929 ص : 86.

19) المصدر السابق ص : 126.

وهكذا فما إن وصل الوالي الجديد في أبريل 1552 حتى دخل في مفاوضات سرية مع أبي حسون الوطاسي آخر ملوك الدولة الراحلة الذي كان السعديون أقصوه عن فاس (956 = 1549)....

ولقد علمنا أن أبا حسون هذا التجأ بعد تنحيته عن العاصمة إلى اسبانيا لطلب العون لكن هذه كانت قد اقتنعت بظهور السعديين، وحينئذ اتجه نحو لشبونة طالباً نجدة جان الثالث ملك البرتغال الذي أعطاه خمس قطع بحرية... وبينما هو على وشك الالتحاق بجزيرة بادس، أقرب ميناء لفاس، إذا به يصطدم أوائل شتنبر بقطعٍ من الأسطول العثماني الذي أخذه أسيراً مع ما كان يصحبه من عتاد ورجال إلى الجزائر حيث التقى بالوالي الجديد صلاح رايس الذي تظاهر بمساعدته لاسترداد عرشه بفاس،[20] وتكشف لنا رسالة من وهران بتاريخ 31 مايه 1553 النقاب عن الصدى الذي أحدثه في اسبانيا نبأ المساعدة التركية لأبي حسّون...

وهكذا وجدنا دون مارتان قرطبة (Don Martin de Cordoba) يحذر من مغبة التدخل العثماني لأن وصولهم إلى بادس يعني تهديد المصالح الإسبانية.[21]

وقد وصلت القوات العثمانية فعلاً إلى بادس... وكانت تتألف من اثنتي عشرة قطعة حسبما ورد في رسالة كتبها من مالقة فرانسيسكو فيرديكو (F.Verdugo) إلى الكونت ألكوديت، وكانت بتاريخ 23 أبريل من السنة...[22] والتحم الجيشان التركي والمغربي في معركةٍ انتهت بتراجع جيش السعديين. وهكذا تقدمت القوات التركية حتى مدينة تازة ومنها إلى فاس حيث جرت بظاهر المدينة معركة بالسلاح الأبيض كادت تأتي على المغيرين لولا تواطؤ تمّ في اللحظة الأخيرة بينهم وبين طائفةٍ من «الترك» كانت تعمل في جيش محمد الشيخ.

وهكذا احتلت فاس يوم 3 صفر 961 = 8 يناير 1554. وتكشف رواية ميكَيل أُورْتيز (Migil Ortis) بتاريخ 4 ـ 9 ـ 1954 النقاب عن الاتفاقية التي تمت بين

---

20) 36 :Sources inédites. s. l. T. 2, Espagne. p.
21) 93 :Sources inédites. s. l. T. 2, Espagne. p.
22) 88 :Sources inédites. s. l. T. 2, Espagne. p.

صالح رايس وأبي حسون والتي تمكن الباشا من رقاب الأسرى المسيحيين الموجودين بفاس ومن جميع ذخائر السعديين بما في ذلك أموال أهالي سوس ومراكش ![23] وتحتفظ حجج الوقف (الحوالات الحبسية) الخاصة بجامع القرويين بوصولاتٍ أُخِذ من أوقاف القرويين قسطها لحساب الترك بتاريخ 21 جمادى الآخرة 961 = 24 مايه 1554 على ما عرفنا في المجلد السابق.[24]

وهكذا تمكن الأتراك من فرض ذكر السلطان سليمان على منابر فاس وأخذوا ينتظرون ظهور اسمه أيضاً على العملة المغربية !

وما لبثت فاس أن ثارت على عيث الأتراك الذين اضطروا لمغادرة المدينة في عاشر ربيع الأول[25] من نفس السنة ! حيث تبع هذه الأحداث تمكن محمد الشيخ من الإجهاز على أبي حسون والاستيلاء على العاصمة بصفةٍ نهائية يوم 24 شوال 961 = 23 شتنبر 1554 أي بعد تسعة أشهر فقط على ما أشرنا...

ونذكر هنا أن محمد الشيخ لما كان بفاس سمع بخبر الفرقة التي تخلفت من محلّة الترك، فجمعها وضمها إلى عسكره، وكانوا على ما يقول الزياني في الترجمان المعرب[26] نحو الأربعمائة، فقدّم عليهم كبيرهم (صالح آغا) وأعطاهم السلاح والكسوة وكلفهم بالمسير مع قبه وأثقاله، فكانوا إذا نزلوا يدورون بمبانيه ويعسّون عليه في السفر... ولما بلغ مراكش أنزلهم بجوار قصره وفوض إليهم في حرس بابه وبالغ في الإحسان إليهم لما ظهر له في نجدتهم وصدقهم فصاروا أقرب الناس إليه ! وكلما رأى من أحدهم نباهةً قربه إليه حتى كان الكثير منهم في خدمته بداخل قصره وبمجالس أُنسه وجعل منهم أصحاب مراكبه وحجاب أبوابه وأخص الناس به واستمر الحال على ذلك إلى أن حدث ما سنرى.[27]

☆ ☆ ☆

---

23) Sources inédites. s. l. T. 2, Espagne. p : 139.

24) التازي : تاريخ جامعة القرويين 2، 461 ـ 477 ـ 618.

25) ابن القاضي : لقط الفوائد، تحقيق محمد حجي، الرباط 1976 ص : 304.

26) مخطوط بالخزانة العامة رقم. دا 658.

27) فضلنا إيراد هذا النص الكامل للترجمان المعرب لنعرف خلفيات التاريخ جميعها.

لقد اتضحت الرؤية جداً للسلطان محمد المهدي الشيخ فيما يتعلق بالباب العالي، وهكذا فلم يكن غريباً أن نجده يتخذ نفس الموقف الذي اتخذه (الموحدون) فيما سلف من الزمان إزاء الخلافة العباسية في المشرق : إعلان الاستقلال والحذر الزائد على عكس ما كان عليه أُمراء أواخر بني وطاس... وقد أخذ محمد الشيخ يتقرب إلى الإسبان والبرتغال على نحو ما فعله السلطان سليمان في تقربه إلى فرنسا... وهل يسوغ لسليمان القانوني مالا يسوغ لمحمد الشيخ ؟!(28)

ولعل أول وثيقة يستدل بها على هذا التقارب هي تلك الرسالة التي وجهها من ليشبونة الملك جان الثالث إلى الحاكم البرتغالي لمدينة الجديدة في شهر يونيه 1554 رجب 961 = جواباً عن الطلب الذي أعرب عنه السلطان محمد الشيخ إلى كل من مدريد وليشبونه لمده بالمعونة العسكرية لمواجهة التوسع التركي في بلاده، وفي هذه الرسالة نجد تجديداً لبعض الشروط التي يطرحها البرتغاليون لمساعدة السّعديين مثل التنازل عن بعض الثغور التي يهدّد الأتراك منها الطرفين على السواء : بادس والعرائش، وضمان تموين القوات المسيحية التي سيرسلونها لمساعدة ملك المغرب، وأخيراً تختم الرسالة بضرورة إخبار الأمبراطور الإسباني بالوضع.(29)

ونتيجة لهذه الاتصالات فقد عقدت أولاً الهدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم الجديدة... وعهد من ناحية أُخرى للمسمى منصور بن بوكاني بالاتصال مع اسبانيا حول الموضوع حيث وجدناه يبعث برسالة لحاكم وهران الإسباني الكونت ألكوديت (Alcaudete) في أوائل يناير 1555 = صفر 962 يخبره فيها بأن السلطان محمد الشيخ ينتظر مقدم الوفد الإسباني للتفاوض معه...

وفعلاً وجدنا سفارة إسبانية بالقصر الملكي في فاس 15 مايه 1555 = 23 جمادى الثانية 962 تفاوض العاهل المغربي حول مشروع اتفاقية للتعاون... إننا لا نجهل رغبة كلٍّ من الطرفين في تحقيق هذه الاتفاقية، فإن اسبانيا تعلم جيّداً

---

28) Sources inédites. I. S. T. S. portugal, p : 20.

29) August cour : l'Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc et les rivalités avec les turcs de la Régence d'Alger 1509 – 1830 Paris 1904 p. 121.

التحالف العثماني الفرنسي
وآثاره على العلاقات المغربية الإسبانية

لقد ظهرت على الساحة الدولية مصادفةٌ زادت في شحذ الحاسة السياسية لقادة المغرب على عهد السعديين، ويتعلق الأمر بالتقارب التركي الفرنسي الذي أخذت بوادره تظهر في الأفق بعد الاصطدام بين اسبانيا وفرانسوا الأول...

ويرجع الحديث إلى سنة 1519 = 925 عندما كان العاهل الإسباني شارل الذي ورث حكم جده فيرديناند الكاثوليكي يتطلع إلى عرش الأمبراطورية الألمانية الذي خلا بموت حفيده مكسيميليان النمساوي، وكان فرانسوا عميد أسرة فالو يتطلع هو أيضا لذلك العرش الذي ينضوي تحت لوائه سبعة ملوك... ومن هنا ابتدأت المنافسة بين فرنسا وبقية الدول الأوربية، واجتمع الأمراء الناخبون في فرانكفورت وآل الأمر إلى اتفاق يوم خامس يوليه 1519 = 7 رجب 925 على اختيار ملك اسبانيا أمبراطوراً لمعظم أُروبا زيادة على الممتلكات الشاسعة في القارة الأمريكية...

لذلك سعى فرانسوا الأول في التحالف مع دولة آل عثمان لمحاربة شارلكان... حتى يتمكن ملك فرنسا من الأخذ بثأر باڤيا (Pavie) 1525 = 931 التي أُخذ فيها أسيراً !

وقد استقبل السلطان سليمان سفير فرنسا يوم 6 دجنبر 1525 = 20 صفر 932 في احتفال كبير انتهى بإرسال خطاب إلى العاهل الفرنسي أوائل ربيع الثاني سنة 932 = منتصف يناير 1526 يظهر فيه سليمان استعداده لمناصرة فرنسا، وكان الخطاب يبتدئ بهذه الفقرة المتبعة عنده :

«وبعد فقد تطارح كتابك أمام كرسي عظمتي الذي هو ملاذ العالم أجمع...».

وقد وفت تركيا بالتزاماتها لفرنسا وتوالت الاتصالات بين الملكين حيث وجدنا السلطان سليمان يستقبل أيضا سفيراً للعاهل الفرنسي أول ذي الحجة 938 = 5 يوليه 1532 في احتفال منقطع النظير انتهى أيضا إلى تأكيد التعاون والإمداد بالأساطيل العثمانية....

وعاد سفير جديد من فرنسا إلى السلطان الذي استقبله عام 941 = 1935 أثناء عودته من فتح بغداد، وتبع هذا مباشرة توقيع الاتفاقية الشهيرة بين سليمان وفرانسوا ! ويتعلق الأمر بالعقد الذي يمنح ـ طوال حياة الملكين ـ طائفة من الامتيازات لرعايا ملك فرنسا....

ولقد كانت الاتفاقية تهدف ـ علاوة على إعطاء امتيازات للفرنسيين ـ إلى ضرب مصالح إسبانيا خصم فرنسا الأول، حيث أعطيت التعليمات إلى خير الدين باشا أن يرفع يده عن الشوطئ والمراكب الفرنسية ويحول كلّ تحركاته نحو اسبانيا على ما نقرأه في «تاريخ الدولة العلية» لمحمد فريد بك...

وبعد فترة هدنة هشّة بين الدولتين فرنسا واسبانيا وصل سفير من فرنسا إلى السلطان يخبره باستئناف الحروب بين فرنسا وشارلكان ويطلب تجديد الحلف التركي الفرنسي، الأمر الذي وافق السلطان عليه..!

وقد حدا هنري الثاني حذو والده فرنسوا الأول في موالاة الدولة العثمانية، وهكذا فبعد هدنة مع ملك النمسا في أعقاب وفاة العاهل الفرنسي عادت الاستعانة بالبحرية التركية لفتح جزيرة كورسيكا لعقاب جنوة على مساعدتها لشارلكان ولجعل الجزيرة مركزاً للانطلاق نحو السواحل الإسبانية !! ومن هنا أبرمت معاهدة جديدة بين الدولتين بتاريخ 16 صفر 960 = أول أبريل 1553 حيث رأينا مرة أُخرى أن العثمانيين والفرنسيين يقاتلون جنباً إلى جنب....

ولم تكن وفاة سليمان (20 صفر 974 = 5 شتنبر 1566) لتؤثر على العلاقات الجيدة بين العثمانيين وبين الفرنسيين... ومن هنا وجدنا شارل التاسع ملك فرنسا يجدد مع السلطان سليم الثاني عام 1569 = 976 ـ 97 سائر الاتفاقيات السابقة الأمر الذي وافق عليه السلطان الذي منح لفرنسا امتيازات أُخرى على حساب اسبانيا !

وقد حملت الأقدار معها موقعة ليبّانت (Lépente) البحرية يوم 17 جمادى الأُولى 979=7 اكتوبر 1571 التي واجهت بين العثمانيين وبين البنادقة يُعينهم البابا وملك اسبانيا، حيث انتصرت الأساطيل المسيحية وتم استيلاؤها على 130 سفينة تركية وأحرقت وأغرقت 94 وغنمت 300 مدفع وثلاثين ألف أسير ! الأمر الذي يفسر انقضاض اسبانيا على تونس 1572 = 980 !!

ومع ذلك حافظ العثمانيون على علاقتهم مع فرنسا... ومن ثمت وجدنا أن السلطان مراد خان الثالث الذي خلف سليم الثاني المتوفى 27 شعبان 982 = 12 دجنبر 1574 يجدد لفرنسا الامتيازات التي كانت عندها بل ويمنح السفير الفرنسي حق التقديم على سائر أعضاء السلك الدبلوماسي !

وقد حملت سنة **1578** = 986 ـ وهي السنة التي توافق وقعة وادي المخازن التي واجهت ملك المغرب وملك البرتغال ـ حملت معها أخبار اتصالات بين تركيا واسبانيا حيث وصل الطرفان ـ بعد خمس سنوات من المفاوضات إلى عقد اتفاقية لكنها لم تكن قادرة على منع قراصلة طرفٍ من نهب الطرف الآخر !!!

وعندما تولى السلطان أحمد الأول جدد بدوره عام 1604 = 1012 ـ 13 ما أبرمه أسلافه مع فرنسا....

لقد كان على العثمانيين ـ وهم منحازون لفرنسا ـ أن يقوموا بضرب مصالح اسبانيا بينما كان على المغرب ـ وظروفه الصعبة على ما نعلم ـ أن لا ينساق مع حلفٍ يعرف أسبابه وأهدافه علاوة على ما قد يؤدي إليه من تهديد بلاده !

عن تصدي الأتراك لها عملاً بمقتضى الاتفاقيات العثمانية الفرنسية، كما نعلم جيداً عن أن محمد الشيخ قد فهم ما يمكن أن يجنيه من الأتراك...!

لقد كان يجلس إلى جانب السلطان كاتبه بوحميدة والمزوار منصور إلى جانب ترجمان يهودي يحمل اسم ليفي الذي قام بترجمة الرسائل المرفوعة إليه من العاهل الإسباني، وكانت البعثة الإسبانية برئاسة ميكّيل دو ليزكانو (M. De Lezcano).

وطالت المذاكرات... وتعرض المتفاوضون لمصير الجزائر بعد إجلاء الأتراك عنها فذكر العاهل المغربي - على ما يقول المصدر الأوربي - أن الأمر كان يتعلق بالإجهاز على المدينة وإرجاع المقاتلين إلى جادة الصواب، لكنه رفض رفضاً قاطعاً أن يصبح المسلمون عبيداً للمسيحيين ! ولما حاولت السفارة أن تفهم العاهل أن هناك فرقاً بين خصومه الأتراك وبين أصدقائه العرب، أجاب بأن الشريعة لا تميز بين عربي وتركي...! ولذلك فإنه لن يسمح باستعباد المسلمين !!

وقد تجددت المفاوضات بواسطة بوحميدة حيث طلبت السفارة أن يتحمل المغرب نفقات الحملة الاسبانية، وقد قبل المغرب أن يدفع لكل من العشرة آلاف مقاتل ثلاثة مثاقيل في كل شهر... وهو المبلغ الذي استصغرته البعثة... واستمرت الاستشارات من غير أن يتوصل الطرفان إلى شيء ملموس على ما قلناه في العلاقات المغربية الإسبانية.

وغادرت البعثة مدينة فاس يوم 18 يونيه 1555 = 28 رجب 962 لترفع تقريرها إلى الكونت ألكوديت حاكم وهران[30] الذي وجدناه يرفع تقريراً إلى الأمير فيليب ابن الأمبراطور شارلكان بتاريخ 9 غشت 1555 21 رمضان 962 كان مما ورد فيه :

يجب أن نعتبر أنفسنا سعداء، ففي الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده، - دون أن يخاف الله - لتسخير الأسطول العثماني، كي يهاجم ممتلكاتنا، وجدنا ملكا عربياً ذا نفوذ كبير يصمم على مهاجمة أتراك الجزائر

(30 sources inédites, I, S. T. II Espagne p. 270 – 271

وإبعادهم عن إفريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثني عشر ألف مقاتل... وإني لمستعد أن أبعث إليه بولدي رهينة ولو كنت أعرف أنه يريد أن يذبحه![31]

ونقرأ بعد هذا بتاريخ 9 يوليه 1556 = رمضان 963 التعليمات الصادرة من (ڤايا دوليد) للكونت ألكوديت، إن على الكونت أن يبرم الهدنة مع السلطان محمد الشيخ لمدة عشر سنوات أو حتى أقل، إذا رغب هذا الأخير... وستقدم اسبانيا للشريف اثنى عشر ألفاً من المشاة ينزلون في الميناء الذي يختاره الشريف على أن يؤدي مرتب هؤلاء الجنود[32]... وسيتنازل الشريف للاسبان عن المواقع التي يرغبون في تسلمها... وينبغي على الشريف أن لا يسمح باستقبال أية سفينة لدولة أجنبية... وسوف لا يسمح للمسيحيين بالاحتفاظ بالأسرى المسلمين سواء كانوا من الأتراك أو من المغاربة، وفي مقابلة هذا فلن يبقى أسير مسيحي بين يدي العاهل المغربي، وأخيراً فإن التعليمات تعطي للكونت الحريةَ في التصرف بما يراه...[33]

وتأتي سنة 1557 = 964 ـ 65 لنجد وثيقة تحمل تاريخ العشر الأول من جمادى الأولى 964 = 12 مارس 1557ا تتضمن مطالب السلطان محمد الشيخ من أجل الموافقة على إبرام الاتفاقية...

إن العاهل المغربي يلتزم بأداء أُجور الجند ابتداء من يوم نزولهم بالتراب المغربي على أن لايتعدى ذلك ثلاثة مثاقيل شهرياً... كما يلتزم بأداء نفقات إصلاح السلاح التالف... وستترك الموانئ المسترجعة للمملكة المغربية... ويحتفظ بابن الكونت رهينة لدى ملك المغرب، وسيبرم هذا الاتفاق مع قابطان وهران الذي ستكون له صفة قائدٍ عامٍّ للحملة...[34]

لقد كانت هذه الأصداء تصل إلى السلطان سليمان القانوني، ولكنه عوض أن يصحح الأخطاء التي أوقعه فيها أولئك القواد الذين يعتمدهم في الجزائر ساعد على إرسال أربعة آلاف مقاتل لمساندة والي الجزائر على احتلال مملكة المغرب،

---

31) توفي المدني : الجزائر وحرب الثلاثمائة سنة ص 274.

32) sources inédites, l. S. T. II. p. 316 Espagne.

33) sources inédites, l. S. T. II. p. 345 Espagne.

34) sources inédites, l. S. T. II. p. 388.

وهكذا فحسب بلاغ صادر من سبتة بتاريخ 3 يونيه 1557 = 6 شعبان 964 فإن أمير البحر درغوت في طريقه من القسطنطينية مع 80 بارجة (Galére) وسيصل عدد بوارج الأسطول إذا أضفنا إلى ذلك البوارج التي توجد مسبقا بالجزائر وبعض البوارج الخاصة، إلى 150 بارجة ! وسيصحب درغوت ابن خير الدين بارب روس الذي سيجعله والياً على الجزائر قبل أن يتوجه إلى المضيق حيث يقصد بأسطوله إلى سلا لاحتلالها وبناء التحصينات لقضاء فصل الشتاء، ولقد قامت ثمان بوارج مسبقا كانت بالبوغاز بتفحص موانئ المغرب وبخاصة سلا، كما تفحصت بصفة خاصة ميناء بادس القريب من فاس. وقد تم إعداد ثمانين ألف قنطار من المؤنة... لكن الشريف على بينة من كل ما يجري، وهو يعد أكبر عدد من المجاهدين للدفاع عن نفسه، ولكنه إذا ما تأكد قدوم الأتراك مع هذا العدد الضخم فمن المحتمل - يقول بلاغ حاكم سبتة - أن السلطان سيتراجع...[35]

وبينما كان الجيش التركي ينتظر الأمر بالتقدم إذا بديوان السلطان سليمان يوحي إليه بنفس الهاجس الأسود الذي كان نفذه الخليفة هارون الرشيد منذ قرون، عندما خطط لاغتيال الإمام ادريس ! ولم يكن هناك فرق بين الخطتين سوى أن هارون اكتفى بالتصفية الجسدية لإدريس، بينما ديوان سليمان طلب أن يحمل إليه رأس محمد الشيخ حتى اسطامبول !!

وهكذا فعوض المغامرة بإرسال كل تلك القطع الذي تتعرض للخطر في البوغاز سيما واسبانيا بالمرصاد لتركيا حليفة فرنسا... عوض ذلك أوعزوا لإثني عشر من أخطر فتّاكِ الترك الأشداء ليدخلوا المغرب في خدمة محمد الشيخ. وهكذا اقتحموا عليه - بمساعدة طائفة من المرتزقة الأتراك الذين دخلوا في خدمة الشيخ منذ استرجاعه لمدينة فاس واغتالوه يوم 27 ذي الحجة عام 964 = 23 اكتوبر 1557.

ولعل من المفيد أن نسوق هنا المقطع الذي أورده الزّياني في مخطوطته النادرة (الترجمان المعرب) حول هذه «التصرفات» نظراً لكونه من أقرب النصوص التاريخية إلى هذه الفترة، قال :

---

35) sources inédites, I. S. T. II. p. 420.

«...ولما بلغ السلطان العثماني صاحب القسطنطينية أن دولة بين مرين انقرضت من المغرب وملكه محمد الشيخ... وجّه له رسولاًمن أعيان دولته يهنئه بالملك ويوصيه بالعدل والجهاد ويسير سيرة من كان قبله من ملوك بني مرين لأنهم كانوا يدعون لهم على المنابر ويكتبون اسمهم على السكة فلما وصل الرسول لتارودانت واستأذنوا عليه أمر بنزوله عند قائد الترك صالح أغا[36] فأنزله وبالغ في إكرامه... ولما استراح اجتمع بالسلطان ودفع له الكتاب، ولما فتح الشيخ الكتاب وجده مكتوباً بالتركي، فبحث عن الأتراك الذين عنده فوجد من يقرأه له بالعربي، ولما قرأه ووجد طلب ذكره على المنابر وعلى السكة قام وقعد،وأبرق وأرعد وأزعج الرسول لوقته... فلما طلب الجواب قال له : «لا أجيب سلطان القواريب إلا إذا كنت بمصر ومنها أكتب جوابه، فتوجه الرسول إلى أن بلغ الجزائر وركب البحر للاصطنبول، ولما اجتمع بالوزير أخبره بالواقع، فدخل على السلطان وأخبره بجواب محمد الشيخ ! فأمر السلطان سليمان وزيره بتجهيز (العمارة) : (الأسطول) للمغرب... فجمع الوزير أهل الدولة واستشارهم في توجيه (العمارة) للمغرب فاستصعبوا ذلك لما فيه من الخطر للعمارة وقلة المنفعة إذ مراسي المغرب لا تحمل المراكب العظيمة ولا في المغرب كل من يقوم بأمر العساكر العثمانية والقراصين الخاقانية مع قلة الرؤساء الذين يعرفون السّفر في بحر المغرب لأنهم لم يقطعوا بوغاز سبتة وطنجة قط، فاتفق رأى أهل الدولة على أن يوجهوا للمغرب اثني عشر رجلا من فتّاك الترك ويكتبوا معهم لصالح آغا كبير الأتراك الذين هم مع الشيخ، ليستعمل الحيلة إلى أن يمكرو به، ويأتوا برأسه... وقد قرّب لهم أمرَ ذلك، الرسولُ الذي كان قد اجتمع بمحمد الشيخ في المغرب وقال لهم : لولا أني عرفني القوم وسلطانهم لقمت بهذا ! فاعلم الوزير السلطان بصعوبة سفر (العمارة) للمغرب، قائلا : وهذا الرجل الذي أساء الأدب معك يأتي رأسه حتى يكون بين يديك ! فطابت نفسه وأمرهم بالعزم فيما اتفق رأيهم عليهم فأحضروا اثني عشر رجلاً من فتّاك الأتراك وأعطوهم ألف دينار للواحد يتركونه لأولادهم، وقالوا لهم : هذه ديّتكم إن متم، وإن قضيتم الغرض

36) لا ننسى أن صالح أغا هذا كان قد جعله محمد الشيخ على رأس المحلّة التي التجأت إلى الشيخ بعد استرجاعه مدينة فاس والقضاء على أبي حسون...

حصلتم على أسنى المراتب وبلغتم أعلى المناصب. وحضر الرسول وقرّب عليهم ذلك؛وقال لهم : «هذا سلطان المغرب الذي تسمعون به هو أصغر من أن تهتموا بأمره، وصالح آغا إذا بلغتم إليه يكفيكم أمره ! فقوموا في حفظ الله. فعيّنوا لهم مركباً وزاداً وركبوا البحر للجزائر، ومنها توجهوا في البر لفاس في زي تجار ثم لمراكش ثم لرُدَانة، ولما اجتمعوا بصالح آغا دفعوا له كتاب الوزير، فقرأه ودخل على السلطان فاستأذنه عليهم، وقال له : يا مولاي بسعادتك ويمنك، جاء بعض إخواننا من رؤساء العسكر الجزائري ومن أهل الحل والعقد لمّا بلغهم ما صرنا إليه من العز والجاه في دولتك، رغبوا في ولايتك عليهم وأن يمكنوك من بلادهم ويسلموها لك دون قتال، فأوصيتُهم أن لا يذكروا أمراً لأحد ولا يسمعه منهم بشر إلى أن يتهيأ لمولانا السفر فإنه متوجه إلى فاس ومنها إن شاء الله للجزائر ! فأمر بدخولهم عليه، فلبسوا أفخر ثيابهم وتقلدوا بسلاحهم، ودخلوا عليه فقبلوا يده وجلسوا أمامه وكان يترجم بينهم وبينه الكاهية صالح. فقال : ما سبب قدومكم ؟ فقالوا : بلغنا ما صار إليه إخواننا من العز والجاه في دولتك، فأردنا أن نتشرف بخدمتك ونكون من خدام أهل بيت النبوة وله من بعده، ففرح بهم وسر بمقدمهم ووعدهم بكل خير، وأمر لهم بمال وكسوة وأنزلهم عند الكاهية صالح، وأقاموا يدخلون عليه مع الكاهية كل صباح لتقبيل يده. ثم أعطاهم خيلاً مسوّمةً بمراكبها وصار صالح كلما وجّه خيلاً للسوس أو لدرعة أو سجلماسة يوجه واحداً معهم من الأتراك ليعرفهم أشياخ القبائل ويعرفوا الطريق، وهو يتحيّن انتهاز الفرصة ويدبّر الحيلة ويدرب الأتراك على معرفة الطريق إلى أن عرفهم الأشياخ وعرفوا الطريق لأنه كان يوصي بهم الأشياخ ويوجههم في مهمات الدولة إلى أن بلغوا النهاية، فلما عزموا على الفتك بالشيخ الذي كان سنه يتجاوز السبعين أسرجوا خيلهم واستعدوا للسفر ودخلوا لتقبيل يده على عادته فاعتورته سيوفهم وقطعوا رأسه(37) وجعلوه في مخلاة ووضعوا فوقه نخالة وملحا وحملوه على بغلة وتوجهوا على السوس لدرعة ومنها لسجلماسة ومنها لتلمسان ومنها للجزائر فركبوا البحر إلى الاسطنبول وأبلغوا الرأس

37) قتل مع السلطان سائر وزرائه، ومن أكَادير أخذوا طريقهم على مركب كان ينتظر..!

A. Cour : Etablissement des Chérifs au Maroc p. 129

للوزير فحمله إلى باب السلطان وأخبره به فأمره أن يجعله في شبكة نحاس ويعلقه بباب القلعة... وأما صالح وأتراكه فإنهم أغلقوا باب المدينة ورتبوا الحراس على الأسوار ودخلوا بيت المال فأخذوا ما فيه واقتسموه وفرقوا خزين البارود والرصاص واشتملوا على المدينة، وكل من تكلم بما فيه مخالفتهم قتلوه !!

وشاع خبر قتل السلطان ولما بلغ خبره لولده عبد الله الخليفة بفاس بايعه أهلها وقبائلها وتجهز للترك الذين قتلوا والده إلى أن نزل على تارودانت وحاصرهم... ولم يلبثوا أن وجدوا المحلة أمامهم والعساكر خلفهم... إلى أن ماتوا عن آخرهم...» !!

ويضيف الزّياني إلى هذا أنه وقف في (ممتع الأسماع) على أن الترك قتلوا مع الشيخ مفتي مراكش أبا الحسن علي بن أبي بكر السكتاني والكاتب أبا عمران الوجاقي !!!

☆ ☆ ☆

وهكذا فلأول مرة في التاريخ سمعنا عن جثة تدفن في مراكش وعن رأس يحمل في مخلاة ويجعل داخل شبكة من نحاس ويعلق فوق قلعة باسطانبول ! لقد كانت الحادثة طليعة شؤم في العلاقات المغربية التركية...[38]

وهكذا يظهر مرة أخرى أن «الخلفية الدينية» لم تكن وحدها دافع الحركات العثمانية في الشمال الإفريقي، ولكنها الرغبة في السطو والتوسع وإلا بماذا نفسر كل تلك الاستعدادات لمداهمة مملكة فاس في حين كانت فيه وهران تعاني من الاحتلال الإسباني ؟[39]

مهما يكن، فإن نتيجة الاغتيال لم تكن على ما كان يتوقع سليمان، فقد بقي الأمير عبد الله بن محمد الشيخ يتصور جثة والده في مراكش ورأسه في الآستانة وهو يتولّى زمام الأمر..!

☆ ☆ ☆

---

38) اليفرَني : نزهة الحادي ص 42 ـ 44. الاستقصا 5، ص : 32 ـ 34.

39) د. التميمي : الخلفية الدينية للصراع الإسباني ـ العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر ـ المجلة التاريخية المغربية، تونس، يناير 1978.

ويذكر كتاب تاريخ الدولة السعدية لمؤرخ مجهول أن الأمير مولاي عبد الملك الذي استقر مع أمه الرحمانية في ديار اسطانبول عند السلطان مراد سأل ذات يوم السلطان أن يزوده بكتيبةٍ من الجنود الأتراك لمنازعة أخيه فرد عليه قائلا : إني لا أعينك على فتنة المسلمين، وأخوك قد تولى وبايعه المسلمون من أهل المغرب وهو أكبر منك، ولكن سأرسل إليه.

وفي خلال هذه المدة يقول التأليف المذكور ـ جاء رسول من اسطانبول من عند السلطان مراد إلى مولاي عبد الله ليستخبر أهل البلاد : هل هم راضون به أم لا ؟ وهل هو عادل في الرعية أم هو جائر ؟ ومنذ دخل (الرسول) على باب تلمسان وهو يستخبر البلاد مع الرعية إلى أن بلغ مراكش، فلما استقر بحضرتها تلقاه جيش السلطان وأتوا به إلى أن سلم على السلطان وقدّم إليه «البراوات» التي أتى بها، وأطلع عليها، فأمر بإنزاله وإقامته وإكرامه إلى أن مرت عليه ثمانية أيام فأرسل إليه السلطان وتلقاه بقبول جميل وإكرام جليل، ودفع له مالاً موفوراً وذخائرَ من الذهب والياقوت ودفع له «علامات» وسيوفاً مفضضة ومذهبة وأعطاه ذخائر كثيرة وأرسل معه كاتبه الأديب الفصيح أبا محمد السرغيني، وجرد له ما في الهدية، وأنعم له بذلك كلّ سنة، وأرسل مع كاتبه المذكور خمسة آلاف إلى إخوانه، وقال لهم : لكم ذلك عليّ في كل وقتٍ وفصلٍ من الفصول والمواسم، تأتيكم إلى تلمسان أو الجزائر مع التجار ولا تلحقكم الفاقة أبداً وأنا بالحياة..!.

ثم إن الكاتب المذكور أوصل الهدية إلى السلطان مراد مع الرسول وجلس بين يديه وأخذ معه في الكلام والاتفاق، وقبل الكاتب ما اشترطه السلطان مراد من دفع المال كل سنة...»[40]

وقد شاهدت المنطقة الشرقية صداماً عنيفاً بين القوات المغربية والتركية، دارت فيها الدائرة على القوات العثمانية، حيث نجد العاهل الجديد يبعث إلى قواده بالمملكة برسائل البشرى من معسكره بوادي ورغة بتاريخ 17 جمادى الثانية 965 = 6 أبريل 1558. وقد كان مما ذكره إلى قائده بأزمور عبد الله

40) تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية لمؤلف مجهول الاسم، اعتنى بنشره جورج كولان، الرباط 1353 ـ 1354 ص 35/35.

أحمد وغيره من القواد، أن المواجهة تمت قرب وادي اللبن، حيث اعتصم الأتراك بالجبال المجاورة... لكن المغاربة لاحقوهم في الغد وتمكنوا من قتل ثلاثة ضباط سامين، وتابع المغاربة مطاردتهم للجيش التركي يوم رابع وخامس أبريل حيث أتوا على عددٍ آخر منهم واستولوا على خيولهم ودوابهم وقد استكمل الجيش المغربي انتصاره ضد هذه الحملة يوم سادس أبريل عندما فر الباشا مع ألفين من جنده...(41)

وبالرغم من أن أيّ معاهدة لم تعقد إلى الآن مع اسبانيا ضد الأتراك، فقد شاهدنا أن السلطان مولاي عبد الله يظهر - اتقاء للخطر التركي - استعداده لإرضاء بعض المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية. وهكذا نجده من ناحية يفاوض سفير ملك نافاره أنطوان دوبربون (Antoine de Bourbon) سنة 1559 = 966 - 967 في شأن «القصر الصغير»(42) على ما قلناه في العلاقات المغربية الفرنسية، ونجده من ناحية ثانية يرفع حصاره عام 1562 = 969 - 970 عن مدينة الجديدة المحتلّة من طرف البرتغال حتى يامن حماية ظهره المهدد بمضايقة الباب العالي !(43) ونجده من ناحية ثالثة يطلق يد الإسبان في جزيرة بادس التي كانت احتلت من طرف العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون، والتي أصبحت منذ النزول التركي بها مصدر خطر بالنسبة للسعديين...(44)

ترى هل ليس من واجبنا أن نتساءل، ونحن نعيش هذه الصفقات المحزنة، هل ما إذا كان العثمانيون أو على الأقل الذين يمثلونهم بإفريقيا قد أخطأوا الحساب وانحرفوا عن جادة الصواب... صحيح أنهم ملزمون بمضايقة اسبانيا بمقتضى اتفاقهم مع فرنسا، ولكن ماذا كانوا يريدون من هذا المغرب الذي نراه يرغم إرغاماً على الانصراف عن ثغوره أو التسليم فيها خوفاً من وقوع بلاده برمّتها بين أيدي أقوام كان يعلق عليهم أكبر الآمال في مساعدته !

---

41) Sources inédites, s. l. T. 2, Espagne. p : 445.

42) Sources inédites, s. l. T. 1, France. p : 174.

43) Sources inédites, s. l. T. 2, France. p : 231.

44) Sources inédites, S. l. T. l. France, P. 264 – Anglaterre p : 55.

تأليف على شرف عبد الله الغالب بالله..!!

يبدو أن العثمانيين - وقد شعروا بفداحة المؤامرة التي أودت بحياة محمد المهدي الشيخ والتي - مع ذلك - لم تحقق أهدافها قرروا أن يعتذروا للعاهل المغربي الجديد الذي لم يكن غير ابن الشهيد وكان يحمل اسم عبد الله، ولقبَ الغالب بالله....

وأعتقد أن في أبرز ما يعبر عن ذلك ما عهدوا به - فيما يبدو - إلى قطب الدين النهروالي (تـ 990 = 1582) الذي نال عند الأتراك جاهاً عظيماً تجلى في الإغداق عليه بوافر العطاء حتى لكان راتبه يماثل راتب شيخ الحرم المكي الذي كانت رتبته عندهم تأتي بعد رتبة شريف مكة !.

ويتعلق الأمر بجمع النهروالي لديوانٍ كبير على شرف العاهل المغربي الجديد : عبد الله الغالب بالله، وقد حمل المخطوط اسم «التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة» على نحو ما فعله عندما أهدى كتابه : «البرق اليماني» إلى السلطان سليم الثاني....

وقد جمع في ذلك الديوان من الأبيات المفردة ما يتمثل به في المحاضر ويستشهد به في المحافل كلٌ مجالس ومحاضر....

وهو عبارة عن طائفة من عيون الشعر مرتبة على حروف المعجم، الأبيات المبدوءة بالألف ثم المبدوءة بالتاء وهكذا إلى الياء.

«وأهديته من حرم الله تعالى، ومحل فيْضه الأقدس الذي عم عباده وتوالي، إلى سدة سلطان الغرب الأقصى، صاحب الكمالات التي لاتحصى ولا تستقصى، ثمرة فؤاد الرسول، المنتخب من أكرم سلالة وفلذة أكباد البتول.. أمير المومنين الغالب بأمر الله، مولاي الشريف عبد الله أيد الله نصرته وأدام أيامه...

وكان من جملة الأبيات التي استشهد بها مما يبتدئ بالألف :

إن الرجال صناديق مقفلة وما مفاتيحها إلا التجاريب !!

وكان من جملة الأبيات التي استشهد بها مما يبتدئ بالياء :

يزهدني في كل خير صنعته مع الناس ما جرّبتُ من قلة الشكر !![1]

---

1) توجد نسختان مخطوطتان بدار الكتب المصرية الأولى رقم 55 والثانية رقم 52 وهذه ناقصة. وقد حصلت على صورتهما معا من مركز البحوث لجامعة الإمام محمد بن سعود، بمساعدة الزميل د. محمد عبد الرحمن الربيع. د، التازي : ابن ماجد والبرتغال، وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عُمان، 1406 هـ 1986م، مجلة البحث العلمي، العدد 36 يناير 1987.

وقد كان من المنتظر أن يعيد السلطان سليم الثاني، النظر في سياسة سليمان القانوني الذي أنهكه النّقْرس، لكن الذي حصل أن الأتراك دأبوا على إيواء المعارضين لحكم السلطان أبي محمد عبد الله وظلوا يحشرون بأنوفهم في الشؤون الداخلية للبلاد. وهكذا نجد السلطان سليم يدشن أيام حكمه بإرسال «مرسوم» إلى عبد الله[45] بتاريخ أوائل صفر 975 = 10 شتنبر 1567 حول أحقية أخيه عبد الملك بالحكم، وهذا نص المرسوم العثماني.[46]

هذا مرسومنا الشريف السلطاني :

((هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذاً مطاعاً في المشارق والمغارب أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والصلحاء (كذا) وجميع الأمراء والكبراء وأهالي الإسلام بإقليم فاس وديار مراكش وبلاد سوس وسائر توابع تلك الأرض المباركة وفّقهم الله تعالى،نعلمهم أنه لا يخفى أن والي تلك الولاية وحاكمها سابقاً الشريف محمد انتقل بالوفاة وصارت تلك الولاية في يد ولده عبد الله. لكن أهالي تلك الديار الجليلة لم يكونوا لفعله من الشاكرين ولسره من الذاكرين على أن من أولاد الشريف محمد المزبور افتخار الأمراء الكرام مختار الكبراء الفخام الأميري الكبيري الأكرمي الأفخمي الهمامي الماجدي الأصيلي الحسني السني المحفوف بصنوف عواطف الملك المهيب (؟) الشريف عبد الملك أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده وكمال دينه وديانته وحسن سره وسيرته ولكونه أولى لضبط تلك الولاية من عبد الله المزبور وأخرى (؟) وأهالي تلك البلدة يطلبونه للولاء عليهم يريدونه وتنصيبه في تلك الولاية يحصل لأهليها الأمن والأمان ومزيد الرفاهية..(؟) الاطمئنان فلا جرم قبل تاريخ هذا المنشور العالي والدي المرحوم المغفور له سلطان الغزاة والمجاهدين سلطان سليمان خان أسكنه الله في غرف الجنان نصب المشار إليه أميراً لتلك الولاية وأنعم مرسوماً شريفاً فأرسل المشار إليه ذلك المرسوم إلى

---

45) إلى عبد الله هذا تنسب العملة العبدلاّوية... D, Eustache : Corpus des Monnaiss... RABAT, 1984 p.609

46) عبد الملك وأخوه أحمد المنصور ابنان لسحابة الرحمانية، بينما عبد الله الشيخ من زوجة محمد الشيخ الأولى... وقد كان التجأ إلى تلمسان ثم إلى الجزائر..

سدتنا العلية يطلب تجديده فأعطيناه من سدتنا السنية منشورنا السنى الخاقاني. فمن مرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف واجب الاتباع أن تكونوا من فخر الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتحاد لرأيه السديد مطيعين ولفكره الصايب منقادين، لسانه لسانكم، ووجهته تقلبكم وقالتكم (كذا) لدخوله تلك الديار له معين ومظاهرين فيما يتعلق بالدولة والدين وإجراء شرع سيد المرسلين صلوات الله عليه وسلامه. على أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام... من الأيام شرقاً وغرباً بعداً وقرباً في أيام دولتنا الفائقة على أحسن حال وأجمال مآل، أمنين مطمئنين فرحين ومستريحين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والله تعالى هو الموفق المعين بمنه ويمنه والعلامة الشريف... بمضمونه تحريراً في أوائل صفر سنة خمس وسبعين وتسعمائة)).(47)

ولما لم يتوصل السلطان سليم بجواب من السلطان مولاي عبد الله، فقد جدد الاتصال به بتاريخ أواسط جمادى الأولى 976 = 1 - 10 اكتوبر 1568 يطلب إليه «أن يتنازل عن نصيب من ممالكه لعمه عبد الملك» وفي هذه المرة كانت «الرسالة» عوضاً عن المرسوم» وهذا نصها :(47)

((الحمد لله الذي بسط أمنه لعباده ونظر إليهم بعين رأفته ووداده، وجعل منهم الفائزين الذين جاهدوا في الله حق جهاده والذين قلوبهم يشد بعضهم بعضا بجوده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأولاده، وبعد فهذا كتابنا الشريف السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني أصدرناه إلى الجانب العالي الأميري الكبيري الأفخمي الأمجدي الأرشدي الهمامي الماجدي الأكملي الأعدلي النصري (كذا) العوني الغوثي الواحدي العضدي الأصيلي العريضي الحسبي النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطائف الملك الحاكم يومئذ بولايت (كذا) مراكشوش (كذا) السيد عبد الله أدام الله سعده وأنجح قصده يعرف مضمونه الميمون انه ورد إلى أبوابنا العالية خلق الأمراء الكرام ذخر الكبراء الفخام ذو القدر والمجد والاحترام المختص بمزيد عناية الملك المالك، أخوكم عبد الملك أدام الله تعالى

---

47) عبد الجليل التميمي : الخلفية الدينية للصراع الإسباني - العثماني، المجلة التاريخية المغربية عدد 10-11 يناير 1978...

علوه مظهر الإخلاص والعبودية والانتماء (كذا) وملجأ (كذا) بكنف حمايتنا ومختصا لأبوابنا العلية السنية، ويكون هذا الإخلاص مؤديا لإصلاح ما بينكم وسببا يزيل الشقاق من بينكم ومستلزما لانتظام أحوال جمهور الأنام ومتضمنا رفاهية الخواص والعوام فعين له لانتعاشه بعض ما في يدكم من الممالك التي تحت حوزة حكومتكم وانتقل إليكم من ابائكم الكرام حتى أن لا يكون بعد اليوم في ما بينكم من القتال والجدال والليام ويكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله في تلك الأماكن في غاية الأمن والرفاهية والاطمئنان، بحيث يظهر في هذا الشأن مرضات (كذا) الله تعالى الاتباع وأمر الله تعالى حيث قال الله تبارك وتعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، خصوصا أنكم مع المشار إليه إخوان وبحمد الله تعالى أنكم من أهل الإسلام وغير ذلك من السادات العظام ولا ينبغي بينكم من البغي والعدوان فلا جرم لا يخفى كذلك على علمكم أنكم من قديم الأيام وسوابق الأعوام ممن أظهر الإخلاص والمودة نحو عتبتنا العلية الخاقانية ومطيعاً منقاداً لسدتنا السنية السلطانية بقلبك وبقالبك وخلوص طويتك وفرط محبتك إلى جنابنا العالي السلطاني فلأجل إخلاصك ينبغي (أن) تعين لأخوتك (كذا) المشار إليه شيئاً من الممالك الذي انتقل إليكم من ابايكم الكرام وتحت تصرفكم في هذا الآن (كذا) اليقوت (كذا) المشار إليه وترعى حق الأخوة فيه ويزيل ما بينكم من الشقاق والعناد، وتكونوا مجدين في حفظ البلاد وصون العباد ويكون الرعايا والبرايا آمنين في أوطانهم منشرحين بحيث لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله تعالى. جرى ذلك في أواسط جمادى الأولى 976)).[48]

ولقد ظل السلطان المولى عبد الله غير مكترث بتدخلات السلطان سليم ضارباً عرض الحائط بخطاباته، وقد كان الملاحظون يتوقعون إنزال العقاب المبكر بهذا العاهل الذي لم يركع أمام الباب العالي، بيد أن انشغال البحرية العثمانية بالكارثة العظمى التي ضربت الأسطول التركي عام 1571 = 978 في معركة ليبانت (Lépante) كانت وراء ذلك السكوت..!

48) مهمة دفتري رقم 7/2 ص 907 ـ 908. حكم ورقة 2484 المجلة التاريخية المغربية عدد 1978.

وهكذا لم يتحرك سليم إلا بعد سنتين من الحادث المهول عندما تناهى إلى سمعه ما قدّمه العاهل المغربي من مساعدات ثمينة للثورات التي شنها الموريسكوس في جبال البوشرات بغرناطة، تلك المساعدات التي تحدثت عنها رسالة من مدريد بتاريخ 6 يناير 1569 مرفوعة من فوركفو (Fourquevaux) إلى كاثرين دوميدسيس (Cathrine de Médices).[49]

ويظهر أن السلطان سليم، قد اقتنع بأن التقارب المغربي الإسباني لن ينال من مستوى الصلات القوية التي تجمع المغاربة كمسلمين بالأندلسيين المضطهدين، وبهذا نفسر إرسال «أمر» منه إلى «الحاكم بولاية فاس» ينوه فيه بمعاضدة المغرب لأهالي ولاية أندلس المحمية. وكان ذلك بتاريخ جمادى الأولى 981 = شتنبر 1573 في نفس السنة التي توفي فيها العاهل المغربي وهذا نصها :[50]

((هذا أمرنا الشريف العالي السلطاني لا زال مطاعا له ونافذاً بالعون الرباني قد أرسلناه إلى جناب الأميري الكبيري الأعدلي... الألطاف مبارك أرسلناه إلى الجناب العالي الأميري الكبيري الأكرمي الأمجدي الأرشدي الأكملي الأعدلي النصري الزخري (كذا) العوني الغوثي الوتدي (كذا) العضدي الهمامي الماجدي الأصلي العربي الحسبي النسبي، نسل السلالة الهاشمية وفرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية للأمراء الأشراف المطاع له الحاكم العادل بولاية فاس المحمية بحماية ملك الناس ينهى لعلمه أنه قد ورد كتابه الذي حلى بالدر النظيم إلى سدتنا السنية السلطانية وعتبتنا العلية الخاقانية ففضضنا(ه) وشممنا مخايل النصر من سطوره ونزهنا النواظر في رياض منظومه ومنثوره وألفيناه متضمنا ومحتويا على ما من الله العليم ويسره للمعز الكريم من نصر المومنين وقهر الأعداء المشركين وإعلاء كلمة الدين المتين وإجراء أحكام الشرع المبين وبذل المقدور في معاضدة أهالي ولاية أندلس المحمية حماها الله عن العاهات والبلية حيث هبت نسمات النصر على جيوش الإسلام فقيل ياخير الله اركبي وبايد (كذا) النصر اكتبي وقام الحرب على ساق واضحى كل الأعداء إلى حتفه

---

49) دوكاستري / فرنسا س 1.م. 1 ص : 286.

50) مهمة دفتري رقم 22 ص : 332 حكم رقم 656، المجلة التاريخية المغربية، يناير 1978.

يعز الحرف الشريف العالي السلطاني لا زال مطاعا عالم وفاقا بالعون الرباني تذ رسله محبوب
للامير الكبير [illegible] بامداد وامداد وروالطاف مباركة الرسله [illegible]
الكبير الاكرم الامجد الاحسن الارشد الاكمل الاعدل المفخر الافخر [illegible]
المعظم الهمام الماجد الاصل [illegible] الحسيب النسيب المهاب [illegible]
السعي الركن السعيد [illegible] المعالي [illegible] الحاكم العادل [illegible]
فاس المحمية بحماية ملك [illegible] [illegible] كتابه الذي حلي بالدر النظيم الي سدتنا السنية
السلطانية وعتبتنا العلية [illegible] من سطوره ونزهنا النواظر في رياض
منظومه ومنثوره والفيناه متضمنا ومحتويا على أمن الله [illegible] من نصر الموحدين وقهر الاعداء
المشركين واعلاء كلمة الدين المتين واجراء احكام الشرع المبين وبذل المقدور في محافظة اهالي
الولاية [illegible] الطاعات والبلية حيث [illegible] المغرب على جيوش الاسلام
[illegible] الكفر [illegible] وقام الحرب على ساق [illegible] كل الاعداء [illegible]
[illegible] السيوف الاسلامية [illegible] الرؤوس والاسنة انزعت
[illegible] وغير ذلك من [illegible]
[illegible] العلية فقد فهمنا جميع ما فيه واطلعنا على كل الاسلام حيث
[illegible] من بلاد الكفر [illegible] على حرب المشركين الذين [illegible]
[illegible] الذين [illegible] من اهل الكتاب [illegible] فالمامول منكم ان تكونوا
[illegible] مرصوص البناء [illegible] العدل والانصاف [illegible] اساس
[illegible] وبذل جهدكم في اعلاء [illegible] الشرع [illegible] الدين المستقيم [illegible]
[illegible] العواطف [illegible] النفوس
[illegible] حيث [illegible] في [illegible]
[illegible] سلطنتنا [illegible] ودولتنا [illegible]
[illegible]
[illegible] على [illegible]

خطاب السلطان سليم لحاكم ولاية فاس...

يساق وهجرت السيوف الإسلامية لاعتماد (كذا) وأقسمت أنها لا تقر إلا في الرؤس (كذا) والأسنة أشرعت وآلت...

انها الا.... تروي ظمأها (كذا) إلا من دماء النفوس وغير ذلك من غرض الإخلاص لسدتنا السنية وإنهاء الاختصاص لعتبتنا العلية فقد فهمنا جميع ما فيه وأطلعنا على كل الإسلام حيث سلكت ملكت وأين جنحت من بلاد الكفر أسرت وفتحت وظفرهم على حرب المشركين الذين ذعير (كذا) من هيبتنا دانيهم وقاصيهم، أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم... فالمأمول منكم أن تكون المودة (كذا) بيننا مرصوص البنيان وبنيان المحبة متينا (؟) الأركان يرفع مباني العدل والإنصاف ويقلع أساس الجور والاعتساف، ويبذل جهدكم في إعلاء الشرع القويم، ورفع ألوية الدين المستقيم، وفتح أبواب البر على البرايا ونصيب أعلام الرعاية واصطياد القلوب باشتباك العواطف وانقياد النفوس بأزمة العوارف (؟) حيث أنام الأنام (كذا) حسن حمايتكم وأقيم الأقوام في ظل رعايتكم فوصلوا إلى ما نالوا في أيام دولتنا ونالوا ما أملوا من حضرتنا فيدعون لصحايف سلطتنا ودوام دولتنا وثبات... دائما أبدا سرمدا بصفاء الطوية وخلوص البال ما دارت الأيام والليالي والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبيّ بعده.

وقد كانت وفاة عبد الله الغالب إثر أزمة صدرية يوم 28 رمضان 981 = = 21 = يناير 1574 فرصةً لتحريك موضوع وراثة العرش من طرف الأمير عبد الملك الذي نفذ صبره وبخاصة بعد أن سمع بمبايعة ابن أخيه محمد...

وهكذا وجدناه يتوسل هذه المرة بالملك شارل التاسع ملك فرنسا لدى السلطان مراد على ما تفيده رسالة منه بتاريخ 3 صفر 982 = 25 مايه 1574 محررة بجزائر الغرب، تذكر أنه أي المولى عبد الملك يخبر شارل بأنه سيذهب بنفسه للمشاركة في العمليات الحربية التي يشنها قليج علي باشا ضد الإسبان في تونس، وأنه من هناك سيتوجه إلى اسطانبول[51] على ما ذكرناه في العلاقات المغربية الفرنسية، ومعلوم أن شارل التاسع جدد سائر الاتفاقيات التي كانت قد

(51 Sources inédites, s. l. T. 3, p. 753 – 755. Caillé : p. 10.

أُبرمت في العهود السابقة بين مملكته وبين الباب العالي بل وحصل على امتيازات أُخرى كانت فرنسا فيها مقدمة على سائر الدول الأُخرى.(52)

وتذكر المصادر المغربية وبخاصة الإفراني في النزهة أن الأمير المولى عبد الملك اتجه صحبة شقيقه الأمير مولاي أحمد إلى اسطانبول عبر الجزائر صحبة والدتهما الأميرة سحابة الرحمانية(53) وطلب إلى السلطان مراد الثالث أن يمده بالجيش لانتزاع الملك من ابن أخيه وأن السلطان لم يستجب في البداية لمطلب الأمير الذي لم يزل يلح عليه هو ووالدته سحابة إلى أن أجابهما إلى ذلك، على ما أسلفنا منذ قليل...

وإذا ما اعتمدنا على ما يوجد في كتاب النفحة المسكية للتمكَروتي فإن المولى عبد الملك كان بالعاصمة التركية عندما تقرر إرسال المدد لإجلاء الإسبان عن تونس، وهكذا رافق الجيشَ التركي الذي أحرز على النصر عام 982 = 1575 فكان المولى عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أُمه سحابة الرحمانية فأعطت للسلطان المذكور ما كتبه ابنها والتمست منه أن يعطيها في «بشارتها» أمر أهل الجزائر بالذهاب مع ابنها للغرب...

---

52) في عهد هذا الملك تمت المواجهة المسلحة بين العثمانيين وبين الإسبان في أعقاب استنجاد البندقية بهؤلاء حيث حلت الكارثة العظمى بالأُسطول العثماني يوم 17 جمادى الأُولى 979 = 7 اكتوبر 157 الأمر الذي حرك العثمانيين لضرب الإسبان في تونس على ما أشرنا إليه.
تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : 111 ـ 112 ـ 113.

53) هذا ما ينص عليه الإفراني في كتابه النزهة، ومعلوم أن سحابة هي أُمّ عبد الملك وشقيقه أحمد، وتذكر بعض المصادرّ المخطوطة أن الأميرة المقصودة هي لالة عودة (أو مسعودة) الوزكيتية وقد اشتهرت أيادي الأميرة لالّة عودة في المبرة والإحسان، وإليها ينسب مسجد باب دكالة بمراكش كما ينسب إليها بناء جسرين عظيمين على نهر أم الربيع، ومن الفولكلور المغربي ما يقص من أن أُم المنصور هذه كانت في شهر رمضان في حالة وحم فدخلت بستاناً من بساتينها فرأت خوخاً ورماناً فاشتهتهما ولم تلبث أن تناولت بعضهما وكان اليوم يصادف منتصف رمضان، وندمت على فعلها فقررت أن تشهر فعلتها على لسان الأطفال وتطلب بواسطتهم المغفرة واستمرت تحسن وتنشيء المشاريع الخيرية، وما يزال الصبيان ينشدون في رمضان : «عودة يا عودة ! أكلت رمضان، بالخوخ والرمان، اغفر لها يارحمن». الزياني : الروضة السليمانية (مخطوط) ص : 31 أ.ب. 32 نزهة الحادي ص : 62.

وقد ساعد انشغال فيليب الثاني بثورات الأراضي المنخفضة ضده وبالحروب الدينية القائمة بين الكاثوليك بزعامة فيليب والبروتستانت بزعامة عاهلة أنجلترا على التعجيل بمساعدة الأتراك للأمير المولى عبد الملك.

وهكذا زودوه بكل ما كان ينتظره من ذخائر وعتاد، وأصدر السلطان مراد (فرمانا) ظهيراً للدولاتي بالجزائر رمضان باشا وأصحبه برسائل أخرى لواليه على طرابلس وتونس.

وتذكر المصادر الأوروبية أن عبد الملك التزم بأداء تعويض للسلطان مراد الثالث قدره خمسمائة ألف دينار ذهبي، كما التزم بعقد حلف مع الأتراك على مهاجمة مصالح اسبانيا... والتخلي للأتراك المقيمين بالجزائر عن ميناء العرائش كقاعدة انطلاق لعملياتهم بالمحيط الأطلسي الأمر الذي تراجع عنه عبد الملك عندما جلس على العرش المغربي وأدرك ما في ذلك الالتزام من مخاطر...(54)

مهما يكن فقد سهل اقتحام فاس (983 = 1576) على المولى عبد الملك الذي دخلها مع شقيقه مولاي أحمد معززاً بالجيش العثماني حيث رأينا محمد المتوكل يخذل من طرف جيشه بل ويتآمر عليه من قبل القادة الأندلسيين الذين تنكروا إلى الأتراك، وعبثا كانت المعارك التي خاضها ضد عمه طوال سنتين كاملتين والتي انتهت بالتجائه إلى طنجة ليستنجد من هناك بملك البرتغال على استرجاع عرشه الأمر الذي أدى إلى وقعة وادي المخازن على ما نذكره في العلاقات المغربية البرتغالية.

وقد سجلنا رسالتين اثنتين من السلطان مراد الثالث يحملان معا بتاريخ 28 ربيع الأول 985 = 9 يونيه 1577 إلى المولى عبد الملك وفي هذين الرسالتين نرى السلطان مراد يمنّ على مولاي عبد المالك بما أسداه إليه ويطلب إليه أن يظل منتسباً إلى الأبواب العلية(55) وأن يبقى مع والي الجزائر الجديد حسن باشا،(56) حسن المعاملة والاتفاق، العاري عن سوء الشقاق.

---

54) ينبغي أن نجعل نصب أعيننا وجود أمراء سعديين في متناول إسبانيا وأن هذه مستعدة في كل وقت وحين للمساومة بهم !!

55) مهمة دفتري رقم 30 ص : 210 حكم ورقة 941. المجلة التاريخية المغربية، عدد يناير 1978 .

56) مهمة دفتري رقم 30 ص : 211 رقم 492. المجلة التاريخية المذكورة 1978.

وهذا نص الكتاب الأول :

((هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذا في المشارق والمغارب إلى الجناب الأمير الكبير الأمجدي الأرشدي الأكملي النضري الأعدلي (كذا) الذخري (كذا) العوني الغوثي الوتدي (كذا) العضدي الإمامي الهمامي الأصلي العريقي الحسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية سنة الملة المحمدية طراز العصابة العلوية سيد الأمراء الأشراف في العالمين نصير الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين المحصن بمزيد عناية الملك المبين الأمير عبد الملك الوالي يومئذ بولاية فاس أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده ينهي إلى جنابهم (كذا) الكريم انهم قد امتازوا بين الأقران والأشراف وسائر أمراء الأطراف والأكناف بالانتساب إلى جانبنا الشريف العالي السلطاني والاستناد إلى بابنا المنيف السامي الخاقاني وقد تيسر لكم الارتقاء إلى أعلى الدرجات والمراتب والاتصال إلى جميع المقاصد والمآرب وتحصل مرادكم من... ما بينكم وانقيادكم فالواجب عليكم وعلى من لديكم بمقابلة هذا لمن وأعلى (كذا) عليكم أن تكونوا في جادة الصداقة... وطريق الاستقامة ثابتين ودائمين وتعينوا الغزاة المؤمنين وكماة الموحدين وتستحضروا السفاين العديدة المسلحة وتعينوا للسفاين التي تمر من جانب أعتابنا العلية... وتتفقوا أحسن الاتفاق والاتحاد مع أمير الكرام حسن باشا دام إقباله الوالي يومئذ بولا(ية) جزائر الغرب وتدفعوا مضرة الأعداء وكيد الكفرة وسائر الأشقياء وتبذلوا غاية جدكم وتصرفوا نصر جهدكم في طريق الغزاة والجهاد وإصلاح أحوال الرعايا وسائر أهالي البلاد حتى تكونوا مستاهلين الألطاف العلية ومستوجبين لأصناف الأعطاف الجزيلة فإن الله تعالى لا يضيع أجر المجاهدين.

وهذا نص الخطاب الثاني :

((هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف الخاقاني لا زال نافذا بالعون الرباني ومطاعا له في القاصي والداني وأرسلنا (كذا) معربا في الحرب الوجيز إلى الجناب الأميري الهمامي الكبيري النصري الأمجدي الأكملي الأرشدي الأعدلي الأصلي الحسبي العريقي النسبي، نسل السلالة الهاشمية فرع

الشجرة الزكية النبوية نصير النزاة ظهير المجاهدين المحفوف بصنوف عواطف الملك المعين مولاي عبد الملك الحكم (كذا) يومئذ بولاية فاس ومرانقوش (كذا) دام تجنى من أغصان (كذا) وما (كذا) ثمرات نصرة الجيوش، ينهي ما فيه ويفصح ان الله تعالى تواتر... على البرايا (كذا) ونوالي لما أنعم وتفضل علينا بتقليد خلافته في الأرضين فخضعت لركابنا وانقادت رقاب أساطين السلاطين ووقفنا بسلوك مناهج الملك والكفاية والنهوض لصالح الخلق والولاية بسطنا سياط الأمن والآمان شكرا لنعمه المتوافرة ومننه المتضافرة وامتثلنا لنصران (كذا) الله يأمركم بالعد(ل) والإحسان بعنايته المتظاهرة وصرفنا عنان العناية إلى تمهيد قواعد السلطة بعدما تخلخل وبتشييد مباني الدولة اثر ما تزلزل حتى صار كل من البدعة والضلال والكفر والجدال منهدمة البنا ومقفرة الفنا (كذا) وفتحنا أبواب اللطف والأنعام وكشفنا قناع القهر والانتقام على وجوه الأحباب الكرام وعن جبين الأعداء اللبام فمن التجأ إليها بخلوص الولاء (كذا) فقد فاز بكل ما ارتجا (كذا) وصعد وارتقى على أعلى الدرجات ومن تجنب عنها وهرب هبط في أسفل الدركات، فإن كنتم على قدم الصداقة قائما وساق الاستقامة ثابتاً دائما في الانتماء والانتساب إلى أبوابنا العالية الأعتاب لَحصل لكم الارتقاء على الشأن ويكون أركان المودة بيننا مرصوص البنيان وبنيان المحبة سديد الأركان، فلما آل الحال إلى هذا المآل وجب عليكم وعلى كل من كان لديكم أن يجتهد في تشييد مباني الإخلاص ومعاقد الاختصاص ويعامل مع أمير الأ(مراء) الكرام حسن باشا دام الله إقباله وحسنت خصاله، الذي قلدناه ولاية الجزائر الغرب صانها الله وأهلها عن الاستيلاء الحرب، ومع سائر نواب سلطتنا القاهرة وخدام عتبتنا العلية... حسن المعاملة والاتفاق العاري عن سوء الشقاق فيما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين وأحكام أحكام الشرع المبين، وإذا أحضرنا من سدتنا السنية لدفع ضرر الأعداء عن تلك الديار أو للجهاد مع الكفار سفنا مملوءة بأبطال الرجال وفلكا مشحونا (كذا) بأدوات الضرب والنزال، فعليكم أن تعاونوا إياهم بالعساكر وآلات الحرب والذخائر وغيرها مما يتفرع (كذا) عليه التصرف والتأييد والاعتقاد حتى يكون (كذا) المملكتان كبير (كذا) وصغيرة (كذا) في جسد وساعد... في عضد (كذا) لفرط الاتحاد فينقلب كل منهم إلى أهله مسروراً وكان سعيكم مشكوراً و... والمسافرون يصدرون عنهما وإليهما

يترددون في حرز الأمن والسلامة ويدعون بالخير لصحايفنا الكريمة إلى يوم القيامة (كذا) وتجري إحضار الرسائل والمكاتبات في استقراض الخدمات والمهمات دائما أبدا سرمدا والحمد لله وحده والسلام على من (لا) نبي بعده تم.

☆ ☆ ☆

وقد جاءت (معركة وادي المخازن) التي خطط فيها البرتغال لاحتلال المغرب بمساعدة محمد المتوكل الذي استنجد به على ما أسلفنا... جاءت لتفتح صفحة جديدة ولكنها مؤقتة في باب العلاقات المغربية العثمانية، حيث شاهدنا إلى جانب القوات المغربية الهائلة عدداً من الجند النظامي الذي أوعز الصدر الأعظم محمد باشا صقللي إلى والي طرابلس بإنجاد سلطان المغرب الشرعي به أي بذلك الجند، على حدّ تعبير المصادر التركية.[57]

وكانت الموقعة الظافرة يوم الإثنين 30 جمادى الأولى 986 = 4 غشت 1578. وقد ذهب ضحيتها دون سباستيان ملك البرتغال ومحمد المتوكل[58] الذي استنجد به بعد أن كان السلطان مولاي عبد الملك قد أسلم الروح صبيحة يوم المعركة متأثرا بأخبار فرحة النصر العارمة !!

ولقد أمسى المولى أحمد المنصور شقيق العاهل الراحل سلطاناً على البلاد وهكذا حصل على بيعة الأمة بالرغم من معارضة القادة الأتراك الذين كانوا يرون في الأمير اسماعيل بن مولاي عبد الملك الموجود بالجزائر أهلاً للحكم دون عمه المنصور !

وإذ نقرأ في تاريخ الدولة العلية «أن الجيوش العثمانية عادت إلى اسطانبول تحمل معها ما أغدق به عليها من الهدايا، نجد الفشتالي في المناهل يتحدث عن إيفاد رسائل المنصور إلى القسطنطينية يخبر سلطان الروم والمشرق بما هيأ الله من نصر دينه وإعلاء كلمته والاستيلاء على أحزاب الشرك وطواغيث الكفر...

وقد حملت نفس البعثة رسالة إلى والي الجزائر حسن باشا الذي كان السلطان مراد أوصاه خيرا بالعاهل الراحل، وكانت البعثة مصحوبة بهدية للأمير

57) تاريخ الدولة العلية ص 13.

58) آل ابنه مولاي الشيخ إلى خدمة البلاط الإسباني. مجلة المناهل 13 ـ 14 دجنبر 1978 يناير 1979.

كان من الكتابات المعاصرة التي وصلتنا عن هذا الملك الجليل ما ألّفه خوان باوتيستا (J. Bawtista) الذي تعرَّف عن كثب على الأمير الذي طلب إليه أن يقوم بإعداد تاريخ «كرونيك» نشر - خارج المغرب - في بلنسية في الأشهر الأُولى من سنة 1577 **وتصدَّره** هذا الرسم الذي ذكر أنه شعار عبد الملك ، وقد اتبع بعشرة أشطار باللغة القشتالية تفسر دلالات هذا الشّعار :

«شعار العدل - يستقر على ذراعه - بلسان الميزان - يحكم على المستحقين - وحتى على نفسه - وعلينا جميعاً - نحن المعجبين - بعدل حكمه - وبقوة سلطانه المؤيد من الله العلي -».

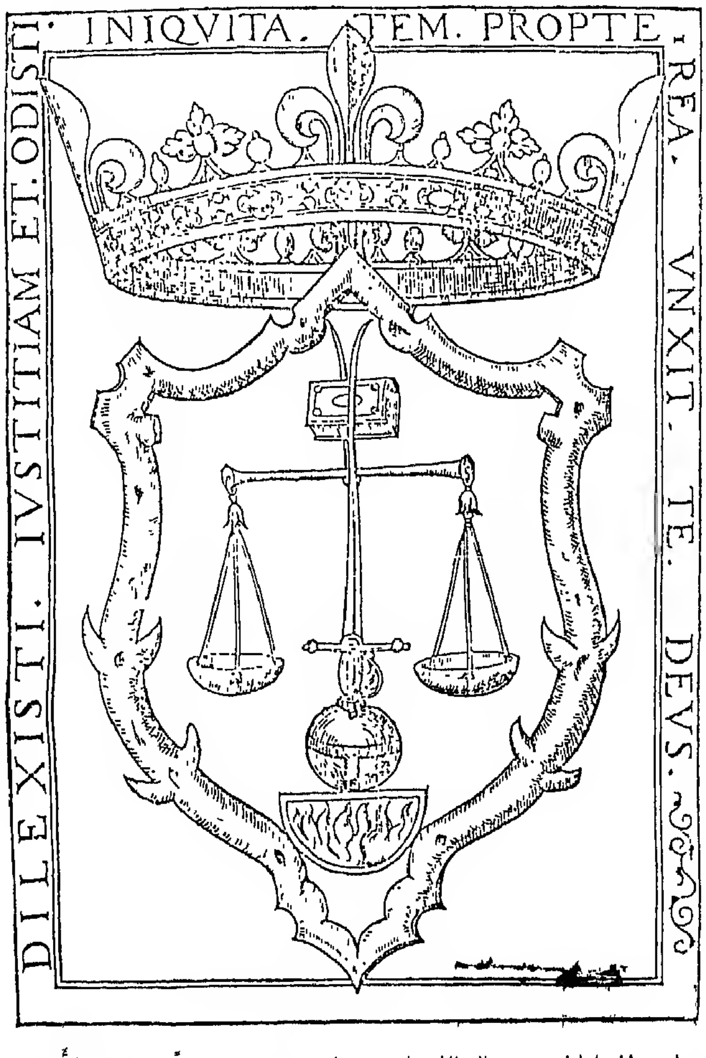

وهنا يرسم التعليق للسلطان عبد المالك لوحة رائعة تتصن جرداً بمراياه الأخلاقية وتمسكه بمبادئ الإسلام علاوةً على ثقافته الواسعة وتمكنه من عدد من اللّغات، هذا إلى تمرسه في الشؤون العسكرية، والقضايا السياسية، تضاف إلى كل هذا خلاله الحذّابة وفكره الوقّاد... لقد ساعد جميع ذلك على إثارة الإعجاب حوله من لدن سائر قادة الممالك الأُروبية التي تعرفت عليه...

وفي معرض إشادة المؤلّف برأي وشجاعة عبد الملك بمناسبة أحد انتصاراته، قال : «**إنّ سرباً من الوعول إذا وُجد على رأسه أسد، يمكن أن يحقق نتائج أكثر مما تحققه أسراب من الأُسود يوجد على رأسها وعل !!**»

إسماعيل الموجود إلى الآن بالجزائر حسبما يفيده جواب من المنصور إلى ابن أخيه بتاريخ أواسط محرم 987 = مارس 1579 يشير إلى أن «التحفة» كانت صحبة أبي العباس أحمد بن يحيى الهوزالي.

وقد أجاب السلطان عن هذه السفارة بأُخرى في جمادى الأُولى 987 = يوليه 1579 ضمت عدداً من علية القوم، وقد أوعز إلى مفتي الجزائر الشيخ أبي الطيب البسكري بصحبتهم إلى المغرب واختاره - كما يقول صاحب المناهل - لشهرته ومكانته في العلوم والسياسة ليحسن أداء الرسالة وتقرير المودة... وقد حمل الوفد هدايا ثمينةً إلى المنصور من الملابس الفاخرة... وسيفاً مُحَلًّى بديع الصنعة فاخر الحلي والزينة، وقد توفّق السفير في صياغة التهنئة والإعراب عن مقاصد الرسالة فاهتز لذلك أمير المومنين سروراً ولقّاهم مبرة التكريم واختيار النزل والإرغاد في القِري وإقامة رسم الضيافة وتوسيع الجراية حتى انقلبوا إلى مرسلهم محبورين على حد تعبير الفشتالي. وقد صادف الوفد التركي وجود سفارةٍ فرنسية ببلاط المنصور على ما قلناه في العلاقات المغربية الفرنسية...

وقد جد حادث في باب العلاقات بين الطرفين في أعقاب اكتساح اسبانيا للممتلكات البرتغالية حيث وجدنا السلطان مراد الثالث يبعث في رجب 988 = شتنبر 1580 برسالتين يقترح فيهما على ملك المغرب عقد حلفٍ عسكري ضد اسبانيا على أساس إمداده بأُسطول حربي لمقارعة الإسبان :

«...فلما وصل مسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوي على سلطنة برتغال أو كاد وأنه جعل أهلها في الأَغلال والأَصفاد وأنه لكم جار وعدوٌّ مضرار حركتنا الحمية الإسلامية... لإظهار الأُلفة الأَزلية... أن نتخذ عهدا... ونؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب... ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحضرة المعظمة، فإذا تم هذا الشأن... نوجه إليكم ثلاثمائة غراب سلطانية وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأَندلس».

وقد قبل السلطان مراد في نفس الوقت زواج المنصور من إحدى بناته : «عهدنا إلى أمير الأمراء يُصْهر لكم على إحدى بناتنا... إسعافاً لغرضك المنيف.[59]

وتتحدث المصادر التاريخية المغربية المعاصرة عما سمي «تثاقلاً» من أمير المؤمنين، أرجعه بعضهم إلى انشغاله بتمهيد المملكة واستئصال التمرد وحسم داء الفساد، وأرجعه البعض الآخر إلى ما بلغ للمنصور بوساطة مخبريه من أن اسطانبول تقصد إلى الإحاطة به والاستيلاء على المغرب، الأمر الذي يؤكده اتصال الوالي السابق للجزائر بالأمير المتمرد داود بن عبد المؤمن على ما تكشف عنه رسالة من الوالي «المتقاعد» إلى هذا الأمير بتاريخ أواخر ربيع الأول 988 = مايه 1580 يعرض عليه مساعدته !»

هذا إلى الأخبار المعروفة عن وجود مفاوضات بين تركيا واسبانيا لعقد السلام[60]

وهكذا فسّر «التثاقل» على أنه استمرار في الخط التقليدي للمغرب، أي الحذر الدائم وعدم الرضوخ ! ومن ثمت رأينا كيليج أو علوج علي باشا (باي لارباي إفريقيا)[61] يجدها فرصة للدس أمام السلطان مراد ضد المنصور لاستئصال رحم الدين الجامع بين الأمتين، وهكذا زين للسلطان مراد النزول إلى المغرب في الأسطول حيث حلّ فعلاً بالجزائر، وقد اتصلت الأخبار بأمير المومنين وهو مخيم بجنوده في تانسيفت.

لقد تجلى موقف المنصور من هذه المبادرة العثمانية في تحركين اثنين، فقد قبل أولاً الحوار حول مشروع اتفاقية تهدف لإقامة هدنة بينه وبين فيليب الثاني لفترة عشرين عاماً كما ترمي إلى التخلي عن العرائش مقابل استرجاع مدينة الجديدة وهو موضوع السفارة الإسبانية التي كانت برئاسة فينيكاس

---

59) من رسالة بالمكتبة الوطنية بمدريد مخطوط 257...

60) تاريخ الدولة العلية ص : 114.

61) قيليج (Kilic) يعني سيف، وقد لقب به مكافأة على ما أظهره من شهامة في معركة ليبانت (Lepente) عام 1571، ومن المعروف أن علي باشا عين منذ سنة 1568 (باي لارباي إفريقيا) ثم عين قائداً للأسطول العثماني مع احتفاظه بلقبه كحاكم عام لإفريقيا، ولذلك رأيناه يُسمّي هو نائبه في الجزائر على ما سنرى...

(Venegas) وعضوية (مارين Marine) على ما نذكره في العلاقات المغربية الإسبانية.

ورأينا المنصور من جهةٍ أُخرى - وهو يحصن الثغور المغربية ويستنفر الجيش - يقوم بعمل دبلوماسي رائد.

وهكذا بعث عبر البحر سفارةً عاجلةً إلى القسطنطينة لمعرفة الموقف، تتألف منه : من القائد أبي العباس أحمد بن ودة العمري والكاتب أبي العباس أحمد بن يحيى الهوزالي وكانت تحمل طائفة من الهدايا الفاخرة...

وفي طريق البعثة التقت بكيليج علي باشا في اتجاه المغرب، فسقط في يده وخاف مغبة وصولهم للأبواب العثمانية وكشْفِ دسائسه أمام السلطان مراد، وهنا أعمل الحيل لكسر السفارة مذكراً بأنه لا داعي لذلك ولا يوجد هناك ما يقلق، واستطاع بعد نقاشٍ طويل أن يقنع القائد ابن ودة بالعودة إلى المغرب لما ظهر له من خطر عليه في وصول هذا القائد الذي حنكته التجارب، بينما وافق أن يستمر الهوزالي في طريقه للقسطنطينية لتبليغ الرسالة، وذلك لما لمسه فيه من صغر سنٍّ، وتفرّس فيه - خطأ - من قلة تجربة !

وكانت مفاجأة للمنصور أن يسمع بعودة سفيره القائد ابن ودة الذي أعطاه آخر الأخبار وحمل إليه مع ذلك رسالة اعتذار من حسن باشا والي الجزائر...

لقد ازداد تأكداً من أن هناك شيئاً... وهكذا نجده يقرر إرسال سفارة ثانية إلى اسطانبول... ويقوم في الوقت ذاته بإرسال رسالةٍ إلى والي الجزائر حسن باشا وأُخرى إلى أمير الأسطول قيليج باشا...

وكانت البعثة المغربية هذه المرة 989 = 1581 برئاسة قاضي القضاة العلامة أبي القاسم ابن عليّ الشاطبي صحبة القائد أبي زيد عبد الرحمن بن منصور بن سعيد الشيظمي المريدي.(62)

وكان وجود الوفد المغربي بالقسطنطينية فرصةً للاستئذان بإلقاء خطاب من طرف القاضي الشاطبي أمام السلطان مراد ومجلس وزرائه أشاد فيه

62) المناهل ص : 64 - 65

بالدولتين، وقرر فضل أهل البيت ومعدن الرسالة... كما دعا فيه إلى اتحاد كلمة الإسلام الأمر الذي كانت له دلالات خاصة لا تخفى على رجال السياسة ! إن الحديث عن أهل البيت من قبل الأشراف السعديين كان رمزاً يتعمد العاهل المغربي ترويجه إظهاراً لكونه ليس غريباً عن الحكم...

وحسبما نقله الكاتب الفشتالي فإن قصر السلطان مراد اهتز لمقدم إخوته من أهل المغرب وأظهر لهم من مزيد التكريم وصنوف الترحاب، بل أنه حمل الوفد المغربي جواباً عن رسالة المنصور كتبه بخط ذات يده، ونحن نعلم أن مراد الثالث كان يحسن اللغة العربية...

وتحتفظ المصادر المغربية بنص الرسالتين اللتين بعث بهما العاهل المغربي إلى كل من والي الجزائر وأمير الأسطول، وتوجد الأولى في مخطوط بالمكتبة العامة(63) بينما توجد الثانية في (رسائل سعدية) نشرها عبد الله كَنون...

لقد خاطبه المنصورُ حسن باشا :

هذا وانه لما وفد على مقامنا العلي خديمنا أبو العباس القائد أحمد بن أحمد بن ودة أنهى إلينا ما اصحبتموه من كتابكم الذي أبديتم فيه لعلائنا وجه الاعتذار سافراً وأظهرتم فيه سنداً متواتراً مع ماشافهتم به نشأة انعامنا وربى مقامنا الفقيه... أبا العباس أحمد يحيى الهوزالي حين اجتماعكم به من إيضاح وجه العذر جلى الدلالة، وإدلائكم برسوخ محبتكم في هذه الإيالة فقد قبلنا عذركم في ذلك وتأولنا لكم فيه أحسن المسالك وستجتمعون إن شاء الله مع رسولنا الأخص... أبي محمد قاسم بن أبي الحسن علي الشاطبي ثم المراكشي والقائد الأوجه أبي زيد عبد الرحمن بن القائد أبي علي منصور المريدي... ومنهم تتلقون مالكم من مراعاتنا وحسن مبالاتنا، وفاوضوهم فيما لكم من المقاصد والأغراض...

---

63) المخطوطة رقم ك/278 ص : 25 الخزانة العامة ـ الرباط، رسائل سعدية ص 68ـ70...

وخاطب في الرسالة الثانية علي باشا بهذه العبارات :

هذا ودرر ودكم كانت تقذفها إلينا على البعد أمواج البحار، وعرف ولائكم ما زالت تهديه للقلوب على شحط الدار، نسمات الأسحار، وعقائد إخلاصكم بلسان الاشتهار هنا وهناك في القديم تتلى، وعقائل مصافاتكم على منصات الوفاء تجلى، والاعتقاد الجميل بجنابكم صار لنا قبل دأبا وديدنا، وعلى دعائمه الثوابت كنا أسسنا عهدنا والاجهار بموالاتكم كان أمره مستفيضا، والحب في الله على الدوام يلوح لنا من تلقائكم وميضا، إلى أن ورد خبر التحرك الذي كان لكم لهذه الناحية والاحتفال الذي استنهضتم له هنالك الغاشية من أهل الحاضرة والبادية فتادى إلينا عنكم أولا على وجهٍ كان الظن بكم خلافه، وعلى تأويل ما كنا لنعتقد بكم فيه اتباع الهوى وإسعافه، وما زلنا ونحن نستغرب لشنآنكم ذلك داعيه وسببه وتجردكم للعدوان لا لأمر اقتضاه وأوجبه ونجيل التفكر في استحالة ودادكم إلى ضده وانتقال الحب في الله الراسخ عن عهده وتكدير منهل الإخلاص بعد صفاء ورده وانتقاض حكم الولاء بعد تعديل شهوده وتسجيل عقده إذ ورد على بابنا رسولنا الآئب من تلكم الأبواب العثمانية، والمؤدي لفضيلة الوقوف بتلكم العتبات الكريمة الخاقانية فلان فأنهى إلينا بما تلقاه منكم وصحت به روايته الثابتة عنكم. إن تحرككم ذلك على ما حكيتم ما كان منكم لباعث نفسي، ولا لغرض كان لكم فيه معنوي ولا حسّي، وانكم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار، محمولين في أمره من هناك على حكم التعسف والاضطرار، ومجبورين على ارتكابه جبراً ما أغنى عنكم فيه الاعتذار، وانكم لو تركتم ومرادكم وخليتم واعتقادكم ما كنتم تضرمون أبدا لهذه الجهة نار فتنة ولا هرج، ولا تركبون بقصدها للبحر ثبج، ولا للبر راحلة تمشي على عوج، فعندما قرر لنا عنكم هذا النبأ المتأول، والعذر الواضح لمن تأمل زال عن النفوس ذلك الامتعاض، واستحالت إلى المحبة القديمة الجواهر والأعراض، وبقي الود في الله إذ ذاك مصون المروءة والأعراض، فأنهينا إليكم خطابنا هذا صحبة رسولينا الموجهين لتلكم الأبواب العثمانية والعتبات السلطانية، الشيخ الإمام العالم الذي له على صهوات المعارف النزول والإلمام، الفقيه العلامة المحقق الفهامة المحدث المشارك الجامع الأعرف الأدرى البارع، المرتدي من العفة

والديانة رداء، والحامل من النزاهة والمروءة لواء، قاضي قضاة آفاقنا المغربية وعساكرنا المظفرة العلوية، السيد أبي الفضل قاسم بن علي الشاطبي ورفيقه القائد الأرضى والأوجه الأحظى الأزكى الأسنى الأجل الأسمى الأرفع الأرقى، الأبر الأتقى، الأنزه الأنقى، الانوه الأثير الأفضل الخطير المعتبر المرعي الأصيل السري أبي زيد عبد الرحمن بن القائد الأمجد الأفضل الأكمل الأجمل الأثيل الأحفل الأصيل الأنبل الوجيه النزيه المعتبر النبيه الأخص الأسمى الأخلص الأسنى أبي علي منصور بن سعيد المريدي وصل الله سعادتهما، وأنجح بمنه وفادتهما لتعلموا منهما إن شاء الله أن ربع الوداد في الله ما زالت تمطره من إخلاصنا عوارض هواطل، وتجوده من ولائنا سحائب تروض منه ذلك الجناب الماحل، وتتعرفوا منهما أن داعي المحبة منا لداعي الجفاء على الدوام مناضل، وسيف التواصل بيننا لحبل القطيعة باتر، ورسم التجمل عندنا ليس بداثر، وجدّه كل حين لدينا غير عاثر وحبكم في الله لا زال يدعوكم داعيه بعون الله إلى الاعتناء بمن يرد من قبل هذه الأبواب، على سني ذلكم الجناب، جريا على دأبكم الجميل المعتاد واعتناءً منكم بهذا الجناب الاعتناء الواضح الاشهاد، والله تعالى يصل علاءكم ويديم بمنه بقاءكم، والسلام الأبر الأعطر عليكم).

☆ ☆ ☆

وهكذا أنقذ الله المغرب من مغامرة قيليج علي باي لارباي (Beylerbey) إفريقيا... بعد أن تأكد للباب العالي أنه لا يستهدف فقط الإجهاز على المملكة المغربية، ولكنه كان يمهد - على ما تفيده المصادر المعاصرة - لحركة انفصالية شاملة عن اسطانبول تمكنه من الاستقلال بالشمال الإفريقي !!

...ومرة أخرى وفي بحر سنة (990 = 1582) أخذ الخطر التركي يهدد البلاد من جديد... حيث أخذ قيليج، بتواطوء مع جعفر باشا، يمهد للمؤامرة الانفصالية الكبرى عن الآستانة أو بالأحرى الانقضاض على المغرب، وهكذا وجدنا المنصور يتجه إلى فيليب الثاني لطلب المساعدة، وقد بعث لهذه الغاية القائد إبراهيم بن محمد السفياني ومعه رسالة يؤكد فيها موافقته على مشروع استبدال مدينة الجديدة بمدينة العرائش، وهكذا نجد أن انشغال المنصور بالأتراك في الشرق

يضيّع عليه تحرير الثغور... فقد أصبح، بحكم موقعه الجغرافي، ترساً للجانيين المتصارعين على ما قلناه في (العلاقات المغربية الإسبانية)...[64]

ولا عجب أن نرى العاهل المغربي «يتثاقل» مرة أُخرى عن مخاطبة السلطان العثماني، الأَمر الذي تفيده قلة المخاطبات فترةً من الزمن.

وقد وجد الباب العالي الفرصة مواتية عندما قام بعد معاهدة الصلح بين العثمانيين والعجم 21 مارس 1985 = 19 ربيع الأَول 993 في أعقاب حركته ببلاد فارس[65] ضد من نعتوا بالفئة الصّفوية الرافضة... فهنا كتب للعاهل المغربي يخبر بالانتصار الذي أحرز عليه هناك... وما كان للمنصور بدٌّ من رفع الجواب إلى الخاقان مراد خان حيث قال له، بإنشاء أبي فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي الذي شجب بشدة حركة الصفويين...[66]

«...هذا وقد وفد على علي مقامنا خطابكم الخاقاني ومدرجكم العلي السلطاني صحبة (أرسال) جنابكم السامي العثماني، فاطلع في آفاق هذه الإيالة العلوية فجر الموالاة والاتحاد، ونادى بلسان المخالصة والممازجة فاسمع الحاضر منها والباد، وبسطنا له مما يليق به من المبرة والتنويه بساطا، وتلقيناه بوجه الترحيب والتكريم سروراً بمقدمه واغتباطا.

ولما فض بأنامل الترحيب والإقبال ختامه، وحسر عن محياه الوسيم لثامه، كان مما أنهاه إلينا من الأَنباء التي تبتهج النفوس لسماعها وتستميل الأَفئدة الإيمانية بحسن إبداعها، وتزهو الأَقلام والمحابر بتخليدها في بطون المهارق وإيداعها، إهداء البشارة العظمى، والمسرة الكبرى، بما سنى الله لمقامكم الخاقاني من الظهور على الفئة الصفوية الخارجية الرافضة، وتبديد جموعها التي إلى مشاقة الله ورسوله، وسبّ صحابة نبيه في مضمار الغواية راكضة، وإلى جموعكم

---

64) A. Cour : Etablissement8...

65) تاريخ الدولة العلية ص : 116.

66) موقف المغرب من فرض التشيّع على العهد السعدي هو نفس الموقف على عهد بني مرين عندما قرأنا عن شجب ابن بطوطة لتصرف خُدا بنده وسابيدران...
د. التازي : إيران بين الأَمس واليوم ـ مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1404 = 1984 ص 63 ـ 64، سفارة أنطوني شيرلي إلى المغرب. مجلة المناهل 1397 = 1977.

السُّنية ناهضة، فيا لله من بشارة تزهو بها السنّة والإيمان، وترتاح لسماعها ملائكة الرحمن، وتفتتح لها أبواب حضرة الرضوان ونبأ عظيم أقام للمسرة أسواقا، وأورق به عود الإيمان إيراقاً، وازدادت به شموس التوحيد نوراً وإشراقاً، فلله الحمد الذي جعل سيوف السُّنَّة لسيوف الإلحاد قاهرة، ولشوكة الرفض داحضة وكاسرة، ولكلمة التوحيد عاضدة وناصرة، ولا غرو فالسنة بحمد الله أعلا مظهراً، والجهاد في نصرتها أربح متجراً، وأسنى مدخراً للمعاد ومحتكراً، فهنيئاً بما سنى الله لمقامكم من هذه المفاخر الفاخرة، والمآثر الجامعة بين خير الدنيا والآخرة، فلقد جل في القلوب موقعها، وطاب مساغها المعين ومنبعها، وشكرنا لمقامكم حسن المساهمة في سرورها الذي أوسع الصدر انشراحاً، وملأ الجوانح مسرات وأفراحاً، فهي البشارة التي لا ترى للسرور بها كفاء، والنبأ العجيب الذي فرحنا بخبره السار فرحاً لا يغب صباحاً ومساء، ورفعنا لنشره وشهرته في سائر أقطار ممالكنا الدانية والقاصية، لواء، حتى تساوى في السرور به في هذه الجهات الخاص والعام، وأشدنا بذكره إشادة لا تزال مخلدة مع الأيام، إظهاراً لعظيم مآثركم، وحسن آثاركم في نصرة الدين وجميل مفاخركم، وكيف لا، والأهواء على نصرة السنة بحمد الله متفقة، والمحبة فيما بين الجانبين ما امتدت الأعصار متحققة، والكلمة على حماية بيضة الإسلام متسقة ومثابتكم السامية لذلك لا تحول عن كريم معهودها في المساهمة بمثل هذه البشائر، والمطالعة بكل ما يتجدد لمقامكم الخاقاني من أمثال هذه المفاخر، فإننا ممن يتضاعف بذلك سروره، ويبتهج بأنبائكم السارة أفئدته وصدوره..».

وتشاء الألطاف الحافّة بالمملكة المغربية أن يجدّ حدث في المنطقة كان على حد تعبير أوكَيست كور (Auguste Cour)، أهم من وقعة وادي المخازن بالنسبة لإفريقيا، فقد اتفقت وفاة علوج مع ما يسمى «انقلاب الأحلاف» (Le renversement des aliances) عام 994 = 1586 يعني نهاية تقصُّد الأتراك للمغرب الأقصى فإن إلغاء نظام باي لارباي (Beylerbey) بالجزائر وتعويضه بنظام الباشاوات الذي يقضي بالعودة إلى اسطانبول، كان يعني جعل حدٍّ لكل تطلع للأرض المغربية.!!

وقد تبع هذا «الانقلاب»... إرسال سفارة جديدة خلال شهر ربيع عام 997 = يناير 1589 من أجل البحث عن الصلح والمهادنة مع المغرب لمواجهة المرحلة القابلة.

ومن جهة أخرى وجدنا المنصور ـ وهو يحرص على أن يطلع الأمة على سائر التطورات وخاصة منها ما يربط مصالح المغرب بالخارج، نراه يتوجه في رسائله إلى مختلف الأقاليم المغربية، وهكذا يبشر المنصور قاضي سوس أبا عثمان سعيد بن علي :

أولا : بانهزام الإسبان أمام الإنجليز في معركة الأرمادا[67] البحرية وما تفتحه للمغرب من آمالٍ لا سترجاع الأندلس على ما سنعرفه أثناء العلاقات المغربية الإسبانية والإنجليزية.

ثانيا : ورود السفير التركي على نحو ما ورد في هذه العبارات التي نوردها هنا حفظاً للتاريخ :

«... ولما قضى الله بذلك من الدائرة السوء على الطاغية ماقضى عليه، وقص في جموعه المستأصلة جناحيه، وتبّ يديه، كان ذلك والمنة لله لهذا الأمر العزيز عنوان الإقبال والظفر، وعلامة على إنجاز وعده المنتظر، في الاستيلاء بحول الله على بلاده وأقطاره، ومنازلته بجنود الله المظفرة في عقر داره، واستنقاذ النقدة المتغلب عليهم في الأعصر السالفة والدول الماضية من بين أنيابه وأظفاره، وبخاصة بلاد الأندلس التي هي بحول الله على سيوفنا أهون مطلوب، وأيسر موهوب، فهي الوديعة المستردة بحول الله على أيدينا، والقلادة التي خبأتها الأيام لجيدنا، وقد آذن بدنو ذلك إن شاء الله وميقاته، وبلغو ساعته البادية الأشراطِ وأوقاته، ما اتفق وما اتفق أيضاً في التاريخ من ورود رسول صاحب القسطنطينية الذي أنفذه إلى حضرتنا الإمامية، وعتباتنا المنيفة السامية، خاطبا لسلمنا، وراغبا في عقد الصلح والمهادنة معنا، متبرعاً بطلب ذلك من عنده، وساعيا في غاية جهده، بعد أن صدع به كما بلغنا في حضرته، وجمع عليه أهل مملكته، وسائر أرباب دولته، وقد وعدنا رسوله الواصل بالملتقى إن شاء الله بحضرتنا الفاسية حرسها الله وهو هنالك الآن مقيم، ولعتباتنا السامية بها لزيم.[68] ولعل في

67) رسائل سعدية نشر عبد الله كَنون ص 152 ـ 153 ـ 164 ـ 165.

68) لا ننسى أن نذكّر هنا بالسفارة التي بعث بها عباس الكبير إلى المغرب برئاسة حسين علي والسير أنطوني شيرلي، والتي كانت تهدف لجر المغرب لجانب إيران على ما سنرى.
د. التازي : سفارة أنطوني شيرلي إلى المغرب (مجلة المناهل) عدد رجب 1397 = يوليه 1977.

اجتماع كلمة الإسلام إن شاء الله بهذا الصلح الذي آن أن ينعقد بين الدولتين، ويبرم حكمه بين المملكتين عونا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين، وغزو أحزاب الشرك الملحدين، حتّى ينجز الله لهذا الأمر العزيز وعده في الاستيلاء على الأقطار إن شاء الله دانيها وقاصيها، وإخراج أمة الكفر بعون الله من دارها وصياصيها، بعز الله وعنايته.

وعرفناكم بما تضافر من هذه البشائر التي انتظمت لنا بحمد الله انتظام القلادة، وناطت بجيد مملكتنا الكريمة نياط العقد بعنق الغادة لتأخذوا بما تضاعف للإسلام بذلك من السرور بحظ جزيل، وتفوزوا بقسطكم من صنع الله الجميل، ولترفعوا بنشرها إن شاء الله عقيرتكم في ذلك القطر السوسي وتثلج صدوركم بذلك انبساطاً، وتغتبطو بما أظهر الله لهذا الأمر العزيز من علامات السعد والإقبال اغتباطاً، والله تعالى يتولى رعيكم وحفظكم ويجزل بمنه من خير الدارين حظكم والسلام التام العام العائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وقد شفع رسالته للقاضي برسالة مماثلة إلى القطر السوسي الذي كان «للدولة الشعار والدثار» وقد حملت الرسالة بشرى ثانية هي الخبر بالتجاء ولي عهد البرتغال مؤملاً استرجاع عرشه الذي ثلمته السيوف السعدية ولقد كشفت الرسالة عن «إضراب المنصور عن مراسلة القسطنطينية نحواً من ثلاثة أعوام تباعا» على ما نقرأه في هذه العبارات.

«... ومن هذا النمط في الدلالة على اقتبال الأيام، وإجلاء كلمة هذا الأمر العلي الذي هو قوام الإسلام، ما اتفق أيضا من رسول صاحب القسطنطينية العظمى الوافد على أبوابنا الإمامية، وعتباتنا المنيفة السامية لتجديد المراسلة، وتأكيد أسباب المواصلة، فإنهم لمّا رأونا قد عطلنا ذلك الميدان، من الرهان، وأضربنا عن مراسلتهم صفحاً برهة من الزمان، نحو ثلاثة أعوام تباعا لم يصلهم من قبلنا خطاب، ولا شايعناهم برسول ولا كتاب، تبرعوا لنا بذلك من عند أنفسهم حرصا على اتحاد الكلمة واجتماعها واقتفاء لسبل المواصلة واتباعها، وأبقيناه بحضرتنا العلية الفاسية حرسها الله منتظراً بها وصول ركابنا العلوي، ومقامنا الكريم المولوي.

ويظهر أنه نتيجة لذلك التحرك عينت سفارة مغربية جديدة للذهاب إلى القسطنطينية مصحوبة بهدية جليلة أواخر عام 897 ـ 1589 حيث قضت في رحلتها فترة امتدت إلى أواخر السنة الموالية وكانت مؤلفة من أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد الجزولي البكري الدرعي التمجروتي،[69] والكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي ورفيق ثالث هو محمد بن علي بن أبي القاسم...

ومن حسن الحظ أن السفير التمكَروتي دوَّن انطباعاته عن هذه المهمة في مؤلفه «النفحة المسكية في السفارة التركية».

وهكذا فقد التحق السفير التمكَروتي بفاس فور وصول أمر السلطان له وهو ببلدته في الجنوب، ومثل بين يدي العاهل في قصره بالمدينة البيضاء : فاس الجديد حيث تلقى التعليمات وتسلم رسالة الاعتماد والهدايا التقليدية، وقد تعرف السفير المغربي بهذه المناسبة بسفراء السلطان العثماني ملك بلاد الترك والروم وسلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين، على ما تقول الرحلة...

وقد قصدوا تركيا صحبة البعثة العثمانية عبر ميناء تطوان ثم الجُزُر الثلاث بملوية ثم جزائر بني مزغنة أو القسطنطينية الصغرى ثم تونس ثم طرابلس...

ولم يفت السفير المغربي وهو في طريقه إلى مهمته ـ أن يلاحظ تظلم أهل إفريقية من معاملة الأتراك «لقد رأينا منهم، يقول السفير، العَجَب العُجاب في كثرة اشتياقهم وحنينهم إلى حكم موالينا الشرفاء، وما كان فيه أهل المغرب من الراحة والعدل والرفق والنعمة، تالله لقد كان مَن تحدثنا معه من خيار أهل تونس وأعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية يبكون على ذلك بالدموع وينتحبون ويودون لو وجدوا سبيلاً إلى الانتقال إلى المغرب والتخلص إليه لاشتروه بالدنيا وما فيها، فرّج الله عليهم وأدام علينا ـ أهل المغرب ـ ماخصنا به، وخلد ملك موالينا ذرية رسول الله ﷺ حتى يصل سيدنا عيسى عليه السلام وحتّى تقوم الساعة.[70]

69) دفن التمكَروتي بروضة القاضي عياض في مراكش، مخطوطة ابن الطيب القادري.
70) النفحة المسكية ص 72.

وتصل السفارة إلى القسطنطينية العظمى في 16 محرم 998 الذي يوافق 25 نونبر ـ 1589 على ما يضبطه السفير، وبعد أن أدّت التحيةَ للوزير رجعت البعثة إلى السفينة إلى أن هيئ لها منزل بقرب قصر السلطان حيث نقلت إليه حقائبها وأغراضها...

وفي اليوم الثالث من إقامته بدار الضيافة أُذن له في الدخول على السلطان مراد بن السلطان سليم بن السلطان سليمان فدخل عليه في إيوانه وهو واسع جداًّ، كثير الأَشجار، وفيه أنواع من الوحش وبه قباب وبلاطات يجتمع فيها الوزراء والقضاة والكتاب والأُمناء وأعيان الجنود... لقد دخلنا عليه ـ يقول السفير ـ نحن بعد الوزراء فسلّمنا عليه وناولناهم ما معنا من الكتب فأخذها الحاجب ـ ويسمى الخوجة ـ وخرجنا، ولقد أدخلوا الهدية قبل دخولنا ففرحوا بها كثيراً وعجبوا منها... وقد بقينا في هذه المدينة في ضيافة السلطان، وإقامتُه تجري علينا رحمةً ونعمة واسعة...

فلما حان وقت السفر وتيسّر، أذن لنا في الدخول على السلطان للوداع في القبة التي سلمنا عليه يوم ورودنا عليه على العادة، وكسانا كسوةً جيدة رفيعة قبل دخولنا إليه فسلمنا عليه وخرجنا، وعلى القبة مماليك مصطفون يحار الطرف في حُسنهم ولباسهم... وناولنا أجوبة كتب الخليفة السلطان مولانا أحمد الشريف الحسنى وهدية عظيمة مكافأة...

وقد سجل السفير المغربي أن السلطان مراد بعث معنا رسولين منهم غادرا، صحبتنا، تركيا عشية يوم الأَحد سابع شعبان 998 = 11 يونيه 1590.

وقد أُقيمت مأدبة عشاء على شرف السفير المغربي من طرف أحد الوزراء الذي كان صهراً للسلطان.

وقد أدى وصفاً شاملاً لهذا الاحتفال بما تميّز به من ضروب التكريم، بما في ذلك تدفئة البيت التي تكون ضرورية في اسطانبول المعروف ببرده القارس في فصل الشتاء...

«لقد أضافنا بأنواع الأَطعمة وألوانها المختلفة وأشربة سكر وعسل مطيبة بأنواع الطيب ومجامير العود والعنبر على اليمين واليسار، وماء الورد والزهر

الممسّك يرش علينا، وهو - أي البيت - قد فرش وصفف بوسائد الحرير والديباج المذهب المرصّع بأنواع الأحجار وغيره، والحيطان ملبّسة بمثل ذلك الشيء، لا قيمة له ولا ثمن، والنار توقد مع ذلك كله في البيت، والغلمان والاعلاج من الحبش والروم وقوفا صفوفا أمامه، كل واحد لا يشبه الآخر في الحسن والجمال، عليهم قفاطين وأقبية مختلفة الألوان من الديباج والبركاض (Procard)، لباسُ الواحد لا يشبه الآخر، يدبرون أمره... وان فارق أحد النار فلا يقدر أن يخرج يده للهواء بل يزمّل بدنه ويلف يديه وأصابعه ما قدر عليهْ.... ويجعلون للدخان منافذ تجمعه وينفذ منها إلى فوق...[71]

ولم يفت السفير أن يقوم بزيارة للمعالم الأثرية فيعطي وصفاً رائعا لجامع (آيا صوفيا) ويتحدث عن فرائد بعض المخطوطات التي تجلب للعاصمة من كل جهة...

كما أنه اغتنم فرصة وجوده بعاصمة الأمبراطورية ليقتني بعض الجواري والغلمان ممّن رُبّي في الدور وأدب، وأتقن الصنائع، كلٌ له قيمة على قدر معرفته وحذقه في صنعته من الطرب والخياطة والطرز، وكان من أُولئك ما كان مخصصا لأولاد السلطان، وفيهم من اشترى لغير هؤلاء، وقد بلغت قيمة إحدى العلجات ألفين ومائة أوقية سوسية على حد تعبير التمكَروتي...

وقد أخذ رفيقه الكاتب الشهير محمد بن علي الفشتالي فتاة رومية اقترن بها وأنجبت له ولدين توأمين بمدينة الجزائر، والركب في طريق العودة لبلاده أعطاهما اسم عبد العزيز وإبراهيم..!!

وقد صادف مروره بالجزائر أيام ولاية الخضر باشا الأُولى (1589 = 1592) حادثة مروعة عاشت البلاد بسببها في مأتم عم كل البيوت، ذلك أن السفينتين المتوجهتين إلى الباب العالي فور وصول السفير 8 ذي القعدة 998 = 8 شتنبر 1590 - اختطفتا من قبل راكبيها من العلوج والأسرى الأجانب ! وكانتا تضمان ثروة هائلة عظيمة إضافة إلى ما فيهما من التجار والحجاج الذين كان على رأسهم

71) النفحة المسكية ص : 100.

قاضي البلد... لقد حكى التمكَروتي عن هذه المأساة التي تحمَّل مسؤليتها رياس الجزائر على ما يقول...».

وبمناسبة حديثه - وهو في طريق العودة - عن الأتراك لم ينس أيضا - كما كان شأنه وهو في طريقه الأول أن يؤكد على أنهم مماليك وأنهم إنما حملوا الإمارة وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة على من هو أحق بها[72] وأهل لها وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب... وهكذا نسمع مرة أخرى عن «العقدة الأزلية» التي كانت تقف دون التفاهم الصادق بين اسطانبول وبين فاس على ممرّ الزمن.!!

وقد انتظر التمكَروتي وزميله الفشتالي في تطوان بعض الوقت زارا أثناءهُ ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش شيخ الشاذلي، ونزل في تطوان ضيفاً على عامل المدينة السيد أحمد بن المفضل الغرناطي في انتظار أمر أمير المؤمنين بالالتحاق بمدينة مراكش التي وصلوها يوم عاشر ربيع الأول 999 = 6 يناير 1951 فمثلوا بين يديه فهنأهم بالسلامة وأمر بإنزالهم ومن معهم من سفراء الترك، وبالغ في الإكرام، «وأقمنا عنده بدار الإمارة يقول السفير - إلى أن أدينا له الهدية وجواب السفارة وقد بسط علينا من النعمة ما تعجز عن استفائه العبارة مما يغذينا به من أنواع الأطعمة ويعيشنا بغرائب الطبخ المحكمة وطيافير الفواكه المختلفة وأرهاط التحف المفترقة، في حضرته المؤتلفة، وقد كانت فرصة لتشهد السفارة التركية احتفالات المنصور السعدي بعيد المولد النبوي التي كانت تكتسي بمظاهر من الفرح والابتهاج الشامل لا يزال أثره إلى الآن...[73]

وقد عثرنا بُعَيد - أو رُبَّما أثناء - سفارة التمكَروتي (997 = 1589 على آثار لبعثةٍ أخرى راح فيها أبو العباس الحاج أحمد الماسي الذي وجدناه في القسطنطينية وفي بلاد الشام وفي الجزائر...

---

72) رسائل سعدية 18 - 23. الميلي III 140.

73) استمر السفير التمكَروتي بالحضرة السلطانية إلى أن صدر له الإذن بالعودة إلى وطنه تمكَروت في جمادى الأخيرة من السنة 999 = أبريل 1591. النفحة المسكية ص 157.

لقد ورد اسمه في الرسالة التي بعث بها المنصور من مراكش إلى الوزير أبي سالم إبراهيم باشا يخبره بعودة الماسي الذي لم يصادف أبا سالم باسطانبول...

(... هذا وان ما لكم من الوداد في هذا الجناب الكريم ملحوظ، والعقد على رسوخه في الله مصون محفوظ والالتفات إليه بعين الاعتناء واضح جلي، والاعتداد به روض باكره الولي، وحين وصول رسولنا الأرضى الأنصح أبي العباس التاجر أحمد الماسي عن مقامنا العلي في مأمه الفارط لتلكم الأعتاب الخاقانية ألزمناه عهدة الملاقاة بكم وتقرير ما لكم بهذه الإيالة العلوية من لطائف الاحتفاء، وكثيف المراعاة والاعتناء، فلم يتفق له مراد مشاهدتكم لأيابه من تلكم الديار في حال غيبتكم عنها، ولما احتل بهذا المقام وعرف بما أفاته الحال من مقصد لقياكم، أصدرنا إليكم هذه المخاطبة لتعلموا بأن جناب رعيكم عندنا غير مغفول، وبرد ودادكم قشيب ليس بمطرح ولا مهمول، وما به الإدلاء عنكم على الخصوص مرضى مقبول مقابل من كريم الولاء بجزيل المأمول.

واعلم بأن ما عسى أن يعرض لمكانكم المكين بهذا الجناب الكريم مما يشاكل صفوكم من حسن الترحيب والتعظيم، فواجب على مقامنا العلي إصداره إليكم، وعرضه مشافهة أو مكاتبة عليكم، وهذا موجبه والله يعليكم ويحظيكم والسلام).

ويظهر أن للمنصور صلةً خاصة بهذا الوزير الذي رأيناه يبعث بخادمه الشاوس فلان... على ما يستفاد من جوابٍ للمنصور مبتور.(74)

وقد ظهر اسم أحمد الماسي أيضاً في الرسالة التي بعث بها المنصور من مراكش كذلك لأحد علماء المشرق أبي فلان العلوي أو أبي الفضل مصطفى بن حسن الحسيني حول المؤلف التاريخي الذي ورد به الماسي المذكور والذي - على عادة بعض المؤلفات المشرقية - لم ينصف تاريخ المغرب !

إن العاهل المغربي وهو ينتقد الشيخ المذكور، يعتذر عن خطأه «بسبب انتزاح الوطن وتنائي الديار... وبعد الآفاق والأقطار» الأمر الذي دعا المنصور

74) رسائل سعدية ص : 157 - 197

إلى تكليف أبي فارس عبد العزيز الفشتالي - فيما يبدو - بتأليف كتاب المناهل والتعجيل بإرسال (نبذة منه) إلى الشيخ المذكور بواسطة مبعوث خاص هوأبو محمد عبد العزيز الثعالبي على ما يستفاد من الرسائل السعدية.(75)

كما ورد اسم الماسي في رسالة من مراكش بعثها المنصور، فيما يبدو، جواباً إلى الخضر باشا الذي كان بعث برسوله مامي.(76)

ويلاحظ أن الرسالة موجهة إلى «العصابة التي لها من علاقة المحبة لهذا الجناب الرفيع ما أشرق شموسها وأقمارها... جملة الجند الجزائري، الباشا وسائر ياياباش لار، وبلكباش لار، واطنباش لارويلطاش...(77)

وتحتفظ المصادر المغربية بعدد آخر من الرسائل سواء منها الموجهة إلى السلطان العثماني أو لبعض باشوات الجزائر، أو باشا مصر، إلا أن بعض هذه الخطابات مبتور، وبعضها اكتفى فيه الناسخ بذكر (فلان) عوض اسم الشخص، كما اكتفى بذكر (كذا) عوض اسم المكان، علاوة على إغفال الرسائل من التاريخ...(78)

ومع ذلك فإننا نرى من الفائدة الإحالة على بعض هذه الرسائل...(79)

وقد تحدثت رسالة من المنصور إلى الخضر باشا عن مقدم السفير أبي عبد الله محمد المسعود الوهراني(80) وحول إبداء استعداد الوالي المذكور لقمع تمرد المخذول الناصر الذي سلط على العاهل المغربي من طرف الإسبان : إن المنصور يشكر الباشا على عواطفه ولكنه يرجو أن لا «يكلفه» محنة التحرك، وأنه أي المنصور قادر على سحق المتمردين..!

---

75) رسائل سعدية ص : 76 - 77 - 237 الفشتالي : مناهل الصفا...

76) يحتمل أن يكون مامي قورصو أو مامي نابوليتانو وكلاهما من أصل أُروبي، الميلي ص : 3، 139.

77) رتب عسكرية في النِّظام الانكشاري. رسائل سعدية 192 – 238. رسائل سعدية 92.

78) الإشارة إلى بعض الخطابات التي أوردها الأُستاذ كَنون في كتابه (رسائل سعدية) أو الخطابات التي وردت ضمن مجموع مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم : د/278 يبتدىء هكذا : رسائل أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي.

79) مخطوطة الخزانة العامة رقم د/278 ص : 21.

80) المخطوطة ص : 17 - 18 - 26.

وقد كان من الرسائل الهامة التي راحت إلى «مكانة الباشا» بالجزائر رسالة تنهي إلى علمه أن صاحب تلمسان يروم مد اليد لحواشي عمالتنا بلاد فجيج»، وفي هذه الرسالة ينبه العاهل المغربي باشا الجزائر بما قد تسببه مثل هذه التصرفات ويجدها مناسبة لتذكير الباشا بأن أحداً من الولاة لم تمتد يده لهذه الناحية وأن الهفوة التي حصلت أيام رمضان باشا كانت سبباً في عزله من قبل السلطان مراد رغم تبرؤه وتنصله من تلك الحركة...(81)

وفي هذا المعنى نجد رسالة إلى القابطان «فلان» باشا، يسّر الله له من أسباب البر ماشا.(82)

وقد صدرت مراسلات إلى أبي جعفر باشا، وكان منها جواب عن وفادة أحمد بن عبد الجليل :(83)

وإلى جانب الرسائل الموجهة إلى الولاة... نجد عدداً آخر من الرسائل وجه إلى بعض الوزراء... وهكذا تحتوي المصادر المغربية على رسالة إلى الوزير... فلان... تخبره بورود خطاباته التي تحمل بشرى بنصرٍ تحقق في البلاد «الكدائية» (؟) قاعدة الملك وواسطة السلك وقلادة النحر وحاضرة البر والبحر...

وأخيراً نعثر على طائفة من الرسائل المرفوعة إلى السلطان مراد... وهي ولو أنها غير واضحة الموضوع لكنها تعطي فكرة عن توالي الاتّصال... وقد كان من بين هذه الرسائل الهامة «عجالة» تخبر بالعزم على إرسال سفير مغربي إلى الباب العالي... وانه إنما قدمها حتى لا تقع في يد أحد المتحاربين من قشتالة وأنجلترا فيطلعوا «على ما بيننا من الأسرار !!».

☆ ☆ ☆

ونتساءل هنا هل ما إذا كانت هناك خطابات من السلطان أحمد المنصور إلى السلطان مراد الثالث حول حركة العاهل المغربي في أمبراطورية سنغاي ؟.

---

81) المخطوطة ص : 7 ـ 8 ـ 37.

82) المخطوطة ص : 159 ـ 160 ـ 161.

83) ابن عبد الجليل شخصية دبلوماسية كانت واسطة بين العاهل المغربي وباشا الجزائر.

إن المنصور الذي تعود مجاملة الباب العالي بأخباره بما سنّى الله من التوفيق وتعوّد مع ذلك تقبل الخطابات العثمانية حول انتصارات «الباب»، لا يمكن أن يظل صامتاً إزاء ذلك الحدث العظيم الذي اهتزت له سائر الممالك الأُروبية ؟ فماذا إذن عن أصداء ذلك في مراسلات المنصور مع الباب العالي[84] ؟.

لعل مما يدل على أن نجاح الحركة السعدية في غرب إفريقيا لم تكن بالشيء الذي يرضي العثمانيين... أن نلاحظ من جهة خفة حركة المراسلات وعدم النص - من جهة أُخرى - في الموجود منها - مما عثرنا عليه - على أمر الإخبار بما تم في غرب إفريقيا.[85]

ومن المفيد أن نشير في هذا الصدد إلى رسالة هامة وجهت إلى إحدى الشخصيات العثمانية السامية... ربما كانت السلطان مراد أو على الأَقل الصدر الأَعظم. إن الرسالة لا تحمل تاريخا علاوة على أنها تعبر عن الأَشخاص بفلان وعن الجهات بكذا... ولكنها بالرغم من كل هذه «المعمّيات» تدل على تدخل الباب العالي في الشؤون التي تخص المغرب، بل إنها، على ما نرى، تتعلق ببعض تحركات المنصور الذهبي في غرب إفريقيا لمضايقة الوجود الأَجنبي هناك على ما سنرى في فصل العلاقات المغربية مع بقية ممالك إفريقيا.

فإذا ما أضفنا إلى الإطلاع على التقرير المرسل إلى ليشبونة من جزيرة أركين (Arguin) بتاريخ 20 يناير 1591 والذي يقترح فيه على فيليب الثاني أن يبعث سنوياً بعدد من السفن لقطع الطريق على التجارة المغربية... إذا ما أضفنا هذا التقرير لتلك الرسالة تبين إذن الهدف الذي كان يقصد إليه المنصور من الوصول إلى غرب إفريقيا على ما نؤكد في العلاقات بين مملكة المغرب وأمبراطورية سنغاي !

مهما يكن فقد كانت وفاة السلطان مراد (جمادى الأُولى 1003 = 1596) وجلوس السلطان محمد خان على كرسي الحكم، مناسبةً لتجدّد المراسلات

(84 H. de – Castrie : la conquéte du soudan par Elmansour, Hes. 1923 T. 4. p : 475

(85 رسائل سعدية - مخطوط الخزانة العامة رقم 278/ك.

والاتصالات، وهكذا نجد هذا الأخير يبعث إلى العاهل المغربي يخبره بالحدث، الأمر الذي دفع بالمنصور إلى أن يبعث من مراكش برسالة تعزية وتهنئة في وقت واحد إلى السلطان الجديد، وقد كانت الرسالة من إنشاء الكاتب محمد ابن علي الفشتالي :

(... ورد على مقامنا كتابكم الأثير وخطابكم الجليل الخطير فمهّدنا بحضرتنا العلية مهاد الإجلال والتعظيم وأشدنا به إشادة ملأت مسامع الظاعن والمقيم، وان الذي أنهاه إلينا من النبأ الذي أمر وأحلى وأوحش وأسلى التعريف بوفاة ولينا والدكم المقدس المنعم الأعظم الأفخم السلطان فلان قدس الله تربته وأنّس به أطباق اللحود غربته، ثم الإعلام بولايتكم واستوايكم على تختكم واطمئنانكم على كرسي ملككم، وإحراز تراث الملوك العظام من آبائكم وسلفكم فتأسفنا لوفاة ولينا المرحوم والدكم، تأسّف الصديق لصديقه والأخ لشقيقه، والصاحب لوليه ورفيقه، ثم سررنا بولايتكم سروراً أضحمل له ذلك الأسف من بعد الرسوخ وصار دليله في حكم المنسوخ، فكان ذلك ترحة أعقبتها فرحة، ومرض ألم بالقلوب فعاجلته بحمد الله الصحة، وإلى هذا فالذي يحيط به علمكم اننا قد كنا لحين ما ألم بنا ذلك النبأ الفاجع من قبل ورود كتابكم وموافاة خطابكم، بادرنا بإزعاج إرسالنا إلى أبوابكم وأركبناهم مطايا التسيار إلى اعتنائكم برسم التعزية والتهنئة لمقامكم وسنورد على أبوابكم إن شاء الله بعد هذا من قبلنا ارسالاً أُخرى ونوالي رسائل ودنا إليكم تترى، والله تعالى يجعل حبل الموالاة في ذاته وإعلان كلمته مديداً وسيف الإسلام لطواغيت الشرك وأحزاب الكفر هناك وهنا مبيداً بمنه...)(86)

وإلى جانب هذه الرسالة بعث بأُخرى إلى الصدر الأعظم سنان باشا وهي من إنشاء الكاتب محمد الفشتالي، وقد تضمنت علاوةً على ذلك التهنئة بجلوس «مقام ولدنا السلطان محمد ابن السلاطين العظام...»(87)

هذا وقد كانت الولاية الجزائرية والمملكة المغربية كلٌّ منهما يمر بظروف صعبة ظهرت فيها بعض العناصر الموتورة، والعميلة أحياناً، من التي تسعى لنسف

---

86) المصدر السابق ص 143.

87) رسائل سعدية ص : 98 ـ 99.

مجهود كل من الجهتين من أجل استرجاع قوتهما، ولم يكن أمام القادة من اختيار إلا أن يتبادلا المعونة لقطع الطريق على المتطلعين والمتسلقين، وقد تجلت هذه السياسة في بعض الرسائل المتبادلة بين المغرب والجزائر...

فعلا لقد تأكدت مملكة قشتالة (اسبانيا) من مخطط أبي العباس المنصور الذي يرمي لاسترجاع الأندلس، وتجلّى هذا التأكّد فيما بلغها من أصداء رسائل تبادلها العاهل المغربي مع الباب العالي، وتقارير رفعها جواسيسها عن توجيه اهتمام العاهل المغربي لبناء الأُسطول المغربي وبخاصة بعد إعلان الممالك الإفريقية ولاءها للملكة...

تأكدت إسبانيا من ذلك ـ وكانت تحتفظ ـ منذ زمان ـ بأحد الأُمراء الناقمين : الناصر ابن عبد الله الغالب، فأجمع رأيها على توجيه ضربةٍ ماحقةٍ وقاسيةٍ لجيش المنصور، وجندت لذلك سائر إمكانياتها جاعلة على رأس كل ذلك «الشقيّ الناصر حليف الصليب وولي الطاغوت، ورضيع لِبان الموالاة لدولة الأُقنوم والناسوت» على حد تعبير رسالةٍ موجهة منه لأَحد قواده بالسودان(88) وقد استنزفت حقيقة هذه المناورة الخطيرة والموقوتة استعداد المنصور للأندلس قبل أن يتمكن من أجتثاث دابر الناصر الذي نزل بمليلية بتاريخ 24 شعبان 1003 = 9 ماي 1595.

وقبل هذا كان دور تشغيب مملكة قشتالة على الجزائر ذاتها بتحريك أحمد ابن القاضي سلطان كوكو جنوب بجاية وتسليطه على حسن باشا الذي تنبه للخطر المحدق به فقاوم التمرد... وبعث إلى العاهل المغربي بالسفير يوسف الكِيخْيَا الذي سجّل تقدير الجزائر لموقف المغرب، ومن المهم أن ننبه إلى تتبع بعض العبارات التي وردت في أحد كتب المنصور : «نحن بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا لنصرتكم على أتم أهبة واستعداد...».

☆ ☆ ☆

وإذا كنا لم نقف إلا على رسالةٍ من المنصور إلى القسطنطينية بعد تحركه في بلاد سنغاي، إذا ما استثنينا رسالة التعزية في السلطان مراد، فقد سجلنا ـ على العكس من ذلك ـ صلاته الدائمة بزعماء الأَقطار الشرقية، فقد كان السلطان المنصور

---

88) رسائل سعدية ص : 174.

يجد في مراسلة العلماء وأقطاب الفكر...(89) تدليلاً على إبراز شخصيته كعاهل ينتمي لآل البيت ويستحق السند والعون من زعماء الإسلام أينما كانوا، وان قراءة الخطابات التي كانت توجه إلى هؤلاء الرجال لتدل على أن الهدف لم يكن فقط طلب إجازات علمية أو تقديم صلات وهبات، ولكن الهدف كان هو اطلاع الرأي العام على نشاط العاهل في مقارعة التسرب والغزو الأجنبي للسواحل المغربية وعمله على توحيد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا تمهيداً لاسترجاع الأندلس وعملاً على نشر العدل والإنصاف والرخاء في البلاد وقضائه على عناصر الشّغب التي تساعد الأجانب على تفشيل مخططاته العملاقة...

وحتى نعرف الدلالة الحقيقية لمثل تلك الرسائل إلى قادة المشرق يجب أن نستعرضها على ضوء الأحداث الجارية في الساحة الدولية، ان الأمر لا يتعلق بمراسلات عادية ولكنها خطابات وثائقية قمة في الدلالة على ما كان يقوم به المنصور السعدي من اتصالاتٍ على مستوى عالٍ لضرب مصالح إسبانيا ليس فقط على الصعيد الإفريقي ولكن أيضا على الصعيد الدولي !

ولا بد لكي نوضح ما نقول أن نستعرض الرسالة التي بعثت بها لاهاي بتاريخ 31 اكتوبر 1596 = 9 ربيع الأول 1005 إلى المنصور السعدي ونحن نعرف سلفا صراع هولاندا، ومعها أنجلترا، ضد إسبانيا. لقد كتبت إلى العاهل المغربي تطلب إليه أن يمنح رعاياها جوازات تسمح لهم بالالتجاء إلى المغرب عند الحاجة، وتخولهم الامتياز الذي للرعايا الإنجليز والدول الصديقة، لماذا ؟ لأن المعارك بين الأطراف لم تكن بعيدة من قادس ! ولأن نية المنصور السعدي تجاه فيليب الثالث كانت معروفة جداً لدى لاهاي وخاصة بعد أن أقدم فيليب على تسليط أحد الثوار ضد المنصور لتفشيل مخططه في الأندلس !

وبعد هذا فليس من قبيل العبث أن نجد المنصور السعدي يقوم بكتابة ثلاث رسائل في تاريخ واحد هو ربيع الأول 1005 وهو التاريخ الذي يوافق اكتوبر نونبر 1596 الذي يتحد مع رسالة لاهاي... كانت اثنتان منها من إملائه

89) مناهل الصفا ص : 108 - رسائل سعدية ص : 179 - التازي : رسالة المنصور الذهبي لأحد أقطاب المشرق (مجلة دعوة الحق، عدد أبريل مايه 1967.

وكانت الثالثة بخط يده، الأُولى والثانية لكل من الشخصين الإمامين أبي عبد الله محمد زين العابدين البكري وأبي عبد الله محمد بدر الدين القرافي... كان فيما قاله في الرسالتين المحررتين في العاصمة مراكش.

(... ثم مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى وإهداء المسرة الكبرى اعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الأَصنام لما أنس من تلقاء جنابنا نار العزم تلتهب منا التهابا، وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطراباً، وهممنا قد همت بتجديد الأُسطول والاستكثار من المراكب المتكلفة للجهاد إن شاء الله بقضاء كل دين ممطول، وعلم أن الحديث إليه يساق، وإلى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق، رام خذله الله مكافأتنا على ذلك بما أمل أن يفت به في عضدنا الأَقوى، وعزمنا الذي بعناية الله يزداد ويقوى، فرمى بمخذولٍ من أبناء أخينا عبد الله كان ربى لديه، وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاماً إليه، إلى مليلية إحدى الثغور المصاقبة لغرب ممالكنا الشريفة التي إلى كفالة ولدنا وولي عهدنا كافل الأُمة من بعدنا...(90)

وقد كان مما كتبه إلى سلطان مكة والمدينة والحجاز، الشريف أبي المحاسن حسن بن أبي نُمَّى ابن بركات بعد التحلية :

«... هذا وأن شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع إلى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذي ليس بعاف ولا محيل، وهب له من محارم الله نسيم يميل، وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل، مد إلى علي مقامنا أكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله، ويتعرف منه السعادة بحول الله في مرتحله وحله، يتضمن الإيصاء به إليكم في المورد والمصدر، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر، فحملناه هذه العجالة لترعوا له إن شاء الله عنها الحق المعتبر، وتولوه من جنابكم بما يصدق به الخبر، وتدنوا له من آماله قطوف كل فنن مهتصر، ومما نكلفكم النهوض لأجل حقوق الأخوة بأعبائه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس

(90) الاستقصا : 5 / 147 ـ 150 ـ 151 Hesp 1953. p : 511

الدعاء مع الأحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس، وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء إطلاله الدرس، حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التي طالما سكت عنها نداؤه وخرس، وشرق بريقه فغص وخنس...»

☆ ☆ ☆

ولقد كانت خزانة المنصور تزود باستمرار بكل ما يجد، وكان الأمين الدفتري السوري من بين الذين يبعثون بنفائس الكتب الشرقية لبلاط المنصور.[91]

وقد شاهدنا وفوداً من الشام والعراق ومصر والحجاز وغيرها في البلاط السعدي للمشاركة في الاحتفالات بالمولد... وقد اجتمع لدى المنصور ذات يوم ثلاثة أعلام، كلّ واحد من أهل المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال : المدينة ومكة وبيت المقدس،[92] وقد خاطب أحدهم وهو علاء الدين الخليلي الأشعري خاطب المنصور بقصيدة جاء فيها على الخصوص :

جُستُ الأراضي واختبرتُ ملوكَها ... ولقيت مَن فيها من الأمجاد

ما شاهدتْ عيناي، مثلك في الورى ... تتبين الأشياء بالأضداد !

بل جودكم عمَّ الأنام وقدركم ... أرْبَى على المأمون في بغداد

ولا شك أن هذه التظاهرات كانت تخلف أثراً طيباً لدى سائر المشارقة الذي كانوا لا يترددون في الإعراب عن رجائهم في أن يشملهم المنصور السعدي في ظلال حكمه وملكه.[93] كما لا يترددون في التأليف عنه على ما سمعناه من قاضي حلب وقرأناه عن أكابر القسطنطينية العظمى وعن مصر كذلك.[94]

وقد أسلفنا ما نقله السفير التمكَروتي عن انطباعات الأفارقة والمصريين حول هذا الموضوع، تلك الانطباعات التي كانت تبلغ دون شك لعلم الآستانة...

91) خلاصة الأثر : 4، 390 ـ 120.
92) المقري : روضة الآس ص : 13 ـ 14. التازي : تاريخ القرويين ص : 360.
93) الأعلام للمراكشي ج 1 ص : 90.
94) المقري : روضة الآس ص : 20.

وقد كان من موضوع المراسلات المغربية المشرقية - وهذامهم - متابعة المغرب لتصحيح ما يقال عنه من لدن الكتاب المشارقة على ما أشرنا إليه...

وقد كان مما أنشأه أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي ما خوطب به بعض علماء المشرق عن الحضرة المنصورية عندما ورد أبو العباس أحمد الماسي يصحب معه كتاباً تحدث فيه صاحبه «أبو فلان العلوي» عن المغرب...[95]

ومن إنشاء أبي فارس عبد العزيز الفشتالي خطاب حول موضوع مماثل لكن ميزته هو النص على أبي الفضل مصطفى ابن حسن الحسيني الذي وردت تكنيته في الموسوعة الإسلامية (مادة الجنّابي) بأبي محمد المتوفى 999 = 1590، وكان هذا هو صاحب كتاب «العَيْلم الزاخر في أحوال الأوائل والأَواخر» المعروف بتاريخ الجنّابي...

ولما وقف بنا رائد التأمل[96] على ما فيه من أخبار هذه الدولة الكريمة التي اجتلبتم منها حصاةً من ثبير، ونفحةً من عبير، وأجلنا النظر في النبذة التي ألممتم بها إلمام طيف الخيال، وأطلعتم من سوادها على الصفحات البيض نقطة خال، عثرنا لكم في ذلك - أكرمكم الله - على غلطٍ واضح وضوح النهار، وألفينا طِرفَ التعريف قد كبا بقلمكم لفِيه في ذلك المضمار، إذ سلك شِعباً وقد سلكتْ الدولة وادياً، وجرى على غير سمتها فلم يجد هادياً، فكم من خَبَر قد زحزح عن محله، ونُسب إلى غير أهله، وآخر مجهول الأَصل والمبنى، زائد اللفظ والمعنى، وعلمنا لذلك أن هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم رأساً حقائقُها، واشتبهت على علمكم طرائقها وعذركم في ذلك واضح لتنائي الديار، وبعد الآفاق والأَقطار، وشط الوصول وشحْط المزار، وإلا فانتماؤكم للجناب النبوي الكريم، والمحتد العلوي الصميم، يأبَى الرضى بتلك الصبابة المصبوبة في حق هذه الدولة الكريمة التي هي نور الفلق وتاج المفرق، ولما أنِفنا أن يبقى ذلك الخيال، والغلط المنبت الحبال، فيكون في تأليفكم وصمة، وفي جانب الدولة العلية ثلمة، توجهت إشارتنا الإمامية المشرّفة إلى أحد كتابنا، وعميد أيادينا، وفرسان الإنشاء بعلي بابنا وكريم نادينا، والحلْبة المثقفة بتربيتنا

95) كَنون : رسائل سعدية ص 76 - 77 - 78.

96) نفس المرجع ص 237 - 241.

وأدبنا، بتلخيص موضوع يكون لأخبار هذه الدولة الكريمة إن شاء الله الشاملَ المستوعب، والموجز المسهب، يعتمد الفضلاء أمثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه، ويتخذونه إن شاء الله قبلة يصلون إليه، وقد زجي بحول الله عن قريب تمامه، وأوشك زهره أن تتفتح أكمامه، ويفوح بمسك الختام ختامه، وعرفناكم لتمسكوا إن شاءالله عن نشر ما لفقتموه في تاريخكم هذا من تلك الشذور، وتصرفوا عنان القلم عن بثها إلى أحد من الخاصة والجمهور، حتى تأتيكم إن شاء الله من قبلنا مرتبة في أسلاكها، باهية بالطلوع في أبراجها السامية الذوائب وأفلاكها بحول الله وقوته.

وحامل العجالة، ومبلغ الرسالة، الفقيه الخيّر أبو محمد عبد العزيز الثعالبي يصلكم من إتحافنا إن شاء الله خمس عشرة مائة أوقية ذهباً وصلْنا بها علاكم على سبيل الإيثار وتودية بعض مالكم من الحقوق الجمة بكريم هذه الدار، ولا تزال عوائد صلاتنا مرتبطة بذلك الموصول، ومشفعة لكم بأمثالها مع من يرد إن شاء الله من قبلنا على تلكم الأبواب من بعث أو رسول والسلام.

☆ ☆ ☆

لقد ظلت علاقات المنصور بالباب العالي مستمرة إلى آخر أيام حياته، وهكذا نجد رسالة من السلطان محمد الثالث محررة في اسطانبول بتاريخ 5 ربيع الأول 1012 = 23 غشت 1603 كتبها إليه استجابة لطلبٍ من ملك فرنسا هنري الرابع الذي كانت تضايقه رقابة الأُسطول المغربي في البحر المتوسط لِما يمرُّ من سفن فرنسية....

لقد كتب محمد الثالث إلى أحمد المنصور الذي كان قد إستسلم لمرض موته يلتمس منه تحرير البحارة الفرنسيين ويطلب إليه أن يعمل على منع رعاياه من شراء الأسرى الأفرنج من القراصلة الخارجين عن قانونه في الإيالة الجزائرية والتونسية...

☆ ☆ ☆

لقد التحق المنصور بالرفيق الأعلى (1012 = 1603) وهو يئنٌ من «الحب المفقود» بينه وبين القسطنطينية وولاتها في الجزائر على ما نقرأه في رسائله

الأخيرة التي وجهها إلى ولي عهده بابا الشيخ في مهل جمادى الأولى من عام أحد عشر وألف...[97]

وقد جلس على كرسي الحكم بعده ابنه الأمير زيدان الذي اصطدم بعدد من المشاكل، كان في أولها مضايقة أخيه أبي فارس له واضطراره إلى الالتجاء إلى تلمسان (1012 = 1604) قبل أن يتمكن من العودة إلى مراكش معتمداً على نفسه !

ومن المفيد أن نعرف عن شخصية السلطان مولاي زيدان من خلال رسالته العظيمة التي كان يستصرخ فيها بأبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي ضد الثائر بن أبي مَحَلِّي.... وفيها يتجلى عمق إدراكه وصدق وطنيته وبعد نظره :

«لقد التقيت بالترك والأروام[98] وجالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم، فمنهم مشافهة ومنهم مراسلة، وكنت أيام مقامي في أرضهم كمقامي على سرير ملكي، لأن كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ويمدّ كفه رغبة في نعمتي، وواسيت الجميع عطاءً مترفاً مع قلة الزاد والذخيرة، وترفعت عن مواساة الأماثل والأكابر من العجم[99] والعرب، ولا ركنت لاحد، بل تجودت بما قدرت عليه من الأخبية، حتى جعلت محلة برماتها وخيلها، فترامت علي العجم بالرغبة، وبسطوا أكف الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم، وعرضوا عليّ الإقطاعات السنية، والبلادات الملوكية بلطف مقال وأدب خطاب، حتى قال لي القبطان مراد رئيس المجاهدين : «وما مثلك يكون مع العرب ! هانحن نخدمك بأموالنا وأنفسنا، وبما لنا من السفن حيث أردت وأحببت». وما انفصلت عنهم حتى كتبت لهم بخطي «إني أحمل أهلي وحاشيتي وأرجع إليهم» إلا إن تمكن لي الدخول في الملك والغلبة على البلاد أو بعضها، وقفلت من عندهم ولم يتعلق بثوب عفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب، ولا كان لأحد عليّ منة ولا نعمة إلا فضل الله سبحانه، وكان فضل الله علينا عظيماً.

---

97) الإفراني: نزهة الحادي ص : 174 ـ 175 ـ 176 ـ 178.

98) الاستقصاء : 6، 45 ـ 47.

99) يلاحظ أن زيدان يقصد بالعجم الأتراك على نحو ما كان من أبيه المنصور.

ثم إني دخلتُ سجلماسة، على رغم أنف أهلها وواليها، ومنها دخلت السوس، وجعلت وليَّ الله العارف به أبا محمد عبد الله بن المبارك واسطة بيني وبين أخي حتى اجتمعت بأهلي ومالي، ثم بعث إليَّ الترك بأحد باكباشات اسمُه مصطفى صولجي إلى السوس راغبين في إنجاز الوعد، وجنحت للمسير إليهم فرأيت الأهل والأتباع قد عظم الأمر عليهم واستعظموا الخروج، فأسعفت رغبتهم في المقام بالمغرب وشيعت الرسول قافلاً إلى قومه من سجلماسة عند الدخول الثاني لها ومغالبة أهلها عليها، وعززته برسول من عندي إليهم بتحف وأموال، ورد بها عليهم مع رسولهم...».

وكان مولاي زيدان تحدث قبل هذه الفقرة عن ظروف المغرب في أعقاب وقعة وادي المخازن والتفات الأطماع للبلاد، قائلا :

فقد فغر فمه لالتهام المغرب عدوان عظيمان : الترك وعدو الدين الطاغية (اسبانيا) فاضطر إلى الاستكثار من الأجناد لمقاومة العدو والذب عن الدين وحماية ثغور الإسلام...

☆ ☆ ☆

لقد أشرنا إلى هذه الرسالة لأنها تعطي فكرة عن السياسة الخارجية لزيدان، وخاصة إزاء تركيا وإسبانيا... وفعلاً فقد سار مع تركيا نفس سيرة أبيه : مجاملة ومصانعة، ولكنه كان إزاء إسبانيا شديد المراس.

وقد كان من نتائج تصلّبه مع الإسبان أن سطا قراصلة هؤلاء على مكتبة زيدان أثناء فتنة ابن أبي محلّي، وهو العدوان الذي نجد فيه العاهل المغربي يتوسل فيه بسلطان تركيا ليسند طلبه إلى ملك فرنسا[100] الذي كان زيدان يعتبره مسؤولاً عن تلك القرصلة حيث إن القنصل الفرنسي كان سبب الإهمال على ما قلناه في (العلاقات المغربية الإسبانية).

وحسبما تفيده رسالة من السلطان زيدان إلى هولاندا بتاريخ 10 غشت 1611، فإن العاهل المغربي بعث بسفارة إلى القسطنطينية... لعلها هي التي تحدث عنها صاحب الاستقصا، والتي كانت برئاسة أبي فارس عبد العزيز محمد التغلبي، حيث راحت تحمل رسالة وهدية قدرت بعشرة قناطر من الذهب،

(100 Morish Empire P. 131

ووصلت فعلاً إلى اسطانبول يوم 15 ذي الحجة 1025 = 24 دجنبر 1616 بعد أن انتظر خمس سنوات من إخباره لهولاندا بهذه السفارة خوفاً من تعرض الإسبان للبعثة الدبلوماسية.

وقد أمد السلطان العثماني سفارة المغرب ـ على ما يقال ـ بإثني عشر ألفا من الجند، إلا أنهم تعرضوا للغرق ولم ينج منهم إلا غراب واحد يحتوي على شرذمة قليلة !(101)

وقد احتفظت مخطوطة مغربية(102) بنسخ لعددٍ من الرسائل التي توجهت من الملوك السعديين الذين خلفوا المنصور، لكنها لاتحتوي على تاريخ، وبذلك صعب علينا أن نعرف مصدرها اللهم ما كان متعلقاً ببعضها مما نص فيه على بعض الأحداث المعروفة.

وهكذا وجدنا رسالة «إلى سلطان البحرين والبرين والعراقين تِرْب مولانا السلطان الوالد رحمه الله» تتحدث عن الرسائل والأرسال ووفودٍ تترى بين الجانبين... كما تتحدث عن فتن الخوارج والاعتذار بالأحداث عن متابعة الاتصال... وعندما أزاح الله الموانع رجعنا إلى عهود الآباء لجمع الكلمة...».

ووجدنا أُخرى محررة في مراكش وموجهة إلى الباشا... تتحدث عن الوالد المقدس وتجديد الموالاة كما تتحدث عن المنحرف الذي مكن العدوّ من ثغر من ثغور المسلمين، وهي تقصد دون شك إلى محمد الشيخ الصغير الذي مكن إسبانيا من العرائش وتختم بحضّ الباشا على تضييق الخناق على العدو...

☆ ☆ ☆

ولا ينسينا الحديث عن علاقاتنا بالعثمانيين... ما كان يتم من اتصالات مغربية مشرقية، ظلت وراء الظلال بالرغم من آثارها العميقة سواء في حياة المغرب أو في الوضع الاجتماعي للمشرق، فقد حفظ التاريخ أسماء عددٍ من الشخصيات المغربية التي قصدت تلك الديار لسبب أو آخر، فاجتمعت برجال الفكر هناك وكونت لها صداقات مع رجال العلم هناك.

---

101) الاستقصاء : S.I.H.M. Pays - Bas, S.I. P.668. 70, 6

102) مخطوطة بالخزانة العامة تحت رقم : ك/278 ص : 129 ـ 130 ـ 34 ـ 35 ـ 157 ـ 158 ـ 326.

الشيخ حسين بن قاسم المغربي العتيقي

المَنسوب إلى وادي درعة بفتح الدال المهملة وسكون الراء بعدها عين مهملة. قال لي : إن الوادي المذكور من توابع مدينة مراكش.

ورد إلى مدينة دمشق في أواخر صفر سنة **خمس بعد الألف** أحسن الله ختامها، فزارني في منزلي بالمدينة المذكورة، وتردد إلي مراراً في مدرستي الناصرية الجوّانية، بدمشق المحمية، وكان ذا فضل ظاهر، وذكاء باهر، وأخبرني أن سبب خروجه من بلاده زيارة بيت الله الحرام، وتقبيل عتبة سيد المرسلين عليه من الله الصلاة والسلام، فطاف الأقطار، وجاب الديار، إلى أن ورد إلى دمشق في التاريخ المذكور، وزار بيت الله المقدس، وخرج منه إلى مصر. وسمعت من بعض الواردين أنه رجع إلى بلاده.

ولما كان بدمشق سألته عن المرحوم السلطان أحمد الملقب بمولاي أحمد المنصور فقال لي : اجتمعت به في مقر سلطنة مراكش المحروسة، وسمعت من لفظه كثيراً من نظمه.

قال : فمن جملة ما أنشدنيه لنفسه هذه الأبيات السلطانية، وهي :

لا ولحظٍ سلب السيف المَضَا ... وثنايا مثل درٍّ أو بَرَد
ما هلالُ الأُفق إلا حاسدٌ ... لعُلاها وبَهاها والغَيَد
فلذا أمسى ضئيلاً ناحلا ... كيف لا يضنى نحولاً من حَسَد

وأنشدني أيضاً للسلطان المذكور هذا النظم الذي يفوق على قلائد النحور :

من عنبر الشحر أو من مِسْك دارينِ ... بلى، وسنه نسيماتُ الرياحين
مهفهف إن تثنّى قلت مقتضب ... من قضْب نُعمان أو كثبان يبرين
إذا تبسم خلت الدر منتظما ... تحت العقيق ووردأ فوق نسرين
وإن رَنَا فسهامٌ من لواحظه ... لها بشق قلوبٍ أي تمكين

قلت : وأخبرني الشيخ حسين المذكور أنه ولي القضاء في بعض نواحي مراكش، من جانب الملك المنصور المذكور، وعاد إليه والله أعلم.

عن كتاب تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تأليف الحسين بن محمد البوريني (1024 = 1615) ج 2، تحقيق صلاح الدين المنجد - دمشق، ص 176 رقم 110.

ولا بد أن نلاحظ أن الأحداث السياسية بالمغرب كانت تجد لها صدًى قوياً في تلك الأقاليم، الأمر الذي تدل عليه ماجريات التاريخ المعاصر.

ونظراً للمكانة المموقة التي كانت يتمتع بها العلامة المغربي أبو العباس أحمد المقري (تـ 1041) نرى أمير غزة يكرم وفادته على القدس سنة 1037 في أعقاب مغادرته لمدينة فاس أثناء المحنة التي تعرضت لها العاصمة العلمية، وتقديراً لوساطة أبي العباس هذا يقوم ببناء مدرسة ورباط للشيخ الغُصين ويجعل لهما أوقافا ظلت حسنة من حسنات المقّري الذي كان يحضر الكسكس بنفسه لزواره من المشارقة..!

ومما يدخل في إطار اتصال المغرب بالمشرق على هذا العهد أيضاً نشير إلى ركب الحاج الذي ما فتئ يتردد على البقاع المقدسة لدعم الصلات التي تربط بين جناحي العالم الإسلامي.

ونشير على الخصوص إلى البعثة الرسمية التي راحت سنة 1041 ـ 1042 لأداء المناسك والاتصال برجال الحرام، أيام السلطان الوليد بن زيدان السعدي، وقد تحدث عن هذه البعثة الشيخ محمد السراج المقلب بابن مليح المراكشي في رحلته الحجازية (أنس الساري والسارب).

وقد قال عن هدية السلطان الوليد : إنها كانت تتألف من حسكتين من عسجد مركبين على يواقيت من زبرجد، وزن كل واحدة منها أربعة أرطال من ذهب وحسكتين من فضة خالصة وزن كل واحدة منهما عشرة أرطال وصندوقين مملؤين بشمع العنبر، وعشرة آلاف من الذهب المطبوع مع رسالة وقصيدة...

وقد فتح للمبعوث المغربي باب الروضة فدخل حتى وضع جميع ذلك ووضع الرسالة والقصيدة بعد فض ختامهما وقرئت بمسمع مرشد البشر... ودفع المال لحراس الروضة وسدنتها، وفي كل ليلة يركب شمع العنبر في تلك الحسك وتوقد من وقت المغرب إلى الصباح، وكتب في دارتَيْ حسكتَيْ الذهب بخط أخضر :

متع لحاظك في محاسن منظري	لترى عجائبَ مثلُها لم يعهد
قمر على غصنِ الزبرجد قائم	ينبيك عن حب الوليد لأحمد ؟

ولا ننسى بهذه المناسبة أن نذكر هنا أحمد بن قاسم الحجري المدعو أفوقاي الذي كانت له مجالس بمصر وخاصة مع الشيخ علي الأجهوري على ما نقرأه في رحلته المعروفة برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب.

ولنستمع أخيراً إلى بعض الشّعر الذي ينص بصفةٍ خاصة على ما خلّفته معركة وادي المخازن 986 ـ 1578 من أصداء في أقصى إمارات الخليج :

يقول أبو فارس عبد العزيز القشتالي الأديب والمؤرخ والوزير على ذلك العهد، من قصيدة نونية طويلة تعرضت للموقعة المذكورة :

مِنَ اللائي جرَّعن العدا غُصَص الردى وعفَّرن في وجه الثرى وجه (بستيان) !
فكم هنأتْ أرضَ الفُرات بك العَلاء ووافتْ بك البُشْرى لأرض عُمان

☆ ☆ ☆

وهكذا أصبحنا نسمع في المشرق تعريف «المغربي» بأنه «من أهل وادي المخازن» على نحو ما سمعنا بالأمس عن «أهل بدر» !![103]

أُريد أن أقول أن انتصار الجيش المغربي على الجيش البرتغالي في وقعة وادي المخازن هو الذي عزَّز البحرين سنة 1011 = 1602 في التخلص من البرتغال، وأن ذلك الانتصار هو الذي ساند عُمان منذ سنة 1043 = 1633 لمطاردة البرتغال من صحار وجلفار ومسكد، وهكذا استطاع شاعر الخليج الشيخ الغافري أن ينشدنا من قصيدته الميمية :

فغدت من عُمان كف بني الأصفر صفراً قد هزها الانهزام !

وقد اعترف المؤرخ البريطاني (روبيرت ليندن) بأن مصرع ملك البرتغال في المغرب هو الذي فكك أوصال الوجود البرتغالي في الخليج...[103]

103) كان المشارقة يتتبعون بالأمس سقوط القواعد الأندلسية والمغربية باهتمام كبير على نحو ما نراهم يهتمون اليوم بصد عدوان البرتغال على المغرب ـ عبد الباسط الحنفي : الروض الباسم، (مخطوطة بحاضرة الفاتيكان) التازي : في تاريخ المغرب الدبلوماسي، دعوة الحق (الرباط) مارس 1971 ـ جريدة الاتحاد أبو ظبي 8 نيسان 1971 ـ البيان (الكويتية) عدد 62 مايه (آيار) 1971 ـ العلم 19 غشت 1972 ـ الأنباء 14 غشت 1974 محاضرات الموسم الثقافي لعام 1395 ـ 1396 = 1975 ـ 1976 دولة الإمارات العربية المتحدة وزارة الأعلام والثقافة ـ الإدارة الثقافية ص : 73 ـ 85.

لقد كنت أتمنى أن لو امتدّ العمر بالملاّح العربي ابن ماجد الذي تحدث في أرجوزته حول النزول النهائي للبرتغال في الهند بهذا البيت:

وهو الذي قد قهر المغاربة وأندلس في حكمه مناسبه

لو امتدّ به العمر لعام 986 = 1578، إذن لقرت عينه !![104]

☆ ☆ ☆

الأشراف السعديون وأئمة اليمن
رسالة من المؤيد بالله إلى أهل المغرب
التمسك بأحقية أهل البيت...

ومما له صلة بمشاعر الأشراف السعديين إزاء تشوف الأتراك إلى الاستيلاء على بلادهم نذكر هنا هذه الإفادات التي تكشف عن صلة الأمراء السعديين بأئمة اليمن بالرغم من المسافات التي تفصل بين المنطقتين...

ويتعلق الأمر بالرسالة التي توجه بها إمام اليمن المؤيد بالله محمد بن القاسم إلى أهل المغرب بواسطة الطاهر بن عبد الله الإدريسي يدعوهم فيها للتمسك بدعوة أهل البيت. ويقترح عليهم فيها توحيد كلمتهم لتنصيب السيد الطاهر إماماً عليهم.

وقد احتُفظ بالنص الكامل للرسالة في المجلد الثاني من مخطوطة سيرة الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم،[105] ومن المهم أن نشير إلى أنه ورد ضمن هذه الرسالة المتحدث عنها نصّ الرسالة التي كان الإمام إدريس الأول بعث بها إلى صاحب مصر على ما تقدم عند الحديث عن علاقات الأدارسة بالخارج في المجلد الرابع من هذا الكتاب.

104) د. التازي : ابن ماجد والبرتغال، مجلة البحث العلمي العدد 36 ـ 1987 ـ وزارة التراث / سلطنة عمان...

105) المخطوط محفوظ في مكتبة أمبروزيانا بميلانو (إيطاليا) تحت رقم 115 ورقة 71 ـ 75 وتوجد لها صورة بالخزانة العامة بالرباط (المغرب) هذا ومن المحتمل أن يكون «الطاهر» بمعنى النقيب (ابن بطوطة III 28) وقد دأبوا في اليمن على تلقيب كل من يسمّى «الطاهر» بالنّقيب التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 4 ص 40 ـ 41.

ويبدو من تاريخ الرسالة أن مَقْدَم الطاهر بن عبد الله إلى اليمن كان في أعقاب الفتن التي شبّث في المغرب إثر اختفاء الملك العظيم أحمد المنصور السعدي، وإثر تطلع عدد من الزعماء لتولي الحكم، ولعل من أسباب السفارة والرسالة تلك المآسي التي عاشتها البلاد أيام الوليد بن زيدان.(106)

وهكذا نقرأ في المخطوطة المشار إليها هذه الفقرات التي تتحدث عن أيام محمد المؤيد بالله(107) والتي تختم بإيراد النص الكامل للرسالة :

«وصل في آخر أيامه رضوان الله عليه السيد الجليل العالم النبيل الطاهر بن عبد الله الإدريسي من بلاد المغرب الأقصى وكان وجده السيد العلامة هاشم بن حازم بن أبي نُمَيّ، وهو في زبيد، سائحاً لا حالة له، عليه أسمال، في هيئة السؤال، وعرفه وعرف علمه ومنصبه الشريف فرفع قدره وطالع فيه مولانا الحسن عليه السلام فاستدعى وصوله إلى مقامه وعرف ما عنده من فنون العلم وانه من أهل بيت ملك، وأخبره أنه خرج خائفاً من ابن عمه ملكها فقرّبه كثيرا وأقام عنده أياماً وأعطاه ما يجل ويعظم من الخيل والخلع النفيسة والنقود على أنواعها الكثيرة وأرسله مع بعض خواصه إلى الإمام عليه السلام، فأخبرني ذلك الرسول أنه رأى في طريقه ما يدل على أنه من الملوك وأكابرهم وأهل الهمم العلية، وتوفي مولانا الحسن (بعد عام 1045) وقد انفصل من عند الإمام عليه السلام، وقد أعطاه الإمام عطاءً جزلاً وكتب معه دعوةً إلى المغرب الأقصى، وأخبرني بعض أصحاب مولانا الحسن رحمه الله في أن يدعو إلى نفسه في المغرب،

---

106) لقد أجهز الوليد على أخيه إسماعيل وعلى سبعة من بني عمه وعلى اثنين من أولاد أخيه عبد الملك ونحن نعلم عن انهماك الوليد - بالرغم من مزاياه الأخرى - على سماع المسيقى ليل نهار وإهماله النظر إلى شؤون الدولة وقد كان مما سبب اغتياله أن العلوج طالبوه بمرتبهم قائلين : أعطنا نأكل، فأجابهم - وهو مترع بعصير الكروم - كلوا قشر النارنج بالمسرة (اسم حديقة من الحدائق السعدية) فغضبوا لذلك واغتالوه... وقد أصبحت كلمة «كلوه بقشوره» مثلا يضرب في المغرب للمنعم المترف الذي لا يقدر ظروف الجائعين المعذبين.!!

107) ورد في ترجمة الإمام محمد بن القاسم أنه نهج طريق والده في محاربة الأتراك واستنصر أهل اليمن لإجلائهم كما عمل على إرساء الدولة القاسمية، حتى وصلت قواته سنة 1045 = 1636 إلى أبواب صنعاء وأخذت في محاصرة القوات التركية بقيادة أخيه الحسن... وشبت معركة «الصافية» التي استسلم فيها الأتراك أمام الحسن وتنازلوا له عن جميع المدن بما فيها زبيد وجزيرة كمران ومرسان. أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص 265.

وسمعت كذلك من غير المذكور والله أعلم أيّ ذلك كان، فهل تم له أمر أم لا ؟ وهذه فقرات من الرسالة التي تحملها إلى المغرب الأقصى.

«... قمنا لله داعين، وبأمره في عباده معلنين، ولما يجب من شريعته مبلغين، ولم نزل نعمل النظر في تبليغها إليكم وإقامة حجة الله بها عليكم... إلى أن اتصل بنا السيد الجليل الأوحد النبيل واسطة عقد السيادة ودرة تاج الشرف والمجادة الطاهر بن عبد الله، رعاه الله تعالى، فأخبرنا عنكم... أنكم إن شاء الله أحق من قام لله بحقها... وإلا فأين جدّكم عبد الله الكامل بن الحسن الرضى... وأين أبناؤه سادة الدنيا وزينة الأحياء، الذين أشار إليهم جدكم الإمام الأعظم إدريس بن عبد الله سلام الله عليه في رسالته إلى أهل مصر...

نعم فكتبنا لكم دعوتنا هذه داعية إلى مثل ما دعا إليه سلفنا وسلفكم من كتاب الله وسنة رسوله والدخول مع جماعة إخوانكم من أهل البيت فيما دخلوا فيه... وأمرنا السيد الجليل الطاهر بن عبد الله أن يبلغها إن شاء الله إليكم ويأخذ عهد الله فيها عليكم ويستعين - بعد الله - بكم على نشر أعلامها... وسبحان الله وما أنا من المشركين بتاريخ العشر الوسطى من ذي القعدة الحرام عام ثمان وأربعين وألف بدرب الأمير من وادي أقر من بطن جحور وأعمال محروس شهارة...»(108)

☆ ☆ ☆

وفادة تشيرلى وعلاقتها بالصراع التركي

ولا بدّ من الإشارة - ونحن في نهاية الحديث عن العلاقات المغربية التركية - إلى سفارة أنطوني شيرلي إلى بلادنا سيما وهي تمس أساساً محاولة الحصول من المغرب على وفاق بإشغال تركيا في شمال إفريقيا حتى تكفّ عن بقية الجهات الأخرى...

---

108) عبد الهادي التازي : وثيقة لم تنشر عن المولى إدريس. مجلة (المناهل) المغربية عدد 11 - 1978 ص 105.

لقد كان الأمر يتعلق بتحرك دولي كان منطلقه في البداية من دولة فارس، وبالذات من الشاه عباس الكبير الذي قرر محاربة خصومه فقام بإرسال الشخصية الإنجليزية المذكورة إلى البلاد الأوربية وإلى الديار المغربية بهدف إبرام تحالف دولي ضد الأتراك في أعقاب الحملات العثمانية المتوالية على منطقة العجم.(109) فعلاً لقد ودّعه الشاه من إصفهان مقر إقامته آنذاك وأرفقه صحبة (بحسين علي بينك Benk) الذي كان يمثل - في الواقع - بلاط فارس والذي رافقه عروج بينك ابن أخيه في هذه السفارة.(110)

وحسبما يذكره الدكتور ك. بياني (k. Bayani) فإن أوراق الاعتماد التي سلمها الشاه عباس إلى شيرلي ربما كانت فريدة من نوعها، فهي موجهة إلى سائر الأمراء لكي يمنحوا ثقتهم سفيره فيما يبلغه أو ينقله...(111)

وعبر موسكو وصل إلى براغ حيث استقبل من طرف الأمبراطور رودولف الثاني (Rodolphe) ثم استقبل في السنة الموالية في روما من طرف البابا كليمان الثامن... وإذا علمنا أن الأتراك كانوا يرتبطون بفرنسا باتفاقية 1536 = 942 لضرب مصالح إسبانيا أدركنا السرّ أيضاً في صلة شيرلي كذلك بفيليب الثاني ملك اسبانيا...

لقد عني الناس بمعرفة الأهداف التي ورد من أجلها شيرلي إلى المغرب لمقابلة السلطان أبي فارس عبد العزيز أوائل سنة 1606 = 1014 في مدينة مراكش، فمن قائل : إنه عهد إليه من طرف الأمبراطور... ليتوسل إلى العاهل المغربي حتى يقطع صلاته بقداسة البابا، ومن قائل : إنه ورد مبعوثاً من طرف فيليب الثاني لإقناع المغرب بعقد حلف معه ضد الأتراك الموجودين على ساحل الشمال الإفريقي والذين يعملون لمصلحة فرنسا بمقتضى الاتفاقية السالفة الذكر... لكن في المعلقين من ذكر أنه ورد من الشاه عباس ليشرح للعاهل المغربي

---

109) تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص 120.

110) تذكر المصادر الأوربية أن حسين علي بيك كان على خلافٍ مستمر مع شيرلي وانه تمسح هو وابن أخته أثناء مقامه باسبانيا.

111) K. Bayani : Les Relations de l' IRAN avec l'Europe occidentale à l'Epoque Safavide, Paris, 1937 p. 59 – 60

وضع الفرس أمام تربص الأتراك ! ذلك الوضع الذي يشبه تماماً وضع المغرب مع جيرانه الأتراك..! سيما وقد بلغ للبلاط الفارسي ما كان يبعث به الباب العالي من رسائل إلى السلطان المنصور يخبره بالانتصارات التي يحققها العثمانيون ضد الصفويين الشيعة... وما كان المغرب يبعث به من جوابات عن تلك الرسائل مما تقتضيه أصول اعتماده على المذهب المالكي على ما أسلفنا...

نحن أمام عدد من الوثائق المعاصرة التي تتعلق بمهمة شيرلي في المملكة المغربية - فهناك رسالة رفعها (شيرلي) نفسه من آسفي إلى براغ بتاريخ 15 اكتوبر 1605 بعد ثلاثة أيام من نزوله...[112]

وهذه رسالة مرفوعة من مراكش بتاريخ 16 دجنبر 1605 من طرف كُوي (Coy) إلى هولاندا تنعت شيرلي بأنه سفير لأمبراطور ألمانيا... وتقول : «إنه إذا كان مراد السفير الحصول من ملك المغرب على اتفاق يهدف لطرد الأتراك عن الجزائر وتونس فإنه لابد أن يجاب بالرفض من طرف العاهل المغربي !!

والواقع أن الدبلوماسية المغربية كانت لا تستجيب لإغراء الدول الأوروبية بالأمبراطورية العثمانية، ولهذا لم يسجل التاريخ أي نوع من أنواع الاتفاق ضد العثمانيين، ولم يسجل أي احتكاك بهؤلاء إلا عندما يتعلق الأمر بإيقاف زحف ضد أراضيه أو عدوان استهدف النيل من سيادته !

وبعد هذا فنحن أمام رسائل معاصرة كتبها الدبلوماسي الفرنسي ارنولت دوليسل (A. De Lisle)، كانت اهتماماً بتحركات (شيرلي)، لقد كان فيما نقله الوكيل الفرنسي - الذي كان في الوقت ذاته طبيب الأسرة المالكة - أنه علم بواسطة الأميرة المغربية لالاّ صفية أخت السلطان أبي فارس أن شيرلي ورد أيضا من طرف ملك إسبانيا لتأليب العاهل المغربي ضد تركيا على طول الساحل الإفريقي من جبل طارق إلى تونس شرقا، وأن ملك إسبانيا سيساعد العاهل المغربي على هذه

112) Jan Korinek : l'historique des relations Tchecoslovaques avec le Maroc, introduction par Dr. Tazi. Rabat, 1975 p. 10 – 11

التازي : العلاقات الدبلوماسية بين المغرب والنّمسا - مجلة (مرحبا) النمساوية العربية للاقتصاد والثقافة عدد 5 - 6 1977، ص : 54 - 55.

التازي : العلاقات المغربية الإيرانية عبر التاريخ - مجلة (المغرب) العدد 9 وزارة الشؤون الخارجية، العدد الأخير منها يوليه 1966.

الحركة على أن يتم الاتفاق بعد النصر النهائي على توزيع الشمال الإفريقي بين ملك المغرب وملك إسبانيا بحيث يصبح الساحل لملك إسبانيا والداخل كله لملك المغرب حتى تونس !!

ويضيف التقرير الفرنسي أن إسبانيا ـ منذ أن ارتبط الأتراك باتفاقيتهم مع فرنسا ـ أخذت تخطط لهذا المشروع، وأنها من أجل تحقيقه عدلت عن وعدها بمناصرة ملك البرتغال في وقعة المخازن، وان هذا المخطط لم يمت بوفاة السلطان مولاي عبد الملك بل إنها أي إسبانيا تستغلّ حوادث الحدود مع أتراك الجزائر لتجعل العاهل المغربي أكثر اقتناعاً بقبول الحلف المذكور معها.. بيد أن ملك المغرب ـ يقول التقرير الفرنسي ـ ظل يتملّص من اتفاقٍ من هذا النوع... إن المغرب كما أسلفنا غير متحمس للتحالف مع المسيحيين ضد الأتراك ولو أنه بالمرصاد لهؤلاء عندما تحدثهم نفسهم بالتّطاول على التّراب المغربي...

ومما يشجع إسبانيا ـ يقول التقرير الفرنسي ـ على مفاتحة المغرب حول هذا المخطط، اقتناعها من جهة بالكره الذي يكنه للأتراك الجزائر وتونس، ومن جهة أخرى معرفتها بدرجة الولاء الذي يكنه الشعب في الجزائر للعاهل المغربي باعتباره من سلالة الرسول...

ويضيف التقرير الفرنسي أن نجاح مثل هذا المشروع من شأنه أن يلحق ضربة قاسية لمصالح فرنسا بقدر ما هو في صالح إسبانيا سواء أيام الحرب أو أيام السلام... ويختم التقرير بذكر انطباعات المبعوث الفرنسي على هذا النحو : «إنه حسب التجربة التي يتوفر عليها طوال المدة التي قضاها بالمغرب لا يعتقد أن الملوك المغاربة يخدعون أبداً بعروض إسبانيا !!».(113)

وهكذا يتبين أن السيرانطوني شيرلي كان جادا في الحصول على حلف يستهدف في الدرجة الأولى كسر شوكة الأتراك، ولا بد أن نلاحظ هنا صمت بعض المصادر الأروبية والفارسية كذلك عن تكليف شيرلي بالسفارة إلى المغرب من طرف الشاه عباس، فهل إن الأمر يتعلق بصمت مقصود ؟ إننا على مثل اليقين من إن الشاه عباس عهد فعلاً لمبعوثه شيرلي بالمهمة في المغرب أيضا... إلا أن من الجائز أيضا أن يكون شيرلي قد أدرك وهو يزاول مهمته في الممالك

113) Sources inedites, Saadien (Frances) S. I. T. II p. 330 – Pays-Bas S. I. T. I. 108 Note I

المسيحية أن لا مناص من طرق أبواب المغرب نظراً للسمعة التي كانت تتمتع بها البلاد خارج الحدود والتي فرضت اسم المغرب على سائر الدول التي لها علاقة بمطامح العثمانيين الذين لم يشعروا في حياتهم بخصم أكثر مقاومة من الأمبراطور النمساوي في أُروبا، والعاهلِ المغربي في إفريقيا !! وكيفما كان الأمر سواء أكان سفيراً للشاه عباس لدى المغرب أو سفيراً للأمبراطور الألماني أو العاهل الإسباني فإن جواب المملكة المغربية بالرغم من تجشمها لمضايقة الأتراك ومناورتهم، كان يتلخص في أنهم أي المغاربة مهما بلغ الإضرار بهم من جانب العثمانيين، فإنهم لن يبرموا حلفاً ضد إخوانهم المسلمين...(114)

السير أنطوني شيرلي، سفير لدى السلطان زيدان بن السلطان أحمد المنصور من لدن عدد من الدول على رأسها الشاه الذي كان يحاول التغلب على العثمانيين...

114) د. التازي : سفارة أنطوني شيرلي إلى المغرب وعلاقتها بالتدخل الأُروبي في منطقة الخليج. مجلة المناهل المغربية، العدد 9 يوليه 1977 ص : 94 ـ 103.

Jan Korinek : l'historique des relations Tchecoslovaques avec le Maroc, par

علاقات السعديين بالبرتغال.

- السعديون يفرضون أنفسهم على البرتغال.
- الاتصالات الدبلوماسية الأُولى بين الجانبين.
- المباراة الرياضية التي لم تتم !!
- المغرب بين البرتغاليين والعثمانيين.
- نحو وقعة وادي المخازن الكبرى.
- مصرع ضون سباستيان وانهيار امبراطورية البرتغال !
- ردود الفعل الوطنية والدولية.
- المعركة بين الرواية المغربية والافادات الأجنبية.
- الزعماء المغاربة يطالبون بتحرير الثغور المحتلة : سبتة، طنجة، أصيلا...
- التجاء الأمير البرتغالي أنطونيو إلى المغرب ملتمسا استرجاع عرشه !

علاقات السعديين بالبرتغال...

فإذا ما انتقلنا إلى علاقات مملكة مراكش بمملكة البرتغال فسنلاحظ بادئ ذي بدء أنها لم تبرز إلا عندما ظهر أمر الثوار بالجنوب، فهناك أدرك البرتغال أن مما يحقق مصالحه أن يمد يده لهؤلاء «السعديين» بالجنوب إلى جانب اعترافه بالوطاسيين بالشمال فأصبحت بذلك للبرتغال ديبلوماسية ذات وجهين أو وجوه بالمملكة المجزأة..!

ونحب أن نشير إلى بعض الزعماء الذين ظهروا قبل استفحال أمر السعديين... وقد كان في أبرز أولئك الناصر بن يوسف الهنتاتي ملك مراكش الذي كتب رسالة إلى إيمانييل الأول بتاريخ 15 جمادى الأولى 908 = نونبر 1502 من مراكش، وقد أسعفه ملك البرتغال برغبته في التجارة والتعامل مع مراكش، وأنه سيبعث بوكيله في ماسة جـ. لوبيز (Joào Lopes) حيث بادر الناصر للترحيب[1].

وقد كتب إليه إيمانييل الأول أيضا جواباً عن خطابه الذي رفعه إليه فيرناندو دياس، وفيه يظهر مولاي الناصر استعداده لخدمة التاج البرتغالي طالباً رسائل لحماية السفراء الذين يعتزم إرسالهم للبرتغال لعقد اتفاقية ! وفي هذا الجواب البرتغالي الذي يحمل تاريخ 8 غشت 1514 = 16 جمادى الثانية 920 يقول إيمانييل : إنه يفضل أن يرجع دياس (DIAS) إلى مراكش حاملاً شروط الاتفاقية المقترحة، فإذا كان ملك مراكش على استعداد لقبولها فحينئذٍ يمكنه أن يبعث بسفرائه مزودين بالصلاحيات الكاملة للتوقيع[2].

لكن الزعيم الهنتاتي لم يلبث أن انضم لقيادة الشريف أبي العباس الأعرج بعد غزو هذا للمدينة مراكش بتاريخ 27 صفر 920 - 13 أبريل 1515 فاتجه اهتمام البرتغال عندئذ للشريف السعدي ! وهكذا فقبل تاريخ 10 شتنبر 1523 = 29 شوال 929 بعث حاكم آسفي العسكري القابطان كونصالو مينديس ساكوطو Gonçalo Mendes Sacoto سفارة إلى الشريف أبي العباس الأعرج[3] كانت تتألف من شخصين

---

1) S.I.H.M. Portugal T. I. p. 72 – 73

2) المصدر السابق ج 1 صفحة 587.

3) المصدر السابق، المجلد الثاني، القسم الأول ص 319.

بيرو ماشادو Pero Machado وأبراهام ابن زاميرو اللذين أبرما هدنة بضعة شهور مع الشريف المذكور، ويظهر أن مفعول هذه الهدنة سَرَى... وهكذا أدت عام 1524 = 930 إلى اتفاقيةٍ للسلام تحدثت عنها رسالة من الشريف إلى جان الثالث بتاريخ 24 صفر 932 = 10 دجنبر 1525 وكانت من أوائل الرسائل المغربية التي تقلت الأعداد بالأرقام العربية[4] وهي ما يعرف في المغرب بالأرقام الغبارية...

وقد حررت، كما نرى، هذه الرسالة بعد زهاء سنتين من كتابة رسالة من طرف ستة برتغاليين وقعوا أسرى في يد الشريف، رفعوها إلى جان الثالث بعد تاريخ 10 شتنبر 1523 = 29 شوال 929[5]، وبعد سنةٍ من عقد السلام مع الحاكم البرتغالي لآسفي، وتؤكد الرسالة ابرام عقد للسلام في السنة الماضية بواسطة قابطان آسفي وأزمور بواسطة المسيحي ماشادو : Machado، ولكن بالرغم من السلم المبروم فإن سكان أزمور كالشأن في سكان آسفي قاموا بأسر عدد من حلفائهم كما قاموا بنهب عدد من السائمة، وقد كان وَقَع خرق لاتفاقية السلام أثناء الفترة السابقة لهذا الاتفاق الذي تم بواسطة اليهودي أبراهام بن زاميرو - لقد نهبت بعض القوافل ولحد الآن لم يعوض جميع ما أُخذ منها، وإن السلطان مولاي أحمد يطلب من ملك البرتغال أن يستعمل نفوذه لدى بني عمه لصالح العدالة، وأن يبعث إلى آسفي بحَكَمٍ نزيه يعهد إليه بالوقوف على صحة ما يقوله من خرق بنود الاتفاقية...

وقد نفذت رسالة ثانية من أبي العباس الأعرج إلى قابطان آسفي الجديد كارسيا دوميلو (Garcia de Mello) بتاريخ 3 ذي الحجة 932 = 10 شتنبر 1526 وقد ورد نصها في مجموعة «مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب»[6].

وقد تبعت هذه الرسالة رسالة أُخرى من أحد وزراء أبي العباس الأعرج هو محمد بن أحمد إلى القابطان كَارسيا دي ميلو (G. de mello) يبهو محمد بن أحمد إلى القابطان كَارسيا دي ميلو (G. de mello) يرحب فيها بمقدمه بمناسبة تسميته حاكما جديدا لآسفي ويخبره بأن مولاي أحمد الأعرج يقترح التمسك ببنود الاتفاقية المبرمة بينه وبين حاكم آسفي السابق كَونصالو (Gonçalo) وهو ينتظر

4) S.I.H.M. Portugal T. II Prem. Part. P. 348

5) المصدر السابق ص 323.

6) المصدر السابق ص 356.

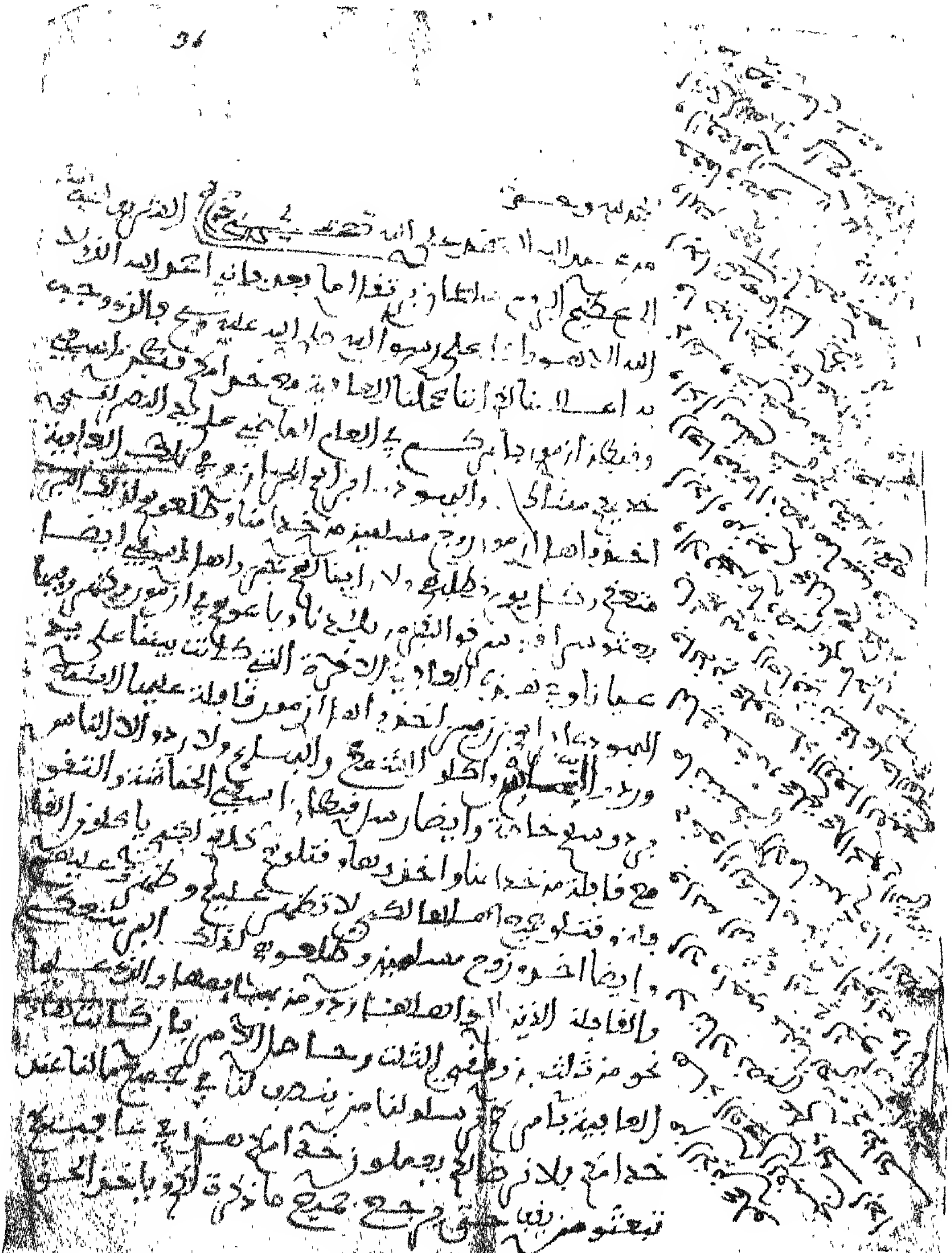

رسالة من مولاي أحمد الأعرج إلى جان الثالث بتاريخ 24 صفر 932 = 10 دجنبر 1525 عن الأصل في أرشيف طوري دو طومبو ـ ليشبونة

S.I.H.M – Portug. T. 2 Premier Parti P. 348

جواب كَارسيا وكانت رسالة الوزير بتاريخ 10 ذي الحجة 932 = 17 شتنبر 1526[7].

وقد وردت رسالة من كَارسيا إلى مولاي أحمد الأعرج بتاريخ 24 شتنبر 1526 = ذي الحجة 932 حول ما طلبه الشريف السعدي من إتاوات تؤديها القبائل الخاضعة للبرتغال ! وقد تجاهل كَارسيا الشعور بهذا المطلب قائلا : «إذا كان الشريف يرغب في السلم معنا فعليه أن يعدل عن مطالبه المُشِطَّة وإلا فإن كَارسيا يعتبر الهدنة منتهية !»[8].

وما لبث السلطان مولاي أحمد أن قبل عقد هدنة جديدة لمدة سنة بينه وبين جان الثالث وكان ذلك بتاريخ 22 ذي الحجة 932 = 29 شتنبر 1526[9] في نفس التاريخ الذي هادن فيه خصومهم الوطاسيون مملكة البرتغال.

وهكذا اذعن أبو العباس لقبول سائر الشروط التي نقلها إليه أبراهام زاميرو والتي اقترحها كَارسيا دوميلّو الذي كان طلب إلى الشريف أن لا يبالغ في مطالبه بفرض ضرائب على (الدشور) التابعة للبرتغال، وكان مما نصت عليه الاتفاقية تبادل المواد الغذائية بين الجانبين والموافقة على مباشرة أهل آسفي لحرثهم في إقليم المدينة : تازروت، بني ماجر، والقرى التابعة لآسفي، وكذلك على التجار المسيحيين بالأراضي التابعة للشريف في كل ما ليس ممنوعا في الدين الإسلامي...

وبين أيدينا مضمون الرسالة التي بعثها مولاي أحمد الأعرج إلى جان الثالث بتاريخ 22 جمادى الثانية عام 933 = 26 مارس 1527، وفيها يخبر ملك مراكش ليشبونة بأن أخاه مولاي محمد الشيخ سلم إليه رسالة من جان الثالث، وأنه عازم على تنفيذ التزاماته فيما يتعلق بشروط السلام، وبما أن جان الثالث دعاه للإعراب عن نيته حول الطريقة التي يطبق بها القباطنة البرتغاليون الاتفاقيات فإن مولاي أحمد اشتكى من سلوك كارسيا دوميللو قابطان آسفي، وحتى يعزز شكواه بكارسيا بعث مولاي أحمد لجان الثالث بنص الرسالة التي

---

7) S.I.H.M. T. II Portugal Prem. P. 359

8) المصدر السابق ص 364 ـ 365.

9) المصدر السابق ص 367.

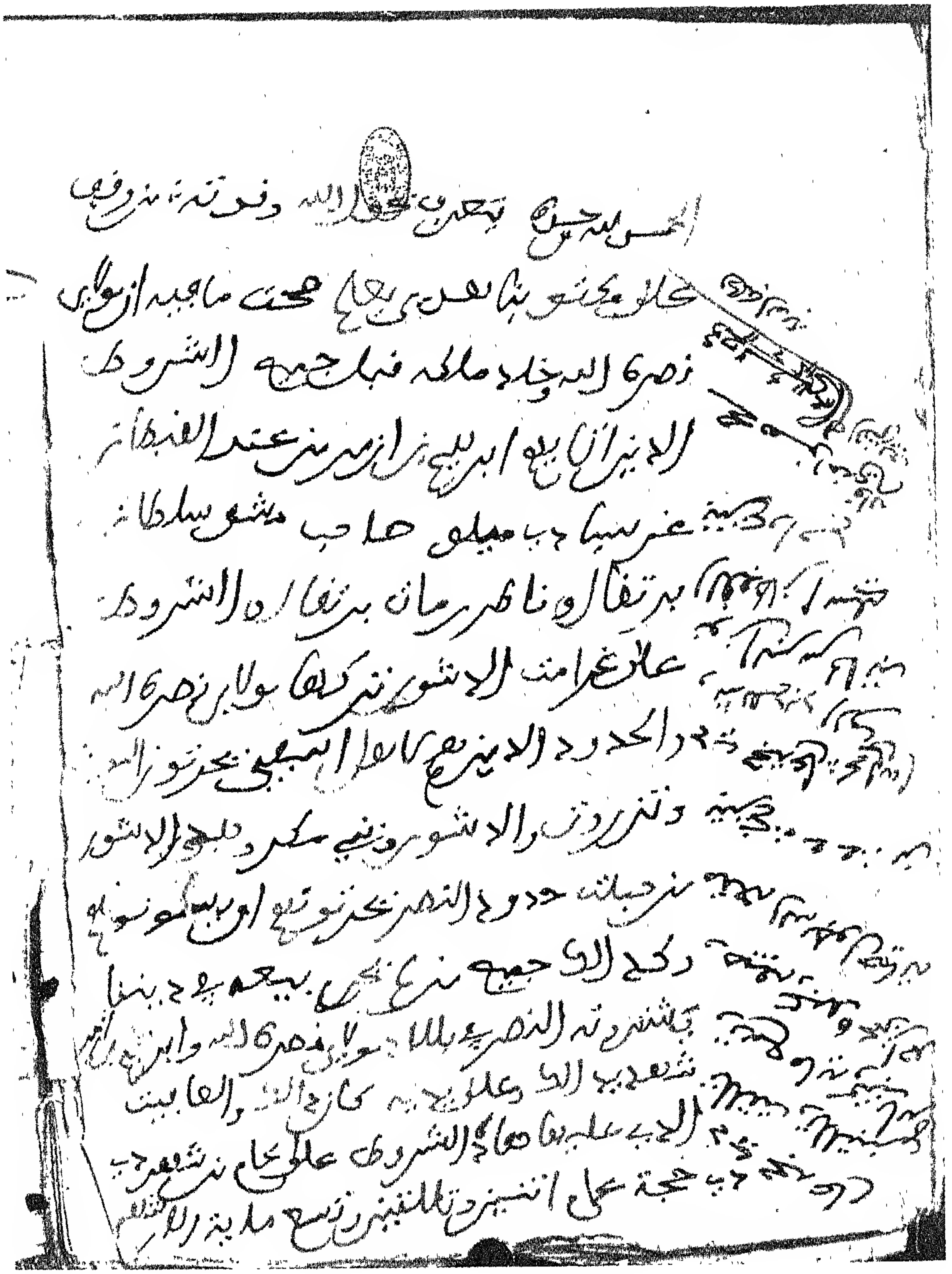

عقد هدنة بين مولاي أحمد الأعرج وجان الثالث، بتاريخ 22 ذي الحجة 932 = 29 شتنبر 1526

عن الأصل المحفوظ في أرشيف طوري دو طومبو ليشبونة

S.I.H.M – Portug. T. 2. Prem. Part. P. 369

كان گارسيا بعثها لمولاي أحمد بتاريخ 24 شتنبر 1526 تشهد بأن هذا لم يحترم التعهدات التي التزم بها سلفه كونصالو...[10]

وهناك رسالة جوابية محفوظة الصورة من مولاي أحمد الأعرج إلى جان الثالث بتاريخ 23 ربيع الأول 936 = 25 نونبر 1529، والجواب المذكور حول موضوعين اثنين : أولاً قضية الشاب ابن بوشتا بن فارس الذي اعتنق الديانة المسيحية بالأراضي البرتغالية، فإن الشريف يطلب إرجاعه للمغرب ويقترح إقامته عند وليه نصف شهر فأي دين اختاره بعد فهوله ! ومن جهة أخرى فإن مولاي أحمد الأعرج يشيد بسلوك قابطان آسفي الجديد فرانسيسكو لوبيز فيما يتعلق بسير المفاوضات حول السلام على العكس من سلفه گارسيا...[11]

وقد نصحت رسالة بتاريخ 7 اكتوبر 1534 = 28 ربيع الأول 941 وجهها أسقف لاميكو (Lamego) إلى ملك البرتغال يوحنا الثالث بعد حصار أسفي يونيه 1534 من قبل الشريف، نصحت بالتخلي عن آسفي وأزمور وسانطاكروز بعد هدمها وباحتلال مدينة فاس[12]. وفي رسالة أخرى من أحد النبلاء إلى الملك يحضه على استشارة البابا ويؤكد على وجوب احتلال المغرب سواء بدئ بفاس أو بمراكش لأن في ذلك تعويضاً للمسيحية عن فقدان روديس (RHODES) وجزء من هنغاريا La HONGRIE[13] !!

وكل هذه الأصداء تعكس سوء النية التي كانت مبيتة للمغرب... ومع ذلك فقد تم الاتفاق بتاريخ 25 أبريل 1537 = 15 ذي القعدة 943 على إعلان عقد هدنة لفترة ثلاث سنوات بين الشريف وقابطان آسفي رودريگو دي كاسترو (Rodrigo de Castro) وقد بعث القابطان المذكور بهدايا للشريف، وكانت الهدنة تشمل آسفي والجديدة وأزمور وقد ناب عن الشريف في إبرام العقد كاتبه (قاسم)، وقد جرت مراسيم التوقيع في الساحة العمومية في الثامنة صباحا...[14]

10) S.I.H.M. Portugal II القسم الثاني P. 399

11) المصدر السابق، المجلد الثاني، القسم الأول ص 495.

12) S.I.H.M Portugal T. II Sec. par p. 656

13) أخذ الأتراك رُوديس يوم 22 دجنبر 1522، كما أصبحت هنغاريا في أعقاب معركة MOHÁCS 29 - 30 غشت 1526 تابعة للباب العالي S.I.H.M. PORT. T.II P. 675 ويذكّرني هذا المنطق في المثل المغربي القائل : «طاحت الصومعة علقوا رأس الحجام !!».

14) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص 97/96.

وقد سجل التاريخ في هذه الأثناء رسالة من مولاي محمد الشيخ إلى جان الثالث بتاريخ 14 شتنبر 1540 وهي تجدد له الود ويخبره الشيخ بأنه سيرسل له مبعوثاً طالباً إليه أن يستمر في مراسلته... وقد ورد في الرسالة ذكر محمد بن علي بن بوشتى وبابا يحيى بن مسعود(15).

إلا أن من الملاحظ، على نهج ما حدث بالنسبة لبني وطاس في مهادنتهم للبرتغال، أنّه جرت بعض الأحداث في أعقاب الهدنة مباشرة احتجاجاً من بعض القواد الذين لم يرتضوا الهدنة !

والواقع أن الشعور الوطني كان يزداد تأججاً يوماً عن يوم، الأمر الذي تفسره ثورة الأمير محمد الشيخ على أخيه أبي العباس الأعرج سنة 951 = 1544 كما يفسره ما ورد في مذكرةٍ من لشبونة مقتبسة من تقرير حرر بفاس يوم 22 مارس 1549 = 22 صفر 956، يفيد أن العاهل الجديد محمد الشيخ - حسب المعلومات المتوفرة - يفكر جيداً في الاستيلاء على «القصر الصغير» واسترجاعه من يد البرتغاليين وأنه يستعد لذلك أتم الاستعداد، وفي هذا الصدد بلغ إلى فاس أن الوزير أبا عمران موسى بن أبي حماد العمري حمل إلى مليكه محمد الشيخ السعدي بفاس سبع عربات مشحونة بالذهب من مراكش...(16)

وحسب رسالة بتاريخ 30 مايه 1549 إلى جان الثالث من ألفونسو نورونها (A. Noronha) فإن أتراك الجزائر أخذوا يساومون محمد الشيخ - بعد استيلائه على فاس في تبعيته لهم ويعدونه بعددٍ من الهدايا والسفن، وأن إشاعات تروج حول وصولِ وشيكٍ لدْرَغوت (DRAGUT) باشا إلى جبل طارق(17) !

وفي هذه الأثناء كان البرتغاليون قد أخذوا في إخلاء بعض المواقع بالمغرب وذلك تحصيناً لبعض المراكز التي كانوا يعتزمون الاحتفاظ بها، وهكذا فكما أجلوا عن آسفي وأزمور عام 1541 = 948 تخلوا عن القصر الصغير وأصيلا بين عام 1549 - 1550 = 956، وحسب رسالةٍ من طنجة (المحتلة من طرف البرتغال) بتاريخ 13 يونيه 1550 = 27 جمادى الأولى 957 إلى جان الثالث،

15) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص 271/270.

16) S.I.H.M - PORT T. III P. 274 - FRANCE S. 1 T. 1 P. 167

17) S.I.H.M. Portugal T. IV P. 322

فإن محمد الشيخ تحرك غازياً نحو تلمسان مع عددٍ من الفرسان، وأن الشريف أخذ بفاس المدفعية والمواد الحربية، وتحكي الرسالة من جهة أخرى عن توديع ثلاث سفن للعرائش في اتجاه الأندلس[18] !

وفي رسالةٍ لاحقة من سبتة بتاريخ 16 شتنبر 1550 يتنبأ بأن المصانع الحربية التي أنشأها الشريف ربما كانت بمساعدة بعض الأتراك الذين وظفهم معه من المعارضين لأطماع أتراك الجزائر، وأنه أي الشريف تسلم أربع سفن أخرى عن طريق ميناء بادس (أثناء غيبة أبي حسون عنها في إسبانيا) وجهزها بالأسرى المسيحيين الذين جعل عليهم قادةً من أولئك الترك الذين يسيرون في ركابه...[19]

وحسب رسالة من جان الثالث إلى قابطان الجديدة ألفارُو دي كارفالهو (Alvaro de Carvalho) بتاريخ يونيه 1554 = 961 فإن جان يخبر القابطان بأنه توصل برسالته بتاريخ 15 أبريل التي أخبره فيها بأن مبعوثين من محمد الشيخ وصلاه : قائد أزمور واليهودي أبراهام كابيز (Abraham Cabiez) يخبرانه بأن الشيخ طلب مساعدة الامبراطور (الاسباني) ضد صلاح رايس تركي الذي أخذ يهدد الشواطئ المغربية الشاملة، وأن شروط الامبراطور كانت تتلخص في : التسليم الفوري لجزيرة بادس والعرائش !!

وأخيراً فإن هناك رسالةً من قابطان الجديدة إلى جان الثالث تخبر بأن مولاي عبد الله - وكان ما يزال ولي عهد أبيه محمد الشيخ - قد قبل الشروط على العموم باستثناء تسليم العرائش أما بادس فقد قبل تسليمها حسماً لتطلع الأتراك للاستيلاء على العاصمة (فاس) وكانت محررة بالجديدة بتاريخ 15 غشت 1554 = 15 رمضان 961...

ويتزايد الخوف بوصول الأخبار عن صناعة زورقين حربيين بميناء سلا زيادة على ثالث سابق مما يهدد الوجود البرتغالي بمدينة الجديدة حسبما تكشف عنه رسالة من قابطان الجديدة إلى جان الثالث بتاريخ 13 مايه 1556[20].

---

18) المصدر السابق ص 328.

19) المصدر السابق ص 396.

20) المصدر السابق ص 399.

وحسب رسالة من كَرڤالهو (Caravalho) قابطان الجديدة إلى الملكة كاترين بتاريخ 15 يناير 1557 = 16 ربيع الأول 964 فإنه بعد أن شكرها على المواد الغذائية والأموال التي بعثت بها إليه يخبرها بأن الشريف محمد الشيخ السعدي أرسل بثلاثمائة تركي لأزمور من الأتراك المنحاشين إليه بعد تصفية أبي حسون، وأنه أي الشيخ يستعد لإرسال مثل ذلك لآسفي...

وقد أضافت الرسالة التاريخية إلى هذا أن السلطان استقبل مؤخراً بمراكش سفير سلطان تركيا (Gran turco) الذي اقترح عليه عقد السلام وعرض عليه عون تركيا لمواجهة المسيحيين بشرطٍ واحد : أن يقبل محمد الشيخ سيادة تركيا وينقش اسم سلطان تركيا على عملته على نحو ما رواه بالضبط صاحب الاستقصا عندما حكى عن غضب العاهل المغربي من عروض سليمان القانوني على ما قلناه في العلاقات المغربية التركية...

وقد أضافت الرسالة خبراً عن وجود سفير فرنسي ببلاط مراكش يحمل إلى محمد الشيخ ألف رمح وعدداً من الزرود والخودات ويجري معه محادثات سرية أحيطت بمنتهى الكتمان ولو أننا نعتبرها استعطافاً من فرنسا للعاهل ليسير في خطها وخط الأتراك لمضايقة إسبانيا في أعقاب الاتفاقية المعروفة بين فرنسوا وسليمان عام 1536[21] على ما عرفناه في فصل العلاقات المغربية التركية...

وقد كان من المتوقع في أعقاب الرفض المغربي أن تثور ثائرة العثمانيين، وهكذا نجد رسالةً موجهة يوم 13 يوليه 1560 إلى الملكة كاترين تخبر بتوالي استعداد أتراك الجزائر للتوجه إلى فاس مع مولاي عبد المؤمن.

☆ ☆ ☆

ومن جهة أُخرى فلعل مما يستظرف به في باب العلاقات المغربية البرتغالية أن نذكر وفادة غريبة من قائد أزمور إلى كبير نصارى الجديدة بُعَيد رفع الحصار عن المدينة من أجل تنظيم منازلة بين بطل المغرب وبطل البرتغال، إنها فكرة طريفة لكن السبب في تنظيمها كان أطرف !

21) المصدر السابق، المجلد الخامس ص 20.

لقد كان بأزمور فتاة حسناء خطبها رجل من أهل البلد اسمه (مولاي حدّو) فامتنعت عليه، واشتدّ كلفه بها فلم تزدد إلا تمنعاً، وقد كان مما افتخر به أمامها قوله : «وإن شئت أتيتك برأس أعظم نصراني في الجديدة وأشجعه فعلت» ! وحينئذ قبلت الفتاة الأمر الذي يعبر عن وطنية السيدة المغربية !

هنا ذهب مولاي حدّو إلى قائد أزمور وعرض عليه أن يكتب إلى كبير النصارى بالجديدة حتى يعين بطلا للمبارزة فأجابه القائد إلى مراده وذهب الرسول فعلاً بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة حيث تقف عادة رسل أزمور، فخرج إليه صاحب البريد وحاز الكتاب وأبلغه للحاكم، وبعد عرض الاقتراح على وجوه جنده وقع الاختيار على بطل العراك وكان ابن ثلاثين سنة ! وكتب إلى قائد أزمور باقتراح تعيين وقت النزال، وفي اليوم المحدد سار قائد أزمور في أصحابه ومعهم مولاي حدّو، وخرج قائد النصارى في جماعته واتفق الطرفان على شروط منها :

«إن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة، حتى يلتقى المتبارزان وحدهما بمرأى من الفريقين، وأن تكون المسافة بين المتنازلين خمسين شبرا وسطاً بينهما وأن من خرج عن هذا المجال ولو قيد شبر كان رقاً للآخر» !

وبعد التوقيع على هذه الشروط حضر عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا إلى النصراني ففتشاه لينظرا هل ما إذا كان يحمل معه شيئاً زائداً على السيف والرمح المتفق عليهما، ثم حضر شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا إلى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضا...

وبينما الناس على أهبة للاستمتاع بهذه الفرجة إذا بالجانب البرتغالي يطلب إلى البطل المغربي أن ينزع من ذراعه تميمةً كان يحملها تيمُّناً، وعبثاً حاولوا إقناع الجانب البرتغالي بأن التميمة لا تدخل في عدة السلاح بالنسبة للنصارى !

خشى حاكم البرتغال بأس التميمة وتذرع بذلك عذرا للانسحاب وفشلت المباراة، وقد علقت بالبطل المغربي حسرة مريرة لم تنفرج عنه إلا في صدام

22) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 91 ـ 92.

لاحق مع البرتغاليين أبلى فيه بلاء حسناً، حسبما تحدثت عنه المصادر البرتغالية نفسها(22).

☆ ☆ ☆

لقد ظل البرتغال مناوئاً متحفزاً، وبهذا الصدد نذكر تعرض جامع المنصور في مدينة مراكش ذاتها لمحاولة نسف عندما تحيل بعض الأسرى الذين استغلوا تساهل السلطة معهم فوضعوا سنة 981 ـ 1573 ـ 1574 قنبلةً تحت المسجد في نفس السنة التي توفى فيها السلطان عبد الله الغالب بالله وتولى ابنه محمد الملقب بالمتوكل على الله الذي اشتبك جيشه مع المحتلّين لطنجة في يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى 982 = 2 شتنبر 1574...(23)

وفي هذا الوقت الذي كان يصارع فيه العاهل الجديد عدوه البرتغال نرى الأتراك يتربصون للإيقاع بالحكام السعديين الذين ما انفكّوا يرفضون الدخول تحت طاعة العثمانيين !

وفي هذه المرة لاح لهم أمل عندما تمكنوا من تصعيد الخلاف بين العاهل الجديد محمد المتوكل وبين عميه الملتجئين بتلمسان عبد الملك وأحمد حيث أوهم هذان بأن ابن أخيهما قد قرر تصفيتهما بينما كان الأتراك يلوحون للمتوكّل بأن المستحق للعرش دونه هما العمان اللذان يكبرانه سنا.!!

وهكذا دبّر ترحيل العمين إلى الجزائر ثم إلى اسطامبول حيث أجتمعا بالسلطان سليم الثاني ليطلبا إليه نجدتهما بالعتاد مقابلة إرضاء رغباته السياسية في المغرب !

وبالرغم من تردد السلطان سليم في إسعافهما نظراً لقلة ثقته أيضا في هؤلاء المنحاشين إلا أنه طمع أخيراً فيما وعداه به وقرر أن يرسل معهما بالعدة والعدد...

وهكذا تمت المؤامرة على السلطان محمد المتوكل الذي اضطر في النهاية بعد أن خذلته الطائفة الأندلسية أيضا بقيادة القائد الغزّى وانحاشت إلى الأتراك، اضطر إلى التخلي عن فاس أمام حشود عمه مولاي عبد الملك، ثم تنازل عن

23) الاستقصا ج (الدولة السعدية) ج 5 ص 44 ـ 45.

مراكش أمام ضغط عمّه مولاي أحمد الذي أمسى خليفة لأخيه على مراكش حيث كان السلطان مولاي عبد الملك يعتمد عليه في مقارعة المحتلين للثغور المغربية.

بين يدي وقعة وادي المخازن الكبرى !
1578 = 986

وكان من أمر المتوكل أن تمكن ـ بعد اتّصالات كتابية بخوان مولينا حاكم بادس[24] ـ من الالتحاق بهذه الجزيرة... ثم منها إلى سبتة... حيث قصد ملك البرتغال دون سباستيان للاستصراخ به كي يسترجع ملكه ! وصحبت هذا مكاتبات من قائد أصيلا والقصر الكبير والعرائش بتاريخ 5 يناير 1578 إلى سباستيان الأول تغريه بالديار المغربية وتطلب إليه إرسال كَادي (Guadi) الخبير بفن الحروب...

وقد كانت شروط البرتغال أن يتنازل المتوكل عن سائر السواحل المغربية ويكتفي بالتولي على المدن الداخلية الأمر الذي قبله المتوكل أملاً في الانتقام من عمه المولى عبد الملك، وهكذا جمع ملك البرتغال كبراء جيشه ووجوه دولته وقرر القيام باكتساح البلاد...

إن البرتغال لم ينس وصية الأسقف لاميكو (Lamego) إلى الملك يوحنا الثالث بتاريخ 7 اكتوبر 1534 باحتلال مراكش وفاس..! ولم ينس اغراءه بالانقضاض على مدينة مراكش... وقد سمعنا عن البابا بيي الخامس (Pie V) أنه أصدر سنة 1570 = 978 ـ وقد أراد أن يزيد في معنوية المحتلّين ـ ما يسمى بمرسوم الحليب، وهو المرسوم الذي يمنح امتيازات للبرتغال وإسبانيا في حروبهما ضد المغرب، وقد كان من بين تلك الامتيازات إباحة تناول الحليب والزبد والبيض والجبنأثناء الصوم بل وحتى السمك واللحم الأمر الذي دفع إلى إذكاء روح الغزو والحقد...

---

24) الاستقصاء ص 52.

لقد قصد دون سباستيان فعلاً الأرض المغربية يجر الدنيا معه، ولم تفده التحذيرات المتوالية أمام القادة البرتغاليين الذين ضللوا بإرشادات عملائهم وبلغت بهم الثقة بأنفسهم أن حملوا معهم - في جملة ما حملوا، الأعلام والأجراس[25] التي كانوا يعتزمون رفعها على منارات المساجد الكبرى !!

لقد كانت هذه هي المعركة التاريخية الكبرى بتاريخ 30 جمادى الأولى 986 = 4 غشت 1778 وهي التي حملت اسم معركة القصر الكبير لأنها تمت على مقربة من المدينة التي تحمل هذا الاسم، كما تحمل اسم معركة وادي المخازن لأنها كانت على ضفافه أيضا... وقد تسمى معركة أصيلا وربما سميت معركة الملوك الثلاثة لأنها شهدت مصرع ثلاثة ملوك : أولهم دون سباستيان ملك البرتغال وثانيهم المتوكل الذي كان استنجد بالبرتغال وثالثهم عبد الملك الذي توفى متأثرا بآثار فرحة النصر على ما تقوله المصادر التركية !

إنها المعركة التي كتبت بكل لغة وكل لسان[26]، في كل قاموس وموسوعة، خربت ملك البرتغال وحولت تاريخه إلى سلسلة من المآسي وغيرت خريطة الامبراطورية فأصبحت تابعةً بعد أن كانت متبوعة وكانت أصداؤها تتردد في الهند والخليج وفي أروبا... إنها الوقعة التي ردت الاعتبار للإنسان المظلوم الذي غزى في بلاده واقتحمت عليه داره غدراً...

ونظراً للأهمية التي تكتسيها نرى من المفيد أن نلخص الرواية المغربية عنها ونأتي من بعد على بعض ما كتب عنها بلسان غير العربية - بما في ذلك الرواية التركية - مزوّدين القارئ ببعض الرسوم التي قد تعطى فكرة عن الاهتمام بهذه المعركة الفاصلة من طرف الأروبيين.

وتقدر بعض المصادر المغربية المعاصرة للوقعة أن البرتغال كان يحارب بجيش قوامه مائة وخمسة وعشرون ألفاً بينما يذكر أبو المحاسن الفاسي في (المرآة) أن العدد مائة وعشرون ألف مقاتل كانوا يجرون معهم مائتي مدفع !

---

25) نعتقد أن بعض هذه الأجراس تحوّل إلى ثريات بجامع القرويين..! ج 2 - 328.

26) لقد تحدث ابن عثمان سفير السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن هذا الموقع الذي بات فيه وهو في طريق عودته من سفارته لدى كارلوص ملك إسبانيا، وقال : إنه نهر صغير ينزل من جبال بني عروس ويصب في نهر لكوس وأنه اشتهر في التاريخ بموقعة وادي المخازن. الإكسير ص 193.

وبالرغم من أن طائفة من أهل المغرب كانت تعطف على السلطان محمد المتوكل باعتباره كان ضحية مؤامرة ! لكن علماء الدين ـ وقد جدّ الأمر ـ أمسوا صفّا واحداً ضد الاستنجاد بالعدو، مزيفين احتجاج المتوكل بأنه إنما استنصر بالبرتغال لتخلي رعيته عنه مؤكدين له أنه هو المتخلي عنهم، المبادر بالفرار مثيرين قضية وراثة الملك للأكبر فالأكبر... منددين باستنصاره على المسلمين بعدوّ الدين مقارنين إياه بصنيع المعتمد ابن عباد الذي شجبه يوسف بن تاشفين...[27]

وفي هذه الأثناء، وبالضبط بتاريخ يوم الثلاثاء 17 جمادى الأولى 986 22 يوليه 1578 = وجه المولى عبد الملك رسالة إلى دون سباستيان يحذره فيها من الانزلاق وراء عروض ابن أخيه الذي كان في تحركه منطلقا من فكرة أخذ الثأر. إن السلطان المولى عبد الملك يعد سباستيان بكلّ ما يرضيه... ويقول له : إنه يخطئ عندما يحرك مغربياً ضد أخيه..! إنه يرغب أن يسالم حكام البرتغال وإنه مستعد للتحاكم معهم أمام القضاء البرتغالي حول نزاعه مع ابن أخيه ! إنه يناشده مرةً أخرى حتى لا يعرض جيشه للهزيمة وأنه لا يتوفر على ما يتوفر عليه الجيش المغربي، وقد كان مما قاله عبد الملك لسباستيان : «لقد علمت أنك مصرٌّ على أن ترفع علمك على منار الكتبية بمراكش فأني أعدك أنني أرفعه نيابة عنك ولكن لا تعرض نفسك للخطر ! ولا تدفع بقومك وقومنا للمحن[28] !

لقد خرج محمد المتوكل من طنجة صحبة الجيش البرتغالي في ربيع الثاني 986 = 1578 حيث ضربوا خيامهم على أقلّ من مسيرة يوم من مدينة القصر الكبير بعد أن شنوا عدداً من الغارات على جملةٍ من الثغور المغربية كان منها أصيلا التي عادوا إليها بعد فرارهم عنها أيام محمد الشيخ !

ولما تملك أهل القصر الكبير الهلع والفزع بادروا لإخبار مولاي عبد الملك الموجود بمدينة مراكش، وهنا حرّر كتاباً ثانياً إلى ملك البرتغال على ما قلنا...

---

27) نرى لزاما علنيا أن ننوّه بالمجهود الذي بذلته وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب عندما قامت عام 1406 = 1985 بإخراج قائمة بيبليوغرافية حول هذه المعركة ضمنتها مراجع باللغة العربية، والبرتغالية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية والأمل معقود على الوزارة أن تضيف إلى هذه المصادر المراجع الألمانية والعثمانية...

28) نص الرسائل الهامة المتبادلة موجودة في (الاستقصا ج 5 ص 70 ـ 78).

المغرب يحمل رسائل السلام !

كانت الرسالة المسالمة التي بعثها أثناء بداية الأزمة السلطان مولاي عبد الملك إلى الملك دون سباستيان كانت تحمل تاريخ الثلاثاء 17 جمادى الأولى 1986 الموافق 22 يوليه 1978 وقد بقيت بدون جواب :

«...إن عزمك على محاربتي في عقر داري ظلم وعدوان وأنت تعلم أنني لا أضمر لك شرا ولم أقم بحركة ضدك، فكيف تبيح لنفسك أن تسطو على حقوق وهبني الله إياها، وتقدمها لشخص آخر مقابل وعود لا يستطيع أن يفي لك بها ما دمتَ على قيد الحياة، وباستثناء العاصمة مراكش فأني مستعد أن أتنازل لابن أخي عن قصبة إير... وأنك بإغرائك مغربيا على أخيه تقوم بعمل مشين لن يخدم سمعة البرتغال... إني أعلم أنك في طريقك لإبعادي عن مملكتي ولكنك لا تعلم أنك بكل ما تملك وبما يوجد تحتك من ممالك لن تقدر على ذلك... ولا تظن أن الجبن هو الذي يملي علي ما أقوله لك، فإن فعلت فإنك تعرض نفسك للهلاك، وإنني مستعد للتفاهم معك **رأسا لرأس** في المحل الذي تريده وإنني أفعل كل هذا سعياً في عدم هلاكك المحقق عندي، ولا يملى على هذه المشاعر إلا محبتي للعدل... وإنني أقبل أن أتحاكم معك لدى محكمتك التي لا تستطيع أن تنتزع من أحد حقّا من حقوقه ظلما وعدوانا لتعطيه لغيره... وأني أقبل حكمها مسبقا... وأني أشهد الله على ما أقول، وأعلم أنك شاب لا تجربة لك وأن لك في حاشيتك من يشير عليك بآراء فاشلة...»[1]

وكانت الرسالة الثانية التي بعث بها من مراكش السلطان مولاي عبد الملك إلى الملك دون سباستيان، بعد تكالب جيوشه، كانت مختصرة وقد قال فيها على الخصوص :

إن سطوتك ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك البحر إلى العدوة، فإن ثبتت إلى أن نقدم عليك فأنت نصرانيّ حقيقيّ شجاع وإلا فأنت كلب بن كلب...» !

وكانت الرسالة الثالثة بعد أن وصل مولاي عبد الملك مدينة القصر، وقد كانت أكثر اختصاراً وفيها يقول :

إني رحلت إليك ستّ عشرة مرحلة، أما ترحل إليّ واحدة ؟[2]

ومعلوم أن مصير سباستيان تقرر في تقدمه هذه المرحلة الواحدة !!

---

1) الكانوني : آسفي وما إليه ص 45، Sources inedites . Espa Scn, I Tom III P. 424 – 446 –

2) نزهة الحادي، ص 74.

وقد اشتط ملك البرتغال للهجة الخطاب التي حررت كما نعلم - في ظروف عصيبة بعد أن لم تنفع موعظة !

وهنا استشار سباستيان من حواليه : هل ما إذا كان من المناسب أن ينتظر التئام الحشود أم إن المبادرة أنسب ؟ وقد كان من رأى محمد المتوكل الذي أمسى في ركاب العاهل البرتغالي : «أن نتقدم ونملك تطاون والعرائش والقصر ونأتي على ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر».

وفي هذه الأثناء كتب العاهل المغربي المولى عبد الملك من محلته (بتامسنا) إلى أخيه الأمير المولى أحمد عامله على مدينة فاس أن يتهيأ للمعركة ويبعث بالزاد إلى مدينة سلا : «صحفة شعير وعشرون مدّا من القمح لكلّ نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب».

وهنا كتب السلطان أبو مروان لملك البرتغال مرة ثالثة على ما أسلفنا.

وقد تقدم ملك البرتغال نحو وادي المخازن على مقربة من قصر كتامة وعبر جسر الوادي حيث عزل عن أسطوله بالشاطئ ! وحينا أمر العاهل المغربي بنسف القنطرة التي لم يكن هناك جسر غيرها..!

وهنا زحف الجيش معززاً بالمتطوعة الذين رغبوا في الجهاد من سائر الطبقات والهيئات يتقدمهم علماء الدين من أمثال الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي... ولقد قدر عدد المشاركين من المغاربة في هذا الصدام بثلاثين ألفا أي ربع جيش العدو..!

ولما التقى الجمعان وحمى الوطيس وأسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق أدركت الوفاة السلطان أبا مروان الذي كان يركب محفّة يستريح فيها من عناء توعّك طرأ على صحته.

وقد كتم حاجبه رضوان العلج موت العاهل وصار يختلف إلى الأجناد ليبلغهم «أمر السلطان لفلان بالذهاب إلى موقع كذا والتزام فلانٍ للراية وفلان بالتقدم وفلان بالتأخر...

وثائق معاصرة عن
موقعة وادي المخازن

كان من تلك الوثائق رسالة توجه بها طبيب يهودي إلى أخيه (من فاس بعد تاريخ 16 غشت 1572) وقد أوردها الكونت دوكاستري (S.I.H.M. Angl. T. 1 P. 312)، ونحن نقتبس منها هذه الإفادات بقصد إثارة الانتباه لبعض المعلومات الطريفة.

يتضح من هذا التقرير أن حركة البريد بين السلطان مولاي عبد الملك وأخيه مولاي أحمد كانت مكثفة وتكتسي صبغة الاستعجال حرصاً على مواكبة الأحداث، وهناك إشارة إلى أن توعك عبد الملك الذي اعتراه - وهو على مقربة من أزمور - كان عندما تناول سمكا (الشابل ؟) وبطيخاً وشرب بعد ذلك كمية كبيرة من الماء فأتخمه ذلك...

ويتحدث التقرير عن التقاء السلطان بأخيه بجوار سلا حيث جرت ألعاب الفروسية احتفاء بهذه المناسبة...

لكن التوعك ما لبث أن عاود السلطان الأمر الذي أحزن طبيبه الخاص ودفعه للكشف لمولاي أحمد عن القلق الذي أخذ يساوره بسبب هذا التوعك..

«...إن رغبة مولاي عبد الملك في شرب الماء في تزايد ولو سقى أنهار الدنيا كلها... يقول التقرير الذي يفيد أن الدبلوماسي الفرنسي كَيوم بيرار[1] كان من بين المقربين الذين يحاولون منع العاهل المغربي من تناول المزيد من الماء ! ومع أول غشت تحسنت صحة مولاي عبد الملك الأمر الذي تزامن مع مغادرة ملك البرتغال مدينة أصيلا في طريقه إلينا - بعد أن كان أسطوله وصلها من ثغر لاقش (Lagos)، ولقد وصلت الأخبار عن أن العدو يريد اجتياز قنطرة وادي المخازن حيث وجدنا مولاي عبد الملك - بالرغم من تدهور حالته الصحية - يركب فرسه للإشراف على تقوية المواقع قبل أن يعود إلى فراشه المتنقل...

وبحلول يوم رابع غشت استيقظ مولاي عبد الملك على حالة جيدة حيث وجدناه يتناول مشروباً من القرفة قبل أن يتناول فطوره المتنوع من كل صنف : حريرة، فصوص البيض الطري... دجاج مشوي ومطبوخ، خبز سميذ...

وما لبثت الأخبار أن وردت بأن البرتغاليين شرعوا في الاتجاه نحونا... وهنا طلب الملك لباسه الحربي المزركش ووضع على هامته عمامة خفيفة، فوقها وسام به ثلاثة أحجار كريمة، وتمنطق بسيفه الذي كان هدية قيمة من الترك، وبخنجرٍ من نفس النوع، كل ذلك كان مرصعا باليواقيت والأحجار الكريمة.

---

1) S.I.H.M. 1 Série FRANCE – SAAD. T. 2 P. 107 Docu. XXXIII

وهكذا تحلّى الملك بما كان يتحلى به أيام الأعياد ووضع في أصابعه خواتمه المرصعة بالجواهر القيمة وامتطى صهوة فرسه على الرغم من نصح الطبيب..!

تم تقابلت الفئتان في سهلٍ هائل مهيب لم أر له مثيلا يقول الطبيب، إذ لم تكن هناك حجرة ولا شجرة ولا حائل مّا... فلما كانت الفئتان على طلقة مكحلة، أمر الملك بإطلاق نار المدافع الأربعة والعشرين... وفي هذه الأثناء اقترب الجمعان من بعضهما واحتدم القتال من الجانبين... واشتد هجومهم علينا بشراسة لدرجة أن تراجع بعض رجالنا... فغضب الملك واستوى على مهامز فرسه وامتشق سيفه ثم ارتعش بعد ذلك ارتعاشا شديدا اصطكت له أسنانه ففقد حينئذ الوعي فالحياة في نفس الوقت...

وقد حضر هذه اللحظات مولاي أحمد الذي رأيناه يحمل حملةً قوية على النصارى وينزل بهم خسائر فادحة، فعل ذلك مرتين أو ثلاث مرات... لقد تراجعوا بسبب حملاته الظافرة واشتدت قبضته عليهم...

والشيء الدي ساعد على هذا الانتصار أن موت الملك لم يعلم به أحد : لقد سِرنا كأنّا معه والأعلام تتقدمنا والحراس والخُفَراء وغيرهم من خلفنا ونحن وحدنا الذين كنا على علم بوفاته... وكنا نسير في الأمام لنشعرهم بأن ذلك بأمر من الملك... ثم إني كنت أنزل عن فرسي كلّ لحظة متظاهراً بالتكلم معه، بحيث إن الجند كانوا يأتون بالنصارى الأسرى رجالا ونساء إلى حيث كان الملك، فكنا نقول لهم : إنه نائم وننهاهم عن أن يوقظوه..!

ولما شاهد النصارى هزيمتهم... أرادوا اجتياز النهر، وكان الوقت وقت المدّ، فغرق مولاي محمد (الذي كان في صف البرتغال) ومات ملك البرتغال متأثرا بجرحين أصيب بهما في رأسه وفي ذراعه... فجعلت جثته في صندوق وضع فيه جير وحمل إلى مدينة القصر الكبير... وكانت المعجزة الكبرى في أن **ملكاً ميتاً** غلب ملك البرتغال في لحظة قصيرة حتى لَيُظن أن ذلك الأمر كان من فعل السحر !!

وقد بلغ عدد القتلى - على ما يفرضه الطبيب المذكور زهاء خمسة عشر ألف قتيل، وأما الأسرى فلا أستطيع عدهم... ولم يوجد مغربي واحد لم يات بأسير نصراني أو أكثر !! كان سعر الواحد يتراوح بين 30 و150 موزونة، أما قيمة الافتكاك فكانت تتراوح بين 300 و500 موزونة ! لقد أصبحت مدينة فاس مثلا مليئةً بالخدم من أسرى البرتغال... وأمست هذه المملكة غنيةً بالذهب والفضة والأسلحة المختلفة الأنواع. وفي هذه الأثناء كان محمد بن عيسى يكتب البيعة سراً لمولاي أحمد... الذي خطب في الزعماء الحاضرين يطلب رأيهم... وهنا كان الإجماع... ونادى المنادى : الله يرحم مولاي عبد الملك، الله ينصر مولاي أحمد..!

وصدر الأمر بدفن الشهيد بلباسه ونعليه... وقد خرجوا في تلك الليلة إلى فاس حيث دفنوه إلى جنب أخيه مولاي محمد الحران ووضعوه في القبر على فراشه وأعلامه عند رأسه...

☆ ☆ ☆

إفادة معاصرة أُخرى كتبها إنجليزي...

«. . وفي اليوم التالي وكان رابع غشت لسنة 1578 قسم ملك البرتغال جيشه إلى أربعة كراديس... وكان على الميمنة حليفه مولاي محمد الذي تسميه هذه الوثيقة الملك الأسود أو الشريف الأسود.

وقد قام السلطان مولاي عبد الملك بنفس الترتيب في عسكره... وقد تجرد الملكان للقتال فوجه مولاي عبد الملك أولاً هجوماً عنيفاً على فرسان البرتغال المقاتلة، ولكنهم دافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وانتهوا أخيرا إلى إرغام رجال مولاي عبد الملك على التأخر بعد فقدان كثير منهم. ولكن مولاي «ملُوك» مع هذا لم يهن أبداً، وقذف برجاله ثانية في أحسن ترتيب، لخوض المعركة من جديد، حاملاً بعنف وشدة على فرسان ملك البرتغال، فجعلهم ينهزمون إلى قلب الميدان. ثم إن فرسان البرتغال، وهم غير قادرين على جمع شتاتهم مرة أخرى في نظام أحسن، هجموا على المسلمين نفس الهجوم العنيف، بحيث إنهم قتلوا عدداً عظيما منهم، فأعاد هؤلاء الكرة على فرسان البرتغال، ولم يهنوا، وأكرهوهم على الاختلاط بمشاتهم. ثم هجم الفرسان البرتغال على المغاربة من جديد ولكن أحسن رجالهم كانوا قد قتلوا من قبل، ولم يكن لهم غوث جديد، ليسدُّوا به خلتهم. ولهذا فقد فروا عن زملائهم مرتاعين هلعين، ضاربين في بلادٍ غريبة عليهم، وهم بين أعدائهم يقتلونهم، وقوّتهم تفوقهم. فما استطاعوا أن يفعلوا أحسن من هذا الفرار، مطلقا، وظل أولئك المغاربة على ثباتهم في مراكزهم، كاسرين لقوى أعدائهم، مبددين لنظام الفرسان البرتغال، مشتتين شملهم، قاهرين لصناديدهم، يقتلونهم ويأسرونهم، في جمع من قوتهم. فلم ينج من ذلك إلا نحو ثمانين أو مائة رجل على الأكثر، استطاعوا الفرار والنجاة بأنفسهم، إلى الأسطول. وقتل في جميع رجال المعركة، ثلاثة آلاف ألماني، وسبعمائة طلياني، وألفان من الإسبان...

ويظن أن الملوك الثلاثة قد قتلوا، في هذه المعركة الأخيرة، وفيهم الشريف الملك الأسود.

وقد أخبر أن جدث ملك البرتغال، قد بقي في القصر الكبير في انتظار تسليمه، على فدية يطلبها المغاربة...

وقد فقد ملك البرتغال في هذه المعركة، اثنتين وعشرين قطعة من المدفعية، وسبعمائة مركبة، ببغالها وثيرانها إلى جانب أشياء أخرى قيمتها عظيمة، وقتل من المغاربة، نحو أربعين ألفا، أو خمسين ألفا، مع آخرين يقال إن الملك من بينهم.

وقد أختار البرتغال ملكا عليهم القسّيس الذي هو عم للملك المقتول...

☆ ☆ ☆

ولم يكن هناك من ثانٍ يعرف عن حادث الوفاة سوى أخيه أبي العباس مولاي أحمد الذي كتم الأمر بدوره متقدما في الجند يحث المؤمنين على النضال والقتال ومعانقة القواضب والاصطلاء بنار الطعان واحتساء كؤوس الحمام على حد تعبير الرواة...

ولم يلبث المسلمون أن ركبوا أكتاف العدو... وولى البرتغال الأدبار قاصدين القنطرة ! لكنهم وجدوها أنقاضاً ورميماً فازدادت الحيرة وضعفت الروح المعنوية وضاقت بهم الأرض فأخذوا يلقون بأنفسهم في النهر مفضلين الغرق على الطعن بالخناجر لكنهم كانوا يجمعون بين القتلتين، إذ كان المغاربة يهوون عليهم بسيوفهم وهم يعبرون الوادي فينقعونهم في مزيج من الدّم والماء ! وكان نصيب دون سباستيان ضربةً مميتةً من مجاهد غيوراً أحكمت منه الصميم(29).

لقد استغرق زمان المقاتلة خمساً وأربعين درجة على حدّ نقل كتاب المُنْتقى...(30)

لقد شبه المؤرخون المسلمون هذه الوقعة العظيمة بغزوة بدر الكبرى بالنظر لما روى عنها وما كتب فيها سواء عن صمود المواطن المغربي أو عن هلع الجندي البرتغالي، وقد كان من حكاية شاهد عيان أن بعض المغاربة تحفز للوثوب على مقاتله فأنهار هذا أمامه جثة هامدة قبل أن يصله المجاهد المغربي ! أما الأسرى فقد عدّتهم المصادر المغربية «بمئات الألوف من أمم النصرانية...».

وقد كان من بين الغرقي في الوادي محمد المتوكل الذي استخرجه الجنود الضفادع وسلخوه وحشوا جلده تبناً وطيف به في العاصمة عبرة وعظة فعرف منذ اليوم بالمسلوخ !

وقد عثر على جثة (دون سباستيان) ملك البرتغال مجندلةً على بسيط من الأرض، وقد جعلت ـ بعد التعرف عليها ـ في تابوت خاص ووريت في التراب بمدينة (القصر) على ما أسلفنا... كما كان من بين القتلى الشاعر الإسباني

29) S.I.H.M. Espa. T 3 P 424.

30) التازي : وقعة وادي المخازن... مجلة رسالة المغرب 28 مارس 1949، وقعة وادي المخازن بدون رقابة، دعوة الحق غشت 1978.

فرانسيسكو دي أَلْدَنا (Francisco de Aldana). وفي هذه الأثناء. والسلطان ما يزال بظاهر فاس حيث كان دفن جثة مولاي عبد الملك بقُلة بني مرين، وردت عليه سفارة برتغالية إسبانية تلتمس افتداءَ جثة سباستيان، وقد استقبلها السلطان بظهر الزاوية من ناحية فاس واستجاب لطلب البعثة دون أيّ مقابل... وبهذا تصحح الرواية التي نقلها صاحب الاستقصا حول افتداء الجثة...[31]

وقد أجاب العاهل المغربي الجديد عن هذا الخطاب برسالةٍ بتاريخ 2 رمضان 986 = 2 نونبر 1578 أي بعد نحوٍ من ثلاثة أشهر على المعركة، وهو في طريقه إلى العاصمة مراكش التي وصلها يوم 12 رمضان على ما يذكر الفشتالي في المناهل...

ومن الطريف أن نقرأ في الجواب أسف السلطان أحمد المنصور على مصرع دون سباستيان وأنه كان يتمنى أن لو سمحت الأقدار بنجاة سباستيان من تلك الأزمة، وأنه سيرضى طلب دون فيليب بتسليم الجثة[32] ويقول له : لو طلبته إلينا حيا لبعثنا إليك به إسعافاً وإسعاداً ! وقد أضافت الرسالة بشرى أخرى لدون فيليب تلك هي الإفراج عن خديمه وأثيره جوان ذي شلبا..!

وهذا نص جواب المنصور لفيليب الثاني حسبما نقل عن المكتبة الوطنية بمدريد (مخطوط رقم 257) :

من عبد الله، المتوكل على الله، المعتمد في جميع أُموره على كبير حَوْلِه، أمير المؤمنين أبي العباس أحمد المنصور ابن أمير المؤمنين - المفتقر إلى عفوه وفضله - أبي عبد الله محمد الشيخ الحسني - أحسن الله إليه وأفاض نعمه ظاهرة وباطنة عليه - إلى السلطان المعظم القدر والشأن، ذي الأصالة العريقة والمناقب الحسان، ملك ملة المسيح وكبيرها، مجيل قدح سياستها ومديرها، وقطب تلك الدائرة، والمختص بمزاياها الفاخرة السلطان دون فيليب ابن السلاطين الكبار المعروفين بجلالة المقدار - أدام الله لك الخيرات ووجّه إليك وفود السعادة وركائب المبشرات.

---

31) الإفراني : نزهة الحادي ص 26.

32) حول هذه السفارة وأسماء أعضائها انظر كتاب (العرائش) (LARACHE) الذي ألفه ط.كَ. فيكَيراس (Figueras) ص 33 - طبع بمدريد 1973 الناصري : الاستقصا 5، 84.

أما بعد حمدا لله مستحق الحمد ومستوجبه، مولي الفضل ومكسبه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وكافة الرسل والأنبياء، بدور الهدى وصفوة الخلق في الأرض وفي السماء.

فأنا كتبنا إليكم - كتب الله لنا ولكم خيراً يتجدد، وتوفيقا يشتد إبرامه ويتأكد - من محلتنا السعيدة ومناخ رجال عساكرنا العديدة، ولا نشاء بفضل الله إلا التيسير والإقبال، والسعد الصافي السربال، وأنه وصل إلينا خطابك الجليل، وكتابك المنطوي على كل جميل، فتناولنا بيد الاعتناء بوصوله، وحبسنا ركائب التفهم والاستقصاء على أبوابه وفصوله، فألفينا من بدائع المعاني ونفائسها ما عبر.. عن نباهة ذلك المقام السلطاني أي تعبير، وعطل بطيب شذاه أنفاس العبر والعبير، ويضمن ذلك توجيهكم الرغبة في تسريح جثة السلطان دون سبستيان، واقتنائنا بذلك عندكم من صروح الخير ما يفوق كل بنيان، فأهلا بها من غرض ما أوسع له عندنا ساعة الإسعاف والإسعاد، وأسرع العوارض لتتميمه في طريف الاقصاء والإبعاد، فلرغبتكم بهذا المقام المولوي محلي الرحب والإكرام، وأغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسنام ؟ ولو توجهت فيما هو أكثر للقيت وجه القبول مشرق الجبين، والتيسير يمد إليها المطلب باليمين، وقد جرت الأقدار على وفق مشيئة الله وإرادته بذلك الواقع، وليس لما يقدره - سبحانه - ويقضيه من مدافع، وكان المبتغى أن يتخلص إلينا من تلك الأزمات وأن لا تعدو عليه فيها عوادي المحلة ليظهر حسن صنيعنا فيه، (......) ويتعرف من تحفّينا به ما نرجو من يطأه بقوادم الذكر الجميل وخوافيه، لكن صدمته أمواج الفتنة مجهولاً، وجدلته حملتها بين حصى الموتى مقتولا، وبعد حين رفع إلينا من طاف على صرعى المعركة خبره، وأنه وقع عليه بين تلك الجثات نظره، فأمرنا في الساعة بحمله وإيداعه أصون مستودع، ووكلنا به من يحبو في رعيه وحفظه ويضع أخذا الذي لا يحيد الملوك عن الأخذ به والسعي على مذهبه، وإذ وصل كتابك فيه، فها نحن سرحناه مكرما، ورفعنا لإتمام غرضك فيه عصما، ولو بعثت فيه وهو حي لنشرنا لك من حسن الصنع إسعادا وإسعافا ما يعتذوه، بحول الله، حي، ولعملنا على تلك الشاكلة

فككنا عن خديمكم جوان ذي شلبا[33] قيود الأسر وعاملناه مراعاة لمقامكم بالتسهيل (.......) واليسر، فإذا تمكنت المحبة تيسرت الأغراض كل حجة، فلا يمنعكم من أغراضكم في هذا المقام المولوي مانع، فنور الاعتناء بها في أفق التكرمة ساطع، والله يديم لكم الخير ويعرفكم اليمن والسعادة، في الثاني من رمضان المعظم عام ستة وثمانين وتسعمائة من الهجرة ـ عرفنا الله خيره ما بعده، وكتب في التاريخ.

السلطان العظيم القدر والشأن، المتبوئ من الأصالة أرفع مكان.

السلطان دون فِلب ـ عرفه الله عوارف الخيرات.

☆ ☆ ☆

وقد ذكر صاحب مرآة المحاسن أن المسلمين حصلوا في موقعة وادي المخازن على غنيمةٍ لم يكن قط مثلها بالمغرب إذ لم يتقدم للنصارى خروج على هذه الصورة..!

وقد كان الناصري في كتابه الاستقصا أول مؤرخ مغربي نقل عن مصدر أروبي حول هذه الموقعة، ويتعلق الأمر بماكتبه إيمانييل في تاريخه مما يزيد في كشف النقاب عن الأرقام الحقيقية لعدد الجند وعدد العتاد كذلك وعن الجنسيات المختلفة التي كان ينتمي إليها الجيش الغازي !

«لقد ذهب محمد المتوكل أولاً إلى إسبانيا متطارحا على الملك فيليب الثاني في أن يعينه على استرجاع عرشه، وامام رفض ملك إسبانيا الذي كان ربط علاقات طيبة مع مولاي عبد الملك بواسطة أسرة كَاسبارو... أمام ذلك الرفض قصد المتوكل ملك البرتغال سباستيان الذي أجابه إلى مطلبه، وحينئذ عاد إلى فيليب ـ وهو خال لسباستيان ـ فوعده ملك إسبانيا بأن يزوده من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش لأنه كان يرى أنها كانت تعدل سائر مراسي المغرب، وهكذا أمده بعشرين ألفا من عسكر إسبانيا، وكان سباستيان قد ساق معه إثنى عشر ألفا من البرتغال وثلاثة آلاف من إيطاليا، ومثلها من ألمانيا، ومن

---

33) سلم الجثمان إلى حاكم سبتة يوم 4 دجنبر 1578 = 4 شوال 986.
S.I.H.M T 1 P 625 ،1

المتطوعة الإسبان وغيرهم عدداً كبيراً، وبعث إليه البابا بأربعة آلاف أخرى وبألف وخمسمائة من الخيل وإثني عشر مدفعاً إلى نحو ألف مركب جمعها سباستيان في اتجاه قادس.

ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب توسلت إليه جدّته وأرباب دولته ورجال الدّين في أن لا يقدم على هذه المغامرة، ولكنه أصرّ على المضيّ في الطريق بالرغم من أن ملك إسبانيا نفسه حذّره عاقبة التوغل في أرض المغرب...(34) وهكذا اتجه من قادس إلى طنجة ومن هذه انطلق لتحقيق أحلامه بعد أن التحق به محمد المتوكل الذي كان في انتظاره هناك !

وقد زحف السلطان عبد الملك ـ وكان يتزيا بزي الترك ـ بدوره في زهاء أربعين ألف وبعدد من المدافع يصل إلى أربعة وثلاثين مدفعاً... بينما كان قواد الجيش المغربي يتألفون من : أبي على القورى والحسين العلج الجنوي ومحمد أبو طيبة وعلى بن موسى وأخيه أحمد بن موسى أسماء مغربية صميمة باستثناء الجنوي الذي ـ كما يدل اسمه ـ ينتسب قبل إسلامه إلى مدينة جنوة...

وقد خطب السلطان المولى عبد الملك في الحشود المغربية قبيل الصدام ملهبا حماس القوم وحينئذ استدعى ملك البرتغال إلى القتال وأعطاهم علامةً لذلك لكنهم أحجموا قاصدين المطاولة بينما كان العاهل المغربي يقصد إلى المناجزة... ويختص هذا المصدر بإفادة أن محمد المتوكل كان قد دس إلى مولاي عبد الملك من سمه مؤملا هلاك عمه قبل اللقاء ونشوب الفتنة في عسكر المسلمين، هذا بينما تذكر بعض المصادر المغربية المعاصرة أن الذي دسّ القتل للسلطان عبد الملك هو القائد التركي (رمضان العلج) الذي كان على رأس الترك الذين وردوا برسم مساعدته وكان القصد إلى تصفيته في خضم هذه الأحداث لينال الترك نصيبهم من المغرب !!(35)

---

34) القصد إلى دون خوان دي سيلفا (Don Juan de Silva) ممثل فيليب الثاني لدى الملك البرتغالي الراحل !! راجع كتاب (العرائش) بالإسبانية لفيكّيراس...

35) في رسالة من فيليب الثاني بتاريخ 14 مارس 1579 إلى لشبونة يعرب عن حداده معيداً إلى الذاكرة الجهود التي بذلها العاهل الإسباني من أجل صرفه عن غزو المغرب...
S.I.H.M. Ang T. 1 P 340

بيد أنه أمام ضغط المسلمين في المناجزة وأمام عدم توفّر الحشود البرتغالية على المواد الغذائية الكافية، نشبت الحرب حيث أدركت الوفاة عبد الملك منذ اللحظات الأولى...

وفي معرض ثناء إيمانييل على شجاعة المولى عبد الملك حكى أنه مات وهو يضع سبابته على فمه، كأنما يشير إلى وجوب كتمان أمر الموت حتى لا يحصل اضطراب في الجيش..! وهكذا خفى الأمر، وبالرغم من الجراحات التي أصابت المولى أحمد وموت الفرس الذي كان يمتطيه فقد استمر المغاربة في القتال وظفروا بالنصر ظفرا لاكفاء له... ودهشوا، وتكبكبت جتوعهم، وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم. وزادهم دهشاً أن بعض «طوابيرهم» كان ينادي صاحب صفارته : «وراءكم وراءكم ! قطعكم العدو !!» واشتعلت النار في كل جهة، وانهزموا إلى وادي المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا بينما وقع الباقي أسيرا بيد المسلمين على حدّ قول الرواة المغاربة...[36]

وهناك روايات أخرى عن هذه الموقعة التاريخية العظمى نرى من المفيد أن نأتي على رءوس أقلام هنا مما أوردته شانطال دولافيرون في (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب)[37] :

كانت مغادرة ملك البرتغال للعاصمة ليشبونة يوم 25 يونيه 1578 ترافقه 847 سفينة من مختلف الأشكال والأحجام، كانت السفن تحمل حوالي 24000 عسكريا، فيهم ثلاثة آلاف من الفرسان والباقي من المشاة، هذا إلى عددٍ كبير من المذنبين المحكوم عليهم بالإعدام...

وقد سمّى أربعة كولونيلات :

D. Miguel de Noronha, Vasco de Silveira, Diago Lopes de Sequeira, Francisco de Tavara.

كان كلّ واحد منهم يقود ثلاثة آلاف رجل، هذا إضافة إلى ألفي مغامر تحت قيادة : Cristovào de Tavara.

---

36) تؤكّد بعض المصادر الأروبية أن مولاي عبد الملك كان بالفعل مريضاً وأن الطبيب الذي كان يعالجه وهو في ساحة القتال هو الدكتور كَيوم بيرار الذي تعرف عليه، وهو باسطامبول على ما أسلفنا وقد علمت أن المصادر التركية تذكر أنه توفي بتأثير الفرحة بالانتصار على ما يقول هارمر.

37) S.I.H.M. Espa T. 3 P. 474 Chantale de la véronne : Relation de la Bataille d'El – Kasr El – Kebir S.I.H.M Espagne T. 3 P. 474

إلى تسعمائة جندي روماني وثلاثة آلاف جندي ألماني ومثلها من قشتالة وأربعمائة وخمسين من النبلاء المنحدرين من أسرٍ شهيرة مع حاشيتهم، علاوةً على فرسان طنجة وأصيلا - وكانتا تحت البرتغال - وكذلك الفرسان المرافقون لمحمد المتوكل... شارك في المعركة بصفةٍ فعالة ثمانية عشر ألف جندي، وقد كلفت تعبئة الجيش البرتغال غالياً..!

لقد كان على الجيش أن يقضي ثمانية أيام كاملة، فقط في حمل العفش، وقد نزل في منطقة الغرب (Al garve) من إسبانيا وقضى خمسة أيام في قادس ثم وصلوا إلى طنجة ورسوا في أصيلا يوم 8 يوليه حيث نصبت المعسكرات، وقد انتخب (D. Duarte de Meneses)، حاكم طنجة عام 1575 - وهو ممن وقعوا في الأسر - انتخب قائداً عاماً للجيش ولكن من غير أن يستطيع الفصل في أمرٍ دون العودة إلى سباستيان الذي كانت له القيادة العليا !

ولقد كان السلطان مولاي عبد الملك يعرف جيداً عن استعدادات وعدد الجنود البرتغاليين قبل إبحارهم لكنه مع ذلك - وهو يفضل السلام على الحرب - اقترح على البرتغال أن يعرضوا قضية نزاعه مع ابن أخيه مولاي محمد أمام محكمة الضمير، كما عرض التنازل عن جانبٍ من الأراضي لمنافسه الأمير محمد المتوكل وأن يسمح له بتشييد بعض الحصون على الساحل المغربي وأن يعينه على استرجاع حصن رأس غير.. Cap de Gué إذا كان يرغب في ذلك على ما أسلفنا.

لقد كان - تقول «مصادر لم تنشر» - لحاشية الملك نصيبٌ كبير في الإجرام عندما تركوه يتخذ مثل هذا القرار الخطير وحيداً دون أن يرجع إلى كبراء الدولة، وبالرغم من أن الملك كان يحاط علماً طوال فترة العشرين يوماً التي قضاها في الطريق - بقوة الجيش المغربي، لكنه لم يرد بأية حال أن يعير التفاتاً لتلك الإنذارات المتوالية بل إنه لم يأخذ بعين الاعتبار أيضا الآراء التي وصلته من فيليب الثاني ملك قشتالة، ولا آراء دون ألبي (Albe). كلُّ الأسطول كان قد حلّ بمدينة العرائش...

وفي يوم 29 يوليه اتجه الجيش نحو القصر الكبير، كان كل جندي قد حمل معه أربعين رطلاً من العيش والسلاح... فهو اليوم قد نفذ زاده وهو يشكو

الجوع والعطش والحرارة ! لقد أصبحوا يتزودون الماء من وادي على مسافة سبعة أميال من أصيلا وميلين من القصر، إنه وادي المخازن، كان ملك البرتغال مقتنعا بأن المغاربة يمتلكهم الخوف عندما ما يرونه !

لقد حمل معه من البرتغال تاجاً ليتوّج به كأمبراطور على المغرب في نفس اليوم الذي يدخل فيه القصر ! أما الأب فيرماو داسيلفا (Fermào da Silva) فقد هيأ صيغة قسم النصر بيد أنه - وأثناء خمسة أيام في المشي على الأقدام - لم تجر صلاة ولم يعقد قداس !!

وقبل حلول وقت الكارثة وصلت ثلاث إفادات حول هذا العدد الضخم للأعداء المغاربة فاستقبلت هذه الإفادات استقبالاً سيئا ! وقد وبخ إثنان من قادة الحرب هما دوكاستيو (De castillo) ودوبالما (De Palma) لأنهما أدليا برأيهما بصراحة حول المغامرة البرتغالية !

وفي نفس اليوم أقدم أربعة أشخاص عرفوا بتجربتهم وحنكتهم أقدموا على نصح الملك : وهم : الدوك (Aveiro) والكونت (Vimios) والأسقف (Coimbre) والدوك (Mascarenhos) إلى أشخاص آخرين تقدموا بنصح الملك بأن لا يظهر بنفسه على أرض مكشوفة، فلطمهم سباستيان ناعتاً إياهم باليهود ! وقد كان فيمن ترجاه في التريث والحكمة صديقه محمد المتوكل طالباً إليه على الأقل - أن ينتظر ما بعد الظهر لإعلان القتال. وفيما كان الملك يميل إلى الانتظار يوماً آخر قام بعض مستشاريه وخاصة Da Silva بتحريض الملك على المضيّ إلى الأمام وترك الإحجام...

وفي فجر يوم 4 غشت، على بعد نصف ميل من الشاطئ المقابل للوادي نودي على السلاح ! وقد استعد الجيش، ولكن دون تنظيم، للتضحية، وقد وزعت المدفعية على الكتائب، والخيالة على جماعات من ثلاثمائة رجل فيهم القشتاليون والألمان المغامرون وكذا الإنجليز[38] والرومانيون (الإيطاليون) : الكلّ كان في الطليعة بينما كان الملك سباستيان يشاهد متنقلا بين القوم ولكن دون أن يقوم بعمل ما غير هذا، لقد كان عدد المغاربة يفوق مائة وعشرين ألفاً يؤلفون أربعين ألف فارس وفيهم عشرة آلاف يحملون المكاحل والبنادق...

38) بيرناردينو ميندوزا S.I.H.M Angl. T. 1 339

ولقد كوّن المغاربة هيأة هلال واسع بعددهم الكبير الضخم، وجعلوا مدفعيتهم في الطليعة مع أربعة آلاف رمح وحربة، وابتدأت العمليات في الساعة التاسعة، ولم تلبث المدفعية المغربية أن سجلت خسائر جسيمة بين المسيحيين، وبسرعةٍ أصبح الجيش البرتغالي مطوقا ! وفي ظرف نصف ساعة كان الملك سباستيان مجدّلا على الأرض يتشحط في دمه إلى جانب عددٍ آخر كبير... لقد انتُهب العسكر البرتغالي، واعتقلت أكثرية المقاتلين، كان فيهم معظم النبلاء الذين حضروا المعركة ! ومن ناحية أُخرى فقد هلك مولاي عبد الملك ومولاي محمد وعدد من قواد هذا الطرف أو ذاك، وبعد أن تعرف المغاربة على جثة الملك سباستيان حنطوها بأمر من السلطان أحمد المنصور وحملت إلى مدينة القصر الكبير.

وقد كان دون أنطونيو (Antonio) أول من افتدى، لقد أفهم المغاربة بأنه رجل دين وأنه كان رهيباً ووعدهم بأنه سيبعث بالفداء المطلوب منه إذا سمح له بالالتحاق بمدينة أصيلا، وهكذا أدى ثلاث آلاف دُقّة، وعندما عاد إلى بني قومه أكد أن بالمغرب زهاء عشرين ألف أسير ..!

وقد أتت (دولافيرون) بلائحةٍ طويلة تتضمن أسماء الأشراف والنبلاء البرتغاليين الذين قتلوا أو أسروا في معركة القصر الكبير...[39]

هذا ونظراً لأهمية المعركة اهتم بها أيضا الرسامون الذين تباروا في تصوير هذه الكارثة التي حلت بالعالم المسيحي، وهكذا فبالإضافة إلى الخرائط التي أعدوها عن منطقة المعركة فإن هناك عدداً من الرسوم الأوربية التي تخيلت المعركة : هناك رسم إنجليزي أورده الكونط دوكاستري محفوظ في هاطفيلد هاوس (Hatfield House) من مقياس 84 - طولا على 58 عرضاً، خط بريشةٍ على ورقة عمقها ملوّن بالأصفر، وقد كتب على ظهره بالإنجليزية ما مضمنه : «وصف للمعركة التي دارت رحاها بين ملك البرتغال وملك فاس ببلاد المغرب حيث لقى دون سباستيان مصيره»[40].

(39 S.I.H.M. Espagne T. 3 499

(40 S.I.H.M Angl. T. 1 P. 560

ويلاحظ أسفل الرسم يمينا إطار خصص لكتابة التعليق على الرسم بيد أن تمزق الورق حال دون بقية التعليق، وهكذا فلم يتبين إلا جانب من الكتابة هذا ترجمته :

«المعركة الرهيبة والغريبة التي وقعت بالمغرب قرب أصيلا بين ملك البرتغال دون سباستيان.

وحسب الاختبار النقدي للتصميم الإنجليزي يلوح أن المنطقة ووضعية الجيشين كذلك ليست محل تأكيد، ولهذا فإن الرسم، والحالة هذه، لا ينبغي أن يعتبر أساسا لدراسة عسكرية لهزيمة البرتغال، ولعل أقرب رسم للمعركة هو الذي أورده المؤرخ البولوني دزيوبينسكي (Dziubinski) في بحثه عن الجيش المغربي على عهد السعديين، وذلك نقلا عن فراي لوي نييطو (Fray luis Nieto)[41].

إن التقارير والروايات التي كتبت عن معركة وادي المخازن سواء منها العسكرية والسياسية من طرف الخبراء الأجانب كلها كانت تهدف إلى تجسيد الخطر الذي يهدد الدول الأوربية - بما فيها إسبانيا وإيطاليا وغيرهما من قبل المملكة المغربية.

ونرى من المفيد أن نشير على الخصوص لرواية جواشين دوسانطيلاس (Joachin de Centellas) ورواية فراي لوي نييطو الذي سلفت الإشارة إليه ورواية فرانشي كونيسطاكيو (Franchi conestaggio).

ورواية لوي دوأكسيدا (Luis de Oxeda) ورواية أكريبي وبينيي : (Agrippe d'Aubigné) ورواية دوارد دومينزيس(Duerte de menezes) ورواية أسير برتغالي ومعها ملخص سيمون دوكونها (Simon du cunha) ورواية أسير إيطالي وعاشراً رواية بالما كاييط (Palma Cayet).

هذا علاوةً على عشرات الرسائل المتبادلة بين قادة أوربا والتقارير التي حررها الدبلوماسيون في مختلف جهات العالم عن حدث القرن، هذا ونذكر على

---

41) Andrzej Dziubinski : l'Armée et la flotte de Guerre Marocaines, Hesp. Tamuda 1972 – Fasc. unique p. 61 – 80

سبيل المثال التقرير الذي رفعه القائم بالأعمال الفرنسي في إسطامبول عن أصداء وصول خبر معركة القصر الكبير إلى العاصمة العثمانية...

☆ ☆ ☆

ونحن على مقربةٍ من العاصمة العثمانية، نرى من تتمة القول أن نشير هنا لما ورد في تاريخ الدولة العلية العثمانية(42) مبدين سلفاً تحفظنا من العبارة التي وردت في الإفادة منبّهين إلى وفْرة المصادر الأُخرى حول الموضوع...(43)

«وفي سنة 1578 حصلت فتنة داخلية في مملكة مراكش بالمغرب الأقصى، ونازع زعيمها السلطان في الملك... وأخيراً استنجد سلطانها بالعثمانيين، واستعان مدعي الملك بالبرتغاليين فأوعزت الدولة أو بالحرى محمد باشا صقللي لوالي طرابلس بإنجاد سلطانها الشرعي، فأسرع بمساعدته، والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محلّ يقال له القصر الكبير، وكان يوماً مشهوداً دارت فيه الدائرة على البرتغال، وقتل فيه رئيس الثائرين... وبعد تمام النّصر وإعادة الأمن عادت الجيوش العثمانية حاملة ما أُغدق إليها به من الهدايا وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة (كذا) وصار شمال إفريقيا بأجمعه (كذا) تابعاً لها تماماً أو خاضعا لنفوذها...» !

☆ ☆ ☆

وقد وقفت في المكتبة الخاصة للزّميل الرّاحل أحمد بنهيمة على مؤلف لا يفصله عن تاريخ المعركة إلا نحوّ من خمسين عاماً وهو يحمل هذا العنوان الذي نذكره كاملاً : **JORNADA de Africa – Por EL Rey don Sebastian y Union del Reyno de Portugal a lacorona de castilla Antor EL MAESTRO Sebastian de Mefa en Barcalona Por Pedro Lacanalleria anô 1630.**

☆ ☆ ☆

---

42) تآليف محمد فريد بك المحامي، دار الجيل - بيروت طبعة جديدة 1977.

43) Bovill (E.W). – The battle of Alcazar. An Accourit of the defeat of Don Sebastien of Portugal at El-Ksar-Kébir. – Londrcs, 1952 P. Berthier : La Bataille dc l'oued El-Makh AZEN, these Univer, dc provence Aix marseillc I – Y. NEKROUF : La Bataille des trois rois, Paris, 1984.

ويبقى لي أن أختم بالإشارة الخاطفة إلى ما جابهني، بكثافة، من «كيلوات» الوثائق التي تضم الرّسائل والتقارير من التي عثرت عليها في دير سيمانكاس منتظراً أن يفتح الله عليَّ بمن يكتشف أخبارها وأسرارها.!![44]

* * *

وقد خلفت موقعة وادي المخازن مجموعةً من ردود الفعل الشعبية، وهكذا نرى بعض العلماء ممن كانت لهم رؤية مجردة للأحداث من أمثال الشيخ رضوان الجنوي يبعث برسالتين اثنتين إلى السلطان أحمد المنصور، وهو في الرسالة الأولى يثير انتباه المنصور الذهبي إلى بلبلة البرتغاليين بعد انهزامهم في معركة القصر الكبير ويلح على انتهاز هذه الفرصة لاسترداد المراسي التي يستولي عليها المنهزمون : طنجة وأصيلا وسبتة...

أما الرسالة الثانية فينتقد فيها على العاهل ذاته سياسته في قبول الفداء ـ بالمال ـ للأسرى البرتغاليين، على حين أن المسلمين والمسلمات بأيدي الكفار في غاية العذاب والإهانة. والفرصة مواتية أن لا يبقى في أيدي الأعداء واحد من هؤلاء المؤمنين الذين يجب فداؤهم على المسلمين، وفي إلحاح بالغ تحض الرسالة على العمل لفك الأسرى بقدر الجهد.

وقبل أن نقدم الرسالتين، نشير إلى أن مصدرهما هي الترجمة الموسعة التي ألفها ـ في التعريف بالشيخ ـ تلميذه أبو العباس أحمد بن موسى المرابي الأندلسي ثم الفاسي.[45]

نص الرسالة الأولى :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الحمد لله، من عبد الله رضوان بن عبد الله، إلى أمير المومنين السلطان أبي العباس أحمد ابن موالينا وساداتنا الشرفاء، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

44) أرجو أن أغتنم هذه الفرصة لأزجي آيات الشكر للسفير المغربي في مدريد الأستاذ سيدي عبد الحفيظ القادري على أريحيته ثم لخلفه الأستاذ عزّ الدّين جسوس...

45) المرابي الأندلسي : تحفة للإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان، مخطوطة بالخزانة العامة تحت رقم 154 ك... التازي : العلاقات بين المغرب وجنوة، محاضرة قدمت للمؤتمر الدولي الثالث للدراسات التاريخية بجامعة جنوة دجنبر 1987

وبعد : أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، وثبتنا على حسن القيام به كما أمر آمين. فالحمد لله ثم الحمد لله على نعمه الشاملة، وعلى ما من به من نصر الإسلام وأهله، وخذلان الكفر وأهله، والظفر منهم، والتمكّن من رقابهم، إذ لا نعمة أعظم من إعزاز الدين، وذل أعدائه الكافرين، زادكم الله في ذلك حرصا وغبطة، وولعكم به حتى تصير لكم حرفة وخطة، إذ كانت حرفة جدكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، فقد قطعوا الأعمار في قتال الكفار، وانفقوا الأموال وبذلوا النفوس في رضاء محبوبهم، ولم يزالوا كذلك، حتى استقام الدين ـ متبعين وسالكين سنة سيد المرسلين، رضي الله عنهم أجمعين.

وأنتم ـ نصركم الله ـ خذوا في ذلك بغاية جهدكم، ولا تتراخوا عن ما ندبكم إليه المولى تبارك وتعالى، فإن للإسلام صولةً لا يقوم لها شيء فقد قال تعالى : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مومنين﴾، وقال تعالى : ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم، ولن يتركم أعمالكم﴾، والمعية من الله تقتضي النصر على الأعداء والظفر بالبغية، وقال تعالى : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى آله فليتوكل المومنون﴾.

وإلى هذا فاللّه اللّهَ في الحزم وإمضاء العزم، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة، فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم، ولا أظن ـ نصركم الله ـ مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به.

وقد بلغني عن بعض الناس ممن تخلف عن هذه الغزوة، أنهم أصابهم أسف وحزن عظيم، وحرقة وندم، على ما فاتهم من الحضور معكم، فالحمد لله على عز الإسلام وعز أهله، وعلى إهانة الكفر وذل أهله.

فاقبلْ وصية من يحب لكم الخير، ويسأل الله ـ تعالى ـ إن يأجرك في مصيبتك بموت أخيك، تلقاه الله بالمغفرة والرحمة، آمين، ونسأله تعالى أن يسعدك وأن يسعد المسلمين بك».

الرسالة الثانية :

«الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

من عبد الله رضوان بن عبد الله، إلى أمير المسلمين أبي العباس أحمد ابن ساداتنا وموالينا الشرفاء، نصره الله سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد : أعاننا الله وإياكم على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، وثبتنا على ذلك حتى نلقاه وهو عنّا راض.

فأني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، ومرادي - إن شاء الله - إن أبث لكم ما في باطني من الاحتراق، فقد قال القائل :

فلابدّ من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتفجع !!

وهي كيف يمشي هؤلاء الكفار كلّهم إلى بلادهم وإخواننا - المسلمون - بأيديهم في غاية العذاب والإهانة ؟ ونحن قادرون على أن لا يبقى واحد منهم في أيديهم، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال الناس كلهم حتى لا يبقى واحد، ففتح الله في هذا الفتح العظيم، ومن الله تعالى علينا به، وحصل في أيدي المسلمين رؤوس الكفر، كيف يمشون لبلادهم بالشيء التافه الذي لا حاجة للإسلام به ويبقى إخواننا وإخوتنا بأيديهم كأن هذا الأمر سهل، فلا - والله - ليس الأمر بسهل، وإنما يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله، كالراعي والرعية، فإن كان هذا حرصاً على المال فإن المال بالغرب كثير وقبل أن كانت هذه الغنيمة أكنتم محتاجين إليه ؟ بل كنتم - والحمد لله - أغنياء عنه.

فالله الله في فك الأساري بقدر الجهد، ألم تعلم أن قسيس النصارى يشتري كبار النصارى بالشيء القليل، ويحملهم إلى بلادهم والناس ساكتون لا يعبأون بذلك، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وسمعت أن ابن الدك يقدر يفدي به ما لا يحصى، فالله الله، ثم الله الله في هذا الأمر وأنت أقدر الناس عليه، والأمر الأكيد هو فك الأساري لله عز وجل، ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾.

وقد بلغنا - والحمد لله - اهتمامكم بأمور الدين، زادكم الله خيرا، وأعانكم عليه والله الله في الفقيه سيدي سعيد السعيدي، تعينونه وتأمرونه بما طلبنا منكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

هذا ولقد توالت المراسلات والمخابرات بعد الوقعة بين الطرفين : الكادرينال هنري وفيليب الثاني من جهة وبين السلطان المنصور من جهة أخرى حول افتداء العدد العديد من الأسرى الذين كانوا ينتمون لأمم متعددة وقد كان في صدر الوساطات وأهمها الوساطة من أجل تسليم جثة السلطان سباستيان نفسه على ما سبق القول... وعلى ما نذكره في العلاقات المغربية الإسبانية وبالرغم من أن الأيادي عاثت في الغنائم إلا أن كثيراً من التحف ظلت معروضة في (قصر البديع) الذي بني في أعقاب الوقعة... بل إن طائفة من القطع الفنية، ما انفكّت شاخصة قائمة إلى أيام السلطان المولى إسماعيل الذي نراه يستقبل بعض السفراء داخل الخيمة التي كانت لسباستيان وهل لا نذكر من هذه الغنائم بعض الأجراس التي بجامع القرويين ؟(46)

وفي الوقت الذي تشاءم فيه البرتغال من هذا اليوم الذي اعتبروه يوم نحس في تاريخهم، كان بالنسبة للمغاربة بشرى زفّت إليهم الخلاص من قضاء مبرم كان يبيّت لهم... وهكذا استعادوا أيضا مدينة أصيلا من يد الإسبان الذي كان ترامي عليها بعد تحريرها من يد البرتغال عام 957 - 1550 على ما سلف...

وقد ساق الشعراء (وقعة وادي المخازن) في عيون الشعر الذي نطقوا به، معتبرين هذه المعركة مفتاح النصر لسائر المسلمين، ولا بد أن نشير هنا أيضا إلى الآثار التي خلفتها معركة وادي المخازن الكبرى على الصعيد الدولي وخاصة في الجهات التي منيت بالاستعمار البرتغالي في المحيط الهندي ومعلقة (Malacca) في ماليزيا الحالية، إلى ديار الخليج التي تنفست جميعها الصعداء عندما أجهز الجيش المغربي على الجيش البرتغالي، فكسرت بذلك شوكة الاستغلال الأجنبي لتلك الأقاليم...

---

46) G.Golven : une ambassade Portugaise à la cour de Marrakech au XVII siecle France MAROC, Dec. 1924 N° 97 د. التازي : قصر البديع بمراكش مطبعة فضالة يناير 1977 ص 57 - مجلة البحث العلمي عدد 33 محرم 1403 نونبر 1982، يراجع التعليق رقم 25 - تاريخ القرويين ج 2 - 328.

MALACCA معلقة

مدينة على الساحل الغربي لِجَزيرة ماليزيا، وقد أُعطي اسمها للبوغاز الذي يفصل بين الجزيرة وبين سوماطرة، وتكوّن اليوم المركز الإداري لولاية مالاكّا...[1] كانت القلب النابض لأقوى مملكةٍ في تاريخ ماليريا : سلطنة مالاكّا التي قامت بدورٍ رئيسيّ في انتشارِ الإسلام في الأرخبيل.

وللربان العربي ابن ماجد أُرجوزة تحمل اسم «المعلقية» تحدث فيها عن «معلقة» بتقديم العين و (ملاّقة) كدلك، وخصص لها بعض الأبيات في وصفها أيام نكستها عهد السُّلطان محمد شاه 1488 ـ 1511م.

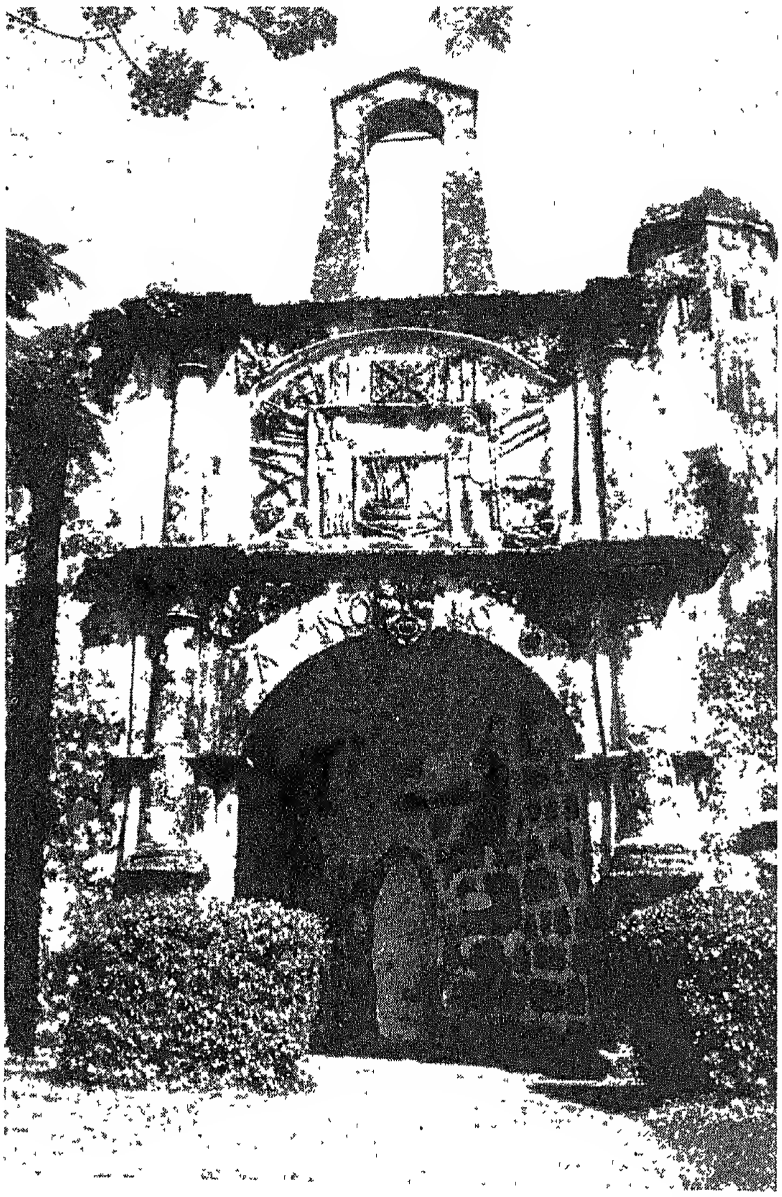

وهذا أثرٌ من الآثار التي تركها البرتغال عند استعمارهم لِهَذِه الجهة في ذلك العهد... لكنهم لم يلبثوا أن اضطرُّوا للرّحيل عنها في أعقاب وقعة وادي المخازن ومصرح ملك البرتغال... تُرَى كيف أن آثار هذه الوقعة في غرب شمال افريقيا ينعكس على جنوب شرق آسيا !!

1) أرجو أن أشكر بهذه المناسبة الدّعوة الكريمة التي وجهها إليّ صاحب المعالي السيد رحيم تامبي شيخ (RAHIM TAMBY CHIK) الوزير الأوّل لِهَده الولاية، لزيارة المدينة بمناسبة افتتاح مسجد السُّلطان صلاح الدّين في سيلانكور.

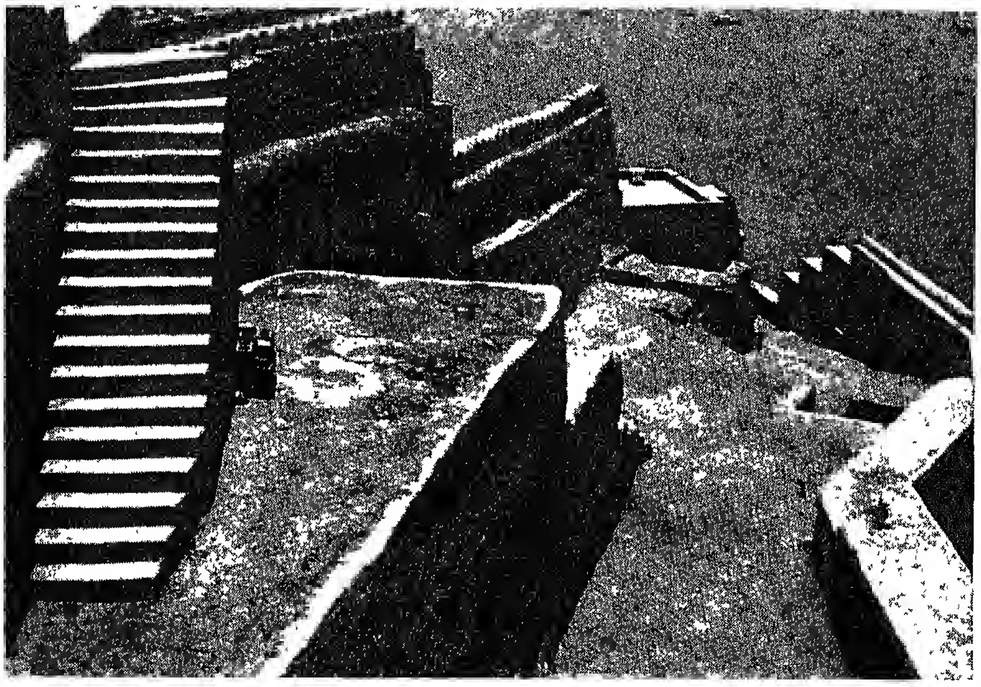

من آثار البرتغال في مسقط - سلطنة عمان
عن كتاب «Portugal Eo mar» 1983 تأليف Lisboa Rui Rasquilho و Jorge Barros

لقد جنبت وقعة وادي المخازن - وهذا أمرٌ مهم - بيت المقدس من احتلال صليبي وشيك، وهكذا فإن آثارها انعكست كما تؤيده المصادر الأجنبية على كلّ الممتلكات البرتغالية في العالم بأسره...

ومن المهم أن نعرف أن اليهود بالمغرب أدوا صلاة الشكر في بيعهم لانتصار المسلمين لأنهم كانوا يعرفون جيّداً عن محرقة اليهود بقرطبة...[47] وقد ظل يهود القصر الكبير وطنجة وتطوان يقيمون الأفراح بهذا التاريخ إلى الأعوام الأخيرة...

وعلى عادة الملوك المغاربة الذين يخلدون انتصاراتهم الكبرى عن طريق تشييد المباني والمعالم نجد المنصور السعدي يقوم بعد خمسة شهور من تنصيبه بإنشاء قصر عظيم بمدينة مراكش يعتبر إحدى عجائب الدنيا يحمل أسم «دار البديع»[48] حيث كان يستقبل الملوك وكبراء الدول وعظماء البلاد...

47) ابن عثمان : الأكسير في فكاك الأسير، ص 63.

48) التازي : قصر البديع بمراكش. البحث الذي قدم للمؤتمر العربي للآثار بمراكش 1977 مطبعة المحمدية.

وبعد سنة من الموقعة... **نجد بعثة ديبلوماسية برتغالية هامة تقصد بلاط العاصمة المغربية لتعرب عن ولاء ليشبونة للعاهل المغربي على نحو ما قامت به طائفة من الدول الأخرى : قشتالة، فرنسا ـ تركيا...**

وهكذا يحدثنا الوزير الفشتالي في «مناهله» عن وصول السفارة البرتغالية في جمادى الأولى 987 = يوليوز 1579 إلى مدينة مراكش بهدايا مرسلهم، في يومٍ مشهود تحدث الناس عنه دهراً لكثرة ما شاهدوا من تلك الهدية العظمى التي تفوق الحصر... وكان البرتغاليون حملوا هداياهم تلك على العجلات والقراريط مخترقين المدينة من باب فاس إلى القصبة حيث كان الجمهور يتهافت على رؤيتها تهافت الفراش، وغصت بهم طرق المدينة وسككها وقد حطت الأحمال بالإيوان فضاق بها رحب فضائه على سعته وانفساح أرجائه، وكان الذي ظهر منها للناس وأحصوه ثلاثمائة ألف دقّة من ريال الفضة، وأمّا ما يرجع إلى أحمال السلع النفيسة من كل جنس غريب وكل نوع من الحرير والخز والديباج والسندس إلى غير ذلك من أسرّةٍ هندية **مذهّبة بستورها وأوطيتها من رقيق الديباج والوشى، وكراسي مكللة** وعجائب من طرف الهند **وبلادهم وتحف أرضهم وأواني صنعهم وذخائر ملكهم، فبحرٌ لا ساحل له كثرة، ودنيا لا يحاط بها ومبنا وزينة... وقد جلس لهم أمير المؤمنين ـ يقول الفشتالي ـ عند السلام جلوساً مما أعرب عن قدرته وأبهى سلطانه...**(49)

لكن البرتغال لم تلبث أن ركعت أمام إسبانيا وهكذا ضمّ فيليب الثاني مملكة البرتغال إلى قشتالة عام 1580 وهكذا أيضا وجدنا الأمير دون انطونيو **يلتجئ إلى إنجلترا طالباً مساعدة الملكة اليزابيث على استرجاع عرشه من يد الإسبان... وكان من أمر الملكة أنْ استنجدت بالعاهل المغربي لتحقيق أماني انطونيو على ما قلناه في العلاقات المغربية الإنجليزية...**

ونظراً للمركز العظيم الذي كان عليه العاهل المغربي المولى أحمد المنصور فقد كان مما توسل به لديه حتّى ينعم بوفاقه على مساندة دون انطونيو، أن

---

49) المناهل ص 49 ـ 50.

أرسل إليه انطونيو بابنه الأمير كريستوف الذي نزل ضيفا بقصر صهريج المنارة المشهور !!

وهكذا نجد رسالةً من المنصور السعدي إلى إقليم سوس من إنشاء الوزير أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يخبر فيها «بورود ولد طاغية البرتغال الذي عبر البحر إلى حضرتنا الشريفة وأعمل الوخد والإرقال إلى سدتنا المنيفة، فلقد اتصل بنا الآن أنه بمراكش ـ حاطها الله ـ لائذاً فيها بحرمتنا ومتصرفاً في خدمتنا ومؤملاً النصرة من سيوفنا المظفرة بالله على استرداد ملكهم الداثر وإقامة جدهم العاثر علماً منهم أن عرشهم الذي ثلمته سيوفنا الإمامية وقوضت بناءه أسنتنا اللهذمية لا يتأتى جبره إلا على يدنا التي بها صدعه وفي ملاكها ضره ونفعه. وخفضه ورفعه وتفريقه وجمعه...»[50] على ما أسلفنا....

ويحتفظ التاريخ بعددٍ من الرسائل والوثائق حول مقام الأمير كريستوف بالمغرب الذي استغرق بضع سنوات إلى أن صدر له إذن أمان بالعودة إلى إنجلترا بعد أن شاع أن المنصور ربّما كان قد اتفق مع ملك إسبانيا على تسليمه إياه..؟ وقد كان الإذن يحمل أواخر محرم 1005 = 14 ـ 23 شتنبر 1596...

وهكذا طوي ملف البرتغال إلى أن فتحه من جديد السلطان المولى إسماعيل على ما سنراه في تاريخ الدولة العلوية...

☆ ☆ ☆

50) رسائل سعدية جمع الأستاذ عبد الله كنون ص 164.

العلاقات المغربية الإسبانية على عهد السعديين.

- انعكاس معاملة قشتالة للموريكسيين على العلاقات الإسبانية المغربية...
- الاتفاقية التركية الفرنسية تخيم على المفاوضات المغربية الإسبانية.
- حرص المغرب على الاحتفاظ باستقلاله.
- موقف إسبانيا من وقعة وادي المخازن الكبرى.
- سفارة إسبانية في البلاط المغربي.
- مساعدة المغرب لأنطونيو المطالب بعرش البرتغال.
- صدى كارثة «الأسطول الذي لا يقهر» في ديار المغرب.
- الاهتمام بأخبار الممالك الأوربية.
- المغرب يحاول استرجاع سبتة ! ـ تحرير أصيلا من الاستعمار الإسباني.
- التحفز الدائم لاسترجاع الثغور.
- أهداف سفارة عنون إلى إليزابيث الأولى.

العلاقات المغربية الإسبانية على العهد السعدي

لقد تألبت القوى من سائر الجهات في إسبانيا على إخماد ثورة الموركسيين وهكذا صدر مرسوم من فيليب الثاني بتاريخ 28 اكتوبر 1570 = 28 جمادى الأولى 978 يقضي بنفي سائر الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية في كل الجهات، وقد كانت أصداء هذه الأخبار بمثابة طعنات نجلاء بالنسبة للسعديين، وبهذا نفسّر قيام العاهل المغربي عبد الله الغالب بتقديم العون الذي كان يقدر عليه إلى الثورات الموريسكية مما استحق عليه إرسال خطاب تنويه من السلطان العثماني بتاريخ جمادى الأولى 981 = شتنبر 1573 على ما قلناه في (العلاقات المغربية التركية).

ولم يلبث أمر الملك أن صار - بعد وفاة فيليب الثاني 1598 - إلى فيليب الثالث الذي أصدر قرار النفي النهائي للموريسكيين في 15 شتنبر 1609 = 15 جمادى الثانية 1018، وأمرهم بالاحتشاد في الثغور، وألا يأخذوا من متاعهم إلا ما يستطيعون حمله على ظهورهم لتنقلهم السفن الإسبانية إلى عدوة المغرب، ولنقرأ في نفح الطيب هذه السطور الرهيبة التي تعطى فكرةً عن مهاجرة الأندلس :

«... وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب : أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس... وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاون وسلا ومتيجة الجزائر... ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم في الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال - يقول المقّري[1].

1) النفح، ج، 4 ص 528 تحقيق إحسان عباس.

شهادة أحد أبناء مرسية حول ما أمسى عليه المسلمون فيما يتّصل بممارسة دينهم...

عن كتاب : «الفكر التربوي» عند العرب لمحمد المرسي

قد أطلعني الله ـ تعالى ! ـ على دين الإسلام بواسطة والدي ـ رحمة الله ـ تعالى ! ـ عليه، وأنا ابن ستة أعوام أو أقلّ **مع أنّي كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم**، ثم أرجع إلى بيتي، فيعلّمني والدي دين الإسلام، فكنت أتعلّم فيهما معا، وسنّي حين حُملت إلى مكتبهم أربعة أعوام.

فأخذ والدي لوحا من عود الجوز كأني أنظر الآن إليه مملّسا من غير طَفال ولا غيره، فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني، حرفا حرفا، عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا، فإذا سميت له حرفا أعجميا، يكتب لي حرفا عربيا فيقول لي حينئذ : «هكذا حروفنا !» حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرّتين؛ فلمّا فرغ من الكرّة الأولى، أوصاني أن أكتم ذلك حتّى عن والدتي وعمّي وأخي وجميع قرابتنا، وأمرني أن لا أخبر أحدا من الخلق؛ ثم شدّد عليّ الوصيّة، وصار يرسل والدتي إليّ، فتسألني وتقول : «ما الذي يعلّمك والدك ؟» فأقول لها : «لا شيء !»؛ فتقول : «أخبرني بذلك ولا تخف، لأنّي عندي الخبر بما يعلّمك !» فأقول لها : «أبدا ! ما هو يعلّمني شيئا»؛ وكذلك كان يفعل عمّي وأنا أنكر أشدّ الإنكار، ثم أروح إلى مكتب النصاري وآتي الدّار، فيعلّمني إلى أن مضت مدّة؛ فأرسل إليّ من إخوانه في الله الأصدقاء ويسألونني، فلم أقرّ لأحد قط بشيء، مع أنه ـ رحمه الله ـ تعالى ! ـ قد ألقى نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه، فيحرق لا محالة؛ لكن أيدنا الله ـ سبحانه وتعالى ! ـ بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدّين...

فلمّا تحقّق والدي ـ رحمه الله ـ تعالى ! ـ أنّي أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب، أمرني أن أتكلّم بإفشائه لوالدتي وعمّي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدّين وأنا أسمع...

فلّما رأى حزمي مع صغر سنّي، فرح كثيرا غاية الفرح وعرّفني بأصدقائه وأحبابه وإخوانه في دين الإسلام؛ فاجتمعت بهم واحداً واحداً، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيّان مدينة ابن مالك إلى غرناطة وإلى قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء، أعادها الله ـ تعالى ! ـ للإسلام.

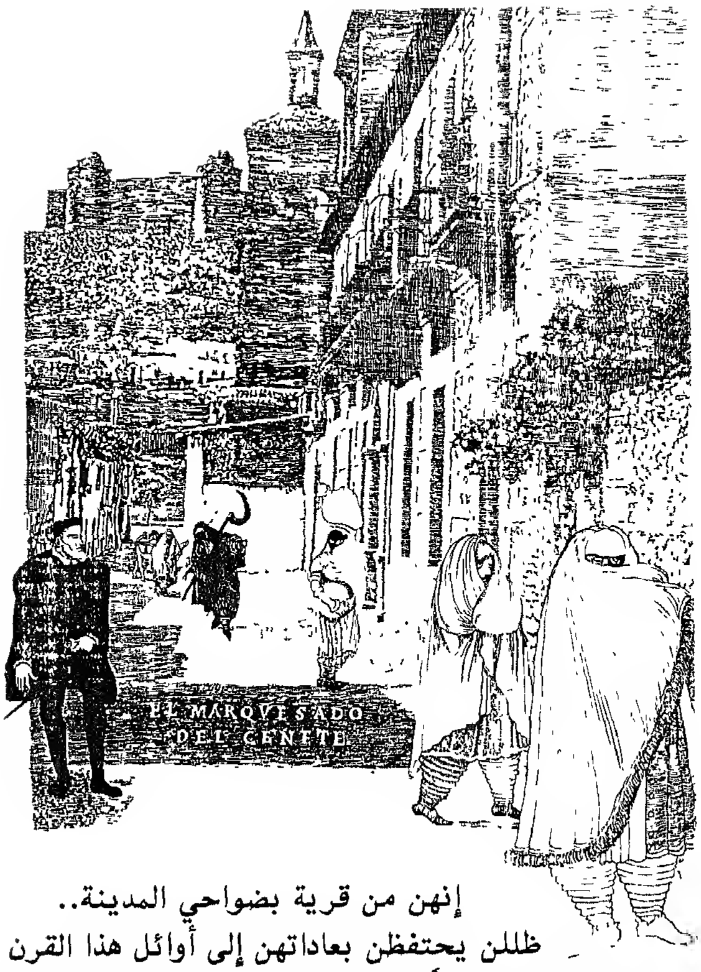

إنهن من قرية بضواحي المدينة..
ظللن يحتفظن بعاداتهن إلى أوائل هذا القرن !!
انظر مجلة «العدوتان» المجلد الأول ربيع 1، 2، 1371 طنجة إدارة عبد الكبير الفهري الفاسي

من خلال هذا نتصور الصلات التي يمكن أن تكون بين دولة قوية يساندها العالم المسيحي، وبين دولة تحاول أن تستجمع أنفاسها لاستعادة مكانتها الدولية... وإلى جانب ذلك المنغص نشهد منغصاً لا يقل مرارة عن الأول : ذلك طمع تركيا في المغرب، وعملها باستمرار على ضمه إلى ما كانت تحتله من أراضي بالشمال الإفريقي ! وقد كان مما زاد في دقة الموقف المغربي أن تركيا ترتبط بمعاهدات مع فرنسا لضرب إسبانيا على ما يعرفه التاريخ[2].

قدمت هذا ليسهل على المتتبع أن يدرك السر في مصانعة القادة المغاربة لإسبانيا أحيانا، وفي التوجّه لأسطامبول حينا آخر...

ولقد أدركت إسبانيا أن أيام الوطاسيين قد أدبرت، وأن الرأي العام المغربي أمسى ضدهم ففضلت أن تضع يدها مع الزعماء الجدد : الشرفاء السعديين الذين كانوا يرفعون منذ البداية شعار الحذر من التدخل التركي في بلادهم..!

---

2) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص / 84، 88، 91، 95، 96، 99، 102، 104، 109، 111، 112، 113.

وحتى نعرف منطلق هذه التحولات نشير هنا إلى التقرير الذي رفعه من مالقة بتاريخ 22 يوليه 1555 = 3 رمضان 962 المبعوث الإسباني ميكَيل ليثكانو (MIGUEL DE Lazcano) إلى الكونت حاكم وهران الإسباني حول السفارة التي قام بها المبعوث المذكور في المملكة المغربية بمشاركة بولوكَرييو (P. Grillo) وكانسينو (Cansino). ذلك التقرير الذي يبين لنا إلى أي حد كانت تشعر فيه إسبانيا بمضايقة فرنسا التي كانت تضربهم بواسطة العثمانيين، كما يكشف إلى أي حد بلغ امتعاض المغاربة من موقف الأتراك الذين كانوا يتصورون أنه يجوز للسلطان العثماني ما لا يجوز للعاهل المغربي !![3]

☆ ☆ ☆

وإذا كانت السفارة قد فشلت على ما نعرف فإن التقرير يكشف عن حقائق نحن في حاجة ماسة إليها لمعرفة السر الذي دفع بالمغاربة إلى مفاتحة إسبانيا، ذلك السر الذي يكمن في طمع الأتراك المستمر للاستيلاء على مملكة المغرب ![4]

وقد أرسل ألكونت ذلك التقرير من المرسى الكبير إلى الأمير فيليب ابن الأمبراطور شارلكان وممثله صحبة رسالة خاصة بتاريخ 9 غشت 1555 هذا نصها :[5]

(في اليوم الثاني من هذا الشهر، جاءني رسول كنت بعثت به إلى مدينة فاس... ويسألني أن أطلب من جلالتكم الإذن لي بالتفاوض مع الشريف.

ويخيل لي أن الله هو الذي تصرف في أمر هذه المذاكرات ذات الأهمية الكبرى بالنسبة لجلالة الأمبراطور وبالنسبة لسموكم.

ويجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جداً في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا، عدونا الألد كل جهوده، دون أن يخاف الله، للحصول على أسطول السلطان (العثماني) كي يهاجم ممتلكات جلالة الأمبراطور... يعرض علينا ملك عربي ذو نفوذ كبير، مهاجمة أتراك الجزائر ومحاربتهم وإبعادهم عن الأرض التي يحتلونها

3) S.I.H.M. ESPAAGNE T. 2 P. 270

4) المصدر السابق ص 271.

5) Sources inedites S I, T. 2, P : 345

في إفريقيا، وذلك فيما إذا قدمنا 12 ألفاً من المقاتلين الإسبانيين على حسابه الخاص وفي حالة ما إذا رضيتُ أن أبعث بأحد أولادي رهينة لديه.

وبما أن هذه العملية ستجر خيراً عظيما على جلالته وعلى المسيحية جمعاء، فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف، وأرسل إليه ولدي رهينة، حتى ولو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه ! بل إنني أنا نفسي وكل الذين حولي من أهلي، مستعدُّون أن نقدم أنفسنا كرهائن، حتى ولو كان الشريف يريد بيعنا عبيدا، والرجاء من سموكم أن توجهوا إلي بالتفويض الذي يمكنني من تتبع هذه المحادثات) على ما قدمناه...

☆ ☆ ☆

وهكذا ينتهي الأمر - بعد تجدد الاصطدامات على الحدود على ما قلناه في العلاقات المغربية التركية - إلى إعطاء «الصلاحيات» لحاكم وهران الإسباني لكي يعقد اتفاقية هدنة مع المبعوث الذي يرسله محمد المهدي الشيخ، من شأنها أن تكفيه الواجهة الشرقية للاهتمام بشؤون مملكته ودرء الخطر عنها في الواجهات الأخرى.

وقد تبع هذه الصلاحيات، إعطاء تعليمات لحاكم وهران من ڤايادُوليد (Villadolid) بتاريخ 9 يوليه 1556 تقضي بأن على الكونت أن يعقد مع الشريف عقد هدنة لمدة عشر سنوات أو أقل إذا رغب العاهل في ذلك يمكن للإسبان أثناءها أن يتجروا بحرية في مدن المملكة المغربية وستقدم إسبانيا للشريف إثنى عشر ألفاً من المشاة ينزلون في الميناء الذي يختاره الشريف...

ولا شك أن مشروعاٍ كهذا من شأنه أن يقوي جانب المغرب علاوة على ما فيه من عرقلة لهدف الأتراك، القاضي بتنفيذ تعليمات الباب العالي الرامية إلى ضرب إسبانيا عملاً بالاتفاقيات العثمانية الفرنسية..! ومن هنا فكرت اسطانبول في التخلص من السلطان محمد الشيخ عن طريق الاغتيال والغدر حيث دست إليه من أجهز عليه وحمل رأسه من تارودانت إلى استانبول !! على ما قلناه في العلاقات المغربية التركية.

وأصبح مولاي عبد الله ملكا على البلاد، فسار على اختيار والده في التقرب إلى إسبانيا[6]، وكانت الشروط التي اقترحت من قبله للاتفاقية المقترحة، والتي حررت بمدينة فاس بتاريخ العشر الأول من جمادى الأولى 964 = 2 - 12 مارس 1557 متضمنة للشروط السبعة الآتية :

1) عقد سلم بين المغاربة والإسبانيين لمدة معينة.

2) يلتزم مولاي عبد الله برعاية وتسديد أجور العسكر والرجال الذين سيحتاجهم ابتداءً من يوم نزولهم وتقدر تلك الأجور بـ (ثلاثة مثاقيل زيانية (Edoubles Zianes) شهرياً، وكذا أجور الضباط التي توازي القدر الذي كانوا يتسلمونه بوهران...

3) يلتزم باستبدال كل المدفعية الضرورية التي قد يصيبها التلف أثناء الحملة، كما يلتزم بدفع ثمن البارود والذخيرة ومصاريف السفن التي ستؤمن النقل.

4) لن يهاجم أي مركب إسباني من طرف المراكب المغربية، ولن يمكن أي قرصان من التزود بالمؤونة من المغرب.

5) سيطلق سراح المسيحيين المحجوزين بالمغرب، وستترك الموانئ المسترجعة لمولاي عبد الله ولن يبقى أي مغربي محتجزاً.

6) إذا طالب الإسبان بمبلغ شهر مسبق من الأجور فسيقدم لهم هذا السلف، وسيصبح ابن الكونت دو ألكوديت رهينة عند عاهل المغرب مع اعتراف مكتوب لملك إسبانيا.

7) سيبرم هذا الاتفاق مع قبطان وهران الذي ستكون له صفة قائد عام للحملة.

---

6) لابد أن نذكر هنا بما قلناه في قسم العلاقات المغربية التركية عن الكتاب الذي ألفه النهر والى على شرف الأمير عبد الله هذا، والذي ألف على ما يتأكد لدي بإيعاز من استانبول استجلابا للشريف...

د. التازي : ابن ماجد والبرتغال مجلة البحث العلمي العدد 36 سنة 1987 - وزارة التراث بسلطنة عمان 1986.

وبينما المفاوضات جارية بين المغرب وإسبانيا من أجل الوصول إلى اتفاق... كان الباب العالي يأخذ استعداده لضرب المغرب الذي كان يتصور أن الفوضى ستضرب أطنابها عليه بعد اغتيال محمد الشيخ !!

وهكذا قرأنا عن بيانٍ صدر من سبتة بتاريخ 3 يونيه 1557، يقول :

لقد توصل باشا الجزائر من السلطان العثماني بأربعة آلاف جندي لمساعدته على احتلال مملكة فاس ! ـ إن درغوت[7] قادم من القسطنطينية مع 80 بارجة (Galéres)، وسيصل عدد بوارج الأسطول إذا أضفنا تلك التي توجد بالجزائر مع بعض البوارج الخاصة، إلى 150 بارجة ! ـ وسيصحب درغوت حسن ابن خير الدين[8] الذي سيصبح والياً جديداً على الجزائر قبل أن يذهب إلى المضيق. بعد ذلك سيتجه باسطوله إلى سلا لاحتلالها وبناء تحصينات في انتظار انتهاء فصل الشتاء ـ لقد قامت ثمان بوارج تركية من منطقة بالبوغاز بجولات استطلاعية في موانئ المغرب وخصوصاً سلا ـ ولقد تم إعداد 80000 قنطار من البشماط[9] ومؤونة هامة بالجزائر ـ كما أن تلك البوارج تفحصت أيضاً مداخل موانئ مملكتي فاس وبادس ـ وقد علم أن الشريف كان على بينةٍ من كل ما يجري، وأنه يعد أكبر عدد ممكن من الأشخاص للدفاع عن نفسه، ولكن إذا قدم الأتراك مع الأسطول فيعتقد أن السلطان سينسحب من الميدان نظراً للخوف الذي يهدد المغاربة من طرف الجيش العثماني إزاءهم.

وقد حدث ما كان يتوقعه العاهل المغربي، وهكذا ركب والي الجزائر حسن باشا رأسه وقصد إلى ضرب السعديين عندما لم يكن في استطاعته أن يوجه «جهاده» ضد إسبانيا التي تحتل ثغوره ! بيد أن السلطان مولاي عبد الله الغالب أنزل به هزيمة منكرة فاضطر باشا الجزائر أن يتراجع بعد مصرع أمير تلمسان مخلفاً نصف معسكره والجزء الأهم من أجهزته الحربية، وعاد الجيش المغربي

---

7) يكتب في بعض المصادر العثمانية العربية : طرغول...

8) حسن باشا ابن خير الدين والي الجزائر تولى ثلاث مرات :

1 ـ 20 يونيه 1544 إلى 22 شتنبر 1551.

2 ـ يونيه 1557 إلى شتنبر 1561.

3 ـ سبتمر 1562 إلى يناير 1567.

9) قِطع من الخُبز اليابس المحَلّى يُعَدّ للحروب... (لفظ تركيّ...).

يسوق معه أربعمائة فرس، الأمر الذي تحدثت عنه رسائل الغالب بالله من معسكره في (ورغة) إلى مختلف عماله بالمغرب على نحو ما تكشف عنه رسالة منه محفوظة إلى قائد أزمور عبد الله أحمد بتاريخ 17 جمادى الثانية 965 = 6 أبريل 1558[10].

وبالرغم من أن الأمير مولاي عبد الملك السعدي كان التجأ إلى أتراك الجزائر الذين كان يهمهم أن ينتقموا من الجالس على عرش المغرب الذي لم يرضخ للتبعية، فإنه أي الأمير عبد الملك ظل نفسُه حذراً من تركيا أن تفهم من مساعدتها له أنه سيسلس لها القياد ويرضخ لمطامعها.

وبهذا نفسر مسارعته بدوره للاتصال بإسبانيا - وهو مقيم بالجزائر - عن طريق أسرة كَاسبارو (Gasparo) التي كانت تقيم ببلنسية وكان لها دور مهم في أحداث منطقة الحوض المتوسط بما كانت تتوفر عليه من شبكةٍ محكمة تهتم بالشؤون التجارية والسياسية، وتنتقل عبْر إفريقيا وأروبا وأسطانبول.

لقد ورد في رسالةٍ سريةٍ من مولاي عبد الملك إلى فيليب الثاني محررة بالجزائر ذاتها بتاريخ 18 اكتوبر 1570 = جمادى الأولى 978 ما ياتي :

«إنه لم يتوصل بجواب بعد من الملك فيليب الثاني ولكنه أخبر بواسطة كَورصو كَاسبارو (Gorso Gasparo) بالمساعدة التي ينتظر أن يرسل بها ملك إسبانيا إليه، وأنه لا يفكر في إمكانية التعامل مع باشا الجزائر لأنه لا يثق في مصداقيته وفي إنصافه، لقد تحدث مولاي عبد الملك مع أخيه الأمير عبد المؤمن فيما يمكن أن يقدماه لملك إسبانيا من محاولات ومساعدات، لقد أرسل عبد الملك بخادمٍ لعبد المؤمن إلى حاكم وهران الذي سيطلع العاهل الإسباني على حسن نية الأخوين، وسيبعث عبد الملك بولده رهينةً لملك إسبانيا كدليل على وفائه حتى تنتهي محاولته لانتزاع الحكم من أخيه عبد الله الغالب... وأخيراً يحيط فيليب علماً بأنه سيخبره بنتيجة المحاولة...

لقد حررت هذه الرسالة التاريخية باللغة الإسبانية وحملت توقيع الأمير عبد الملك بالحروف اللاتينية. إنه الملك الوحيد الذي وقع رسائله إلى الخارج على ذلك النحو الذي سنشاهده في الصورة..

(10 Sources inedites Éspa S.l. T 2 = P : 421

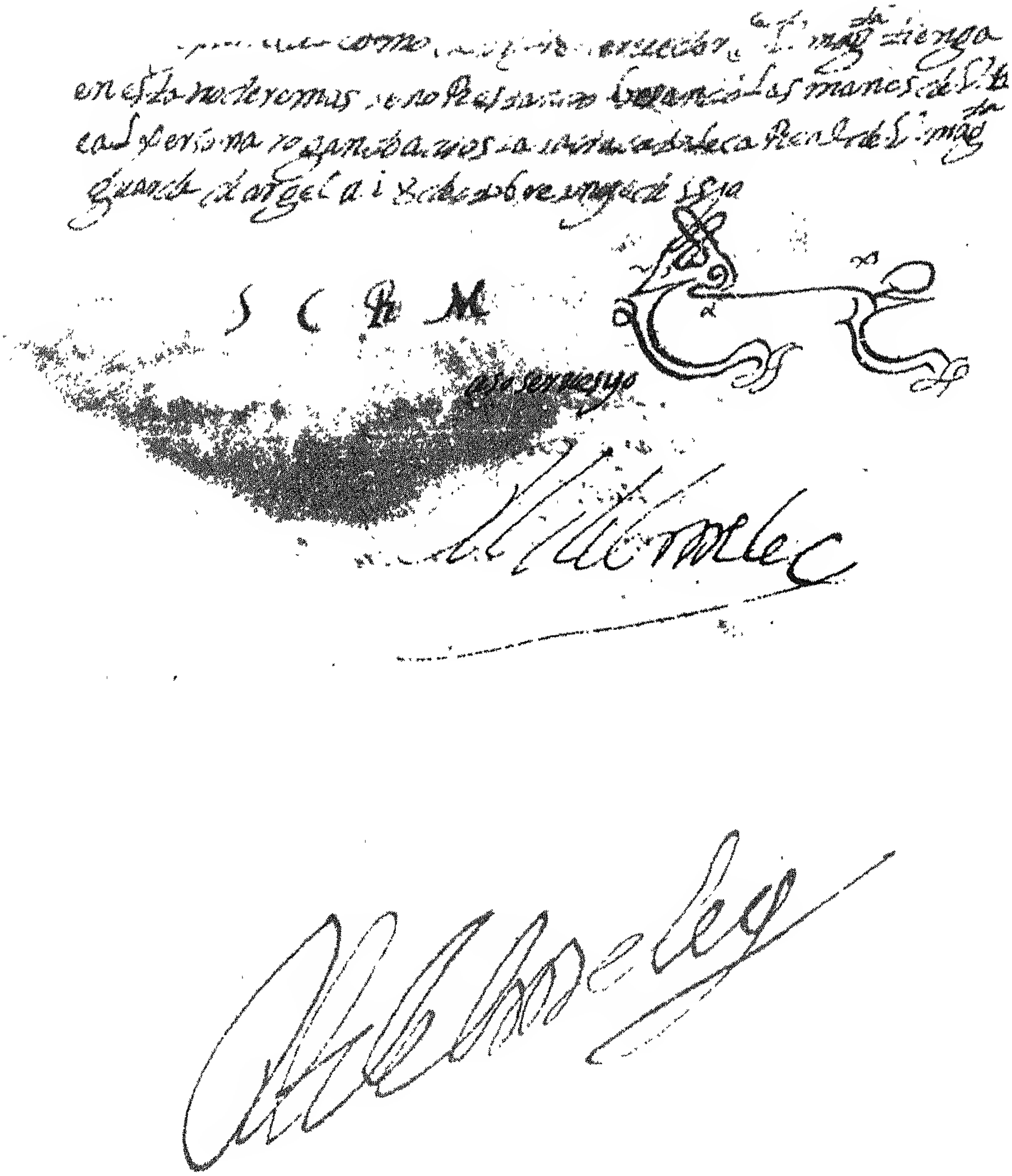

صورة لتوقيع مولاي عبد الملك بالحروف اللاتينية

ويتمكن مولاي عبد الملك من انتزاع الحكم من يد ابن أخيه محمد بن عبد الله الغالب بمعونة الأتراك على ما فصلناه في «العلاقات المغربية التركية»، ولكنه مع ذلك ـ وعلى ما أسلفنا ـ ما ينفك على صلةٍ بالملك فيليب تحسُّباً من ناحية لما قد يجد من طرف الأتراك الذين مكنه الاتصال بهم عن كثب من تبين أهدافهم، ومن ناحيةٍ أخرى فإنه يتقي شرور ردود فعلٍ قد تظهر من فيليب مناصرةً للأمير المخلوع محمد بن عبد الله الغالب !

وهكذا بعث مولاي عبد الملك برسالةٍ أخرى إلى فيليب من مراكش بتاريخ 16 أبريل 1577 = 27 محرم 985 يهنئ فيها نفسه بتوليه الحكم في المغرب، لقد كان بعث إلى فيليب في نفس السنة التي ابتدأت فيها مفاوضات الصلح التركية الإسبانية[11] بالقابطان كابريط (Cabrette) حاملاً مقترحات حول عرض صداقة لم يجب عنها فيليب، وهو اليوم يكلف مارتين دييكو (Martin Diego) بنفس المهمة، ويقدمه لملك إسبانيا على أنه مخلص وأنه يعتمده لدى ملك إسبانيا كمفوض عنه...

وبُعيد هذا التاريخ أول مايه 1577 = 12 صفر، نجد مشروع اتفاقية إسبانية مغربية أخرى... ونتبين من خلال الوثائق التي تمس هذه الاتفاقية أن مولاي عبد الملك كان ينشد دائما مسالمة فيليب الثاني حسبما تدل على ذلك مراسلاته مع البلاط الإسباني... لماذا ؟ لأن عبد الملك لا يتوفر على الأسطول الذي يمكنه من الغارة على الشواطئ الإسبانية، وهو من أجل ذلك لا يؤيد أي حكم يناهض إسبانيا ولو كان هذا الحكم تركياً ! وهو في مقابلة هذا يحصل على مساعدة فيليب عند الحاجة للتعاون في ميدان التدخل العسكري ضد المغيرين من الأجانب، وللعاهل المغربي الحق في امتلاك سفينتين إحداهما تتجه للشرق والأخرى تتجه للغرب لافتداء الأسرى، ويمكن لفيليب أن يفتح الحوار من أجل افتداء الأسرى، وختاماً فإن الاتفاقية تنص في فصلها الأخير على أن تعديل هذه الاتفاقية ممكن إذا ما توصل ملك إسبانيا بخطابٍ من ملك المغرب عبد الملك موقعة منه مختومة بطابعه مؤيدة من طرف علماء البلاد، وبالمقابل فإن العاهل

---

11) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 114.

المغربي يعتمد الرسائل الموجهة إليه من طرف فيليب الثاني عندما تكون مؤيدة من طرف البابا...

ويتأكد أن مراسلات السلطان مولاي عبد الملك مع فيليب كانت ـ منذ توليه الحكم ـ متوالية وباستمرار، وهذا جواب من فيليب الثاني إلى العاهل المغربي بتاريخ 11 مايه 1577 يفيد أن ملك إسبانيا توصل برسائل من مولاي عبد الملك بتاريخ (10) يناير و(5) يبراير من هذا العام، وأنه كذلك توصل بالمذكرة التي حملها إليه القابطان كابريط... لقد أعرب فيليب عن فرحته للرغبة المعلن عنها من قبل مولاي عبد الملك والخاصة بعقد السلم معه... وقد عهد لكابربط بأن يطمئن مولاي عبد الملك على نيته في متابعة المفاوضات معه وأن يجعل العاهل المغربي يقتنع بحسن نية فيليب وأنه ينتظر الوقت المناسب لفتح الحوار...

ويتبين أن مسالمة مولاي عبد الملك لفيليب كانت نابعة عن استراتيجية مدروسة فهو على علم بإمكانياته العسكرية من جهة، وهو على خبرةٍ من ناحية أخرى بنوايا «مزاحميه» ومناوئيه، ومع ذلك فقد كان، بحكم أنه مسلم شريف، يعطف على أتراك الجزائر غير متردد في تقديم المساعدة إليهم متى أمن مداهمة المغرب من قبل الإسبان الذين ما يزالون على صلة بالأمير المخلوع وهو الأمر الذي تتضافر عليه الوثائق المحفوظة من أمثال الرسالة التي بعث بها زونيكا من جبل طارق تاريخ 27 مايه (Zûñiga) عام 1577 = وربيع الأول 985 إلى الملك فيليب، والتي يستشف منها نفسها أن عبد الملك كان يساند الأتراك في حركاتهم لاستخلاص وهران..![12]

وفي الوقت الذي كان فيه مولاي عبد الملك يرسي صلاته بالعاهل الإسباني كان يعلم عن صلة ابن أخيه : محمد بن عبد الله الغالب الذي التجأ إلى بادس في نفس السنة التي خلع فيها 981 = 1573، والذي أخذ بدوره يتجه إلى طلب المساعدة من فيليب بواسطة حاكم جزيرة بادس القابطان خوان دى مولينا (Juan de Molina) عن طريق مبعوثه القائد حمو بن حمزة الذي حمل رسالة اعتماد إلى القابطان المذكور تحمل تاريخ 10 رمضان 985 = 21 نونبر 1577 يقول فيها بعد الحمد والتصلية والمقدمة والسلام «على من اتبع الهدى».

---

12) CH. de la Véromme, S.I.H.M. ÉSPA. T.3 P. 312

«...وقد بعثنا إليكم خديمنا الأعز الأريح الأعظم حمٌّ بن حمزة للمفاوضة معكم في الكلام فيما يصلح بيننا وبينكم وبين السلطان الأعظم الأكبر صاحب مملكة إسبانية السلطان فيليب، فكن على ثقة مما يقوله لكم...».

ولم يلبث الأمير المخلوع أن حرر من بادس رسالةً أخرى إلى ملك إسبانيا بتاريخ 12 رمضان 985 = 23 نونبر 1577 يذكر فيها فيليب الثاني بما كان للملوك الإسبان من مواقف نجدة لمولاي محمد وهو ما يزال وليا لعهد والده السلطان عبد الله الغالب !!

ولم يتردد محمد بن عبد الله الغالب في إلفات نظر فيليب إلى حالة الضعف التي يوجد عليها مولاي عبد الملك الأمر الذي يبرر التفاوض مع الأمير محمد، ذاكراً أن المغاربة يكرهون عبد الملك في الظروف الراهنة مؤكدا أنه إذا لم يساعد العاهل الإسباني الأمير محمد بسرعة فإن الموقف قد يتغير لصالح عبد الملك..! ويختم الأمير محمد بن عبد الله الغالب رسالته إلى فيليب بأنه قرر أن يبعث بولده مولاي الشيخ إلى البلاط الإسباني..!

«...وكان مما حكم الله به عز وجل في سبْق الأزل - يقول الأمير - تبدل الدول وانحياز بعض الملوك إلى بعض... كجدكم (ألفونس) فإنه، لنصرته لملوكنا، ثبت له من الذكر الحسن في تواريخ المسلمين جيلاً بعد جيل إلى زماننا هذا ما لم يثبت لغيره... وحكم علينا عز وجل بالانحياز إليكم... بنصرتكم إيانا، وكما يجب علينا إعمال الجهد في أخذ ثارنا يجب عليكم القيام بنصرتنا كعادة الملوك المتقدمين... مع أن عدونا بالنسبة إلى ملككم في غاية الضعف والتدبير... سهل الاتصال به لمخالفة الرعية له... وإن طال الأمر يمكنه مداخلتهم ومصالحتهم... وقد عزمنا على إرسال ولدنا إليكم للوقوف ببابكم وتأدية واجب حقكم علينا وكتب في التاريخ...

وبعد أن يتأكد محمد بن عبد الله من أن فيليب الثاني تخلى عنه للاعتراف بحكم عبد الملك يتجه نحو الملك سباستيان ملك البرتغال معتمداً على تدخلات أنصاره من أمثال عبد الكريم بن تودة في شأن إغراء العاهل البرتغالي بالمملكة المغربية الأمر الذي أدى في النهاية إلى مغامرة سباستيان ومصرعه في

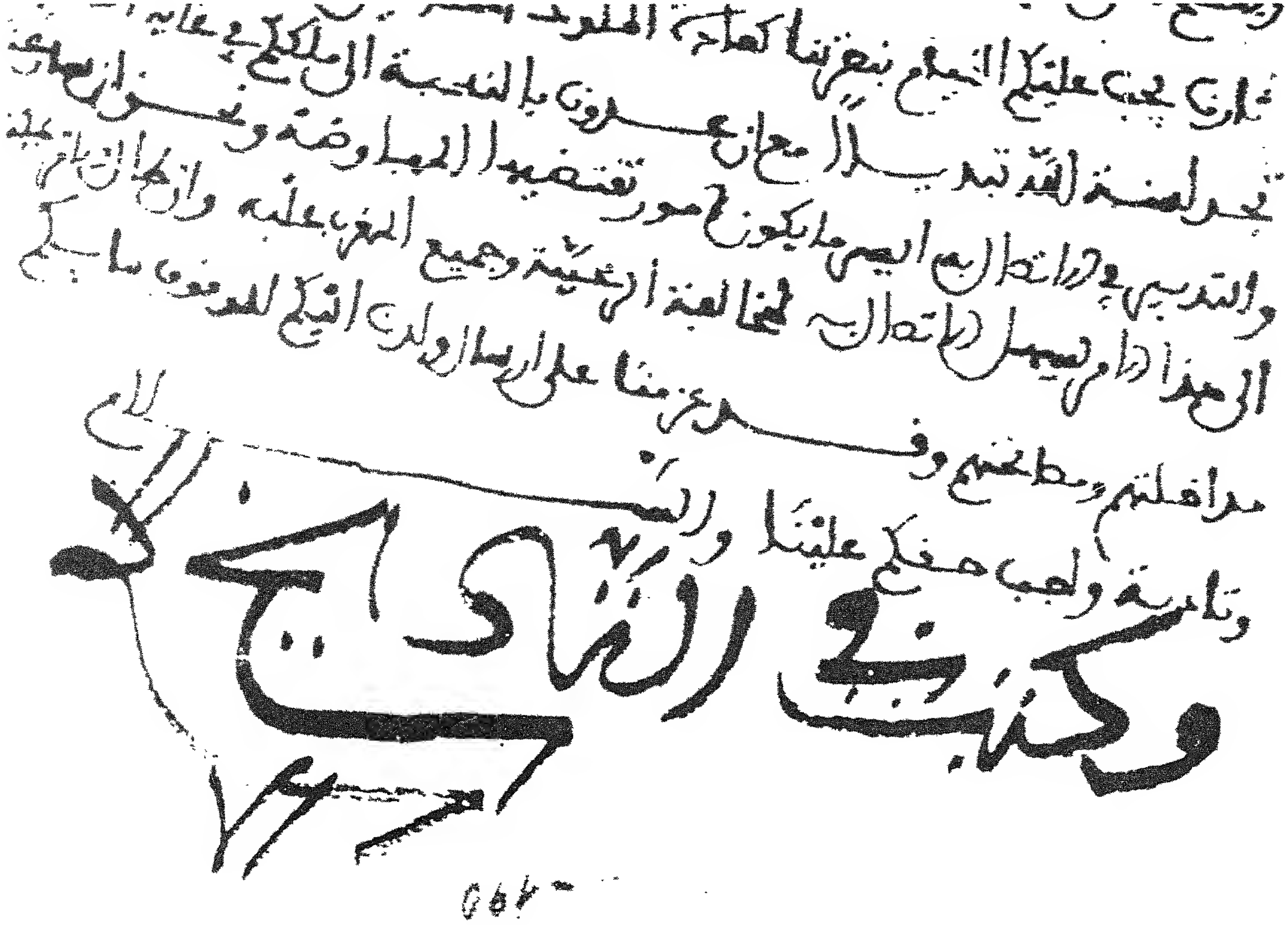

ختام رسالة محمد بن عبد الله الغالب إلى فيليب وهي تحمل تاريخ 12 رمضان 985 = 23 نونبر 1577

الموقعة الكبرى بوادي المخازن (986 = 1578) على مقربةٍ من مدينة القصر الكبير على نحو ما تحدثنا عنه في العلاقات المغربية البرتغالية...

لقد تخلت إسبانيا فعلاً عن نصرة الأمير محمد بعد أن اتصلت بالمعلومات التي تفيد أن مركز المولى عبد الملك تقوى بمختلف جهات المغرب، وبهذا نفسر نصح الملك الإسباني فيليب لدون سباستيان ملك البرتغال أن لا يقذف بقواته في الساحة المغربية ضد السلطان مولاي عبد الملك..!

وتختفي المراسلات بين الطرفين المغربي والإسباني على ما في علمنا إلى أن تحل الكارثة بملك البرتغال ويتولى السلطان أحمد المنصور حكم المغرب في أعقاب المعركة العظمى : معركة وادي المخازن التي شهدت وفاة أخيه المولى عبد الملك...

فهنا نجد سفارةً من السلطان فيليب الثاني لدى السلطان أحمد المنصور تحمل رسالة من العاهل الإسباني تلتمس من ملك المغرب التفضل بتسليم جثة دون سباستيان للبرتغال، على ما فصلناه في القسم الخاص بالعلاقات البرتغالية المغربية.

وبصرف النظر عن الصيت الذي خلّفه انتصار وادي المخازن وخلفه كذلك الموقف الحازم الذي اتخذه أحمد المنصور ضدّ المتئامرين عليه غداة الانتصار، بصرف النظر عن ذلك فإن فيليب الثاني أراد أن يعرب عن امتنانه للعاهل المغربي وعن عواطفه حتى يكسبه إلى جانبه فبعث بسفارةٍ هامةٍ في أواخر جمادى الأولى سنة 987 = يوليه 1579 تتألف من حوالي ستين شخصاً كانوا في رفقة السفير الإسباني حاكم مليلية دون بيدرو فينيكاس (Don Perdo Venegas) الذي كان يرتدي بذلةً رسميةً فاخرة، والذي كان يرافقه الأب دييغومارين (Diego Marine) المتضلع من اللغة العربية والمطلع على التقاليد الإسلامية.

لقد بلغوا - يقول الوزير الفشتالي - مراكش من جهة آسفي مرسى فُلْكهم ومحط رحالهم... فأدوا رسالة ملكهم وعظيم ملتهم وقدموا بين أيديهم هديته المشتملة على كل نفيسٍ من حجر الياقوت الكبير الحصيات المنتقى لذخائر الملوك، انتزعت من تاج آبائه وأسلافه، ومن الذخيرة العظمى عند قومه، وربعة مملوءة

من حصباء الدر الفاخر وقصب الزمرد، كانت منها زمردة فاخرة الجرم تفوت سائر الأحجار مقداراً وشكلا وحسنا، وعلقت بها زمردة أخرى أقل منها جرما وأشبه بها حسنا وكلتاهما من ذخائر الملوك العظيمة ونحو ذلك من الذخائر النفيسة والتحف الدالة على همة مرسلها وعظمة المترف بها... ووصل الرسول إلى أمير المؤمنين لأداء التحية فقعد لهم أفخم قعود وبالغوا في الخضوع له والاستخذاء لوطء بساطه والاستكانة لعظيم سلطانه وتلقاهم بما يليق به كرماء القوم من البر والحيا...[13] وكان هذا يوم فاتح جمادى الثانية = 26 يليه على ما تتحدث عنه الرواية الأوروبية[14].

ولقد تحدثت مصادر أخرى عن ياقوتة بقدر كفّ اليد عَلِقت بها جوهرة بقدر الجوزة قيمتها ثلاثة آلاف دينار مع زمردة بقدر التفاحة تتدلى منها زمردة أخرى في طول الأصبع مع عِقد انتظمت فيه إثنتا عشرة ياقوتة تتخلّلها ست وثلاثون جوهرة... إلى مائة وعشرين أوقية من الجوهر...

ونظراً لأهمية هذه السفارة نعرض هنا لبعض ما كان يحتف بها نقلاً عن المصادر الأوروبية وخاصة منها الإسبانية :

كان هناك هدفان إثنان للسفارة علاوة على الإعراب عن تهنئة فيليب الثاني للعاهل المغربي واعترافه بالجميل لتسريح جثة دون سباستيان ملك البرتغال.

الهدف الأول محاولة الحصول من السلطان أحمد المنصور على التنازل عن مدينة العرائش مقابلة تنازل إسبانيا - وقد ورثت البرتغال ! - عن مدينة الجديدة !

أما الهدف الثاني فهو الإفراج عن دوك دي بارسيلوس **(Duque de Barcelos)** الفارس البرتغالي وقد أوصى فيليب الثاني فيما يخص هاتين النقطتين بما يلي :

---

13) يذكر النص أن الخبراء راموا المقارنة بين هدية الإسبان وهدية البرتغال لكنهم احتاروا فلكل قيمته، مناهل الصفا 50.

14) S.I.H.M. FRANCE – T.2 P.54

«على الأب مارين أن يثير الموضوع مع العاهل بسرية تامة... الحوار ينبغي أن يهدف لدعم الصداقة التي يترجم عنها بإعطائنا ميناء العرائش، فإذا قبل السلطان فبالإمكان إبرام اتفاقية للسلام، وفي حالة امتناعه عن التنازل عن العرائش فلا يكون ذلك سبباً لقطع الحوار ! وقبل أن تصلوا إلى هذا يجب أن تكونوا قد حصلتم على إطلاق سراح الدوك، وتعدوا السلطان بالهدنة مع استشارتي، ولتعودوا بسرعةٍ ومعكم الدوك، وإذا أراد الملك أن يبعث معكم رسولاً فرحّبوا بذلك ولكن لا تطأوا أرض ملك البرتغال، فإذا تم السلام فاحضروا مع الدوك ويبقى الأب مارين هناك، أما إذا لم يتم فارجعوا جميعا بسرعةٍ إلى قشتالة !»

وتذكر الوثائق أن أمل فيليب في إنهاء الأمر بسرعة قد خاب ! فلقد بقي فينيغاس، ومارين بالمغرب عدة سنوات حيث تعقدت المحادثات، فبالرغم من أن السلطان المنصور استجاب لإطلاق سراح الدوك بدون عوض أوائل عام 1580 = أواخر 987 بل والإفراج عن ثمانين فارسا برتغاليا لكن العاهل المغربي كان يقف من قضية استبدال العرائش بالجديدة موقفا يتسم بالحذر ! لماذا الحذر وليس الرفض الصريح ؟ لأن التهديد التركي كان للمغرب بالمرصاد وهكذا فإن المنصور عندما يتأكد له أن مطامع الأتراك ابتعدت عن بلاده يتصلب موقفه مع إسبانيا حول العرائش، ولكنه عندما تصله الأخبار عن المداهمات التركية المبيّتة يتظاهر بالصداقة مع فيليب ويعده بتقديم سائر المساعدات لمقاومة الحلف التركي الفرنسي ضد إسبانيا..!

وقد حملت سنة 1581 = 989 أخباراً مقلقة بالنسبة للمنصور فقد علم أن باشا الجزائر استأذن السلطان مراد لاكتساح المغرب وتجمع لهذا الغرض أسطول عظيم متأهب لتلقي الإشارة !

وهنا أقبل المنصور على الحديث حول مشروع اتفاقية سلام مع فيليب الثاني لمدة عشرين سنة وتنص فيما تنص عليه التنازل عن العرائش، غير أن القدر غيّر مجرى الأحداث فقد أخذت بوادر الانهيار تدب في الأمبراطورية العثمانية التي نراها تصدر أمراً لاسطولها في الجزائر بالتحرك نحو الجزيرة العربية لقمع

ثورة هناك ضد الوجود التركي، هذا إلى جانب التطمينات التي حملتها إليه سفارة الشاطبي والشياظمي... على ما قلناه في العلاقات المغربية التركية. وهكذا نرى السلطان المنصور يتجاهل المشروع بل ويمزق الاتفاقية التي قدمت إليه للتوقيع !!

وينفذ صبر فيليب الثاني طوال عام 1581 بالرغم من التدخلات والمراسلات والاستشارات ويعمد في الأخير إلى محاولة استعمال القوة لاحتلال العرائش ! وأخذ يرتب مع المختصين أمر ملابس الجنود والرواتب التي يتقاضونها...

ولكن المنصور السعدي عرف مرةً أخرى كيف يصانع ويماطل... إنه أمام طائفة من المتربصين هنا وهناك وعليه أن يتحرك بمهارة، وعليه أن يكون مَرِناً في الجواب عن رسائل فيليب العديدة، ويحتفظ قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط بمجموع يضم عدداً من الرسائل المرفوعة من الجانب المغربي إلى فيليب الثاني، كما تحتفظ المكتبة الوطنية بمدريد أيضا بالنسخ الأصلية التي كانت تروح من المغرب إلى العاهل الإسباني(15).

ومن الطريف أن نكتشف عنصراً جديداً يتدخل في أمر العلاقات المغربية الإسبانية ذلك أن الملكة إليزابيت بعثت أواخر عام 1582 أواخر 990 تعرض على أحمد المنصور المساعدة في حالة هجوم فيليب على العرائش...

ومن بين الرسائل التي تخص هذا الموضوع ما كتبه دون خوان دي سيلفا إلى فيليب بتاريخ يبراير وماي ويونيه 1583 = 991 وبالأخص الرسالة الأولى التي يصف فيها الحالة التي كان يوجد عليها مشكل العرائش : «إن امبراطور المغرب ـ تقول الرسالة ـ يسخر منا، فهو متأرجحٌ بين مصانعتنا ومصانعة الأتراك، فعندما يطالبه صاحب الجلالة بالعرائش يقول له : هيا بنا إلى الأتراك في الجزائر ! وعندما يهدده الأتراك يقول : هيا بنا إلى إسبانيا ! ومرة أخرى يلوح الخطر التركي في الشهور الأخيرة من سنة 1583 = أواخر 991 حيث نجد

---

15) مجموع مخطوط يبتدي بعنوان رسائل الكاتب محمد بن علي الفشتالي رقم ك 278 ـ تراجع مجلة (المناهل) دجنبر 1978 ـ يناير 1979 ـ مخطوط مدريد رقم 257.

المنصور يبعث إلى الملك فيليب الثاني بالسفير القائد إبراهيم بن محمد السفياني يحمل رسالة يوافق العاهل بمقتضاها على مبدإ استبدال الجديدة بالعرائش ! وبينما ملك إسبانيا يستعد للاحتفال إذا بالأتراك يُشْغَلون في واجهات أخرى وإذا بالسلطان أحمد المنصور يتراجع مرة أخرى للوراء ! خمس سنوات من المراوغات والموارابات، وقد كان العاهل الإسباني يملك نفسه عندما يتذكر أن إغضاب المنصور قد يجعله يقف إلى جانب الحلف التركي الفرنسي !!

ومن الأوراق التي كان فيليب الثاني يلعب بها للضغط على المنصور اعتماده على أميرين مغربيين كانا قد التجأ إلى البرتغال خلال سنة 986 = 1578 وهما محمد الشيخ ومولاي الناصر : الأول ابن السلطان محمد المتوكل الذي حارب في صف دون سباستيان بمعركة وادي المخازن، والثاني أخو محمد المتوكل، وبالتجاء هذين الأميرين إلى الجزيرة أصبحا عملياً تحت تصرف فيليب بعد أن ألحق البرتغال بإسبانيا... ووضعهما كمطالبين بعرش المغرب من شأنه أن يشوش على المنصور..!

وهكذا كتب ملك إسبانيا بتاريخ 24 أبريل 1584 13 ربيع الثاني 992 إلى دوك دي مدينا سيدونيا (MEDINA Sidonia) يطلب إليه أن يقوم بتجميع الأسطول من أجل الحركة !! لكن سنة 1586 = 994 حملت معها مؤامرة ملكة إنجلترا ضد إسبانيا ! فقد كان دون انطونيو المرشح لعرش البرتغال يلتجئ بإنجلترا وهو يسعى الآن لانتزاع العرش البرتغالي من يد فيليب الثاني ! وهنا نجد ملفاً ضخماً حول مراسلات إليزابيث لملك المغرب حسبما قلناه في العلاقات المغربية الإنجليزية.

وإضافةً إلى هذا نجد المنصور يعقد اتفاقا مع أنطونيو لصالح مناصرته، كما يعقد اتفاقاً مع ملكة إنجلترا يتعهد فيه بمساعدتها على استرجاع عرش البرتغال لصاحبه ! على ما قلناه في الفصل الخاص بالعلاقات المغربية الإنجليزية.

وجواباً على مناصرة العاهل المغربي لانطونيو عمد فيليب إلى استعمال ورقة مشابهة، تلك نقله الأميرين السعديين السالفي الذكر إلى جنوب إسبانيا

بكيفية علنية لتهديد المنصور الأمر الذي جعل هذا يعمل على التخفيف من «المبادرات» التي تستفزّ فيليب ! وهنا أخذ هذا الأخير يطمع في فتح حوار جديد، وكدليل على «حسن النية» وعد العاهل المغربي بالتنازل عن مدينة أصيلا...

وهكذا ظلت صلات المنصور بفيليب مرتكزة على المسالمة والمصانعة إضافة إلى العلاقات الممتازة التي كانت للمنصور مع اليزابيت الأولى ملكة إنجلترا التي كانت تستهدف ضرب الإسبان على ما أسلفناه.

☆ ☆ ☆

وقد عكست تلك الصلات آثارها على الناحية الاقتصادية أيضاً حيث نجد مراسيم ملكية بالإذن لبعض التجار الإسبان أن يمارسوا نشاطهم التجاري في بلاد المغرب، ونذكر على سبيل المثال ظهيراً مؤرخا في شهر شوال 987 = نونبر دجنبر 1579 بيد حامله المتمسك به التاجر افرنسيسق بريد (Francisco Barredo) برسم الجواز إلى مراكش[16]، وهذا نصّه :

عن أمر عبد الله أمير المؤمنين العباس أحمد المنصور بن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني ـ أيد الله أمره وأعز نصره وأسعد زمانه وعصره.

يستعين بحول الله ـ تعالى ـ وقوة هذا الظهير السلطاني ـ اسماه الله ـ بيد حامله المتمسك به التاجر افرنسشق بريد يتعرف منه ـ هداه الله ـ أننا أضفينا عليه من إرادة إمامنا ما يسوغ له إيراد بلادنا والتصرف بتجائره في مدننا وحدود ملكنا، بحيث لا يخشى بحول الله ما يستهجنه في حالتي قدومه وانقلابه ولا تمد إليه يد الإساءة فيما يتعاطاه من مآربه وأسبابه، وأبحنا له الاختلاف لبلادنا الإسلامية ـ عمرها الله ـ محفوفا بأمان الله وأماننا براً وبحراً، ولا يناقش فيما يستصحبه معه من السلع والأموال، ولا يفتش فيما يجلبه مع بعده إلى أن يصل لمقامنا العالي على أحسن مراد وأفضل حال، والواقف عليه من قواد ثغورنا وولاة أمور سواحلنا ـ أمنها الله ـ يعامله بما تستوجبه هممنا

16) مجلة الأندلس مجلد 23 مدريد غرناطة 1958 جزء 1، ص 46.

العالية وتقتضيه عوارفنا الصافية والسلام، وفي شوال سبع وثمانين وتسع مائة.

وفي هذه الأثناء استعان السلطان أحمد المنصور بالملك فيليب الثاني للحصول على بعض المواد التي احتاج إليها لتجميل (قصر البديع) الذي بناه بالعاصمة، مراكش بعد خمسة شهور من انتصاره على البرتغال في وقعة وادي المخازن[17].

وهكذا نجد رسالةً أخرى من العاهل المغربي إلى العاهل الإسباني بتاريخ 17 ربيع الثاني 991 = 10 مايه 1584 يطلب إليه فيها أن يصدر إذنه للتاجرين ألفارو لوبيز (AIVARO LOPEZ) وفرانسيسكو دورات (FRANCISCO Duarte) ليقوما بالسفر للهند ليقتنيا للمنصور بضائع ثمينة، إن العاهل يجدد مطالبته لملك إسبانيا بإصدار جواز السفر لألفارو الذي يقيم بالمغرب حيث كان يحضّر تاثيت القصر الملكي، وكذلك للشخص الثاني الذي كان يقوم بمهمة مماثلة...

اختطاف ابن القاضي !

وبالرغم من هذه الاتصالات بين الطرفين على هذا المستوى فإن بعض المتطرفين من قشتالة كانوا ـ بدافعٍ من حقد أوطيش ـ لا يترددون في القيام بمضايقة المغاربة، وبهذا نفسر اختطاف العلامة أبي العباس أحمد ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي وهو في طريقه البحري إلى البلاد المشرقية...

لقد كان ابن القاضي على صلة ببلاط المنصور وكان ممن ينشرون مئاثره في الآفاق وبخاصة أثناء سفره في الأقطار الشرقية، ومن دون شك فإن القراصنة الذين اختطفوه توسموا مركزه من مظهره وسؤاله، ولذلك فقد أشطوا في المساومة !

---

17) عبد الهادي التازي : قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا... بواعث تشييده وظروف تخريبيه وعمليات ترميمه... بحث أعد للمؤتمر العربي الثامن للآثار بالبلاد العربية (مراكش) 1977، مطبعة فضالة ـ المحمدية ـ.

وقد وصلت رسائله من أرض الأسر إلى أمير المؤمنين بما تعرض له من عدوان... وتوافدت على العاهل أسرة ابن القاضي تتوسل به لرفع الضيم عن أبي العباس... وهكذا بعث المنصور إلى قائد الثغر بتطاون وإلى الأمين على أخماسها ومغانمها أحمد بن المفضل الأندلسي... وكانت مطالب المختطفين تقصد إلى تحرير شخصيةٍ معينة من بين الإسبان الذين وقعوا في الأسر بعد وقعة وادي المخازن... ويتعلق الأمر بابن لأحدِ الخبراء المسيحيين الذين يشرفون على صناعة السلاح بجزيرة بادس...

وبالرغم من حاجة المنصور لهذا الإطار الذي كان بدوره خبيراً في ميدانه، فقد أمر العاهل بتسليمه لعائلة ابن القاضي التي كانت على موعد بتطاون مع والد الشاب...

وهكذا غادر ابن القاضي سبتة إلى تطاون لكنه استهدف - وهو في طريق العودة - لعملية اختطاف آخر أدّت به إلى جبل طارق حيث تمكن الوكيل الحاج الفلوس المكناسي، بتدبيره الحكيم، من الاستجابة بسرعةٍ لمساومة الذين غدروا بابن القاضي وإرساله على التوّ إلى تيطاون حيث تم تحريره يوم 17 رجب 995 = 23 يوليه 1587...

ولكن «القضية» لم تنته بعد فقد أدرك المختطفون السابقون واللاحقون أن مركز ابن القاضي لدى أمير المؤمنين يتحمل أكثر من تلك المطالب وتلك المساومات وهكذا طيّروا السفن في أثره لكن مركب ابن القاضي أفلت بينما وقع مركب الحاج الفلوس في الشرك..!

وقد كانت تدخلات العاهل المتوالية لدى إسبانيا وضغطه المتتابع على القسيسين المقيمين بالمغرب واستجابته من جديدٍ لصرف مبلغ عظيم من المال أداه لابن القاضي نفسه لفك الرهينة الفلوس مع سلعته المحجوزة في سبتة إضافةً إلى صكّ سلمه لابن القاضي حصل منه على ربح عظيم كان يناهز عشرين ألفا، كلّ ذلك كان له أثره في استيعاب الحادث وتطويقه...

صدى كارثة أسطول قشتالة في المغرب

إن المغرب الذي يتتبع عن كثب تطورات العلاقات بين الدول المجاورة لـ بعضها مع بعض تتبع بكامل الاهتمام أخبار تعرض الأسطول الإسباني (لارما L'ARMADA) للعاصفة الهوجاء التي أودت به سنة 996 = 1588 وهو في طريقه بقيادة مدينة سيدونيا (Medina Sidonia) للثأر من إليزابيث ملكة إنجلترا التي أعدمت عام 1587 ماري ستيارت (Marie Stuart)[18] بعد أن التجأت إلى إنجلترا وكانت تحارب ضد «الإصلاح» وضد «الحركة السرية» لاليزابيث...

ويدل على الاهتمام بحدث انتكاس الأسطول الإسباني هذه الرسالة التي بعث بها السلطان أحمد المنصور إلى قاضي الجماعة بالسوس أبي عثمان سيدي سعيد بن علي، وهي نموذج ـ فيما يتأكد ـ لرسائل لاحقة إلى باقي القضاة وكانت من إنشاء أبي فارس عبد العزيز الفشتالي :[19]

«...تعين أن نساهمكم من كل بشرى ترد علينا وبشارة... وذلك أن عدو الدين جدّد الله حُزْنَه وقوض ركنه وهو طاغية قشتالة... كان من أمره مع سلطانة بلاد إنجلترا التي قيّض الله له منها عدواً من جنسه وضدّا شغله عن نفسه بسبب عداوة نشأت عن نزوعها هي وقومها عن دين النصارى وشرعتهم والخروج عن ملتهم فكانت لذلك تغري الطاغية منذ سنين بأسطولها في عقر داره، وتستأصل المرة بعد المرة بسيوفها جماهير حماته وأنصاره، وتقيم كل يوم في أرضه مئاتم وتهجم على أساطيله مع البحر غربانها هجوم الليل العاتم

---

18) بنت جاك الخامس ملك إيكوس، وملكة الكوس ثم ملكة فرنسا بزواجها مع فرانسوا الثاني، عادت إلى إيكوس بعد أن أصبحت أرملة حيث قاومت في مرة واحدة ضد «الإصلاح» والحركات السرية لملكة إنجلترا إليزابيث، وقد كان زاجها ببوثويل (Bothwell) الذي اغتال زوجها الثاني دارنلي (Darnley) باعث تمرد تبعه تنازلها عام 1568، وفرارها إلى إنجلترا، لكن إليزابيث سجنتها ثم أعدمتها بعد 18 سنة من الأسر 1587.

19) رسائل سعدية : ص 152 ـ 153.

حتى إذا استشرى داؤها العضال، وعضته من حروبها الأسنة والنصال، سوّلت له نفسه تجهيز الحركة إلى أقطارها ومنازلتها بجموعه في عقر دارها إظهاراً لقوته وإيذانا باستحصاد شوكته فشمّر للأهبة والاستعداد، واستنفذ في الاحتفال الطارف والتلاد، حتى تجمعت له من الأساطيل عمارة حافلة، مكث في جمعها أربعة أعوام تباعاً استفرغ فيها غاية مقدوره وجهده واستعمل فيها كلّ طاقته وجده، وعندما كملت أجراها إلى البحر وشحنها بأمم لا تحصى من جموع الشرك وأحزاب الكفر بحيث لم يبق أحد من أحزابه... وصارت إلى بلاد انكلطيرة تخوض نحوها الأمواج، وتبتغي إليها السمو والمعراج، حتى إذا دنوا منها وقد أخذت أساطيلها لحربهم الأهبة والاستعداد، وقعدت لهم بمنتهى جزيرتها وحدود أرضها بالمرصاد، أرسل الله على أساطيل الطاغية من عنده ريحاً صرصراً أقحمتهم في بلاد العدو على غير نظام ونكست لهم الرايات والإعلام فاغتنمت إنكلترا الفرصة فابتدرّوا انتهازها، وهجم أسطولهم على تلك العمارة القوية فردوا على صدورها أعجازها، وأقبل تيار الهلكة على جموع قشتالة كافة واستأصل الله سبحانه لهم الشافة فلم ينج منهم من الغرق سوى من استأصله السيف وعاجله غمد الله السيف... إلا قبطان مدينة[20] لا غير وهو قائد تلك الجموع الكافرة...

وبعد أن تخبر الرسالة بوصول سفير من العثمانيين بقصد عقد الصلح والمهادنة، تؤمل أن يكون هذا الصلح الذي آن أن ينعقد بين الدولتين، ويبرم حكمه بين المملكتين عونا على صرف العناية لمجاهدة عدو الدين...

☆ ☆ ☆

وقد اهتمت المصادر المغربية المعاصرة وبخاصة كتاب مناهل الصفا للوزير الفشتالي (ص 194 ـ 195) بأخبار أوروبا على هذا العهد وبالأسباب التي أدت إلى الصدام بين ملوكها من حركة الإصلاح إلى «حروب الدين» التي أدمت أوروبا حقبة من الزمن وبخاصة فرنسا من عام 1562 إلى 1598 :

«... ثم ساجلها (فشتالة) الافرنج في الانتقاض عليه (على ملكها) والمجاهرة بمشاقته والإجلاب على ما يليهم من أطراف مملكته وذلك أن ملك

---

20) القصد إلى دوق مدينة شدونة(Medina Sidonia) السالف الذكر... رسائل سعدية ص 154.

الافرنج كان في القديم من أضخم الدول وأفخم الممالك... ثم رجع القهقري شيئاً فشيئاً حتى ضاق نطاقه وتوزعت ممالكه فغلب على بعضها طاغية قشتالة... ووافق ذلك ما كان من تحول جمهور أهل تلك الممالك إلى الدين الحادث في الأمم النصرانية المعروف بلاثريان[21] فكان ذلك أعون على خذلان ملك الافرنج لإطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين... فتركهم ودينهم... ولم يكن أقرب إليه وأحق وارث ملكه من ابن عم له سلطان أهل نبارة (Navarre) الوارث لملكهم من طريق الخؤولة، وكانوا كلهم على دين (لاثريان)، فطمع لذلك طاغية قشتالة في ملك الأفرنج لانقطاع وارثه وتحول دين أهله فاعتمل في التضريب بين سلطانهم وقومه وأغرى بعض أهل باريس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهم، وتوجس في نفسه من ذلك فانتقل عن باريس إلى روان (Rouen) إحدى ممالكه، ووصل بيده يد ابن عمه صاحب نبارة (Henry de NAVARRE) ثم عاود باريس منازلاً لها فدس إليه أولياء طاغية قشتالة من أهلها بالغدر على يد قسيس (Jacque Clement) فطعنه... فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة فرنسا برطانية (؟) وبرجوم (؟) والبعض من (نبارة) وصارت باريس بعد خروج صاحب فرنسا عنها (ليجة)[22] ومعناه جماعة تدير الأمر، وصاحب قشتالة معهم في تلك (الليجة) كأحد تلك الجماعة وكان يمدهم بجيشه الذي بأفلانضس[23]، ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان الهالك باريس واتصل أهل فرنسا، وانضم بعضهم إلى بعض فقويت شوكتهم وتعاظمت صولتهم فسمت هممهم إلى استرجاع ممالكهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم إلى باريز فنازلوها وأجلبوا على أعماله وممالكه...[24]

---

21) يشير إلى حركة الأسقف الألماني مارتان لوثير(M. Luther) المصلح الديني المعروف الذي احتج حوالي 1520 ضد التزمت، وإليه تنسب الكنائس اللوثيرية البروتستانية.

22) يعني (la ligue) التي تأسست في فرنسا سنة 1576 للدفاع عن الكاثوليكية وإسقاط هنري الثالث والتعويض برؤساء (لاليك) التي كانت على حلفٍ مع فيليب الثاني مع قشتالة.

23) يعني بها (Flandres) وهو اسم يعني في القديم البلاد الواقعة بين أسفل (Escant) وبحر الشمال .L'Antrois de Haimaut et Le Barbant

24) المناهل ص 194 ـ 195.

وهكذا لم تكن الكارثة التي حلت بالأسطول الإسباني ولا خلافات أروبا بالتي تغيب عن البلاط السعدي على ما قرأنا، ولهذا فلم يكن غريباً أن نسمع عن الشعور المتزايد باغتنام الفرصة لتحرير الثغور السليبة بل وللإعداد للتخفيف عن المسلمين الذين يعانون في الأندلس من الظلم المحيق بهم في جحيم الكنيسة وديوان التحقيق !!

وقد سمعنا عن الغارة المغربية الهائلة على سبتة المحتلة التي أصبحت منذ سنة 1580 = 988 تابعةً للتاج الإسباني ! قبل أن يتملكها شارل الثاني من الفونس السادس ملك البرتغال بمقتضى معاهدة لشبونة 13 يبراير 1668 = 29 شعبان. وقد كانت الغارة بزعامة القائد أحمد النقسيس الذي كتب بالفتح للمنصور السعدي موجهاً إليه الغنائم والسبايا !

لقد تقدم النقسيس في جماعة من المجاهدين متنكباً المكامن المقصودة من طرف الإسبان، سالكاً من جانب الشمال طريقاً لا يطرقه أنيس من كثرة العشب والتفاف الشجر حيث عكفوا على تسوية الطريق وتمهيد المجاز للمسلمين بقطع الشجر وتنحية الصخر وإعمال الفأس !

وصادف أن خرج الإسبان إلى ساحة المدينة رجالا ونساء وولدانا برسم النزهة في عطلة يوم الأحد 22 محرم 997 = 11 دجنبر 1588، ولم يلبث المغاربة المتربصون أن قرعوا الطبول وتنادوا بشعار النصر وحالوا دون المتنزهين وبين العودة إلى بيوتهم واستولوا على سائرهم بالأسر والقتل، وكاد أن يتم افتتاح المدينة بصفةٍ نهائية لولا وصول النجدات القوية، ومع ذلك فقد نَظَّم المغاربة الأسرى في سلاسل وحملوا رؤوس القتلى على العجلات التي اكتسحوها من الإسبان في اتجاه تطاوين... وفي قصر «رأس الماء» على مقربة من مدينة فاس تم الاستقبال الأول لطلائع المجاهدين في زيهم الذي هو زينة الأيام وشعار الإسلام ومن ثمت قصد الموكب مدينة فاس...

وقد صادفت هذه المظاهرة وجود سفارة من جهة العثمانيين بفاس صعد أعضاؤها سطح الدار المخصصة لهم في قصر الرياض من فاس الجديد وذلك لتنزه الطرف في كتائب الإسلام ولتشاهد العاهل وقد علته المظلة الكبيرة وارتفعت بجانبه الراية البيضاء التي كانت من شعار الدولة آنذاك.

وكان هذا الدخول لفاس يوم الثلاثاء 16 ربيع الأول 997 = 2 فبراير 1589 ولم تلبث العاصمة أن استقبلت بصفة رسمية قائد ثغر سبتة والمقدمين وهم يجرون معهم سبى سبتة شاقين به مدينة فاس التي برزت عذاراها - من وراء الحجاب - لمشاهدة النصر، وجلس أمير المؤمنين بمجلس المنكَانة المطل على الإيوان الذي اختط بباب قصور ملكهم بالباب الجديد...

وكانت فرصةً لتباري الشعراء في تخليد المناسبة التي أوحت للكاتب أبي عبد الله محمد ابن علي الفشتالي بهذين البيتين :

هـــذه سبتـــة تـــزف عروســـاً   نحـو نـاديـك في شبـابٍ وشيب
وهي بشرى وأنت كفـــؤ اللـــواتي   كلفت بعـــدهـــا بفتــحٍ قريب !

ورفع إليه ابن السائح من طلبة فاس ميميةً يقول في أولها :

أعرف الـزهر فـاح من الكمـــائم ؟   أم البشرى أتتنـــا بـــالغنـــائم ؟

☆ ☆ ☆

وإذا كان فتح سبتة لم يتم فإن الجيش المغربي استرجع مدينة أصيلا يوم 20 ذي القعدة 997 = 30 شتنبر 1589 بعد أن لم يف فيليب بوعده السابق في التنازل عنها وكان القائد عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل قد أغرى الإسبان - على ما يقال - باحتلالها بعد أن كان المغاربة خلصوها من يد البرتغال عام 957 = 1550 على ما سبق...

لقد جرّد أمير المؤمنين صارم عزمه لاستخلاص هذه المدينة التي هي في الإسلام كاسمها أصيلة على ما يقول الفشتالي... ولما أراد الله إنجاز وعده بعثوا بعثة الخداع في مستقر الإسبان ليلاً واجهضوهم مجفلين من الذعر فركبوا البحر ليلاً وطاروا بأجنحة الغربان إلى منجاتهم وخرست ألسن النواقيس وارتفع صوت الآذان بالمآذن، وعندما وصلت البشرى بافتتاح أصيلا نطقت السن الشعر وكان منها رائية للوزير أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يقول في أولها موريا في البيت الثاني بإسمها واسم العزيز ملك مصر على عهد يوسف عليه السلام :

بكر الفتـــوح لكم تهلــل بشرهـــا   وافتر عن شنب المسرة ثغرهـــــــا
وعقيلـــة الأمصـــار وهي أصيلـــة   أنت العـزيـز أطـاعـك مصرهـــا

خضعت لكم بخضوعها الدنيا وقد لبّاك من بطحاء مكة صخرها
أوطئ جيوشك أرض أندلسٍ فقد نذرت تطيعك كي يوفي نذرها
واحصد رءوس المشركين بها فقد آن الحصاد لها وأرطب بسرها !

☆ ☆ ☆

وقد كانت هذه الفتوح باعثاً على إرسال سفارة مغربية للباب العالي في محاولةٍ لتوحيد الصفّ من أجل القيام بحركة جدّية لصالح المسلمين بالأندلس، كان على رأس السفارة التمكَروتي الذي نراه يسجل في رحلته بتاريخ ذي القعدة 998 - 1590 شعوره بالمرارة وهو يمر في مركبه - من تطاوين - بجزيرة بادس وبمليلية المحتلتين من طرف الإسبان قبل أن يمر بجزر ملوية[25] التي كانت ما تزال بيد المغاربة والتي أقام فيها يومين حيث حبستهم ريح شرقية عاتية أعاقت - كما يقول التمكروتي - مطاردة ثمان سفنٍ نصرانية لمركب السفارة المغربية ![26]

وقد كان تفكير المنصور في الاتصال بالباب العالي في شأن الأندلس يرتكز على ما يعرفه سلفاً من وجود اتفاقية بين الأتراك وبين فرنسا لضرب مصالح إسبانيا بل ولتسليط الأتراك على مرسيليا عندما تتمرد على فرنسا كما حدث أيام هنري الرابع، بيد أن الأتراك لم يكونوا متحمسين للمغامرة المغربية...

وفي الوقت الذي كان فيها المنصور يستقبل سنة 1592 = 1000 هـ سفارة من فيليب الثاني تستهدف عدم تقديم المساعدة للأمير البرتغالي أنطونيو، كان العاهل المغربي آخذاً في تجديد الأسطول واعداد المراكب الجهادية والآلات الحربية لينفذ ما كان يؤمله من عبور البحر وفتح الأندلس لتحرير المسلمين

---

25) هكذا يسميها التمكروتي حيث يصب نهر ملوية في المتوسط وقد تسمى جزر كبدانة والجزر الجعفرية.

26) من جزر ملوية انتقل السفير المغربي إلى مرسى هُنَيْن التي يقول عنها إنها بُلَيدة ميسورة وهي خربة لم يبق منها إلا سورها ومسجدها وبداخل السور أشجارتين، وينسب مصدر جزائري تخريبها للإسبان عندما شعروا بأنهم مهددون بتركها في غشت من عام 1531 = 938، وقد كانت أيام البلوي دار صنعة،أسواقها موفورة، ولقربها من الأندلس فهي مذكورة موضوعة أسفل جبلين (cuvette) بين بحر وحجر، وفيها أنشده ابن جابر :

أبشر بخيرٍ عاجلِ تنسى به ما قد مضى
قرّب أمرٍ مسخطٍ لك في عواقبه رضى !

المستضعفين المعذبين هناك، وهي الأخبار التي أقضّت مضجع فيليب الثاني الذي تمثل رد فعله في الإيعاز لأحد الأمراء السعديين الملتجئين عنده : الناصر بن الغالب بالله، بالقيام ضد عمه حيث أبحر هذا الأخير من مالقة ونزل بمليلية بتاريخ 27 شعبان 1003 = 9 مايه 1595 يجر معه قواتٍ جرّارةً معظمها من الموريسكيين الذين ترغب إسبانيا في التخلص منهم !

وقد كلف نزول الناصر بالمغرب خزينة الدولة إرهاقاً بالغاً وشغلاً متتابعاً قبل أن يصاب برصاصة عطلت رجله ويلتجئ إلى أتراك الجزائر بعد أن صمم السعديون على الإجهاز عليه ولو أدى الأمر إلى الصدام مع الأتراك...

ويظهر أن الملك فيليب الثالث حاول التنصل من عملية نزول الناصر في مليلية فكلف سفيراً له يحمل اسم (بَلْثَزارْبُولو) (BALTHAZAR Polo)[27] ليشرح ظروف الحركة، وليلح في الوقت ذاته على عدم مساعدة أنطونيو الذي يكنيه المنصور بولد صاحب طنجة !

وهكذا نجد رسالةً من المنصور إلى فيليب حررها بمراكش تحمل تاريخ 6 ذو القعدة 1003 = 13 يوليه 1595 يقول فيها على الخصوص :

«... هذا وقد وصلنا كتابك فقابلناه، على عادتنا في كتبك الواردة إلينا، بوجه البشر والترحيب وأحللناه من اهتمامنا واهتبالنا بالمحل الفسيح والمكان الرحيب، وطالعنا ما ذكرتم عن ولد أخينا الخارج بمليلية وعن أسباب خروجه، وحتى خديمكم بَلْثَزاربُولُ ذكر لنا ما أمرتموه أن يبثه علينا وينهيه إلينا، وإلى هذا فها نحن أجبناه عن ذلك مشافهة وكلمناه بما عنده مواجهة، ومن عنده إن شاء الله تتلقون ما لدينا وتقفون على ما عندنا. وما وصل به كتابكم الآخر على مسألة ولد صاحب طنجة ومن معه هنا عندنا من أصحابه الفضا لغوش ؟ فها نحن إن شاء الله بعد هذا نتكلم في أمرهم مع خديمكم بَلْثَزار فنكتب إليكم حينئذ ونعرفكم بذلك إن شاء الله تعالى...»[28] - صحيح ذلك -.

(27 Georges Pianel : le Maroc à la recherche d'une conquete, Hesp, 1953 P. 511

(28 De Castries : les signes de vabidation des cherifs saadiens Hes 1921 P 234.

ومع هذا لا نهمل هنا أن العلاقات المغربية الإسبانية لهذه الأسباب كانت تسير في منعرجات لا تخلو من مفاجآت. ولابد أن نشير هنا إلى السفارة الخطيرة والهامة التي بعث بها العاهل المغربي برئاسة عبد الواحد عنون إلى ملكة إنجلترا بتاريخ ذي الحجة 1008 = يونيه 1600 والتي كانت تهدف إلى مفاتحة الملكة في قيام المغرب بالتعاون معها بمداهمة مصالح إسبانيا في الهند الشرقية والغربية على ما قلناه في العلاقات المغربية الإنجليزية...

وبموت المنصور توزع المغرب بين بنيه : زيدان الذي بويع بفاس وأبي فارس عبد الله الذي بويع بمراكش ومحمد الشيخ الذي لم يلبث أن انقض على ملك فاس وبعث بولده عبد الله لحرب عمه أبي فارس !

وقد سجل التاريخ رسالةً من زيدان إلى فيليب الثالث بتاريخ ربيع الثاني 1017 = يوليه ـ غشت 1608 يطلب منها إنصاف التاجر المغربي اليهودي إبراهيم بن واعيش الذي اقترض منه بعض النبلاء الإسبان فيدالكَوس (Fidalgos) أموالاً لافتداء نفسه ولكنه لم يوف بالعهد !(29)

كما سجل رسالةً من مولاي محمد الشيخ إلى فيليب الثالث كذلك بتاريخ 1609 = 1018 بواسطة قبطان طنجة(30) وقد أدى الخلاف المستمر بين بني المنصور إلى احتماء أحد أولاده : محمد الشيخ بإسبانيا ضد أخيه زيدان الذي استرجع منه مدينة فاس، وقد عقد اتفاقية تحالفٍ مع إسبانيا سلّم لها بمقتضى ذلك مدينة العرائش بتاريخ 4 رمضان 1019 = 20 نونبر 1610 وهو الحلم الذي كان يراود فيليب الثاني... الأمر الذي أغضب المغاربة وأدى إلى انتعالهم الأحذية السود حداداً على العرائش ! وبالتالي إلى الانتقام من الحاشية التي باركت الاتفاقية وإلى إعلان الثورة في فاس بزعامة مولاي أحمد العمراني الذي كان ينادي في مجالس جامعة القرويين إلى الجهاد... وكان أن أخذ محمد الشيخ في امتحان العلماء ومتابعتهم ففر جماعة منهم خارج البلاد، كان منهم المقّري صاحب نفح الطيب وآخرون... وفي إطار هذه الامتعاضات من صنيع أحد بني المنصور قامت في الجنوب ثورة ابن أبي محلي الذي لم يتردد في طرد الأمير

29) الوثيقة رقم Simancas F. 210 (مجلة العهد المصري، مدريد، المجلد 18 1974 ـ 1975.

30) Hesp 1921 P. 249

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

من عبد الله تعالى الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين
الشريف الحسني أيد الله بعزيز نصره [illegible] الجميلة
إلى الجنـاب [illegible] الدولة [illegible] العزيز [illegible] المكان
الثابتة الأركان والمجد الباذخ المرصوص البنيان والمكانة التي يعترف
الرفيعة وعلو الشأن [illegible] النصرانية [illegible] جناب السلطان
المثيل الأثيل الشهير الخطير [illegible] فليب ابن السلاطين الذين
[illegible] عظيم الذكر والاشتهار والعز [illegible] كان [illegible]
الجناب سامي الهضاب [illegible] جميل [illegible] أما بعد حمد
الله الكبير المتعال المنفرد بالكمال والجلال والكبرياء التي تتضاءل لها شوامخ الأقلال
ورواسي الجبال والصلاة والسلام على نبيه [illegible] الذي ختم به الإرسال [illegible] على لسانه
الحرام والحلال والرضى عن آله الكرام خيرة آل [illegible] بدور الكمال وعن أصحابه
الذابين على تشييد معالم دينه في البكر والآصال [illegible] مواصلة الدعاء لهذا المقام العلي
[illegible] والمواهب التي تنتاب في العشي والإبكار [illegible] وكتبنا هذا إليكم
من حضرتنا مراكش حرسها الله تعالى [illegible] الكريمة [illegible] بالعزم [illegible] والحمد لله والنعمة
هذا وقد وصلنا كتابكم فقابلناه على عادتنا في كتبكم الواردة إلينا بوجه البشر
والترحيب [illegible] منا [illegible] بالجميل [illegible] وكان الغرض
[illegible] الخارج لمليلة [illegible] خروجه [illegible] وحتى [illegible] بلغنا
[illegible] علينا [illegible] إلينا [illegible] بالمشافهة
وكلمناه بما عندنا مواجهة [illegible] إن شاء الله [illegible] على
ما عندنا [illegible] هنا عندنا
من [illegible] إن شاء الله [illegible] بلغنا
فنكتب إليكم [illegible] إن شاء الله تعالى [illegible] إليكم
في [illegible] شهر [illegible] الحرام من عام ثلاثة وألف

صح ذلك

E. 49²

بعض مراسلات المنصور مع فيليب الثاني، المكتبة الوطنية بمدريد ـ اسبانيا

زيدان بن المنصور في مدينة مراكش الأمر الذي دفع بالأمير السعدي إلى ترك المدينة والالتجاء إلى آسفي في محاولة للوصول إلى السوس عبر البحر استعداداً لاسترجاع العاصمة... حيث تتعرض (مكتبة زيدان) يوم 22 ربيع الثاني 1021 = 22 يونيه 1612 لعملية قرصنةٍ إسبانيةٍ مشينة ضاعفت من متاعب العاهل المغربي، لقد كانت المكتبة تحتوي على جملةٍ مهمة من التحف، من بينها ثلاثة آلاف مخطوط من كتب الآداب والفلسفة والدين، وقد تتبع دوكاستري في القسم الخاص بعلاقات هولاندا مع السلطان زيدان حادثة هذه القرصنة وقال : إن ثروة الخزانة تكمن أيضا في الفن الفائق الذي تجلى في الخط والتجليد مضيفاً إلى هذا أن معظم هذه التحف قد ضاع بسبب الحريق الذي شب في الاسكوريال يوم 7 يونيه 1671 = 29 محرم 1082 !!

وقد أدت الحالة إلى تصفية محمد الشيخ بضواحي تطاون في 5 رجب 1022 = 21 غشت 1613 ولكن على أن يستبد عبد الله بمدينة فاس التي كان عاد إليها بصفةٍ نهائية بعد أن أعرض عمه زيدان عنها في 6 رجب 1019 = 24 شتنبر 1610.

وعبد الله هذا هو الذي بعث بعد سطو الإسبان على المعمورة أيضا عام 1022 = 1613 إلى فيليب الثالث سفارةً برئاسة القائد منصور ابن يحيى والقائد عبد الرحمن المشاوري لعقد المهادنة والصلح، على ما تتحدث عنه رسالة بتاريخ 3 شعبان 1023 = 8 شتنبر 1614 إلى دوك شدونية (Sidonia) الدون الفونسو بيريز دى كوسمان (Don Alfonso Perez de Gusman)، وفي هذه الأثناء نرى السلطان المولى زيدان يكتب إلى وزير فيليب الثالث الدوق دي مدينة (رئيس الحكومة الإسبانية) بتاريخ 14 محرم 1023 = 25 يبراير 1614 يطلب إليه التحفظ على أموال أخيه المقتول مع ولده الشيخ محمد (ت رجب 1022 = 1613) الموجودة بطنجة - وكانت طنجة يومئذ تحت الإسبان - لتقسم بين ورثته وفقاً للشريعة الإسلامية، وهو مكتوب على فرخٍ كبير رسم في رأسه الشعار الملكي بخط ثلث جميل وبالحبر المذهب[31].

31) الوثيقة Simancas E. 495 مجلة المعهد المصري، مدريد، المجلد 18 - 1974 1975.

بيد أن الأثر السيء الذي تركه محمد الشيخ بتسليمه العرائش انعكس على ابنه عبد الله بالرغم من تعزيزه بزعيمين مشهورين : سليمان والمربوع اللذين رفع الشعب ضدّهما شعار : «لا سليمان ولا مربوع» وذلك عندما وافقا السلطان عبد الله على الأخذ بثأر أبيه الذي باع العرائش للإسبان !!

وأمام الشعور بالقلق من مضايقات الإسبان وتشغيبهم على السلطان زيدان رأينا العاهل المذكور يتوجه إلى هولاندا ليطلب إليها مساعدتها على أداء خِدْمةٍ[32] حسبما تدل عليه رسالة هولاندا إلى السلطان زيدان بتاريخ 2 غشت 1622 على ما أشرنا إليه في (فصل العلاقات المغربية الهولاندية).

إن إسبانيا ما انفكت تضايق اتجاه المولى زيدان ومن سار على دربه من ابنه عبد الملك وأخيه الوليد، يدل لذلك مشروع الاتفاقية بين الموريسكيين وبين ملك إسبانيا بتاريخ 1040 ـ 1041 = 1631[33] الذي كان يهدف لتصفية كلّ مقاومةٍ لاحتلال إسبانيا للثغور المغربية...

وأخيراً نجد رسالةً من سلطان مراكش بتاريخ 12 جمادى الأولى 1050 = 1640 الأمير المحمدي الشيخي الناصري إلى فيليب الرابع يخبره بأنه قد رحب برسول الدوك دي مدينة، وأجاب رغبة السلطانة زوجته في الأفراج عن ثلاث أسرى من النصارى المحجوزين لديه وينوّه العاهل المغربي بتوكيد المودة والمحبة وما صنعته إسبانيا مع «خدامنا الذين بقصبة سلا» وقد وجهناهم ـ تقول الرسالة ـ مع خديمنا القائد محمد بن القائد حسين بن القائد مسعود بن القائد منصور...[34]

32) المختار السوسي : إيليغ ص 166. Hesp. 1951, P. 358 Note 1

33) Revue de l'occident Musulman et de la Méditerannée N° 11, 2 Semestre 1971 G. Colin : Traité entre les Morisques et le roi d'Éspagne – Hesp. 1955 P. 17.

34) الوثيقة 2667 Simancas E.

العلاقات المغربية الفرنسية على عهد السعديين.

- المفاوضات المغربية الفرنسية لإبرام اتفاقية.
- الموقف الفرنسي من التقارب المغربي الإسباني.
- القصر الصغير في الاتفاقية المغربية الفرنسية.
- المراسلات بين مولاي عبد الملك والملك شارل التاسع.
- صدى وقعة المخازن في البلاط الفرنسي.
- العالم المغربي أفوقاي يزور فرنسا...
- حادث السطو على الخزانة العلمية للسلطان زيدان وأثره على العلاقات...
- تجدد المحاولات بعد وفاة زيدان لإعطاء نفس جديد للعلاقات.
- سفارة إسحاق رازيلّى بالمغرب.
- البعثات المسيحية بالمغرب...

العلاقات المغربية الفرنسية على العهد السعدي...

منذ الأيام الأولى لظهور السعديين في مراكش سمعنا عن وجود جان باكيلون (J. Pacquelon) (وهو تاجر من ليون) في باريز سنة 1543 (؟) = 950 حيث كان فرنسوا الأول ملك فرنسا يفكر في اعتماده إلى المغرب لدى الشريف السعدي محمد الشيخ المهدي من أجل التفاوض معه حول تزويد فرنسا بالمعدن الأبيض (بالقصدير) (l'étain) في مقابلة المعدن الصالح لصنع المدافع...[1]

وعندما استولى السعديون على العاصمة فاس يوم 24 شوال 961 = 21 شتنبر 1554، قامت فرنسا باستئناف صلاتها مع المملكة المغربية...

وهكذا نجدها بعد أن كانت حصلت من أحمد الوطاسي على إذن مكتوب بحرية الملاحة، تعتمد هذه الوثيقة لمفاتحة السعديين من أجل الإبقاء على ذلك الامتياز، ومن تم نجد المفاوضات بين الطرفين تبتدئ سنة 1555 = 962 - 963[2]... كما نعثر ضمن رسالة صادرة من الحاكم البرتغالي بمدينة الجديدة بعث بها إلى الملكة كاترينا أواخر عام 1557 = أوائل 965 نعثر على فقرات تتحدث عن وجود سفارة في بلاط السلطان محمد المهدي الشيخ من ملك نبارة (Navarre) أنطوان دوبوربون - (والد هنري الرابع).

ومن جهة أخرى فإن الحروب التي صدمت الممالك الأوروبية بعضها ببعض بسبب التنازع على وراثة العرش من جهة وظهور المذهب البروتيستاني من جهة أخرى... إن تلك الحروب كان لها أثر على توجه بعض الممالك الأوروبية

---

1) تذكر الوثائق أن (باكلون) توفي قبل سنة 1557، فقد ذكر أن ابنه حصل في هذه السنة بمساندة شارل التاسع ثم من هنري الثالث على تعويض على ما استحق والده خلال أحد أسفاره إلى المغرب حيث كان سفيراً لملك فرنسا... J. Caillé : Ambassadeur... Hesp. 1951 P. 355

2) د. التازي : الدبلوماسية المغربية في عشر سنوات إصدار وزارة الشؤون الخارجية بالمغرب مدخل ص 6.

إلى المملكة المغربية طمعاً في أن تحمي هذه ظهر تلك الممالك، من المدّ الإسباني.

وقد كانت مملكة نبارة (Navarre) ضمن الجهات التي استهدفت في هذا التاريخ إلى الانقضاض على أطرافها من جانب إسبانيا...

وبما أن المغرب جار قريب لإسبانيا وفي استطاعته أن يقوم بعمل مّا يشغلها عن جبال البيريني التي تمتد على جانبها مملكة نافار، فقد بعث ملك نافار - سنة 1559 = 966 بسفيرٍ يحمل كتاباً إلى السلطان مولاي عبد الله الغالب بالله كان هو مونفور (Montfort) الذي كان معززاً بشخصيةٍ برتغالية تحمل اسم ميلتشيور داز فيدو (Melchior d'Azevedo) الذي كان له صهر بالمغرب يقوم بمهمة وكيلٍ لملك النافار بالمغرب هو بارطولومي رابيلو (Bartolomé Rabelo).

وعن هذه السفارة وتلك الرسالة أجاب السلطان المولى عبد الله الغالب أنطوان دوبوربون (Antoine de Bourbon) ملك نبارة بتاريخ متم رمضان 966 = يونيه - يوليه 1559 ![3]

لقد كتب على ظهر الرسالة :

إلى السلطان الأرفع في ملته الأنجد المعظم في قومه ومملكته المتوادد إلينا بمراسلته ومودته الزعيم في بسطته الكريم في سؤدده واسرّته السلطان انطون ملك انباره. واصل الله له أسباب التوفيق والهداية وأوضح له مسالك النور التي تؤدي بسالكها إلى سبيل النجاح الكامل العناية المفضي بسالكه إلى طريق السعادة.

الحمد لله العلي الحميد، الواحد في ملكه المنزه عن الشريك والنديد، المتعالي عن اتخاذ الصاحبة والولد، وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد الذي ختم رسله بالنبي الهاشمي العربي سيدنا ونبينا ومولانا محمد المصطفى من نسل آدم، المفضل على كل من تأخر وتقدم الذي ختم الله به رسله، وبعثه إلى

(3 Charles Penze : Les Rois de France et MAROC, Casablanca 1945 P. 24 - 25 Caillé : Ambassadeur... Hesp 1951 T. 28 P. 356.

Roger Le Tourneau : Les debuts de la Dynastie Sadienne, Alger 1954 De castris. S.I.H.M. serm 1, Tom I Partie 1 P. 170.

كافة خلقه ونسخ به كل شرع ودين تقدم قبله ﷺ وعلى جميع النبيئين وكافة المرسلين وسلم عليهم سلاماً يدوم إلى يوم الدين.

أما بعد فهذا كتاب من عبد الله تعالى أمير المؤمنين وسلطان المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المؤيد بالنصر والتمكين والفتح المبين الشريف الحسني أحسن الله تعالى إليه وأيد بعزيز نصره أمره، وأعز بتأييده نصره، وأسعد زمانه المبارك وعصره، وأبقى في مراقي المجد الأسمى فخره، وأعلى أمره وأظهره[4] وسهل له سبيل الخيرات ويسره وخلد ملكه وأطال في السعادة عمره، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير لا رب غيره ولا معبود سواه، إلى السلطان الأرفع في ملته الأنجد المعظم في قومه ومملكته المتوادد إلينا بمراسلته ومودته الزعيم في بسطته، الكريم في سؤدده وأسرته السلطان أنطون ملك أنباره، واصل الله له أسباب التوفيق والهداية، وأوضح له النور التي تؤدي سالكها إلى سبيل النجاح الكامل العناية، سلام الله على متبغى الهدى، ومتجنبي سبيل الغيّ والردا، والذي أوجب كتابنا هذا إليكم والسبب الباعث في إرسال خطابنا هذا نحوكم وإيراده عليكم أنه قد ورد على سمي مقامنا رسولكم القادم علينا بخطابكم الذي خطبتم فيه من جانبنا بسط جناح الصلح والمواصلة، وسررنا بما فاتحتمونا به من خطابكم المستدعي جميل المصالحة والمعاملة، وأنهى إلينا رسولكم ما أشخصتموه بسببه من أغراضكم وألقى إلينا ما حملتموه إلقاءه بين يدي فخامتنا من مئاربكم وأوطاركم فألقينا إلى خطابه سماع القبول، وأوسعناه من برنا ما حظى منه بإبلاغ المأمول، وتلقينا مقاصدكم بالترحاب وساعدنا لبانتكم بقضاء الآراب فلتثقوا من جانبنا بكل خير وجميل، والوصل الذي يقتضي ببلوغ كل قصد وتأميل، وأعلموا أن مئاربكم لدينا ملحوظة بعين الإسعاد، محمولة على عاتق الود الذي يبلغ الأمل والمراد، والوفاء المعروف لأفاضل الملوك الأمجاد، وهذا ما وجب الكتب به إليكم.

وكتب بذلك بأواخر شهر الله المعظم رمضان المكرم عام ستة وستين وتعسمائة[5].

---

4) يحمل الختم الملكي العبارات التالية : الغالب بالله الغني به عمن سواه عبد الله محمد أمير المؤمنين الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز نصره.

5) **Hesp. 1921 P. 232. S.I.H.M, FRANCE T. I Partie 1 P. 170**

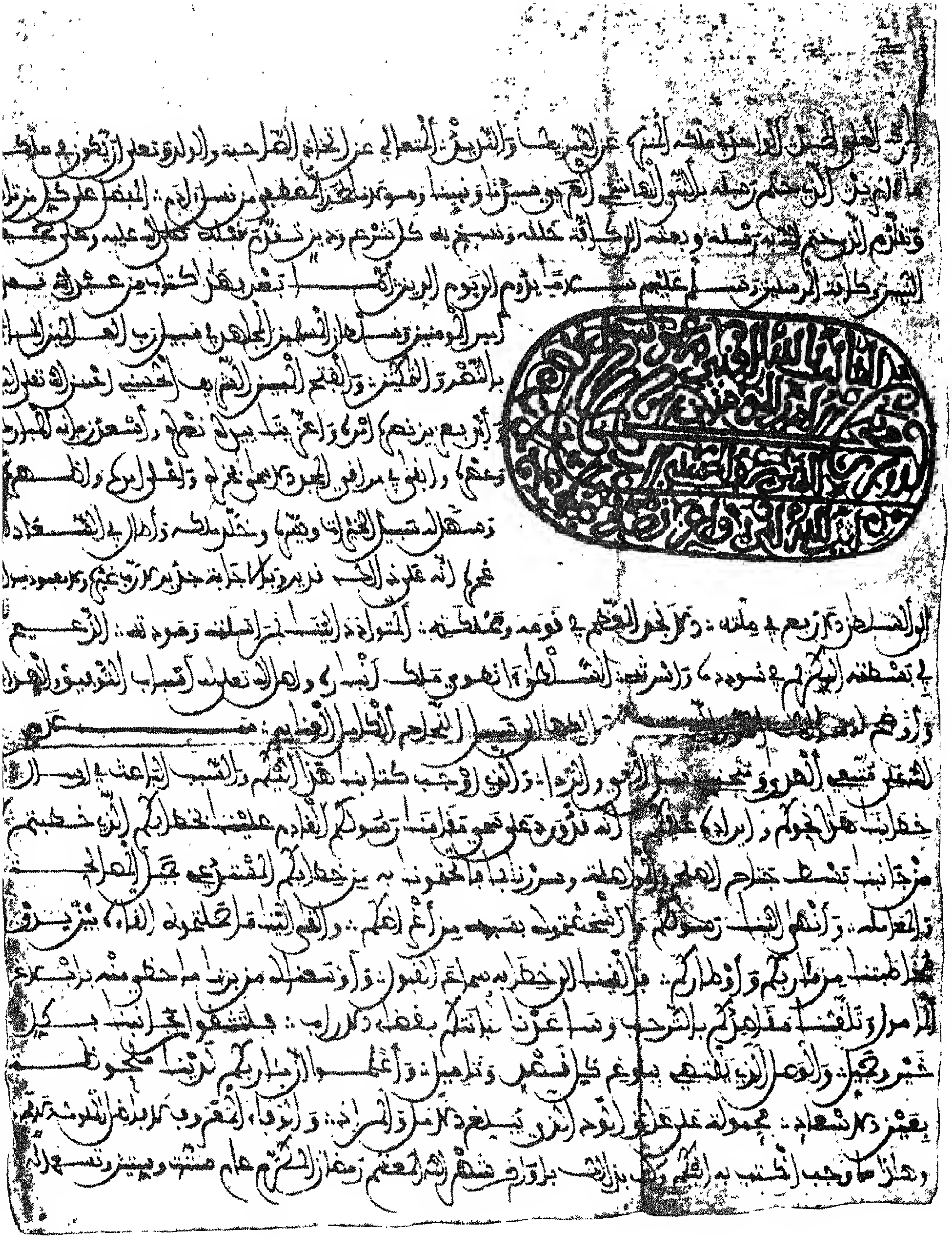

رسالة تأمين وأمان من مولاي عبد الله الغالب أمير السعديين إلى أنطوان دوبوربون

(ANTOINE DE BOURBON)

وهي بتاريخ أواخر رمضان 966 = يونيه، يوليه 1559

وقد أسفرت هذه الاتصالات فعلاً عن معاهدة تعاون بين المولى عبد الله الغالب بالله وبين أنطوان دوبوربون (Antoine de Bourbon)، تحمل نفس التاريخ السابق 966 = 1559[6].

وتتلخص في أن يزود ملك (نافارة) ملك المغرب بجيش قوامه خمسمائة جندي مسلح وبحرس يتألف من ثلاثين من الرماة الذين يسيرون أمام ركب أمير المؤمنين، وبعشرة فرسان علاوة على المعدات والأجهزة الحربية...

على أن يتعهد العاهل المغربي في مقابلة ذلك بنفقات الجيش من جهة ويسلم من جهة أخرى لأمير (نافار) مرسى قصر المجاز حيث يمكن لهذا الأخير أن يشيد هناك حصناً لمناوشة عدوته (قشتالة)، إضافة إلى الالتزام بتسوية حقوق متروك الهالكين من الفرنسيين بالمغرب، وكذلك تقديم المساعدة للمراكب التي تضطر للالتجاء للساحل المغربي، وتسهيل مهمة تبادل الأسرى بين الطرفين المغربي والفرنسي...

وقد أبرم هذه المعاهدة عن (نبارة) السفير الفرنسي ميلتشيور السابق الذكر... وتوجد نصوصها الكاملة في مجموعة دوكاستري ومنها ننقلها :[7]

«الحمد لله وحده، فمن أمير المؤمنين المؤيد بالنصر والتمكين والفتح المبين الشريف الحسني أحسن الله تعالى إليه وأيد بعزيز نصره أمره، وأعز بتأييده نصره، وأسعد زمانه المبارك وعصره، وأبقى فخره وأعلى أمره، وأظهره وأيده على ما أولاه وخلد ملكه وأطال في السعادة عمره، إنه ولي ذلك، اقتضت رغبة رسول ملك الروم ببلاد أنباره، واسم الرسول المذكور بلشيور بايس دوشبيدوا أن يساعدهم مولانا أمير المومنين نصره الله تعالى على ما طلبوه منه من الصلح التام الشامل العام المتصل على الدوام المنوط بالمعاونة والمعاضدة بين الفريقين في البر والبحر وينبرم ذلك بالأيمان المغلظة مستمراً معهما ومع أولادهما حسبما بلغ الرسول المذكور عن ضيفه المذكور وعن ابنه وأكبر أولاده صاحب بندومة، (VENDÔME).

6) Charles Penz : Les Rois de France et le MAROC – 25 – 26

7) De Castries : S.I.H.M FRANCE. Tome I Premier Partie P. 178

فما وقع عليه الصلح المذكور وانبرم به أن يعطي القبطان المذكور نائبا عن أضيافه المذكورين لمولانا أمير المومنين نصره الله تعالى خمسمائة رجل من النصارى يسعون بين يديه بالخدمة، النصف من العدة المذكورة تكون سلاحها المدفع والسيف والقُلمون (غطاء الرأس) والبطاش (خنجر) مع كل أحد، وسلاح كل رجل من النصف الآخر رمح بَلّنز (بلنز تجلب منها الرماح) ومصفح وقُلمون وسيف وبطاش ويقدمهما رجلان من أجواد القبطانات، وأمير المومنين أيده الله ونصره يجرى لهم ما يقوم بهم من المرتب لجميعهم.

ويأتي القبطان المذكور رسولاً وسفيراً بثلاثين رجلا لَبَرْدِ يورش alabaderos تسير أمام أمير المؤمنين بأيديها الرماح أسنتها أمثال الشواقير.

ومع ذلك عشرة من الفرسان عليهم مصفحات الحديد سابغة من الأعلى إلى الأسفل وكل فارس معه حصانان من خيل فرنصية مجللة بأرماش (دُرُوع) الحديد كفرسانها.

وتحمل الرسول المذكور لأمير المؤمنين بإتيان كل ما يريده من العدة والسلاح من الأنفاط والمدافع ورماح البَلّنز بما تساويه في بلاد النصارى أو بمصانعها ليصنع أمير المومنين ما يريد من ذلك.

وما يحتاجه من الأجفان ياتون بها إلى المرسى الذي يريد، وعلى أن ما ياتون به من الأنفاط التي يحتاجها أمير المومنين نصره الله يعطيهم قدرها وزنا من النحاس.

وعلى أن يعطيهم أمير المومنين نصره الله تعالى مرسى (القصر الصغير) ليبتنوا عليها حصنا يتحصنون به لقتال عدوهم وأعداء أمير المومنين نصره الله تعالى ويعمرونه بسكناهم وينتفعون بما يحدثونه فيه من الغرس والبناء والحرث ورعاية المواشي ويسقط عنهم فيه كل وظيف ويأذن لهم أمير المومنين نصره الله تعالى باتخاذ سوق تعمر يوما في الأسبوع ويسرح لهم أمير المؤمنين إذنه العالي بما يحتاجون إليه من معلمي البنيان ورجال الشغل والأجرة في ذلك عليهم حتى يكملوا بناءهم ويهيئوا المرسى المذكور ويسهل فيها السبيل لدخول الأجفان كما أن أمير المؤمنين نصره الله تعالى يأمر لهم برجال يحرسونهم من العدو ليلاً ونهاراً حتى يفرغوا من بنائهم.

وأن من أراد الغزو من المسلمين مع النصارى الفرنسيين في أجفانهم يأخذون حصتهم مما يغنمونه، وأن جميع أجفان النصارى الفرانسية كانوا تجاراً أو غزاة إذا لجاهم عدو أو جاءوا تجارا يدخلون حيث يمكنهم من مراسي المسلمين في بلاد أمير المؤمنين أيده الله تعالى وليس عليهم إلا عشر ما يأتون به.

وأن كلّ من يموت من تجار الفرنسيين ببلاد أمير المومنين نصره الله تعالى يجمع متروكه حتى يدفع لمن يبلغه من أمنائهم.

وما تكسره الرياح من سفن الفرنسيين في جميع أحكام أمير المومنين نصره الله تعالى لا يوخذ لهم منه شيء سلع ولا رجال ويعينهم في استخراج ذلك المسلمون بأجرتهم فيما يستخرجونه ويرجعون بذلك مؤمنين من غير معارض وذلك عهد أجرى لجميع الفرنسيين من أي حكم كانوا في حكم ملك أنباره أو حكم ملك فرانسة لكونه عم الذي وقع معه الصلح بعد أن التنزم كل ضرر أو اذاية تصدر من جانب عمه سلطان فرانسة.

وأن جميع أساري فرانسة الذين تحت حكم أمير المومنين نصره الله تعالى أو عند غيره من بلاده يعطون في فدائه ثمانين أوقية ثقيلة لكل أسير ويعطون ثمن ذلك عدة وسلاحا مصنوعا وأنه لا يمنع أحد عنده (وجود) أسير فرنسي حيثما وجد في بلاد أمير المومنين نصره الله.

وأنهم أن جاءوا بأساري من قشتالة أو برتقال فإن مولانا نصره الله تعالى يعوض لهم مكانهم أسارى فرنسيين.

ومتى استصرخهم أمير المومنين يمدونه بما يحتاجه من القوة والجند في البحر والبر.

وأن لا يتعرضوا لتجار النصارى من غيرهم الذين بأيديهم كتبُ أمير المومنين نصره الله تعالى بالأمان على دخول بلاده والإذن بالوفود على حضراته.

في حالة إقبالهم إلينا ورجوعهم من عندنا لا يتعرضوا لهم بإذاية».

☆ ☆ ☆

وقد كان أهم ما في هذه الاتفاقية على ما رأينا التنازل عن مرذز قصر المجاز الذي كان الفرنسيون ينوون أن يبادلو به مع فيليب قطعة من نفارة محتلة من قبل الإسبان، بيد أن الاتفاقية لم تحقق أهدافها فإن الفرنسيين لم يتوصلوا بالقصر الصغير[8].

☆ ☆ ☆

ويظهر أنه نتيجةً لوجود بعثة فرنسية بالعاصمة المغربية عام 1560 = 967 ـ 968 بقيادة مونتفور (Montfort)، كانت رسالة الأمان والتأمين التي حررت عن إذن الأمير مولاي عبد الله الغالب نيابة عن والده، والتي كانت تخص التاجر الفرنسي روبير بُرّودي (Robert Brodet) الذي كان يعمل لحساب فرنسا وهي بتاريخ أواخر رجب 968 : 16 أبريل 1561.[9]

وقد كان التاجر المذكور قام بنشاط كبير لصالح العلاقات التجارية بين البلدين كما يدل على ذلك الجواب الذي بعث به فيما بعد ـ الأمير سيدي محمد بن السلطان عبد الله الغالب إلى شارل التاسع من قصر الدار البيضاء بفاس الجديد يخبر فيه ملك فرنسا بأن والده المقيم بمراكش يثني على إخلاص واستقامة روبير برودي وكانت رسالة الأمير مؤرخة بأوائل رجب 968 = 27 مارس 1561 وقد جاء فيها علاوة على تزكية التاجر الفرنسي أنه بعث إلى والده في مراكش برسالة العاهل الفرنسي، وأن ملك المغرب أجاب بما يلي :

إنه يعتزم إعطاء شارل امتياز شراء السكر المغربي شريطة أداء الثمن الموجود الآن بالمغرب مع إضافة نسبةٍ في المائة يتفق الطرفان على تحديدها، وفيما يتعلق بالنحاس المغربي فإن العاهل المغربي يقبل اقتراحات ملك فرنسا شريطة إن يكون الثمن من المعدات الحربية، وأن مبدأ إعطاء الامتياز لفرنسا يقضي على هذه الأخيرة أن تقتني سائر حاجياتها من المملكة المغربية...[10]

وما من شك في أن التقارب المغربي الفرنسي أثار من حفيظة الإسبان، ولابد أن نشير مرة أخرى إلى الحلف الذي ربط العثمانيين بفرنسا والذي يهدف

8) Hesp. 1951 P. 356

9) كتب التاريخ بالقلم الرومي أو الفاسي (انظر المجلد 2 ص 41 ـ 60).

10) S.I.H.M – FRANCE, S. I T. 3 P. 746

لضرب إسبانيا، وبما أن الحكام الأتراك بالجزائر كانوا قد استولوا على جزيرة بادس وبما أن المغرب قد يفتح صفحةً جديدة مع فرنسا فإنه من غير الغريب أن نجد الإسبان يتوجهون بكل قواهم إلى احتلال بادس يوم 6 شتنبر 1564 = 29 محرم 972 حيث فرت الحامية التركية ودخله دون كَارسيا (D. Garçia) حسبما تفيده رسالة من سان سيلبيس (Saint - Sulpice) من مدريد إلى كاثرين دوميديسيس (Catherine de Médicis) بتاريخ 12 شتنبر 1564.

☆ ☆ ☆

وفي أعقاب الخلاف الذي شبّ بين الإخوة بعد اغتيال السلطان محمد المهدي الشيخ من طرف الأتراك نجد بعض هؤلاء الإخوة يلتجئ إلى الجزائر.

وقد كان ممن وجدوا أنفسهم هناك الأمير عبد الملك السعدي الذي كتب إلى شارل التاسع رسالةً محررة من الجزائر بتاريخ 25 مايه 1573 = 13 محرم 981 يشكر ملك فرنسا على مواقفه الودية المتجلية في الرسالة التي بعث بها، لصالحه، إلى الباب العالي ويتمنى أن يتمكن من التعبير عن امتنانه... وقد أخبر عبد الملك ملك فرنسا بوفاة أخيه مولاي عبد الله الغالب الذي كان جلس على عرش والده الذي اغتيل من طرف الأتراك. والذي كان نفى عبد الملك حسب تعبير الرسالة التي تمضي قائلة : «إنه بقليل من العون يمكن له أي لعبد الملك أن يحتل المغرب من يد ابن أخيه محمد الذي عوض عبد الله !! وهو يطلب من شارل التاسع أن يكتب من جديد للسلطان الأعظم حول الموضوع ويعطي تعليماته لسفير فرنسا... ويخبر عبد الملك في رسالته هذه بأنه سيذهب للمشاركة في الغارة التي شنها قِيليج عَلي باشا ضد تونس ومن هناك يذهب إلى أسطامبول... ويختم الأمير عبد الملك رسالته التي وقعها بالحروف اللاتينية بأنه إذا نجح مشروعه حول المغرب فسيكون تحت تصرف فرنسا...[11]

إنها رسالة هامة تضع النقاط فوق الحروف حول مدى «نفوذ» قادة الجزائر وأنهم إنما كانوا أداة طيعة في يد ملك فرنسا الذي كان يبرم ما يراه صالحا لسياسته إزاء إسبانيا مع أسطامبول ذاتها... وهي تكشف من جهةٍ أخرى عن وجود فرنسا وراء تحرك الأمير عبد الملك وأن هذا الأخير شارك أثناء غارة

(11 S.I.H.M. S, 1 T. 3, P. 753 - 755

الأتراك على تونس انطلاقاً من الجزائر قبل أن يتوجه إلى أسطامبول على ما أشرنا إليه في فصل العلاقات المغربية التركية...

ويتغلّب الأمير عبد الملك على ابن أخيه محمد بمساعدة الأتراك... وهنا نجد رسالة من هنري الثالث إلى السلطان المولى عبد الملك تحمل تاريخ نونبر 1576 = شعبان - رمضان 984 تخبر العاهل المغربي بأن سفيره القابطان كابريط (Cabrette) «وصل إلى بلاطنا كمبعوثٍ من لدنكم وأننا استقبلناه في جلسة هامة وكتبنا لكم رسالة حملها إليكم وقد علمنا أن هذا المبعوث اتجه إلى إسبانيا من بعد حيث بقي هناك وأننا نحيطكم علما بذلك لتعلموا عن خيانته وتعاملوه بما يستحقه» !

والواقع أن المولى عبد الملك عندما اعتلى عرش المغرب كان مشغول البال بأمرين خطيرين : أولهما الأخبار التي وصلته عن تسلح الملك دون سباستيان ملك البرتغال الذي وقف إلى جانب الأمير المخلوع محمد بن عبد الله... ثانيهما مطامع تركيا في بلاده اعتماداً على العون الذي قدمته إليه...

لقد كان عبد الملك على علم كامل بالسياسة الأروبية التي كان يتتبعها أثناء مقامه بأسطامبول ولذلك فإنه كان يطمح إلى أن تكون علاقات المملكة المغربية بالدول المسيحية على غرار ما يوجد عليه الحال مع الباب العالي ! وهكذا فإنه بعث بالقابطان كابريط لدى فرنسا ولدى إسبانيا، وكانت إسبانيا أكثر أهمية بالنسبة لديه لأنه كان يهدف إلى تحالف دفاعي وهجومي بينه وبين فيليب الثاني في حالة هجوم عليه من جانب الأتراك الذين خبرهم أثناء احتكاكه بهم سواء بالجزائر أو أسطامبول... وكان عبد الملك من جهة أخرى يؤمل من فيليب أن يحمل ابن أخيه سباستيان على العدول عن نياته إزاء المغرب.

لكن الذي حصل أن فيليب احتفظ القابطان كابريط عنده في القصر وأوفد إلى السلطان مولاي عبد الملك القابطان فرانسيسكو زونيكا (Fransisco Zũniga) الذي كان صديقاً لعبد الملك وذلك من أجل الاطلاع على الوضع في المغرب[12].

12) نذكر أنه لما لم يعد كابريط رسول عبد الملك بعث هذا الأخير سفارة ثانية إلى فيليب 2 يوم 16 أبريل 1577 بواسطة الأب دييكو مارتان (Diego Martin) لمحاولة جديدة للحلف المغربي الإسباني - انظر (فصل العلاقات بين المغرب وإسبانيا).

وإلى جانب رسالة هنري الثالث إلى السلطان مولاي عبد الملك التي يحذره فيها من السفير كابريط نجد رسالة من موسى بن عبد النبي مبعوث مولاي عبد الملك في أسطامبول، موجهة إلى سفير فرنسا في العاصمة العثمانية : لابي دوليسل (L'Abbe de l'isle) حررها باللغة العربية بالحي الأروبي من أسطامبول (بك أوغلو) بتاريخ 23 مايه 1577 = 5 ربيع الأول 985 يؤكد فيها : «رغبة السلطان عبد الملك في التحدث إلى ملك فرنسا عن إنشاء علاقات ودية على نحو ما يوجد بين العاهل الفرنسي وسلطان تركيا، وأنه أي موسى بن عبد النبي يعهد إلى سكرتيره الحاج الحسن بمتابعة المفاوضات[13].

وقد أجاب السفير الفرنسي نظيره المغربي في نفس اليوم برسالةٍ من نفس الحي يخبره بأنه توصل برسالته وأنه تحدث إلى الكاتب الحاج الحسن الذي سيجعل فيه ثقته من الآن مضيفاً إلى هذا أن العاهل الفرنسي يقدر الاستعدادات الحسنة لملك فاس ويعد بأن ملك فرنسا سيبعث برسالةٍ إلى ملك المغرب حول الموضوع...

وفعلا نجد أصداء لقنصلية فرنسية في المغرب ابتداء من هذا العام 1577 - 985 كان على رأسها طبيب يحمل اسم كيوم بيرارد (Guillame Bérard) الذي كان عالج الأمير عبد الملك السعدي أثناء وجوده في القسطنطينية وسيظل يعالجه وهو يقاتل في معركة وادي المخازن[14]، ولقد لعب هذا الطبيب - ولو أنه غير محترف للدبلوماسية - دوراً كبيراً لصالح بلاده واستمر على صلة بالبلاط السعدي أيام المنصور بعد وفاة عبد الملك، وقد عهد إليه من طرف المنصور السعدي بحمل رسالةٍ إلى ملك فرنسا يخبره فيها باعتلائه على العرش ويجدد الصداقة التقليدية التي تربط بين البلدين...[15]

☆ ☆ ☆

وهكذا فعلاوةً على سفارة إسبانيا وسفارة البرتغال نجد أن ملك فرنسا هنري الثالث يكلف القنصل الفرنسي (كَيوم بيرار) بتاريخ 21 جمادى الأولى 987

---

13) S.I.H.M. S. 1 FRANCE 1. 1 P. 363

14) J. Caillé : la representation diplomatique de la France au MAROC, Paris 1951 P. 13

15) S.I.H.M. S. 1 T. 2, P. 22

= 16 يوليه 1579 بتقديم تهاني فرنسا لأحمد المنصور مذكراً إياه بالعلاقات الطيبة التي كانت بينها وبين أخيه المولى عبد الملك... مضيفاً إلى هذه العواطف رجاء فرنسا في أن يأذن لمراكبها بدخول الموانئ المغربية، وبأن يعمل على تحرير ما يوجد من أسرى فرنسيين بالمملكة، وأن يسمح لها بتصدير أربعين ألف قنطار من الرزينة (Rosette) لاستعمالها في الاصباغ وبتصدير خمسة وعشرين ألف قنطار من ملح البارود وأخيرا تطلب إليه تعليماتُ هنري أن يقوم بمفاوضة السلطان أحمد المنصور حول قرضٍ بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار يسلفها ملك المغرب إلى ملك فرنسا !!

لقد كان استقبال السفارة الفرنسية بمراكش في نفس التاريخ الذي وصلت فيه السفارة التركية والبرتغالية والإسبانية على ما نقرأه في «مناهل الصفا» للوزير الفشتالي عندما يقول : «وكان ممن وصل أيضا عن تفئة ذلك عامئذ أرسال طاغية الافرنجة ويقال أفرنصة وبه يعرفون اليوم فقضوا فرض التهنئة واقتفوا سنن غيرهم من أرسال ملوك الأرض»[16] واستمرت الاتصالات الفرنسية مع دولة السعديين، وهكذا نجد رسالة من كيوم بيرار إلى كاتب الدولة ڤيليرُوي (Villeroy) حول الموضوع بتاريخ 28 غشت 1583[17] كما نجد رسالة من هنري الثالث إلى السلطان أحمد المنصور محررة بباريز بتاريخ 21 يبراير 1588 يطلب إليه فيها تسريح بحارة فرنسيين تابعين للسفينة لالوف (la lauve) وقعوا مع سفينتهم في أسر بعض البحارة المغاربة على مقربة من مدينة أصيلا وأرسلوا للاسترقاق في مراكش ! إن هنري الثالث يذكر المنصور السعدي بالاتفاقية الودية المعقودة بين الطرفين ويدعو لتحرير الرعايا الفرنسيين...

وقد استجاب المنصور السعدي لمطلب هنري الثالث عندما حصل بالمقابل على تحرير عددٍ آخر من الأسرى المغاربة الذين كانوا رقيقاً بفرنسا، وعندما تأكد أن المركب لا يحمل عناصر تهدد ثغوره.

ومن جهة أخرى فبما أن المنصور طلب إلى هنري الثالث طبيباً فرنسياً للبلاط المغربي لتعويض كيوم بيرارد الذي كان يقوم أيضا بمهمة سياسية فقد

16) S.I.H.M. S, 1 T. 1, P. 107 ـ مناهل الصَّفا ص 51.

17) S.I.H.M. S, 1 T. 3, P. 756

بعث العاهل الفرنسي بالطبيب المستعرب أرنول دو ليسل (A. De Lisle) الذي قضى بضع سنوات قبل أن يعود لفرنسا لتدريس اللغة العربية حيث أُرسل للمغرب طبيب ثالث هو إيتيان هبير (Etienne Hubert)...[18]

ولما جلس هنري الرابع على العرش الفرنسي بعث سنة 1600 برسول هو جيربير دو لابالم (Girbert de la Palme) ليطلب إلى السلطان المنصور الإفراج عن القابطان جيل جيرار (Gilles Gerard) مع ملاحيه، وقد كانوا وقعوا في أسر البحرية المغربية التي تراقب التحركات المشبوهة حول المياه المغربية...

وفي أثناء هذا بعث هنري بوفادةٍ فرنسية أُخرى برئاسة جورج فورنيي (G. Fornier) الذي عوض كيوم بيرار في مهمته كقنصل لفرنسا بالمغرب وكان هذا في مطلع القرن السابع عشر 1601 = 999 ـ 1000.

ويدل على اهتمام فرنسا بأمر حرية الملاحة أن هنري الرابع بعث برسالة إلى محمد الثالث سلطان تركيا يشكو فيها من مضايقة المغاربة للسفن التي تمخر عباب المتوسط وأنه كاتب حول هذا المشكل العاهل المغربي... وهي الرسالة التي نرى محمد الثالث يجيب عنها بخطاب إلى هنري الرابع من أسطامبول مؤرخ يوم 15 ربيع الأول 1012 = 23 غشت 1603 يخبره فيه بأنه قد كتب للعاهل المغربي بدوره حول الموضوع...

☆ ☆ ☆

وبعد وفاة المنصور السعدي (15 ربيع الأول 1012 = 1 شتنبر 1603) وتفرق الأمر بين بنيه، وجدنا قنصل فرنسا (De Lisle) يخبر (يناير 1606) كاتب الدولة فيليروى (Villeroy) بمشروع حلف بين زيدان وبين فيليب الثالث... كما نجد هنري الرابع ملك فرنسا يوجه قبل تاريخ 26 مارس 1607 = 27 ذي القعدة 1015 يهنئ زيدان بالانتصار الذي أحرز عليه ضد خصومه السياسين ويغتنم هذه الفرصة ليطلب إلى العاهل المغربي أن لا يمنح الهولانديين والإنجليز الذين يهاجمون السفن الفرنسية العاملة ضد إسبانيا، الإذن بالالتجاء للمراسي المغربية...

---

18) المصدر السابق.

وقد كانت الشخصية الفرنسية التي قامت بمهمة إبلاغ الرسالة الفرنسية هي الطبيب (دوليسل (De lisle) السالف الذكر الأمر الذي تكشف عنه رسالة هنري إلى الطبيب المذكور تحمل نفس التاريخ ونفس التعليمات...

وتشاء الأقدار أن يعود زيدان للمسرح السياسي حيث نجده أواخر عام 1015 = 1607 بمدينة مراكش حيث يبعث برسالةٍ إلى هنري الرابع بتاريخ 5 ذي الحجة 1015 = 3 أبريل 1607 يقول فيها : إنه استرجع الحكم وأنه بسط الأمن بالمملكة وعهد إلى دوليسل (De lisle) بإخبار هنري الرابع بأن العلاقات الدبلوماسية الموقوفة أثناء الفتن الجارية بالمغرب يمكنها الآن أن تعود إلى مجراها الطبيعي.

وفي رسالة أخرى من زيدان إلى هنري الرابع بتاريخ 13 محرم 1016 = 10 مايه 1607 نجده يخبره باستقباله للطبيب السفير أرنول دوليسل (Ar-noult de Lisle) في مقابلةٍ وداعية، ولم يلبث زيدان أن استقبل عام 1611 = 1020 مبعوثا فرنسيا آخر هو جان فيليب كاسطلان (H.F. Castlane) الذي وجد لدى العاهل ترحيباً حاراً وتفاوض معه حول عدد من المسائل ذات الاهتمام المشترك كما يقولون اليوم...

وقد دشن كاسطلان حياته الدبلوماسية الأولى بتقديم اقتراح إلى السلطان مولاي زيدان يهدف إلى عقد اتفاقيةٍ فرنسية مغربية علي نحو الاتفاقية التي عقدت بين فرنسا والباب العالي سنة 1536 وتشبه من جهة أخرى بنود الاتفاقية المغربية الهولاندية 1610 على نحو ما تفيده رسالة من زيدان للولايات العامة بتاريخ 13 ـ 2 ـ 1612 على ما ذكرنا في فصل العلاقات المغربية الهولاندية.

ويبدو أن هذه هي الأيام التي قام فيها عالمٌ مغربيٌّ لامع بزيارة فرنسا... إنه أحمد بن قاسم الحجري المشهور بأفوقاي الذي كان يتوفر على عددٍ من اللغات : الفرنجية والإسبانية والبرتغالية حيث وجدناه على نحو ما سيكون

منه في البلاد المنخفضة يقوم بإجراء مناقشات دينية مع القسيسين والرهبان وأحبار اليهود...(19)

☆ ☆ ☆

وقد كان على العلاقات أن تبقى مستمرة بين المغرب وفرنسا لولا حدث خطير أغضب السلطان مولاي زيدان لأنه مسه في أهم ما يعتز به من تراث أبيه : ذلك الحدث الذي عكر صفو العلاقات بين البلدين لمدة قرن ونصف من الزمن، هو السطو على متاعه بما فيه من تحف تضم فيما تضم خزانة المخطوطات الفريدة التي كان يتوفر عليها : ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والفلسفة والتاريخ والأدب وغير ذلك على ما يقول صاحب الاستقصا...

لقد أثار أخوه محمد الشيخ باحتمائه بالإسبان وتسليم ثغر (العرائش) لهم (رمضان 1019 = 1610) ثورةً شعبية عارمة أدت إلى ظهور بعض الزعماء من أمثال ابن أبي محلي الذي اقتحم مراكش بالرغم من أن زيدان لا علاقة له بتسليم العرائش بل وإنه لفي حرب مع إسبانيا ! الأمر الذي دفع بالمولى زيدان إلى الالتجاء إلى مدينة آسفي حيث قرر العبور بحراً إلى السوس ليهئ الهجوم على العاصمة...

لقد اكترى المولى زيدان مركبين لمساعدته على تحقيق مخططه، أحدهما هولاندي لنقل أسرته وحاشيته، وثانيهما فرنسي كان بالصدفة في ملك الدبلوماسي الفرنسي كاسطلان. اختاره لحمل خزانة كتبه التي كانت تبلغ ثلاثة وسبعين صندوقا (Septante Troys fardous) ووصل المركب إلى شاطئ أكادير يوم 16 يونيه 1612 = 16 ربيع الثاني 1021...

---

19) ناصر الدين على القوم الكافرين مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب لأحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المعروف بأفوقاي، تحقيق محمد رزوق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1 بالدار البيضاء 1407 = 1987 ص 49 ـ 55.
العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع. الخزانة العامة بالرباط ج 87 ـ الخزانة الحسنية رقم 2646.
CLELIA SARNELLI CERQUA : UN VOYAGEUR ARABE OU CAIRE, AU XVIIème SIECLE. INSTITUTO UNIVERSITARIO – ORIENTALE – NAPOLI.

إن الأجرة المتفق عليها ثلاثة آلاف دوكة، وقد كان في إمكان كاسطلان أن يثق في التزام الأمير زيدان لكنه كتاجر أيضا ! شك في أن يتوصل بالأداء، وهنا رفض أن يغادر الميناء قبل أن يتوصل بالمبلغ، ولما وقع التماطل في الأداء وكان زاد السفينة - على ما يقال - قد أوشك على أن ينتهي - قرر كاسطلان أن يركّب القلوع ليلة 22 يونيه حاملا على ظهر المركب أمتعة الشريف زيدان، ويقال إن نيته كانت أن يصل إلى مرسيليا أو أن يضع هذه الأحمال الثمينة بين يدي الدوك دوكويز (De Guise) حاكم البروفانس...

لكن الذي حصل، لسوء الحظ، أن أربع مراكب إسبانية اعترضت طريق كاسطلان على مقربة من مدينة سلا حيث تم أسر كاسطلان مع مركبه ! وقد حكمت المحكمة البحرية في قادس بأحقية حجز المركب سواء اعتبر تابعا للسلطان زيدان الذي يوجد في حالة حرب مع إسبانيا أو اعتبر تابعا لكاسطان لأنه عمل قرصنة من جانبه !![20]

لقد كان عملا طائشا من كاسطلان الذي لم يميز بين منصبه كدبلوماسي ومهنته كتاجر ! فلقد ظلت أسطورة المخطوطات المختطفة لازمةً يرددها الملوك المغاربة إلى أيام السلطان المولى إسماعيل بل إلى أيام السلطان محمد بن عبد الله وهما من الدولة العلوية التي ورثت الحكم عن السعديين !

وبما أن السلطان المولى زيدان كان على حرب فعلاً مع إسبانيا فقد أبى أن يتصل بها حول الموضوع ولكنه مع ذلك بعث برسائل عديدة إلى ملك فرنسا لويس الثالث عشر كانت تترجم عن غضبه الشديد من تصرف كاسطلان ! لكن لويس لم يزد شيئاً على تنصله من وكيله كاسطلان الذي كان أسيرا بإسبانيا..!

وقد زاد في تدهور العلاقات بين زيدان ولويس أن هذا الأخير رأى أن لا يستقبل السفير المغربي أحمد الجزولي الذي بعث به السلطان زيدان سنة 1021 = 1612 - 1613 للديار الفرنسية ! وحجته في ذلك أن المخطوطات لم تكن بفرنسا الأمر الذي جعل السلطان يشدد من خناقه على الأسرى الفرنسيين، وتزداد الحالة تدهورا عندما بلغ إلى علم العاهل المغربي أن سلطان فرنسا رفض استقبال

(20 S.I.H.M. FRANCE - S. I. I. I, P. 542

سفير له ثان لدى فرنسا هو سيدي فارس ! وتقاعسه أي ملك فرنسا إزاء التدخل لدى إسبانيا لإرجاع المخطوطات التي كانت قد نقلت إلى الايسكوريال !

وقد تأزمت العلائق بين البلدين عندما أقدم المولى زيدان على اعتقال مازي (MAZET)، وكذلك دوبوي (Du Puy).

وقد كان من بين الخطابات المتبادلة بين فرنسا والمغرب، خطاب وجهه السلطان المولى زيدان إلى فرنسا بواسطة الولايات العامة (هولاندا) وكان جوابا على رسالةٍ من ملك فرنسا على ما تفيده رسالة من زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 13 ذي الحجة[21] 1023 = 14 يناير 1615.

كما كان من بين الرسائل التي رفعها السلطان مولاي زيدان إلى لويس الثالث عشر هذا الجواب الذي يحمل تاريخ 6 ربيع الأول 1025 = 24 مارس 1616 والذي يؤكد عن عزم العاهل على عدم إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين للأسباب المشروحة سابقاً كما يكشف عن مسؤولية ملك فرنسا عن سفرائه ووكلائه، وأن الشرف يفرض عليه أن يتابع الجهود لإرجاع المتاع المختطف إلى المولى زيدان !

وهذا نص الجواب الذي يوجد أصله بالمكتبة الوطنية بباريز : «صدر هذا المكتوب العلي الإمامي الكريم المظفري الزيداني الحسني الفاطمي الهاشمي السلطاني عن الأمر العلي النبوي الشريف العلوي، دانت لطاعته الكريمة الممالك الإسلامية وانقادت لدعوته الشريفة سائر الأقطار المغربية وخضعت لأوامره جبابرة الملوك السودانية وأقطارها القاصية والدانية.

إلى السلطان الذي له بين أكابر المملكة الافرانصية وعظماء الملة النصرانية المكانة السامية والمنزلة الرفيعة الغالية السلطان الأرضى الأحظى الأثير الخطير الشهير لويس أما بعد فلقد وصل لعلي مقامنا كتابكم[22] تقررون فيه أنكم على العهد في المحبة التي بيننا وبينكم وبين أسلافنا وأسلافكم ووقفنا على ما كررتموه من الخطاب على مسألة هؤلاء الأسرى من أفرانصة الذين قادهم الله

21) S.I.H.M. Hollande, S. 1 T. 2 P. 462

22) لم يعثر على أثر لهذا الكتاب.

إلينا وجاءت بهم المقادير لحسن نيتنا حتى أوقعتهم أشراك القضا والقدر في أيدينا وأنكم تعيدون الكلام على ما سبق لكم من الرغبة في أمرهم والحرص على فكاكهم وتذكرون أنكم ما لا تزالون تكتبون به إلينا المرة بعد المرة من الجد واستفراغ الوسع في أعمال التدبير وغاية المحاولة بجميع أنواع الاحتيال على استخلاص حوائجنا وأمتعتنا من عند صاحب إسبانية إلى غير ذلك مما دلّت عليه فصول كتابكم ودارت عليه معاني خطابكم فيما يعود إلى هذه المقاصد الثلاثة التي تكرر عليها كتبكم.

وإلى هذا فأما المحبة فما زلنا على ما تقررت عليه بين الجانبين العهود وسبقت به المواصلة بين الأسلاف في كل صدور وورود ولا نزال نرعى ذلك على الدوام ونتحافظ فيه على رعي الذمام.

وأما ما يرجع إلى الأسارى فلقد تقدم من الجواب[23] السابق الذي استشفيناكم في التعريف بمسألتهم وبالسبب الذي لا يخفاكم أنه هو الموجب للقبض عليهم ما غني عن مزيد الكلام عليهم وتكرار الجواب عنهم لأننا كشفنا لكم في أمرهم عن وجه السبب وأوضحنا لكم الحقوق التي ارتهنوا فيها فلم يبق ما يزداد من التعريف فوق ذلك، وأما ما يرجع إلى ما ذكرتم من جدكم واجتهادكم في شأن استخلاص حوائجنا وذخائرنا فاعلم أن هذه الحوائج على يد خدامكم، كما علمتم، وقع فيها ما وقع، وما فعل خدّامكم فعاره إنما هو عليكم فإن استخلصتموها وتادت إلينا فقد فعلتم فعل الملوك ودحضتم عن جانبكم العار الذي لا ترضى به الملوك ولا يسمح أن يلحق منهم شيء جوانبهم في أمر من الأمور، وإن أهملتموها وأعرضتم عنها فلا عيب علينا نحن في ذلك ولا تنقص منا شيئا وإنما العار والعيب حينئذ عليكم لا علينا، وبهذا وجب الكتب في السادس من ربيع النبوي من عام خمسة وعشرين وألف[24].

إن الذين يقفون اليوم في مكتبة الإيسكوريال على بعض المخطوطات العربية التي تحمل على ظهرها اسم السلطان زيدان ليشعرون بالعبء الثقيل الذي كان يهيمن على العاهل المغربي وهو يتذكر تلك المطالعات والقراءات ويسترجع أيام سلوه واستقراره..!

23) لم يعثر على هذا الجواب.

24) Bibliothèque Nationale, Fonds Arabes Ms 6100 F. 9. Original

لقد تدهورت العلاقات فعلاً بين لويس الثالث عشر والسلطان زيدان بسبب عملية القرصنة المسلطة على مكتبة السلطان المولى زيدان، وكان ضرورياً أن يترك لعامل الزمن أمر التخفيف من حدة التوتر..!

ومع ذلك وجدنا لويس الثالث عشر يُرسل سنة 1617 بمبعوثه روبير دوبونيفاس دوكابانيس (R.B de Cabanes) لدى السلطان زيدان في محاولةٍ لافتداء الأسرى الفرنسيين... بيد أن جواب زيدان كان يتخلص في أنه أجاب عن هذا الموضوع من ذي قبل، وأنه ينتظر من ملك فرنسا أن يعمل على إرجاع ما ضيعه كاسطلان...[25]

وبدا للدبلوماسية الفرنسية في وفاة زيدان ما يبرر القيام بحركةٍ من أجل إنقاذ الموقف والعمل على تسريح العدد العديد من الفرنسيين الذين وقعوا في أسر المغاربة سواء من هؤلاء رجال السلطة المركزية الممثلة آنذاك في السلطان المولى عبد الملك الذي عوض والده زيدان أو الزعماء الذي ظهروا في سلا وتطوان في أعقاب تفكك تلك السلطة والذين أخذوا بدورهم يفرضون وجودهم في البحر...

وبهذا نفسر قرار الحكومة الفرنسية في تاريخ 30 نونبر 1629 = 13 ربيع الثاني 1039 بتعيين أحد تجار مرسيليا أندري برا (Andre Prat) قنصلا في مدينتي سلا وتطوان ليهتم بمشاكل الفرنسيين ويعمل على افتداء الأسرى، غير أن هذا القنصل لم يلتحق بمقر عمله بسبب خلاف نشب بينه وبين حكومته في قضية التعيين الأمر الذي جعل فرنسا تبادر - في انتظار ترضية بُرّا، بتكليف دورازيللي (De Razilly) في صيف 1630 = أوائل 1040 من أجل إبرام اتفاقية موقتة بينهم وبين زعماء سلا لصالح أولئك الأسري...

ويحتفظ دوكاستري في كتابه «مصادر لم تنشر لتاريخ المغرب» بمشروع الاتفاقية الذي حرر سلا يوم 24 غشت 1630 = 15محرم 1040، ووقع عن السلاويين فيه عبد الله بن علي القسري[26]، ذلك المشروع الذي لم يلبث أن أصبح بعد عشرة أيام معاهدة هدنةٍ بين الطرفين...

25) كان الواسطة بين زيدان وبين كابانيس/سان ماندريي / (S. Mandrier) الذي كان ضمن الذين لهم صلة بإنشاء ميناء «أيير» الذي أصبح فيما بعد يعرف بالوليدية Hesp 1951 ص 387 - 358.

26) S.I.H.M. S, 1 T. 3 P. 282

ويترك دورازيلّلي هذه المنطقة في اتجاه مراكش حيث يوجد سلطان البلاد آنذاك المولى عبد الملك الذي خلف والده زيدان صاحب المكتبة المختطفة !

وقد نزل بمدينة آسفي، ومنها بعث برسالةٍ من لويس الثالث عشر إلى المولى عبد الملك يلتمس تحرير الأسرى وينتظر، فيما يظهر، مقابلته، من لدن العاهل المغربي... لكن الذي حصل أن دورازيلّلي استعجل وغادر آسفي قبل أن يصل مبعوث السلطان إليه القائد يحيى بن محمد الجناتي[27] الذي عهد إليه بمرافقته لمراكش من أجل التفاوض... الأمر الذي دفع بالمولى عبد الملك أن يبعث إلى ملك فرنسا يحكي عن الاستعجال الغير المتوقع من سفيره الذي كان عليه أن ينتظر قضاء أغراض ضيفه (يعني ملكه)...

وقد كانت الرسالة المغربية تحمل تاريخ 26 ربيع الأول 1040 = 2 نونبر 1630.[28]

☆ ☆ ☆

لكن دورازيلي (De Razilly) لم يعد إلا في أعقاب مصرع السلطان المولى عبد الملك وتولي أخيه المولى الوليد وقد كان صحبة موليريس (De Molères) ودوشالار (Du Chalard) وبالاّش (Pallache)، وهكذا استطاع رازيلي بفضل مثابرته وبالرغم من إخفاقه في المحاولات السابقة أن يحمل الوليد على توقيع عقد تعود بمقتضاه العلاقات بين البلدين إلى حالتها الأولى وكان ذلك بتاريخ 17 شتنبر 1631 = 18 صفر 1041.

ويوجد نص الاتفاقية باللغة الفرنسية، وهي تتألف من ستة عشر فصلا نص بعضها على أن التجار الفرنسيين يؤدون للمغرب - مقابل صفقاتهم - العشر والطبْلية[29]، وقد وقعها عن فرنسا موليرودو رازيلّي ودوشالار (Du Challard) كما وقعها عن مولاي الوليد الوكيل موشي بالاش، وقد صودق على الاتفاقية المغربية الفرنسية بتاريخ 24 شتنبر 1631 في قصر جيرمان آن لي وتعتبر هذه المعاهدة من أوائل الاتفاقيات المبرمة بين المغرب وفرنسا على هذا العهد...

---

27) هنا تعليق الجناتي راجع S.I.H.M. P 350

28) نفس المصدر.

29) الطّبلية تعني دراهم الخراج S.I.H.M ص 406 - Hesp 1951 ر ص 358 - 359.

البعثات المسيحية بالمغرب
على عهد السعديين

تتحدث الوثائق التي وقفت عليها في (روما) في المستودع الذي يوجد في ساحة إسانيا عن المبادرة التي قام بها إسحاق رازيلي سفير فرنسا لدى المغرب عام 1624 أي أيام عبد الملك بن زيدان (1037 ـ 1040 = 1627 ـ 1627) عندما توجه إلى مدينة آسفي بقصد إنشاء بعثة مسيحية هناك... وقد ذكرت هذه المصادر أن المبادرة المذكورة اصطدمت بعدد من المشاكل التي اعترضت المبعوث المذكور في سفره إلا أنه في عام 1630 وهو التاريخ الذي تولّى فيه الوليد بن زيدان عرضت مذكرة تؤيد الاقتراح بتجديد المبادرة تخوفاً من أن يعتنق الإسلام ذلك العدد من الأسرى المسيحيين الذين يوجدون بالبلاد إن لم يحظوا بالدعم الخارجي على حد تعبير الوثائق المشار إليها. وهكذا قرر المؤتمر المسيحي في اجتماعه العام إرسال بعثةٍ من الفرانسيسكان أخذت تباشر عملها في أمن وأمان طوال عشر سنوات...

وقد ظهرت نفس المشاكل من جديد منذ سنة 1650 أيام السلطان أبي العباس آخر ملوك السعديين (1056 ـ 1069 = 1646 ـ 1658) حيث شلت أعمال البعثة لفترة سنة ولكنها لم تلبث أن أخذت طريقها بصفة نهائية منذ عام 1654 حيث وجدنا أن رئيس البعثة يطلب إلى مؤسسة بروباكَاندا (PROPAGANDA) إرسال مبعوثين ـ في الخمس سنوات التالية ـ لكلٍّ من مدينة تطوان وسلا وفاس ومراكش للتخفيف عن الأسرى المسيحيين...

وقد استمرت المراسلات بين المغرب وفرنسا في أعقاب هذه الاتفاقية، وهكذا نجد رسالة من مراكش بتاريخ 3 شوال 1043 = 1 أبريل 1634 إلى لويس الثالث عشر تخبره بأن انطوان كابيرون (Antouane Cabiron) سلمه الرسائل التي بعثها ملك فرنسا، وأنه قد أحيط علماً بسلوك دافيد بالأش الذي لم يحمل إليه ما كلفه به لويس، ويؤكد الوليد أنه لم يعهد لهذا اليهودي بعمل قط ويستغرب من اختياره سفيرا..! وأنه أمر بسجن موسى بالأش... وهو يحمل فرنسا المسؤولية في عدم تنفيذ بنود هذا الاتفاق بالرغم من أن العاهل حرر سائر الأسرى ومنع على السلاويين كل عمل عدواني موجه ضد فرنسا..! إن فرنسا لم تقم بعمل مماثل حيال المغرب، لهذا فإنه لن يحرر بعد هذا أحداً ولن يوقع اتفاقا ! ومع هذا نرى العاهل يوافق على سائر البنود الموجودة في الاتفاقية سوى الفصل الذي ينص على اكتفاء البواخر الفرنسية برفع علم فرنسي عليها، فملك المغرب يوجب إضافة إلى هذا حمل هُوية السفينة أي (الباصبّورت) !

وقد تجددت اتفاقية 1631 بين لويس الثالث عشر وبين الوليد بن زيدان سنة 1635 حيث نجد معاهدة محررة بآسفي يوم 18 يوليه 1635 ـ 3 صفر

1045 وقد كان رئيس البعثة التي باشرت المفاوضات عن الجانب الفرنسي دوشالار، كما صادق على موافقة النص الفرنسي للعربي عن المغرب شخصية تحمل اسم مراد (Morat).

وتوجد صورة للظهير الذي يعلن عن المعاهدة المذكورة وهذا نصه :

صدر هذا الأمر السلطاني. الوليد المؤيد بالتأييد الرباني.

لا زال نافذا بعون الله ميسر المئارب، ومطاعا له بمنه في جميع أقطار المغارب، يعلم من يقف على هذا الأمر المطاع، في جميع الاصقاع، أن الصلح المنعقد بين المملكتين، الثابت فيما سلف بين الجانبين[30]، ووقع في أثنائه ما وقع من الشين، قد جدّدنا رسمه، وأمضينا على شروطه المتقدمة حكمه، تجديدا لا ينحل، وإمضاء لا يختل، بحول الله.

وأن ما عسى أن يقع بمشيئة الله وقدره، وسابق علمه ونفوذ أمره، من بعض خدام الجانبين مما يفسد الشروط، فإن فاعل ذلك يعاقب عقوبة يشيع في أقطار الأرض خبرها، ويذيع في أكنافها أمرها.

وأن يسترد خدّامنا ووكلاءنا الذين بسواحل البحر بأيديهم من أسارى فرانصة اقتداء بفعل مقامنا العلي، وسلوكا لأثر صنعنا الجميل السني.

وأن يستظهر قبطانات الجانبين، ورياس المملكتين، عند اللقاء، الكتب السلطانية، وما بأيديهم من الأوامر الإمامية أو من ينوب عنهم من الوزراء والوكلاء في الأمور الجارية، لكي يرتفع اللبس بينهم والريب، ويكون ذلك برهانا لمن ينتمي للجانبين فلا يقع حينئذ وصم ولا عيب، بحول الله.

أن القنصل الفرانصي المستقر بحضرتنا العلية، حمراء مراكش المحمية، لا يوذي في نفسه وماله، ولا في خدّامه وجميع أحواله، ويعامل هو والقسيس الذي معه أينما كانوا بالتعظيم، كما جرت بذلك العادة في سائر الأقاليم، كتب في ثالث صفر سنة خمس وأربعين وألف.

---

30) الإشارة إلى اتفاقية 24 شتنبر 1631.

ومن جهةٍ أُخرى فقد فإن أندري برا (Andre Prat) الذي تحدثنا عنه سالفاً رأى أن يرسل كَارسبار دوراستان (Caspard de Rastin) لينوب عنه في مهمته القنصلية بسلا - وكانت وظيفة القنصل آنذاك تخول لصاحبها أن ينيب عنه حسبما يراه !

وقد قام دوراستان فعلاً بالأمر وكان مما كتب به إلى رئيس الوزراء الفرنسيين ريشيليو رسالة بتاريخ 16 يوليه 1639 يخبره بأن سلا الجديدة (الرباط) قد سقطت في يد العياشي وأن الحصار قائم حول القصبة التي تمون بواسطة الإسبانيين[31]. وقد استطاع دوراستان (De rastin) أن يحصل خلال عام 1049 = 1649 على الاتفاق مع الزعيم العياشي صاحب سلا لحماية الفرنسيين من الغزاة البحريين السلاويين وإعطائهم حقّ الامتياز لاستغلال معدن القصدير الذي اكتشف بالقرب من مدينة سلا...

واعتباراً لكون الاتفاقية المبرمة بين دورازيلّي وبين قادة سلا حول الأسرى لم تأت بالنتائج بسبب تفاقم الأحوال وتبادل أعمال العنف بين الطرفين... اعتباراً لذلك رأى القنصل (برا) أن يذهب بنفسه إلى المغرب ليذلل المصاعب القائمة، وهكذا اصطحب معه ابنه هنري (Henry) الذي عرف كيف يصانع الزعيم الجديد الحاج الدلائي حيث نجح في إقناعه بأن من مصلحة السلاويين أن يضربوا صفحاً عما لهم من التزامات قديمة مع فرنسا ليربطوا علاقات تجارية جديدة...

وبعد مفاوضات طويلة وشاقة مع زعماء إقليم وادي أبي رقراق العاملين باسم الحاج الدلائي عقد معهم أندري برا اتفاقية لتوطيد العلاقات التجارية بين فرنسا وبينهم، ثم أمضى معهم في السنة الموالية اتفاقية ثانية في نفس الموضوع.

وبالرغم من كون القنصل (برا) عقد هاتين الاتفاقيتين بصفة شخصية دون تفويض رسمي من حكومته فإن الاتفاقيتين استطاعتا على الأقل أن تعملا على تحسين العلاقات بين الجانبين ولو إلى حين...

---

31) دوكاستري : سلسلة أولى (فرنسا) 3 ر I.I.H.M.S, 1 T. 3, P. 584...584

وأخيرا رجع (أندري برا) إلى بلاده متنازلاً لولده هنري عن مهمة القنصلية في سلا وأقرت الحكومة الفرنسية ذلك وأصدرت مرسوما مؤرخا في 20 اكتوبر 1648 تعين بمقتضاه هنري برا قنصلا في سلا وتطوان، غير أن هذا القنصل الشاب لم يعمل على تنشيط العلاقات بين بلاده والمغرب وجرت في أيامه أحداث عنف متعددة كان من بينها استيلاء القراصنة السلاويين على سفينة فرنسية قادمة من الأرض الجديدة[32] (la terre neuve) وعلى ظهرها أربعون من النصارى بيعوا جميعا في سلا بالمزاد العلني ! وأضيفوا إلى العدد الوافر من العبيد الفرنسيين الموجودين بهذه المدينة.

ومع ذلك فقد استمر هنري برا يتولى منصب قنصل فرنسا في سلا وتطوان إلى ما بَعد نهاية الدلائيين، حيث رجع إلى فرنسا ليرسل بدوره نوابا عنه يقومون بأعمال القنصلية، وكان من هؤلاء انطوان جوليان بارازول (Antoine Julien Parasol) وفرنسوا جوليان (Françons Julien) وهكذا ظل مشكل العلاقات المغربية الفرنسية - المتسبب بداية من اختطاف خزانة زيدان - قائما لم تستطع الحلول الجزئية ولا المؤقتة أن تعمل على حسمه إلى أن تأتي دولة العلويين حيث دشن عهد جديد على ما نقرأه بحول الله في المجلّد التاسع...

☆ ☆ ☆

ماذا عن الحدث البارز الذي سجله التاريخ الدولي للمغرب مع فرنسا.

رَابِعُ المُسْتَحِيلَات

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي الزَّمَانِ وَمَا بِهِم
خِلٌّ وَفِيٌّ لِلصَّدَاقَةِ أَصْطَفِي
أَيْقَنتُ أَنَّ المُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ:
الْغُولُ وَالْعَنْقَاءُ وَالْخِلُّ الْوَفِي

32) الأرض الجديدة جزيرة كبرى في أمريكا الشمالية بقيت حتى سنة 1949 مستعمرة إنجليزية ثم أصبحت مستقلة، تكون اليوم الولاية العاشرة من ولايات كندا...

العلاقات المغربية الإنجليزية على عهد السعديين.

- □ الاتفاقية المغربية الإنجليزية التي أمضاها جوهن هاريسون.
- □ تبادل المراسلات والسفارات بين الملوك السعديين والملكة إليزابيث الأُولى.
- □ وساطة أنجلترا لدى المغرب لمساعدة الأمير البرتغالي أنطونيو .
- □ المهمة الدقيقة للسفير المغربي عنون بأنجلترا وخطاب المنصور...
- □ تجدد الاتصالات بين جيمس الأول والسلطان أبي فارس.
- □ مهمة أنطوني شيرلي في البلاط المغربي...
- □ العلاقات المغربية الإنجليزية وظهور بعض الزعامات المحلية...
- □ احتجاج المغرب على التعامل مع الحركات الانفصالية في الشمال والجنوب !!

العلاقات المغربية الإنجليزية على عهد السعديين

دشنت العلاقات بين البلدين في هذا العهد عندما رست سفينتان تجاريتان إنجليزيتان في ميناء أسفي عام 957 ـ 958 = 1551 ثم عام 1552 برئاسة طوماس ويندهام (Thomas Windham).

وكان ذلك على إثر وصول تقارير للعاصمة البريطانية تتحدث عن الأرباح الطائلة التي تَحصّل عليها إسبانيا والبرتغال من الموانئ المغربية المحتلة والتي بلغت حدّاً أغرى الأوساط التجارية على مدّ الاتصال إلى الأرض المغربية.

وهكذا استُقبلت البعثة الإنجليزية في المغرب ووقعت اتفاقية أمضاها جوهن هاريسون (J. Harison) بعد مفاوضاتٍ جرت بين الطرفين المغربي والإنجليزي.[1]

ومن ثمت استمرت العلاقات في نموٍّ وتزايدٍ وهكذا نجد رسالة موجهة من السلطان مولاي عبد الله الغالب بالله إلى الملكة اليزابيث بنت هنري الثامن يطلب إليها أن تستقبل خادمه التاجر لوي فيرنانديز (Luis Fernandez) وتستجيب لطلبه حول تأمين مراكب شريكه سالفا دورنونيز (Salvador Nuñez) الذي يشتغل بالتجارة في المغرب....

وهذا نص الرسالة التي تحمل تاريخ أوائل جمادى الأولى 977 = 12 ـ 21 اكتوبر 1569 وهي في الواقع مختومة بتاريخ كتب بالأرقام التي تحمل في اصطلاح الموثقين اسم «القلم الفاسي» أو القَلم الرومي.[2]

((الحمد لله وحده ولا معبود سواه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحدا.

---

1) S.I.H.M. T. 1 Ang. T. 1 P. 100 T. 2. P. 441... T. III P. 10....

2) H. I. H. M. Angl, T. 1. P 100 - 101 ـ التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 2 ص 41 ـ 62.

من عبد الله تعالى أمير المومنين، المؤيد بالنصر والتمكين، والتأييد والظفر والفتح المبين، الشريف الحسني أيد الله بعزيز نصره أمره، وأعز بتأييده نصره، وأسعد زمانه المبارك وعصره، وأبقى في مراقي المجد الأسمى فخره وأعلى أمره في الخافقين وأظهره إلى ملكة بلاد لنجلطرة وإيرلانظا المعظمة الشهيرة الأثيرة إيزابيلا بنت السلطان إنرك (Henrc) سلك الله بها سبيل الخير والهداية وحفظ صحتها بحسن الرعاية، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فموجب كتابنا هذا إليك ان خديم أبوانا التاجر لُوز (Luis Fenandez) رغب منا الكتب إليك في تأمين أجفان صاحبه التاجر سلبدورننس (Salvador Nunez) في قدومه برسم التجارة لبلادنا وانصرافه عنها بحيث لا يتعرض أحدٌ ممن تحت حكمكم بسوء، ولا يقرب ساحتهم بمكروه ولا نكاية في ورودهم وبعد رجوعهم وتعطوهم تأمينا (Sauf conduit) ينصرفون به من غير معارض فكتبنا لكم تكميلاً لرغبته وإسعافاً لطلبته لأجل تعلقه بجانبنا وخدمته لأبوابنا، وكل ما يتعرض لكم من المآرب والأغراض يقضي على أكمل المراد إن شاء الله.

وهذا ما وجب به الكتب إليكم وكتب في أوائل جمادى الأولى عام (بالقلم الفاسي) (977 = أواخراكتوبر 1569)

ولا شك أن الرسالة تترجم عن النشاط الذي كانت تمارسه بريطانيا في المدن المغربية، والذي كان المغرب يأذن به ليُضعف النفوذ الإسباني أو بالأحرى ليستفيد من التنافس بين الدول الأوربية للحفاظ على كيانه...

وقد بلغت الصادرات من السكر المغربي والمواد الغذائية المحولة من الثغور المغربية إلى أنجلترا عام 1574 ـ 1575 أزيد من ثمانية وعشرين ألفا من الجنيهات الاسترلينية...

وقد حدث عام 1576 = 984 أن قام جوهن ويليامز (J.Williams) الذي كان يعمل وكيلاً لأحد كبار تجار لندن : إدمون هوجان (E. Hogan)، قام ببيع كمية كبيرة من السّلاح لمولاي عبد الملك الذي عوض الإنجليز عن هذا ببيع كميةٍ من مادة استراتيجية (ملح البارود المغربي) ظلت الحكومة في بلادنا تقصرها على استعمالها في الماضي...

وبهذه المناسة سلم عبد الملك إلى ويليامز خطاباً للملكة إليزابيث قال : روجرز إنه لم يعثر على نصه كما لم يعثر على رد الملكة عليه بتاريخ 8 أبريل 1577.[3]

غير أن الباحث هُوبكنز (Hopkins) استطاع أن يظفر بنص خطاب العاهل المغربي الذي حرر بمراكش، وكان يحمل تاريخ رجب الفرد 984 = اكتوبر 1576،[4] ويتخلص في أخبار الملكة بتملكه زمام الأمر ووعدها بقضاء أغراضها...

وقد أرسلت الملكة على عهد السلطان المولى عبد الملك (المعتصم) سفيرها إدموند هوكان.[5] (E. Hogan)، وكان ذلك سنة 985 = 1577 عن طريق طنجة لهدف الحصول على امتيازاتٍ تجارية ورفع شكاوي ضد اليهود الذين أساءوا معاملة التجار البريطانيين...

وقد استقبلت السفارة أول يونيه 1577 بظاهر العاصمة، حيث أمر العاهل المغربي بحضور البرتغاليين والإسبان مراسيم الاستقبال، وذلك قبل أن يتقبل في قصره رسالة اعتماد الملكة لسفيرها (هوكّان)...

وقد بعث السلطان عبد الملك برسالة إلى الملكة حول مقدم سفيرها وصدر مرسوم لمولاي عبد الملك لصالح مطالب إليزابيث، حرر بمراكش بتاريخ 6 يوليه 1577 وقد وعدها بإرسال سفيرٍ مغربي لتحضير مشروع اتفاقية بينه وبينها كما يعد بتشجيع التجارة بين البلدين.

وقد أجابت الملكة عن خطاب العاهل برسالة أُخرى بتاريخ 3 شتنبر 1577 تشكره على عنايته بسفيرها وإزاحته العراقيل التي وضعها اليهود حول وسق السكر، قائلةً : «إنها تترقب وصول السفير المغربي إلى لندن لتقوم بواجب الترحيب».

(3 A History of Anglo – Maroccan Relations To 1900 (P. G. Rogers, Foreign and common Weath offic, London.

(4 Letters From Barbary 1576 – 1774. ARABIC Documents in The Public Records office Translated and Anno tated By J.F.P. Hopkins, Published for the British Academy by the oxford University Press.

(5 Sources inédites S.I. T. 1, P. 199

وفي هذه الأثناء : شوال 985 = دجنبر 1577 وصل البحار الإنجليزي السير فرانسيس دراك F. DRAKE إلى جزيرة الصقور على مقربةٍ من مدينة الصويرة الحالية وكان الهدف ضرب إسبانيا عدوة أنجلترا على ذلك العهد...[6]

وقد كان النصر الحاسم الذي أحرزه المغرب في معركة وادي المخازن 30 جمادى الأولى 986 = 4 غشت 158 على الجيش البرتغالي بمثابةٍ منطلقٍ جديد لنشاط دبلوماسي هام بين الدول الأوروبية والمغرب...

وقد كانت أنجلترا في صدر تلك الدول، الأمر الذي تكشف عنه المراسلاتُ المتوالية التي كانت للسطان أحمد المنصور السعدي مع الملكة اليزابيث وكذا لوائحُ الهدايا المتبادلة بين الطرفين.

وقد كان من أوائل الاتصالات بين المغرب وأنجلترا ما تجلّى في الرخص التي كانت تمنح لبعض التجار الإنجليز من أجل تسهيل عملهم بالمغرب على نحو ما نراه في هذا الاذن المؤرخ بأوائل شوال 986 = أوائل دجنبر 1578 والممنوح للتاجر جوهن بانطون (John Benton) الذي وسق حمولة عشرة جمال من التمور إلى الديار الإنجليزية.

وفي خطاب بتاريخ 13 ربيع الثاني 987 = 18 يونيه 1579 نجد السلطان أحمد المنصور يخبر الملكة إليزابيث أنه استلم خطابها الذي تطلب إليه فيه أن يعامل المواطنين الإنجليز الذين يردون للتجارة بالمغرب معاملة خاصة، وأن يستخدم نفوذه لإلزام اليهود الذين يتعاملون مع هؤلاء التجار بالقيام بالتزاماتهم، وقد أوضح المنصور في رده أن من التقاليد المغربية احترام مهمة التجار الأجانب ما داموا متقيدين بوفائهم للنظام، وأن كل ما تطلبه الملكة سيكون محل عناية من العاهل...

وقد أورد هوبكنز خطاباً مرفوعاً من المنصور إلى إليزابيث حرر بمراكش بتاريخ 20 جمادى الأولى عام 988 = 3 يوليه 1580... وهو يشكر الملكة على ما أبدته من استعدادٍ تام للاستجابة لمطالبه ويؤكد لها عن عواطفه...

---

6) د. التازي : القنص بين المشرق والمغرب، مطبعة عصرية، الرباط 1980 ص 39.

وقد تبع هذا خطاب آخر من السلطان المنصور إلى الملكة بتاريخ 16 ـ 25 صفر 989 = 22 ـ 31 مارس 1581 يخبرها بتوصله برسالتها وبمطلبها ويعدها بتحقيق رغائبها...

كما وردت رسالة منها إليه بتاريخ أبريل 1585 تعرب فيها عن سرورها البالغ بالاهتمام الذي أولاه العاهل المغربي لأحد المقربين إليها : إلايرل أوف ليسيستر (the earl of Leicester) وهي تستوصي خيراً ببعض الواردين على الديار المغربية ممن يعملون لحساب هذا الأخير...

وفي هذه الأثناء أخذ بعض التجار الإنجليز يضغطون على حكومتهم للموافقة على تأسيس شركة تجارية تمنح امتيازاً لاحتكار التجارة بين بريطانيا والمغرب، وفعلاً تأسست الشركة عام 1585 باسم الشركة المغربية (Barbary Company) ومنحتها الحكومة البريطانية عقد امتياز لمدة اثنتي عشرة سنة وأرسل هنري روبيرتس (Henry Roberts) ممثلاً للشركة في المغرب حيث وصل إلى أسفي يوم 14 شتنبر 1585 وقدم خطاب توصية من الملكة للعاهل المغربي الذي استقبله بمراكش وخصص له مقاماً بالحيّ اليهودي حيث ظل ثلاث سنوات.[7]

لقد كان السكر في صدر المواد التي توسقها الشركة لأنجلترا، فإن الملكة لم تكن تقبل في مطبخها على ما يقول تقرير (روبيرتس) أي نوع من السكر إلا السكر المغربي !! هذا إلى الذهب الذي أخذت ترد منه كميات كبيرة على المنصور من السودان...

هذا أيضا إلى ملح البارود (Salpetre) المغربي الذي كان أجود نوع في العالم والذي كان الدفاع الحربي الإنجليزي يعتمده بالدرجة الأولى إضافةً إلى معدن النحاس... والمواد الغذائية المتمثلة في القمح والذرة واللحوم...

ويذكر تقرير (روبيرتس) أن الضريبة على الواردات للمغرب كانت عشرة في المائة لكنها على الصادرات كانت تختلف حسب نوع السلعة وحجمها...

---

7) Rogers : Anglo – Moroccan Relations p, 14

ولم تقتصر العلاقات بين البلدين على الشؤون التجارية حسب، ولكن تعدتها إلى المسائل السياسية، وهكذا تبودلت عدة خطابات بين الطرفين.

ومن القضايا الهامة التي كانت مثار حوارٍ بين الدولتين مسألة مساعدة الأمير دون أنطونيو (Don Antonio) المتجئ ببريطانيا والذي كان يطالب باستعادة عرش البرتغال من اسبانيا على ما قلناه في العلاقات المغربية الإسبانية على هذا العهد.

إن انطونيو هو ابن لدون لويز (D. Luiz) الابن الثاني للملك إيمانييل الأول (Emanuel) ملك البرتغال، وقد كان أسر في معركة وادي المخازن لكنه افتدي بعد ووصل إلى البرتغال بعد وفاة عمه الكبير الكاردينال هنري (Henry) الذي حكم البرتغال بعد مصرع الملك سباستيان في وادي المخازن، وقد حدث بعد وفاة الكاردينال يوم 31 يناير 1580 أن ضم فيليب الثاني ملك اسبانيا البرتغال إلى مملكة بصفته حفيداً للملك إيمانييل، وظل هذا لفترة تناهز الستين عاماً، وكانت أنجلترا قد وعدت بإرسال قوة لمعاونة المُطالب بعرش البرتغال أنطونيو معتمدة على المساعدة المادية للسلطان أحمد المنصور في مقابلة مساعدة إليزابيث للعاهل ضد تهديدات فيليب الثاني بالسطو على العرائش !

ولقد أرسل السلطان في يناير 1588 بسفيره الرايس مرزوق إلى الملكة يعلن عن استعداده لإرضاء مطلبها المتلخص في مساعدة دون أنطونيو ولكنه يطلب إليها أن تبذل مجهوداً في البداية مقترحاً تحرك أُسطولها نحو جبل طارق على أن يزودها بالتموين اللازم حتى يتم استرجاع المملكة المغتصبة... ثم نجد الأمير دون أنطونيو يرسل بسفيره كاسبّاردي أكَرام (Gaspar de AGRAM) حاملاً خطاباً للعاهل المغربي في شأن طلب المساعدة على استرجاع عرشه وتوصيات الملكة لأنطونيو على هذه الحركة... ونجد رسالة من السلطان المنصور إلى الأمير اللاجئ بتاريخ جمادى الأولى 996 = 29 مارس 28 أبريل 1588 يحيطه علما بأنه سيكتب إلى ملكة أنجلترا في الموضوع...

«... وإن كتبكم الأثيرة ورسائلكم الأخيرة قد اتصلت بحضرتنا الشريفة وأنهيت إلى سيادتنا المنيفة على يد رسولكم المقيم في حرم دارنا، المستقر منذ أعوامٍ في كريم جوارنا...».

كما نجد رسالة منه في نفس التاريخ للملكة إليزابيث يخبرها بتوصله بتوسلاتها حول أنطونيو واعداً بأن هذا الأمير سوف يسترجع مملكته، إن العاهل المغربي كان يسلك سياسة التوازن بين فيليب الثاني وبين خصومه مكتفياً بالوعود ملتمساً للمعاذير...

وقد أورد هوبكنز في «مجموعه» ترجمة رسالةٍ غفل عنها دوكاستري، وتتعلق بمهمة الدبلوماسي المغربي مرزوق في لندن الذي سيقوم بتقديم «شرح شفوي وجهاً لوجه» لجلالة الملكة...

وقد حررت هذه الرسالة في مراكش بتاريخ شعبان 996 = يونيه / يوليه 1588.

وقد شكرت الملكة إليزابيث المنصور السعدي على أريحيته التي تجلت في إرسال 400.000 جنيه كبدايةٍ للمساعدة وذلك في رسالة وجهتها إليه من لندرة بتاريخ 15 غشت 1588 مخبرة إياه بالكارثة التي حلت بالأسطول الإسباني (ARMADA l'invincible) بعد بضعة أيام فقط من الحادثة... وبصدد أنطونيو نجد رسالة من المنصور السعدي إليه حررها بمراكش بتاريخ 10 ذي القعدة 996 = أول اكتوبر 1588 وهي موجهة إلى الدّون المذكور.

وقد أجابت الملكة بتاريخ يبراير 1589، مع سفيرها إدوارد براين (Prynne EDWARD) برسالة تشكر إهتمام العاهل المغربي وإرساله للسفير مرزوق مخولة سفيرها إبرام اتفاق يهدف لإرجاع دون أنطونيو لعرشه...[8]

لكن السفارة البريطانية وجدت السلطان المنصور يتأهب لتصفية قضية مملكة (سُنْغَاي) فاستبقى المنصور سفير إليزابيث عنده إلى أن تم تجهيز الجيش المغربي لكي يتمكن من التحدث إليه بحرية. إن إنجاز الوعد الذي قطعه العاهل المغربي على نفسه يتوقف على العون الذي تقدمه بريطانيا نفسها للأمير أنطوان، وهو يرجو منها أن تحيطه علماً بكل ما يمس هذا الأمر...

---

8) S.I.H.M - ANGL. T. 1. P. 518

وفي هـذه الأثنـاء أبحر الأسطـول الإنجليـزي إلى البرتغـال لنصرة دون أنطونيو 1589 وتوجّهت أنجلترا للعاهل المغربي تطلب العون بـالمـال والرجـال، فأجابها المنصور برسالة مؤرخة في 29 شوال 997 = 11 شتنبر 1589...(9)

وفي إطـار هـذا الموضوع الـذي يمس مطـالب أنجلترا نجد جـوابـاً بـديعـاً من العاهل المغربي إلى العاهلة البريطانية بتاريخ 19 شعبـان عـام 998 = 23 يونيـه 1590 أرفقه بالترجمة باللغة الإسبانية...

وهذا نص الجواب :

من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام المنصور باللـه أمير المؤمنين بن أمير المـؤمنين بن أمير المـؤمنين الشريف الحسني أيـد اللـه بعـزيـز نصره أوامره، وظفر عساكره وخلّد مآثره ومفاخره ووصل له مجد الدّنيـا بمجـد الآخرة إلى الأصالة الراسخة القدم، السامية المنار والعلم، أصالة السلطانة الجليلة الأصيلة المثيلة الأثيرة الخطيرة الشهيرة صاحبة انكلطيرة السلطانة إيزابيل، أما بعـد حمـد اللـه مؤيـد من توكل عليـه، ولجـأ في كل الأحـوال إليـه، والصـلاة والسـلام على رسوله المؤيد بالآيات الظاهرة والرايات الظـافرة، والرضى عن آلـه الأئمـة الأعلام عمـاد الأنـام وخلفـاء الإسلام وفخر الليـالي والأيـام وعن أصحـابـه الـذين عزّروه ونصروه بـالسنـان والحسام ومـواصلـة الـدعـاء لعلي هـذا المقـام الكريم الإمـامي المنصـوري الأحمـدي الحسني بـالنصر المتكفـل لمن والاه بمـزيـد الظهـور ولمن ناواه بالتعس والتبور، فكتابنـا هـذا إليكم من حضرتنـا العليـة بمراكش حـاطهـا اللـه ونصر اللـه تعـالى خفّـاق اللواء وبركـة هـذا الأمر العزيـز المـؤيـد بجنـود الأرض والسماء كفيلة بعز الأولياء وذل الأعداء بعز الله تعالى وقدرتـه. هـذا وإنـه اتصل بمقـامنـا العلي كتـابكم الـواصـل صحبـة رسـولكم المكرم القبطـان إير فتلقينـا بـالرحب وروده، وقـابلنـا بـوجـه المبرة والإكرام وفـوده، ووقفنـا منـه على مـا ذكرتموه عن السلطان دون أنطوان يسر الله مراده وقرن بالنجح إصداره وإيراده من أنـه ذكر لكم أننـا قـد وعـدنـاه بتجهيز رسول من قبـل مقـامنـا العلي يكـون

---

9) محمد بن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي (مجلة تطوان عدد 8 سنة 1963 ص 39 - 86).

Hopkins : Letters... N° 4, p. 3...

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

وبه وجب الشكر [illegible] تحريراً [illegible] شعبان المعظم [illegible]

معتبراً ليقف حتى يبلغ إليه المال الذي طلب منا إمداده به على وجه السلف وإلى هذا وصل الله إكرامكم يحيط بعلمكم أننا كنا لاشك وعدنا رسول السلطان دون أنطوان الذي هنا بحضرتنا الشريفة بأنكم إذا مددتموه أنتم لهذا العام بما يطلب منكم من العساكر والأجناد وقمتم بنصرته لذلك على ساق الجد والاجتهاد نبعث تجاهكم رسولا من قبل مقامنا العلي، ووافانا رسولكم الواصل (ونحن ؟) في حال الأهبة والاحتفال بهذه الحركة السعيدة التي أخذنا في تجهيزها إن شاء الله إلى جهة السودان وهي على قدم السفر بحول الله في هذه الأيام القريبة من تاريخه، وبحسبه قبضنا رسولكم القبطان المذكور أكرمه الله على وجه العز والكرامة بينما نفرغ إن شاء الله من تجهيز هذه الحركة السعيدة عن قريب وننصرف بسلامة إلى قصدها وسبيلها فنلتفت إليه حينئذ إن شاء الله في أغراضكم وأغراض السلطان دون أنطوان، ولكن بودنا أن تكتبوا لنا وتعرفونا بما عندكم في هذا الأمر وأيّ وقت عزمتم عليه لنكون على بصيرة فإننا وإياكم في هذا الأمر واحد. وبه وجب الكتب إليكم في يوم الجمعة تاسع عشر شعبان المكرم عام ثمانية وتسعين وتسعمائة.(10)

وفي أعقاب توصل المنصور برسالةٍ من أنطونيو، بعث إليه من مراكش بتاريخ 19 ذي الحجة 998 = 19 اكتوبر 1590 يخبره بأنه توصل بارتياح كبير بمبعوث الملكة ورسالة دون أنطونيو - وأنه ينتظر تزويد الملكة إليزابيث لقوّات أنطونيو بالقوات العسكرية لكي يبعث بوكيله الذي سيبقى إلى جانب الأمير أنطونيو حتى يتوصل هذا الأخير بما قدمه المنصور السعدي من مبالغ مالية مساعدةً لقضيته ويختم العاهل المغربي بذكر مشغلته الكبرى حول تصفية قضية أمبراطورية (سنغاي).

وفي أعقاب هذا بعثت الملكة إليزابيث إلى المنصور أوائل 999 = أواخر 1590 تشكره على الوعد بإعانة أنطونيو، وتؤكد خبر انهزام الأسطول منذ سنتين، كما توصيه خيراً بالأمير دون كريستوف (Don Cristophe) الذي وجهه والده أنطونيو رهينة إلى ملك المغرب مقابل المساعدة المالية... والذي كان وصل فعلاً إلى ميناء أسفي صحبة مبعوث من الملكة على ما عرفنا...

(10 Hopkins N° 5 p. 4

ولما كان فيليب الثاني أجلى حاميته عن الثغر المغربي، أصيلا عام 1589 أشيع أن المنصور يعتزم تسليم الأمير كريستوف إلى ملك اسبانيا مجاملةً له الأمر الذي استدعى توسل إليزابيث بالباب العالي للتدخل لدى المنصور لتسريح الأمير الشاب..![11]

وقد احتفظ الأرشيف برسالةٍ أخرى من أحمد المنصور إلى إليزابيث بتاريخ 16 جمادى الأولى 999 = 12 مارس 1591 تتلخص في أن الملكة كانت طلبت إليه أن يعيد الأمير (كريستوف) ابن أنطونيو إلى أنجلترا وانها تعتب عليه مماطلته في الكتابة إليها، فالعاهل يؤكد اعتذاره بالاستعدادات التي يقوم بها من أجل قصد السودان وهذا فقط ما استدعى تمديد مقام الأمير كريستوف بالمغرب، إن الملك لا ينسى وعوده بعون دون أنطونيو وأنه يعتزم التحدث إلى ولده محمد الشيخ ويبعث من بعد برسول إلى البلاط البريطاني...[12]

ومن جهة أُخرى فهذه رسالةٌ مرفوعة من وكيل أنجلترا بالمغرب لورانس مادوك (Laurence Madoc) مرفوعة إلى أنطوني داسيل (Anthony Dassel) بتاريخ 9 شتنبر 1594 يقول فيها : إنه رأى بعينه أربعين حملاً من تبر الذهب تدخل إلى مراكش، وأن تنبكتو التزمت بأداء اتاوة سنوية لا تقل عن ستين قنطاراً، وأن العاهل المغربي في طريقه أن يصبح أغنى ملك في العالم بأسره.[13]

وتأتي رسالة أُخرى من المنصور إلى إليزابيث بتاريخ 30 محرم 1005 = 23 شتنبر 1596 يتشفع فيها بطلبِ من خادمه خوان ذي مارشينا (Juan de Marchena) لصالح ولد أُخت هذا الأخير ألونصو نونيزدي هيريس(Alonso Nunez de Herres) المختطف من قادس كرهينة من قبل الإنجليز... ويعرض العاهل

---

11) أورد المؤلف البريطاني بيدجت ميكين (Budgett Meakin) في كتابه (Morish Empire) : المطبوع بلندن عام 1899 ص 337 صورة لخطاب قال : انه موجه من المنصور إلى اليزابيت، وهذا خطأ فإن الخطاب موجه من الباب العالي إلى جورج الثاني ملك بريطانيا حول عدوان وقع على تركيا من قِبَل روسيا في 17 ذي القعدة 1148 = أواخر مارس 1736 S.I.H.M. Pays - Bas T. 1. P. 224 تاريخ الدولة العلية ص 148.

12) H.I.H.M. Ang II, 68 Hopkins p. 5 - 6

13) H. De Castries : la conquéte du soudan par el - MANSOUR, Hesp 1923 P. 456 Note 1

المغربي أداء الفدية من عنده، ثم يطلب في الرسالة وثيقة أمان لصالح سُفن (Juan de Marchena) التي تبحر لحساب السلطان أحمد المنصور...

وبمقتضى رسالة من إليزابيث إلى المنصور... نجدها تهديه بعض المغاربة ممن تناهوا إليها لاجئين أو أسرى وتطلب إليه في المقابل تحرير بعض المواطنين الهولانديين : أنجيل وكاريل (Angel Adrianz et Karel Van Vingermey).

ونتيجة لتفكير فليب الثاني في أن يقيم أعوانه في أركَوين (ARGUIN) للاستيلاء على الذهب الذي يجعل المنصورَ أحد أثرياء ملوك الدنيا قام المنصور بعقد حلف دفاعي بتاريخ 9 ربيع 1005 = 31 اكتوبر 1596 مع الملكة إليزابيث وهنري الرابع ضد اسبانيا بمشاركة الولايات العامة المتحدة (هولاندا).[14]

سفارة هامّة من المنصور الذهبي في بَلاط الملكة إليزابيث الأولى 1600 = 1009 برئاسة عبد الواحد عنون

الهدف الحقيقي للسفارة ظلّ مكتوما ردحاً من الزمان...
لقد كان الطرفان يخططان للنزول في أمريكا والهند !!

وهذا حدث من الأحداث المطرفة في تاريخ العلاقات بين المملكة المغربية وبين المملكة الإنجليزية يكاد يعد ضرباً من الأساطير التي يتحدث الناس بها...

ملك المغرب بعد أن حقق نصره على البرتغال في وقعة وادي المخازن عام 986 = 1578، وبعد أن تخلص في الجنوب عام 1591 من حلف (سُنغاي - العَجَم)

14) Histoire du Maroc, Par Coissace de Chavrlière 1931 p. 388 – 839
انظر حديثا عن مشروع طوماس سوميرفيل لاحتلال السوس وعن خدوجة زعيمة المنطقة... كتاب ذهب سوس لرولان لوبيل، تعريب قاسم الزهيري ص 111، المطبعة الاقتصادية - الرباط - 28 - 2 - 55.

كما قد أُسميه ! أخذ يخطط لتحرير الثغور الشمالية واسترجاع الأندلس على نحو ما كتب به عام 1005 = 1596 إلى صاحب مكة والمدينة والحجاز وإلى قاضي القضاة بمصر...

وحتى يصل إلى هذه الغاية فكر في أن يعمل على إضعاف إسبانيا عن طريق فصلها عن ممتلكاتها سواء في الهند الغربية (أمريكا اللاتينية) أو في الهند الشرقية (الفيليبين وما والاها).

وقد كان مما شجعه في هذه الخطوات المكاتيب التي وصلته من الولايات العامة عن الحلف الثلاثي المبرم في لاهاي بتاريخ 31 اكتوبر بين فرنسا وأنجلترا والأقاليم المتحدة ضد اسبانيا...

ولما كان يربط ملك المغرب مع عاهلة أنجلترا من متين الصلات، ولما كان لأنجلترا من مصالح مشتركة مع المغرب، ولما كانت تتمتع به من أُسطول قوي... قرّر المنصور توجيه سفارته إلى لندن بقصد استمزاج رأي الملكة مشافهةً حول هذا الموضوع الخطير.

ولا شك أننا نعرف أن إسبانيا على هذا العهد كانت كلها آذاناً لما يروج في المنطقة، فعلاقتها بالمغرب علاقة حَذِرة يقظة، وعلاقتها بأصدقاء المغرب أيضا، وبخاصة أنجلترا، علاقة ترقّب وتربّص... ولكن مع كل ذلك... ومع كل الاحتياطات، فقد استطاع ملك المغرب، أن يضلّل إسبانيا وأن يوهم الرأي العام أن سفارته لم تكن للموضوع الذي ذكرنا ولكنها كانت تقصد إلى بلاد الشام وبالذات إلى ميناء الأسكندرونة : في حلب، بقصد شراء اللؤلؤ للخليفة المنصور !.

فعلاً حررت رسالة أُولى من المنصور إلى الملكة تحمل تاريخ 12 رمضان 1008 = 27 مارس 1600 على ما أشرنا إليه في المجلد الثاني من هذا الكتاب.

«... والذي أوجبه لمكانك المكين أنه سيرد على مملكتك خدامنا حملة هذا الكتاب الكريم الذين وجهناهم إلى حلب لقضاء بعض مآربنا...»[15]

15) اعتقد بعض «المؤرخين» أن القصد «بالكتاب الكريم» إلى مناهل الصفا !!!

هذا الكتاب الكريم والمدرج الجسيم صدر عن المقام العلي الإمامي
المولوي الهاشمي الحسني المنصوري دام إقبال دولته ولازالت جهات البسيط
مشرقة بأنوار معدلته إلى الإيالة التي لها في الأقطار النصرانية القدر الشامخ
المكان والعز الباذخ الثابت الأركان وللمكانة التي يعترف لها من أهل ملتها القاصي
والداني إيالة السلطانة الأصيلة الجليلة النبيلة الأثيلة الأميرة الخطيرة الشهيرة
السلطانة إزابيل لازال قدرها في الملل النصرانية عزيز الجناب سامي الأحساب أما بعد
فكتبنا هذا إليك من حضرة مراكش حاطها الله ومنح الله تعالى متصل الأمن
من جميع الأغوار والإنجاد ولله المنة هذا والذي أوجبه لمكانك المكين أنه يرد على مقامك
خدام لنا حملة هذا الكتاب الكريم الذي وجهناهم إلى حلب لقضاء بعض من مآربنا وما عن من
أغراضنا وقد اخترنا لهم أن يكون مرورهم على بلادك للمحبة التي بيننا وبينك والصلات
التي تقررت بين جنابنا وجنابك وحملناهم هذا الخطاب الكريم إلى مكانك المكين
بحيث أن تستوصوا بهم خيرا وتأنسنا في طلوعهم مع سفن بلادك إلى تلك الجهة وتوصوا
بهم أهل السفن ليستلزموا منهم ويعتبروهم لوصاتك في جميع أحوالهم كما نريد منكم
أيضا أن تعطوهم كتابك في أيديهم إلى تجار بلادك الذين يسافرون إلى تلك الجهة بأنه إذا
رجعت هذه السفن التي يطلعون فيها من قبل أن يستوفوا أغراضهم كل من وجده الحال
هنالك من سفن تجار بلادكم يحملهم حتى يبلغهم إلى مملكتنا الشريفة إن شاء الله تعالى ونوصي
عليهم في ذلك كله أجمل الإيصاء على نحو ما هو الظن بمكانك المكين واعلم أن الرهبان
الفلمنك الذين كتبتم فيهم لعلي مقامنا وكانوا في أسرنا ها هم يصلونكم صحبة حامله
وقد أمننا عليهم لأجل رغبتك ورعاية جنابك ثم إن جميع ما يكون لكم من الأغراض
في بلادنا وفي ممالكنا الشريفة وتحمل شأنه بعلي مقامنا فهو موفى ومتلقى عندنا
بالقبول والإقبال والرعي والاهتبال للمحبة والصداقة التي بيننا وبينكم وبهذا وجب
الكتب إليكم في ثاني عشر رمضان المعظم من عام ثمانية وألف

الخطاب الأول للسلطان أحمد المنصور الذهبي إلى الملكة إليزابيت الأولى حول تدبير عملية الإنزال العسكري في الهند الشرقية والغربية لضرب مصالح اسبانيا وهو بتاريخ 12 رمضان 1008 = 27 مارس 1600.

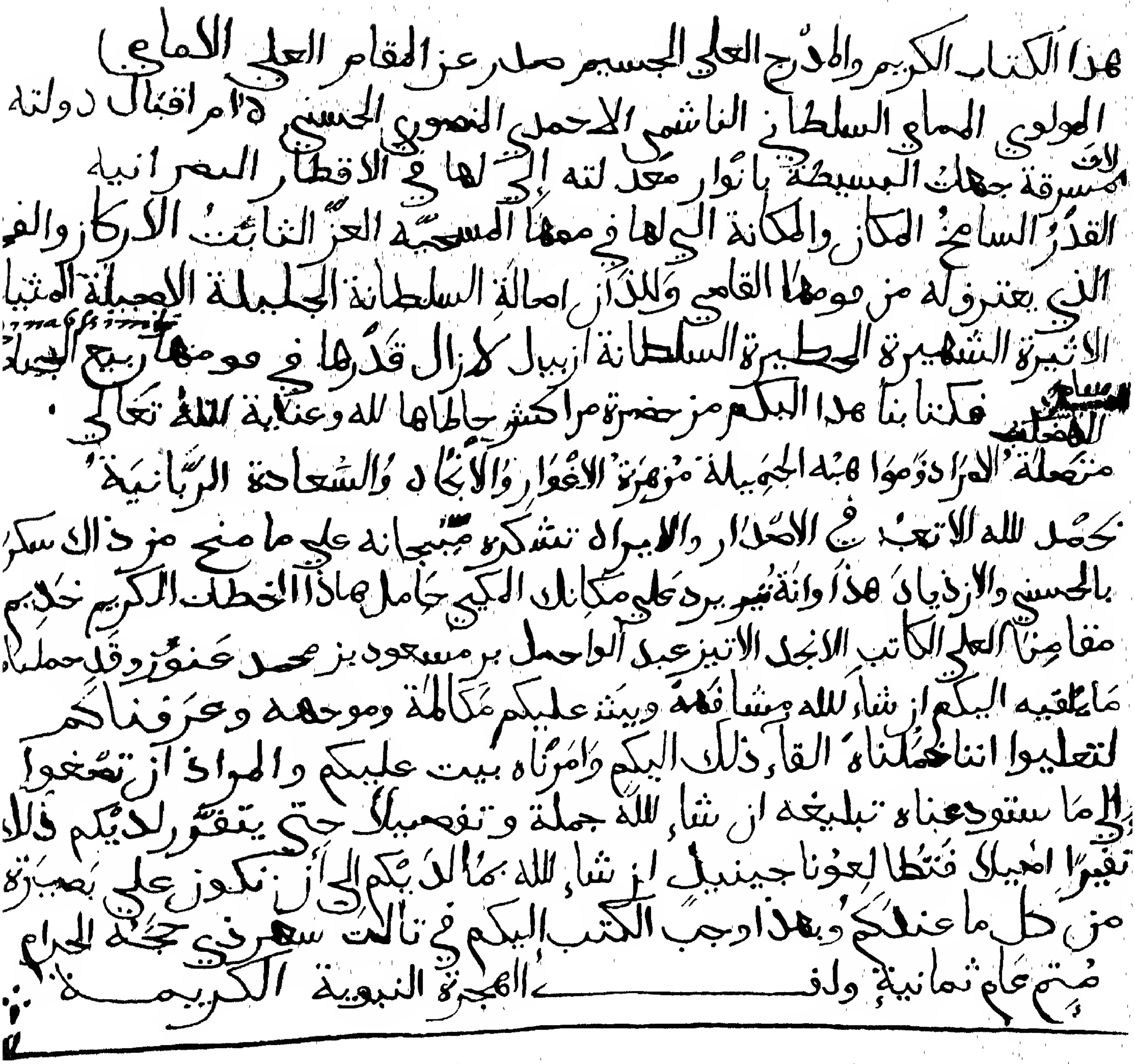
هذا الكتاب الكريم والمدرج العلي الجسيم صدر عن المقام العلي الامامي
المولوي الهمامي السلطاني الهاشمي الاحمدي المنصوري الحسني دام اقبال دولته
لات مشرقة جهات البسيطة بانوار معدلته الى لها في الاقطار النصرانيه
القدر السامي المكان والمكانة التي لها في ممها المسيحية العز الثابت الاركان والفـ
التي يعترف له من قومها القاصي والداني ايالة السلطانة الجليلة الاصيلة المثيا
الاثيرة الشهيرة الخطيرة السلطانة ازبيل لازال قدرها في قومها رفيع الجانب
فكتبنا اليها هذا اليكم من حضرة مراكش حاطها الله وعناية الله تعالى
متصلة المراد ودوما هبة الجميلة موفرة الاغوار والانجاد والسعادة الربانية
نحمد الله الا تعب في الاصدار والايراد نشكره سبحانه على ما منح من ذلك شكر
بالحسنى والازدياد هذا وانه ورد علينا بمكاننا المكي حامل هاذا الخطاب الكريم خديم
مقامنا العلي الكاتب الانجد الاثير عبد الواحد بن مسعود بن محمد عنون وقد حملناه
ما يلقيه اليكم ان شاء الله مشافهة وبينه عليكم مكالمة ومواجهة وعرفناكم
لتعلموا انا حملناه القاء ذلك اليكم وامرناه بيت عليكم والمراد ان تصغوا
الى ما سنودعناه تبليغه ان شاء الله جملة وتفصيلا حتى يتقرر لديكم ذلك
تقررا اجمالا فتطلعوا عليه ان شاء الله بما لديكم الى ان نكون على بصيرة
من كل ما عندكم وبهذا وجب الكتب اليكم في ثالث شهر ذي حجة الحرام
متم عام ثمانية والف من الهجرة النبوية الكريمة

الخطاب الثاني للمنصور حول الموضوع بتاريخ 3 ذي الحجة 1008 = 15 يونيه 1600، ويظهر من أُسلوب الخطابين أن المنصور اعتمد في نسخهما على كاتب خاص إمعاناً في كتم الأسرار وتعمية الأخبار.

لقد كانت البعثة تتألف من السفير عبد الواحد عنون،[16] ومن الحاج الماسي المعروف بتخصصه وخبرته في تقويم الاحجار الكريمة، الأمر الذي زاد في إقناع المهتمين بأن القصد إلى عملية لؤلؤ !!

ويمضي رمضان وتمضي معه أيام شوال وذي القعدة في انتظار الاتصالات اللازمة بعد أن جرى حديث تمهيدي في مراكش بين القائد عزوز وبين السيد جاسير طومسون (J. Tomson)، إلى أن تحرر رسالة اعتماد بتاريخ 3 ذي الحجة 1008 = 15 يونيه 1600.[17]

لقد أصبح على السفارة إذن أن تغادر بلاد المغرب إلى أنجلترا...

ولا بدّ أن نذكر من الآن أنه ـ تقريباً ـ في نفس الوقت الذي كانت السفارة المغربية تستقبل من طرف الملكة إليزابيث الأولى في لندن، بعث السفير الإسباني في المغرب خوان دي مارشينا (J. de marchena) بتاريخ أول شتنبر عام 1600 إلى دون دي مدينة سيدونية (D. M. Sidonia) يؤكد أن السفير المغربي عنون راح إلى الشام عبر لندن لشراء الجوهر لسيده المنصور..!

لقد وصلت البعثة الدبلوماسية إلى ميناء دوفر (Dover) يوم ثامن غشت 1600، وكانت تضم علاوة على عنون والماسي، الحاج بَاحماد ميمون والترجمان عبد الله بودار كما أسلفنا...

وقد انتظرت البعثة حتى يوم 25 غشت حيث أخذت طريقها نحو العاصمة مصحوبة بالفارس المارشال السيد طوماس جيرار الذي يرافقه عدد من كبار الأغنياء الذين لهم صلة تجارية أو اقتصادية بالمملكة المغربية...

وهناك في لندن أقاموا على مقربة من رويال إيكشينج (Royal Exchange) في بيت السيد راطكايف (Ratchiffe) عضو المجلس التشريعي.

وقد كان يوم 30 غشت = 19 صفر 1009 موعداً لتقديم أوراق الاعتماد إلى جلالة الملكة، وقد تم ذلك في نانسوتش (Nensuch) حيث كانت القصر الملكي.

---

16) ربما رسم اسم (عنون) هكذا : العنوري وهو خطأ Hop 1953 P. 517

17) S.I.H.M P. 157 Hopkins P. 8

وقد استقبلت السفارة المغربية للمرة الثانية يوم 20 شتنبر من طرف جلالة الملكة في مقر إقامتها في (أوتيلاندس - Oatelands)... وكانت اسبانيا في هذا التاريخ قد توصلت بتقرير سفيرها عن مهمة عنون في بلاد الشام ولذلك فإنها في غاية الاطمئنان..!

لقد بلّغ الدبلوماسيون المغاربة وبصفة بالغة السرية النوايا الحقيقية لجلالة ملك المغرب حسبما تكشف عنه المذكرة التي أعدتها الحكومة الإنجليزية في هذا الصدد بتاريخ 23 شتنبر 1600 وفقا للبيان الشفوي الذي أدلى به السفير المغربي عبد الواحد عنون «إن المغرب - يقول المنصور - فتح أمبراطورية بأسرها في غينيا تحتوي على ست وثمانين ألف قرية، وإن جنوده يتحملون المناخ الصعب الذي قد يواجههم في الهند».

وقد كان الوزير اللورد روبير سوسيل (R. cecil) يصحب معه تلك المذكرة ليدرسها بإمعان في أوقات فراغه وليقدر العروض المغربية والغير المنتظرة التي تقدم بها المنصور الذهبي !

ولقد تحدثت الملكة إليزابيث إلى وزيرها طويلاً حول مشروع ملك المغرب ! وكانت تتصور مدى فعاليته وهو على مقربة من إسبانيا، وتتصور مدى مساعدته في الهند، وقد عرفت عن بلاء جنده في تخوم إفريقيا.

إنها على كلّ حال تفضّل البدء بافتتاح الهند قبل استرجاع الأندلس على نحو ما كان يراه وزيرها سوسيل..!

وحسب المصادر التاريخية المغربية فإن السفير المغربي عبد الواحد عنون ظل يكاتب المنصور الذهبي طوال الشهور التي قضاها في لندن، وظل يحرر مذكراته حول المهمة ليس عن طريق الأسلوب المعتاد المقرؤ ولكن بواسطة الطريقة المرموزة : (الشّيفرة) أفلم نسمع عن ابتكار المنصور في هذا الصدد أو لم نقرأ عن ممارسة عنون كذلك لهذا النوع من المخاطبات ؟ لقد كان خطّاطاً ممتازاً وكان مبرزاً في علم الهيئة وفي التنجيم إضافة إلى تكلّمه باللغة الإسبانية...

ويستقرّ الرأي في لندن على أن تفوض جلالة الملكة لممثلها في المغرب هنري برانيل (H. Brannell) أن يواصل التفاوض مع المنصور الذهبي، فما من

الحكمة أن يتجاوز مثل هذه المحادثات صعيد الحديث السري... (رسالة جلالة الملك بتاريخ 20 اكتوبر 1660).

ومن الطريف أن نجد العاهلة الإنجليزية تتجاوب مع العاهل المغربي في موضوع تعتيم أخبار هذه السفارة الهامّة، فقد اعتذرت إليه كتابة عن عدم تمكنها من تزويد سفيره بالمركب الذي يقصد حلب نظراً «لموانع خطيرة» كما تقول الرسالة...

وأطرف من هذا أن نجد المنصور ـ بعد عودة سفارته إلى المغرب ـ يجيب إليزابيث بخطابٍ خاص بتاريخ 23 شعبان 1009 = 27 يبراير 1661 يعرب فيه عن شكره للاستقبال الذي خصّص لسفيره، بل ويقبل «العذر» الذي أدلت به جلالة الملكة عندما لم تقدم مساعدتها للبعثة المغربية..!

لقد بلغ العاهل المغربي ما أولته جلالة الملكة من تكريم خاص لسفراء جلالته عندما أحلتهم جميعا من مقعد الشرف بقصر (وايت هول) (White Holl) يوم 27 نونبر الذي كان يصادف عيد جلوس الملكة على العرش...[18]

يظهر أن المنصور اقتنع أخيراً بوجهة نظر إليزابيث القاضية بالاستعداد للهند أولاً... وهكذا أخذ يخطط لإدارة الهند بعد أن يتم فتحها ! وهل إن الإدارة ستكون مشتركة بين المغرب وأنجلترا أم أن الإدارة ستكون من اختصاص المغرب... وعلى أي أساس يكون اقتسام موارد الهند... إنه يستطيع أن يقوم بدوره في الهند سيما وهذه البلاد تجاور عدداً من الأمم التي تدين للإسلام والتي ستؤيده دون شك على حدّ تعبير الخطاب الملكي...[19]

18) Hopkins P. 8 – 9

19) كان من مهمات عنون استقدام بعض الأُساتذة الأنجليز كما تشهد بذلك رسالة بهذا التاريخ يتحدث عنها أليكساندر جيل A. Gill بعنوان : (Bror Danielsson and ARVI Gbrieson) وقد سجلت بعض المذكرات أن في جملة ما كانت تهتم به السفارة، معرفة أسعار البضائع والمواد وخاصة السكر الذي يصدره المغرب إلى أنجلترا، كما أن من بين ما عنيت به، اقتناء كرة أرضية وأدوات علمية واسطرلابات، لقد اتصل عنون فعلاً بإدوارد رايت : (E. Wright) الذي أطلعه على سر بعض الآلات وعرض عليه صنع أدوات من النحاس والفضة، على أن يترك مكاناً فارغاً للكلمات والأرقام العربية حتى تملأ بالمغرب حسبما يراه عنون الذي كان متخصصا في علم التنجيم... لعلّ الأمر يتعلق بأجهزة وبوصلات مثلاً تساعد على اختراق الصحراء من طرف القوافل التي يبعثها المنصور دورياً إلى السودان، من مراسلات السفير المغربي بالدانمارك الأُستاذ عبد الهادي الصبيحي الذي نجدد الشكر له على مساعدته.

إنه حديث يكاد يكون ضرباً من الأساطير التي نسمع بها على ما قلنا منذ البداية...[20]

☆ ☆ ☆

ويعتقد أن آخر رسالة منه إلى الملكة هي التي كانت من مراكش بتاريخ 13 محرم 1011 = 3 يوليه 1602 والتي يخبرها بأنه بأمر منه فإن التاجر جوهن واكمان (John Wakeman) زود برخصة لشراء ونقل طائفة من البضائع في أسفي : وهذا نصّ الرسالة التي كانت مصحوبة بترجمةٍ إنجليزية من عمل عبد الرحمن إسقاطه (؟) (ABRUGMAN ESCATA).

وقد كانت آخر رسالةٍ من الملكة إلى السلطان المنصور قبيل تاريخ 3 أبريل 1603 تلتمس منه تحرير أحد المواطنين البريطانيين يدعى كورنيليس جانسن (CORNELIS JANSON).[21]

وقد عاجلت الموتُ كلا من الملكين فقد توفيت هي في مارس 1603 وتبعها المنصور في غشت من نفس السنة، ومن خلال استعراض سائر الوثائق التي سجلت أثناء فترة تعايشهما نلاحظ أن العاهلين كانا يعتمدان في علاقاتهما على الرسائل والالتزامات المتبادلة أكثر مما اعتمدا على اتفاقية تعقد أو معاهدة تبرم حسب ما جرى عليه العرف بين الدول...

---

20) راجع الرسائل التي نشرها Hopkins.

21) يوجد مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك/278 يتضمن عددا من الرسائل السعدية إلى عدد من الدول ونرى من المفيد هنا أن نشير إلى بعضها مما نظن أنه يتعلق بالعلاقات المغربية الإنجليزية، وهكذا نجد رسالة يخبر فيها (أنجلترا ؟) حول رهط الأندلس الذين أجلوا عن بلادهم... «ان الملوك وإن اختلفت مللها وتباينت في أديانها قد تتحد من أجل مصالحها المشتركة... إن كانت البرتغال قد تصامّت عن ضياع بلادها فلسنا نحن بغافلين.. عندنا ثلاثون ألف جندي... عرفناكم لما لكم من الجوار وتقارب الديار..! (ص 18 ـ 19 20 من المخطوط)... ونجد رسالة حول ترتيب الهجوم على قشتالة شريطة أن يكون للمغرب فيها نصيب... نحتاج إلى سفن..! (ص 195 ـ 196 ـ 197) ورسالة يستجيب فيها العاهل المغربي لمطلب من أنجلترا : «وما طلبتم من رسم كتبنا الكريمة إليكم بكتابة النصارى فها نحن قد أسعفنا فيها رغبتكم ورسمناها بخط صاحبكم... ص 199... ورسالة إلى الدوك (؟) : حوائجكم مقضية ما لم يمنعنا من الشرع مانع أو يزعنا من الدين وازع... ص (190 ـ 191)... ورسالة إلى الكوندي موريس... عندكم سفير هنا لم يراع الأصول ومع ذلك قابلناه... (ص 32 ـ 33)...

ولما انتهت أيام المنصور السعدي مرت البلاد بفتراتٍ قلقة... إلى أن استطاع السلطان المولى زيدان أن يأخذ بناصية الأمور ويحتل دار ملك ولده : قصر البديع بمراكش....

☆ ☆ ☆

ومن جهة أخرى فقد كان من بين التقارير المرفوعة إلى جيمس الأول ملك بريطانيا الجديد تقرير لهنري روبيرتس سالف الذكر يغري فيه العاهل البريطاني باحتلال المغرب، بمساعدة هولاندا، قبل أن يقع في يد الأتراك الذين يتربصون الدوائر بالمغرب لكن أنجلترا كانت تدرك جيداً صلابة عود المغاربة في الدفاع عن كيانهم كما كانت تقدر مصالح القوى الأوروبية الأخرى وتنافسها على ثروات المغرب.

ومع أن الحالة بالمغرب لم تعد على ما كانت عليه عهد المنصور السعدي، فإن بريطانيا لم تلبث أن استأنفت صلاتها بعاهل المغرب، وهكذا نقف على بعض المراسلات بين جيمس الأول وبين السلطان المولى أبي فارس عبد الله الملقب بالواثق بالله بالرغم من قِصَر مدة حكم هذا الأخير حيث نجد جيمس يهنئه باعتلائه العرش، كما نجده يشير إلى «حاجة الذهب» التي كانت حملت إلى السلطان المنصور وظل ثمنها محل مناقشة.[22]

... كما نجد مراسلة بين أبي فارس وبين أنطوني تشير لي بتاريخ 10 جمادى الثانية 1014 = 23 اكتوبر 1605 يرحّب به ويخبره بأنه يبعث إليه من يصحبه إلى مراكش حيث يستقبله بصفة رسمية...

وبعد اختفاء أبي فارس نقف على جملةٍ من المراسلات أيضا بين جيمس وبين السلطان زيدان تناولت عدداً من الموضوعات التي تهم البلدين...

وقد ورد في رسالة بتاريخ 18 ربيع الثاني 1018 = 21 يوليه 1609 صادرة من مراكش ما مضمنه أن بعض التجار البريطانيين حصلوا على كمية من السكر سطا عليها الإسبان، لقد اشترى هذا السكر من مولاي زيدان نفسه عن

22) عن هذه الرسالة أجاب الواثق برسالة تحمل تاريخ 18 جمادى الثانية 1013 = 11 نونبر 1604 Hopkis/9

طريق تعويض، فإذا لم يقم جيمس الأول بتسديد التعويض للعاهل المغربي فإن التجار البريطانيين يتعرضون للمقاطعة التجارية...[23]

كما ورد في رسالة للملك جيمس الأول حملها إلى المغرب في شهر ماي 1610 جوهن هارسون (John Harison) ما يشير إلى بعض الأشياء التي يشكو منها التجار الإنجليز في الثغور المغربية، وعلى سبيل المثال ذكر أن بعض التجار عوملوا معاملة سيئة من موظفي الديوانة في أسفي حيث استولوا منهم على جوهرة ذهبية كانت معهم...

وقد رد السلطان مولاي زيدان على هذه الرسالة بأخرى مؤرخة بثاني محرم 1020 = 17 مارس 1611 أوضح فيها أن عادة المغاربة معاملة التجارة جميعا بالعدل، وشرح الملابسات المتصلة بموضوع الشكوى فإن التجار البريطانيين في أسفي حاولوا إخفاء هذه الجوهرة لكي يتهربوا من «تعشير الأمناء» ومن المعلوم أن من «أخفى سلعته تكون لبيت المال لأنه سارق» ! وأكثر من هذا فإنهم حاولوا تهريب الذهب إلى خارج البلاد دون علم منا بذلك، ومعاذ الله - يقول السلطان - أن يكون بممالكنا - على اتساع مساحتها، ظلم أو يتطرق إليها حيف !!

لكن العاهل يقول فيما بعد : فإن راجعتمْ علاءنا وكاتبتم مقامنا في شأن أولئك التجار بعد أن ثبتت عندكم هذه الحقيقة فإننا لانردّ لكم فيهم شفاعة... وفي نهاية الخطاب يطلب العاهل المغربي من ملك أنجلترا أن يرسل إليه بعض الفنيين لإصلاح بعض المدافع المعطلة عنده....

وقد احتفظ الأرشيف الإنجليزي بنص رسالة ثانية من مولاي زيدان إلى جيمس الأول حررت بوادي تانسيفت أواخر شوال 1023 = 24 نونبر 1614 حملها جوهن هاريسون (John Harison) السفير الذي ورد من جيمس صحبة وكيل السلطان في هولاندا صويل بالاش (Samuel Pallache) حاملاً أيضاً تأييد أنجلترا للمولى زيدان أثناء مقاومته لتمرّد ابن أبي محلي، وقد أجاب العاهل المغربي مخبراً بأن الثورة أخمدت أنفاسها وان مثل هذه الأحداث بالنسبة للملوك والحاكمين مناسبة لتجديد أواصر المودة والتحالف فيما بينهم، وأن المطالب المقدّمة من طرف هاريسون باسم مليكه

(23 S.I.H.M Angl T. II. P. 418 Hopkins 10.

استمع إليها باهتمام وأن السفير الإنجليزي عهد إليه سلطان المغرب بحمل رسالةٍ شفوية للملك جيمس...

لقد اتسمت العلاقات بين زيدان وأنجلترا بالتعاون الجادّ من أجل حل المشاكل العارضة، ولكنه تعاون لايهدف لبديل السطو... وهكذا نجد زيدان في جوابه للثائر يحيى بن سعيد الحاحي يعيّره بأنه لو كان يريد من أنجلترا خمسمائة ألف مثقال لما ترددت هذه في دفعها له...[24]

وقد احتفظ الأرشيف البريطاني برسالةٍ من شارل الأول إلى مولاي زيدان بتاريخ ما بين 27 مارس و 1 يونيه 1625 يعيد فيها إلى الذاكرة الرسائل المكتوبة سابقاً من قبل جيمس الأول ومن قبل ملك فرنسا لصالح عدد من الأسرى الإنجليز[25] والفرنسيين ويعرب عن الرغبة في أن تستمر علاقات الود بين المغرب وبريطانيا... ويتخلص خطاب شارل إلى طلب اعتماد سفيره جوهن هاريسون الذي عهد له بمهمة خاصة.

كما احتفظ برسالة من جوهن هاريسون لمولاي زيدان بتاريخ مابين 13 يونيه و 30 يوليه 1625 يقول فيها : «إن الوقت حان لكي ينجز مولاي زيدان وعْده بالانضمام لبريطانيا ضدّ اسبانيا !

☆ ☆ ☆

وفي أواخر عهد السلطان زيدان كانت الحالة الداخلية في البلاد بلغت حالاً من التدهور لسبب المنافسة المستمرة بين بني المنصور، تلك المنافسة التي استغلّتها الدول الأوروبية ذات المصلحة لتمزيق البلاد واستغلال ثرواتها، واستغلتها كذلك من جهةٍ أُخرى بعض الزعامات التي رأت أن مصالح المغرب تتعرض للخطر بسبب تلك الخلافات...

لقد أصبح المغرب مرة أُخرى مملكتين : مملكة بمراكش ومملكة بفاس... وبين هذه وتلك ظهر بعض القادة الذين يقصدون حسب اجتهادهم إلى تخليص البلاد من العدوان الأجنبي المتوالي على الثغور...

---

24) كان من الثوار أحمد بن عبد الله السجلماسي الذي أرخ بعضهم بدايته ونهايته بالحروف الأبجدية في هذه الكلمة اللاذعة : «قام طَيْشاً ومات كَبْشاً» يعني أنه تمرد سنة 1017 ومات 1022.

25) الاستقصاء 6، ص / 49.

ولما لم تكن الدول الأُخرى مهتمةً بغير ضمان مصالحها، والاطمئنان على رعاياها نرى بعضها لا يتردد في مدّ يده لكلّ من ظهر نفوذه وصلب عوده في أي جهة من جهات المغرب ولما لم يكن هدف الزعماء إلا أن يثبتوا أقدامهم على المواقع التي يخشون عليها من الضياع فإنهم بدورهم لم يترددوا في الاستجابة لبعض الجهات الأُروبية لتزويدهم بالمساعدة في مقابلة تسهيل مهمة تلك الجهات...

☆ ☆ ☆

وإن بعض المدن المغربية أصبحت حوالي سنة 1017 = 1609 وطناً ثانياً للأندلسيين المهاجرين (الموريسكوس) الذين حملوا معهم مرارة الآلام التي عانوها وهم يطردون من وطنهم الأَصلي على حالٍ من الظلم والحيف والتمزق.

وهكذا استقر بعضهم في تطوان حيث عاشوا تابعين للسعديين أحياناً ولزعامة سلا حيناً وشبه مستقلين حيناً آخر..!

لكن الذين استقروا منهم في مدينة الرباط، وفي القصبة التي تقع ظاهر المدينة لم يلبثوا ـ بعد أن كانوا تحت طاعة مراكش ـ أن أخذوا يتمردون على أوامر السلطان زيدان، وقد ظهر ذلك عندما حموا جانب العياشي زعيم سلا المتابَع من قبل زيدان..!

بل إن المقيمين منهم بالمدينة لم يلبثوا أن أعلنوا انفصالهم عن مراكش مولّين عليهم رئيساً جعلوه مسؤولاً أمام مجلس مختار لمدة محدودة يقع تجديده بطريق الانتخاب، وقد تبعتهم في ابتكارهم القَصَبة، فنصبت لها رئيساً جعلته مسؤولاً أمام مجلس كذلك حوالي 1040 = 1630.

وقد احتفظ كلٌّ من الرئيسين في البداية بالعلاقات الطيبة مع السلاويين الذين كان نفوذهم يمتد إلى تطوان، بل إنهما وقد اعترفا بسلطة السلاويين ـ كانا يساعدان السلاويين في تحركاتهم لتحرير الثغور، وفي اعتراض مراكبهم للسفن الأَجنبية..!

لقد غنم الحلف الأندلسي السلاوي في ظرف عامين أربعين سفينة، واستولى فيما بين سنة 1618 وسنة 1626 على زهاء ستة آلاف أسير..!

وهكذا نعرف السر في اتجاه شارل الأول ملك بريطانيا أواخر 1626 إلى مخاطبة ود زعماء سلا ـ الرباط،[26] وإرسال سفيره المعروف جوهن هاريسون (John Harison) للتفاوض من أجل افتكاك الأسرى وإقامة علاقات مع زعماء البلاد مما نجد تفاصيله في موسوعة الكونت دوكاستري...

> **إلى من يهمه الأمر !**
>
> ولم تكن صلة السلاويين بالبلاط الإنجليزي مما يرضي الدولة السعدية... ومن هنا وجدنا الأمير عبد الملك بن زيدان يوجه بعثةً إلى أنجلترا حسبما تفيده وثيقة تحمل تاريخ أول رجب 1037 = 7 مارس 1628، كانت بمثابة ورقة اعتمادٍ للبعثة موجهة : «إلى مَن يهمه الأمر !» وقد أحببنا أن نلفت إليها النظر هنا، نظراً لكونها أهملت من لدن كلٍّ من دوكاستري وروجرز وقد أوردها هوبكينس : «يتمسك بهذا الخطاب المولوي خديمنا الباشا أحمد بن عبد الله، الذي عيناه ـ كما يجب أن يعلم الجميع ـ لمقابلة الملك جورج (كذا) ليتحدث إليه في أمورٍ تهمنا ومسائل كلفناه بها... والمطلوب من رجال الدولة بالمملكة الإنجليزية استقباله استقبال السفراء، والاعتراف به وتشريفه، وهو يهدف لدعم الصداقة الموجودة بيننا وبين الإنجليز من قديم الزمان أنجح الله مسعاه...».

وتتوالى الخطابات والسفارات بين سلا وشارل الأول من أجل المصادقة على «اتفاقية» حتى يمكن التغلب على بعض المصاعب الطارئة، ونجد كذلك من بين المراسلات ما كان بتاريخ 30 يونيه 1629 من عبد الله بن أحمد النّقسيس حاكم تطوان الذي لم يخضع للعياشي حاكم سلا إلا عام 1041 = 1631 عندما سلط على تطوان قائده سليمان بن يوسف ![27]

إن النّقسيس الموالي لمملكة فاس السعدية يحمّل جيل بين (Giles Penn) رسالة لشارل يخبره فيها بأنه يرحب بالإنجليز في ميناء تطوان، وأنه يرسل إليه بهدايا فيها الصقور والخيول الأمر الذي أجاب عنه شارل شاكراً مشجّعا. وطالبا

---

26) نشير هنا للأسطورة المعروفة (روبانسون كروزي) التي يتحدث صاحبها عن وجود هذه الشخصية ضمن الأسرى الذين قضوا ردحاً من الزمن في مدينة سلا Barbur : Marooc : p. 110.

27) كان سليمان بن يوسف في جملة من كاتبوا شارل الأول من تطوان بتاريخ 30 مارس 1632 باسم العياشي يخبره بمعاملته الحسنة للرعايا البريطانيين وذلك عندما علم سليمان أن شارل كان قد كتب للنّقسيس قبل تصفيته يوصيه خيراً بالإنجليز.

المزيد من الصقور المغربية، وهكذا بعث النقسيس بجملة أُخرى من الصقور فيها بعض من أصل رفيع مجلوب من مدينة نبلة (Niebla) الأَندلسية[28]

إن شارل يعيش فترة يوازن فيها بين القوّى الظاهرة في البلاد... فهو ما يزال يتردد في المصادقة على «اتفاقية» مع السلاويين... وهو مايزال يذكر أن بالمغرب ملكاً من سلالة السلطان المنصور حليف الملكة إليزابيت...

☆ ☆ ☆

ويتحرك في إيليغ ساحل السوس بالجنوب المغربي[29] زعيم آخر يكاتبه شارل شاكراً له تحرير الأَسرى الإنجليز فيجيبه المرابط أبو حسون (سيدي علي) الذي نصّب نفسه نائباً مستقلا للسلطان هناك وكان الجواب بتاريخ 8 صفر 1040 = 16 شتنبر 1630، لقد أخبره بأنه توصل برسالته وأنه بدوره يرغب في تحرير سائر الأَسرى المسلمين الموجودين بأنجلترا وخارجها، وأنه في مقابلة ذلك سيضمن مصالح وحياة الإنجليز الذين سوف لا يتعرضون لأَي نوع من الأَسر في منطقته طبقاً للشروط المتفق عليها بين أنجلترا والملوك المغاربة المتقدمين..

إن كلّ تلك الاتصالات الإنجليزية بالزعماء الانفصاليين لم تغب عن بلاط مراكش الذي كان يحتج عليها باستمرار، وهذا دون شك ـ ما دعا شارل إلى مفاتحة الوليد بمجرد اعتلائه العرش مهنئاً طالباً تحرير الأَسرى أيضا... الأَمر الذي أجاب عنه العاهل المغربي بتاريخ 7 جمادى الثانية 1041 = 31 دجنبر 1931 برسالةٍ إلى شارل يخبره بأنه توصل بالرسالة التي بعثها إليها مع جوهن هاريسون بتاريخ 19 ذي الحجة 1040 = 19 يوليه 1631 والتي يعرب فيها شارل عن رغبته في الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة التي دشنها الجدود، إلا أن العاهل المغربي لم يفته أن يلاحظ ـ وهو يحتفظ بالأسرى الإنجليز ـ أن رعايا الملك يتجرون مع سيدي على (أبو حسون) ومع عدد من المتمردين الآخرين، وان شارل إذا كان يرغب حقيقة

---

28) دوكاستري ـ السعديين الإنجليز سلسلة أُولى مجلة III ص 88.

29) يراجع هنا كتاب جليل ألفه شيخنا الراحل محمد المختار السوسي رحمه الله، تحت عنوان : «إيليغ قديماً وحديثاً» وقد هيأه للطبع وعلق عليه الزميل الأُستاذ محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية الرباط ـ 1386 = 1966. وفي هذا الكتاب نقف على علاقات إيليغ مع هولاندا وإنجلترا وفرنسا ساعد المؤلف في ترجمتها الزّميل الراحل الأُستاذ أحمد بناني رحمه الله.

في إقامة السلام بين البلدين فإن عليه أن يمنع رعاياه من التجارة في السلاح مع الانفصاليين !

وهذا ما يفسر تفكير أنجلترا في إعداد مشروع لاتفاقية بين المولى الوليد وبين شارل الأول حرر بمدينة مراكش فيما بين 16 نونبر 1631 وبراير 1632...

وبعد هذا يبعث الوليد إلى شارل الأول من مراكش بتاريخ أواسط صفر 1044 = 27 يوليه 24 غشت 1634 يخبره بأنه توصل من جورج فيرنون (George Vernon) بالرسالة التي بعث بها إليه شارل الأول وأنه مرتاح من مطالبه، وأنه لم يتمكن من إرسال سفير لديه ليبلغ شارل جواب العاهل على الرسائل التي حملت إليه من طرف هاريسون، ويتخلص للتأكيد على أنه سيكون ممنوناً لشارل إذا ما منع الإنجليز من تقديم المواد الحربية لعدوه...(30)

وكانت مناسبة تربع السلطان محمد الشيخ الأصغر فرصةً لكي يبعث شارل بالتهاني والهدايا وخاصة بعد أن أقدم الملك الجديد وبالتماس من (روبير بلاك) على تحرير عدد من الأسرى الإنجليز حسبما تفيده رسالة من مراكش إلى شارل بتاريخ 10 جمادى الثانية 1046 = 9 نونبر 1636، وهكذا وصل إلى المغرب إيدموند برادشاو (Edmond Bradshaw) واستقبل من السلطان محمد الشيخ الذي رحب باستمرار العلاقات الودية مع أنجلترا واعداً بتيسير مهمة الرعايا البريطانيين الذين يرتادون الموانئ المغربية حسبما تفيده رسالة محمد الشيخ المؤرخة بثالث محرم 1047 = 27 مايه 1637.

وفي الوقت الذي كان فيه الأميرال ويليام رينسبورو (W.Rains borough) يقوم بمهمته مع العياشي حاكم سلا الذي كان يساعد على حصار الأندلسيين(31) كان

(30) H.I.H.M. Angl.T. 3 P. 93

(31) في إطار المهمة المسندة إلى الأميرال كتب إلى العياشي بتاريخ 25 يوليه 1637 يعرب عن أسفه لكون مفاوضاته مع الأندلسيين لم تسفر عن نتيجة وان هؤلاء يقصدون ربح الوقت حتى يغادر الأسطول مياه أبي رقراق... وأنه يبعث إليه بشخصين ليحيطاه علما بالأحداث، وقد كان مما طلبه إلى العياشي أن لا يسمح بتسريح القراصلة الملتجئين إلى الساحل إلا إذا سرحوا ما تحت يدهم من الإنجليز الأسرى وأنه سوف يقوم بكل ما يراه العياشي ضرورياً متخلصا للقول بأن القوة وحدها هي التي تنفع مع الأندلسيين» !!

إيدموند برادشاو على صلة مع محمد الشيخ الأصغر، وهكذا نجد رسالة من هذا الأخير إلى شارل وأنه خصص للسفير الإنجليزي كلّ ضروب الترحاب والتكريم أثناء مقامه بمراكش وأن العاهل المغربي يشجع عودة العلاقات الودية الموجودة بين البلدين منذ القدم، وأنه قد أصدر أمره بتسهيل مهمة التجار الإنجليز كما أصدر أمره بتسوية سريعة للقضية التي يسندها برادشاو أمام القضاء الإسلامي...

ولم يلبث شارل أن عقد اتّفاقية مع محمد الشيخ الأصغر بتاريخ ثاني جمادى الأولى 1047 = 22 شتنبر 1637 تضمنت واحداً وعشرين **فصلا** أوردت نصها موسوعة (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب (أنجلترا م 3 ص 328).

☆ ☆ ☆

وفي اليوم الموالي للاتفاقية المغربية الإنجليزية (أي في يوم 3 جمادى الأولى 1047 = 23 شتنبر 1637) أجاب السلطان محمد الشيخ الأصغر شارل الأول على رسالةٍ سابقة يحيطه علما فيها بأنه حرر فعلا سائر الأسرى الإنجليز الموجودين بمملكته، وأنه إضافة إلى ذلك قام بإرسال مبعوث من لدنه إلى أهل الرباط صحبة التاجر الإنجليزي روبير بلاك وقد حررا فعلاً سائر ما وجدوا هناك من الأسرى، ولتأكيد أواصر السلام بين الدولتين فإنه أي العاهل المغربي بعث بسفارةٍ إلى البلاط الإنجليزي يكون على رأسها القائد الشهير جوذر بن عبد الله[32] صحبة التاجر بلاك الذي يوصي شارل به خيراً نظرا لما قدّمه من مساعدة للمغرب...

لم تكن سفارة القائد جوذر فقط لتأكيد السلام ولكنها كانت أيضاً لمفاتحة أنجلترا في طلب المساعدة البحرية لكي يتمكن السلطان محمد الشيخ من كَيْل الصاع صاعين لخصومه الذين يستعينون على التشغيب ضده في الجزر المتوسطية شمال المغرب، بالقوّى الأجنبية كذلك...

وتحتفظ الوثائق الإنجليزية على الخصوص بوصف شامل[33] لزيارة القائد جوذر بن عبد الله الذي وصل إلى كنت (Kent) في 8 اكتوبر 1637 على ظهر السفينة البريطانية (Leopard) حيث التحق بلندن ليستقبله الملك شارل يوم 5 نونبر 1637 في حفل بهيج دعى له الخاصة وكبار رجال الدّولة، وقد كان من

---

32) S.I.H.M Angl. T 3 P. 336 Hopkins P. 14, Rogers : p. 32.

33) الوثيقة تحمل تاريخ 7 دجنبر = دوكاستري الإنجليز السعديين سلسلة أولى مجلد ثالث ص 372.

هدايا المغرب للملك شارل عدد من الصقور والخيول والسروج المطرّزة بالذهب مع ركابها الذهبية كذلك، ولم تغادر البعثة المغربية لندن إلا يوم 21 مايه 1638 عندما صحبهما إلى المغرب القابطان ويليام جير (Welliam) الذي رافقته ثلاث سفن حربية لتساند السفن الموجودة فعلا في الساحل المغربي، وقد أجاب شارل عن هدايا ملك المغرب بهدايا تتكوّن من عربة (كوتشي) وسبعة خيول ورسم للملك شارل وزوجته ماريا إلى تحف أُخرى فيها 134 قطعة من القماش الإنجليزي الرفيع وثلاثون قطعة من القماش الهولاندي.

وقد تمت أثناء مقام جوذر في لندن المصادقة على الاتفاقية المغربية الإنجليزية.

وإذا كان الفرق بين بنود الاتفاقيتين واضحاً فإننا سنسجل أن الاتفاقية المبرمة في لندن تنص بالخصوص على :

تناسى الطرفين لكل خلافات الماضي ـ إنشاء علاقات ودية ـ عقاب كل بادرة للحقد تبدو من أحد الطرفين ـ منع الاسترقاق على كلا الطرفين ـ يمنع العاهل المغربي على السلاويين أن يطاردوا السفن البريطانية وسائر السفن المسيحية التي ليست في حرب مع العاهل المغربي، حرية التجارة بالنسبة للإنجليز وحرية العبادة ـ موافقة السلطان على إنشاء شركة تجارية إنجليزية بالمغرب عدم اعتماد أي عقد يلتزم فيه مواطن إنجليزي إلا إذا حمل توقيعه، حماية سائر الأموال التابعة للرعايا البريطانيين الذين يلجئهم الحال إلى المغرب... يمنع ملك بريطانيا على رعاياه سائر المعاملات مع المتمردين على السلطان، كما يساعد المغرب على منع الدول الأُخرى من الاتجار المحظور مع الشواطئ المغربية، على السلطان أن يعوض الخسائر التي تلحق القوافل إذا كان هو الذي عيّن حاميتها ـ إرجاع الأموال والممتلكات التابعة للبريطانيين الذين أدركهم أجلهم بالمغرب ـ حرية إرجاع أموال التجار الإنجليز إذا ما أرادوا العودة لبلادهم لا يكون في استطاعة السلطان أن يستولي على بواخر أو ممتلكات تابعة لتجار إنجليز دون تعويض ـ في حالة نشوب حرب بين الجانبين أو حالة خسارة لحقت من أحد الجانبين للجانب الآخر فإنه لا مجال للانتقام العشوائي من التجار ووكلائهم أو ممتلكاتهم...

وقد بعث شارل الأول قبل نهاية مايه 1638 رسالة لمولاي محمد الشيخ الأصغر يخبره بأنه توصل بمبعوثيه جوذر بن عبد الله وروبير بلاك وأنه عيّن بعثة للتفاوض مع الوفد المغربي حول اتفاقية للسلام والتجارة صادق هو عليها. وعهد لبلاك بمباشرة التعديلات، إنه يشكر السلطان على تحريره الأسرى الموجودين بمراكش والرباط وأنه يعيد إليه السفير جوذر على متن بارجة حربية مع القوات الكافية لسحق كلّ مقاومة قد تظهر في الساحل المغربي ضد العاهل المغربي. ان جوذر وبلاك سوف يُطلعان السلطان محمد الشيخ الأصغر بتفصيل على محتويات الاتفاقية...

وفي أعقاب التقرير الذي رفعه القائد جوذر عن تفاني روبير بلاك في الدفاع عن وجهة نظر السلطان محمد الشيخ الأصغر اقتضى نظر هذا الأخير أن يعين الشخصية المذكورة ممثلة لمصالحه التجارية في لندن وهو ما نجد أثراً له في «رسالة الاعتماد» التي بعثها محمد الشيخ الأصغر إلى شارل الأول يعتمد فيها روبير بلاك (Robert Black) بتاريخ 14 ربيع الأول 1048 = 26 يوليه 1638.[34]

وقد أرسل السلطان محمد الشيخ الأصغر إلى شارل رسالةً أُخرى يوصي فيها بروبير بلاك بتاريخ 22 جمادى الثانية 1048 = 31 اكتوبر 1638 على ما نقرأه في المصادر الأروبية.[35]

ثم بعث العاهل في 28 جمادى الثانية 1048 = 6 نونبر 1638 رسالة يؤكد فيها بدوره مصادقته على الاتفاقية. ويخبره بأنه قد أرسل بعثة إلى لندن برئاسة القائد محمد بن عسكر[36] ليشرح للملك موقف العاهل المغربي من المطامع المتزايدة على المملكة، ويطلب عدداً من الزّاد الحربي، ثم يبعث برسالة أُخرى بتاريخ أوائل ربيع الثاني 1049 = 1 10 غشت 1639 إلى شارل

34) إذا كان دوسونيفال (De Cenival) وكوصي بريساك (C. Brisnac) أهملا الظهير الذي وجهه محمد الشيخ الأصغر إلى «من يهمه الأمر» بتاريخ 13 ربيع الأول 1048 = 25 يوليه 1638، فإن هوبكينس أتى بنص هذا المرسوم الذي يؤكد صداقة العاهل المغربي المذكور لعاهل الإنجليزي شارل الأول.

35) S.I.H.M. Angl T.3. P 430.

36) S.I.H.M Ang T. 3 P. 823

يشكره على الاستقبال الذي خصّصه لسفيره ابن عسكر بالرغم من العودة الطارئة للسفير، وأخبر العاهل البريطاني بأن لا أساس من الصحة لما قيل من أن الإنجليزيين الواردين على المغرب لم يتمكنوا من بيع بضائعهم وأن ادعاءاتهم حول الموضوع غير صادقة... ومن جهةٍ أُخرى فإن العاهل المغربي يسجل مرة أخرى التزام شارل الأول بمنع المواطنين الإنجليز من الاتجار مع المتمردين على السلطة المركزية.

وأخيراً نعثر على رسالةٍ للعاهل المغربي المذكور: **محمد الأصغر إلى شارل الأول تحمل تاريخ 4 رمضان 1050 = 20 دجنبر 1640، وهي من الوثائق التي** استدركها هوبكينس (ص 16 ـ 17 ـ 18) على مجموعة وثائق لم تنشر (S.I.H.M.).

وهي تقول حسب الترجمة :

إن الهدف من كتابة هذه السطور هو إخبارك أننا توصلنا برسالتك التي تقول إن خادمك (Robert Blake) قد ترك عدداً من الخيول في ميناء آسفي، لهذا تطلب من خدامنا أن يسمحوا لخيولكم بمغادرة الميناء على متن سفينة. في هذا الشأن يمكن أن نؤكد لكم أن (Blake) قد كان كاذباً عندما أعلن أنه قد ترك خيولاً في الميناء، وتأكدوا أنه لم يترك حتى واحداً منها. إن هذا لا يعبر عن شيء بقدر ما يعبر عن انعدام الصفات والأخلاق الحميدة لديه، إنه عندما وصل إلى هذا البلد من أجل التجارة قدّم لنا مساعدة ونصائح وأكد أنك تأمل في عقد هدنة معنا من أجل استمرار العلاقات التي بدأها أجدادكم وذلك حتى يلتزم التجار القادمون إلى موانئ الخصم مثل حصن المنكب[38] وإلى شواطئ سلا وتطوان بعدم الدخول إلى بلد الخصم، كما أن الهدف الأساسي من هذه الاتفاقية هو العمل على

38) القصد إلى أكادير إغير ؟ وقد ورد اسم (حصن المنكب) أيضا في رسائل سعدية التي نشرها عبد الله كَنون ص 227 والجدير بالذكر هنا أن لفظ المنكب يضبطه هُوبكينس (Hopkins) بضم الميم وفتح النون وتشديد الكاف ويجعل أمامه كتفسير له كلمة (Almunécar) التي يطلقها الإسبان على الموقع الذي حل فيه عبد الرحمن الداخل لأول مرة... كذلك يضبطه وليس بفتح الميم وتسكين النون وكسر الكاف كما قد يفهم من بعض الكتابات والإفادات الشفوية، وهذا ما يؤيد ما كنت قلته في مهرجان (المنكب) من أن اسم المكنب في المغرب توأم لما يوجد في الأندلس...
المختار السوسي : إيليغ، تعليق محمد الروداني، ص 167/166 د. التازي : أكادير إيليغ محاضرة بكلية الآداب بأكادير يوم 10 ـ 4 ـ 1986.

جمع السجناء الإنجليز وإرسالهم إليكم، وتبعاً لذلك فإننا قد قمنا بإرسال كل السجناء الذين تبقوا في حوزتنا والذين كانوا في سلا مع خادمنا الوفي الباشا جؤذر الذي بقي في حضرتكم وقتاً من الزمن إلى أن رجع ومعه رسالة تحمل الموافقة على هذه الاتفاقية وشروطها كما كانت في الماضي. لقد جاء (Blake) بصفته مبعوثا لسيادتكم، وبعد قضاء بعض الوقت معنا والمصادقة على الاتفاقية رجع ومعه خادمنا الوفي القائد محمد بن عسكر حاملاً رسالة تتعلق بموضوع الأسلحة والأمتعة، ولما رجع إلينا كان يحمل جواباً منكم أشرتم فيه أنكم كنتم في ذلك الوقت في حملةٍ مما جعلكم تفوضون أحد خدامكم لتنفيذ ذلك، ونتيجة لذلك جاء (Blake) إلى ميناء آسفي ورفض النزول مس السفينة، وكتب إلينا يطلب إرسال أحد الأشخاص من أجل التحدث معه، لهذا قمنا بإرسال أحد خدامنا الذي عقد معه لقاءاً وبالتالي حمل إلينا رسالتكم التي أشارت إلى ما تم إرساله إلينا من طرفكم من أمتعة وأسلحة، لكن (Blake) قال : إنه لا يستطيع تفريغ السفينة من حمولتها قبل أن يحصل على أجر هذه الشحنة، وبعبارة أخرى يجب إعطاؤه مقابل هذه الشحنة 150 غرارة من القمح، فكان جوابنا أنه من الصعب إعطاء المقابل بالقمح، واقترحنا عليه إعطاء المقابل بالنقود، فكان جوابه بالرفض وبقي على هذه الحالة بضعة أيام إلى أن طلب مرة أخرى أن نعطيه المقابل : 15.000 أوقية. فقبلنا ذلك وقمنا بإرسال ما طلب. لكن مع ذلك فقد سألنا التجار الإنجليز الذين كانوا معنا عن مبلغ هذه الشحنة فأكدوا أن أكثر ما يمكن إعطاؤه مقابل ذلك هو 7.000 أوقية ! ومع ذلك أعطيناه 15.000 أوقية في المجموع. وبذلك واصل (Blake) عمله لتسوية ما يتعلق بالشحنة المفرغة لعدة أيام، وبعدها ترك الميناء بدون أية كلمة للوداع ! لقد تأثرنا لتلك التصرفات الصادرة من (Blake) وبالرغم من أنه مبعوثكم فإننا نطلب من سيادتكم أن تكونوا حذرين معه وتعملوا على الاطلاع على كل الرسائل الموجهة إلينا من طرفه خلال الفترة التي كان فيها موجوداً بالميناء، فكل الرسائل التي حملها إلينا من طرفك في حوزتنا وتلك الرسائل الموجهة إليكم من طرفنا توجد في حوزته وسيطلعكم عليها. ويوجد في رسالتكم المشار إليها أن مبعوثكم سينزل ما في السفينة ويلتقي بنا بطريقة لائقة. لكن مع الأسف لم يعمل بما جاء في رسالتكم حيث رفض أن ينزل ما في السفينة كما ذكرنا سالفا رغم أننا عاملناه

معاملة حسنة ولبينا كل مطالبه عند زيارته لنا في المرة الأخيرة : تلك المطالب التي لم تنفذ لأي أحد غيره قد نفذت له. ولما قدم مع خادمنا الباشا جؤذر أكد أنه أنفق عليه خلال فترة إقامته معه ما يقابل 18.000 أوقية، كما أنه أجر سفينة لتحمله هناك مقابل 60.000 أوقية. ولقد أعطيناه كل ما طلب نقوداً وقمحاً وريشاً وسكراً. أما فيما يتعلق بالاتفاقية التي صادقنا عليها والتي تتعلق بمشكل السفن والتي تحث على عدم الدخول إلى موانئ الخصم، فإنه لم يتم احترامها كما لم يتم احترام ما جاء في رسائلك بهذا الصدد، وهكذا استمروا في الدخول إلى موانىء الخصم..! وقد أدهشنا ذلك ولهذا نطلعكم عليه من أجل أن تكونوا على علم كامل بما حدث. كما نود أن نشير هنا إلى أن الأسلحة المبعوثة من طرفكم عرضت للبيع من طرف من جاء بها وذلك في حصن المنكب وموانئ أخرى. وفي الأخير نتمنى أن نتوصل بجواب منكم فيما يخص هذه القضايا ولهذا السبب كان من الضروري أن نكاتبكم في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ألف وخمسين.

☆ ☆ ☆

وتتميماً للحديث عن العلاقات البريطانية المغربية نذكر هنا أنه عندما قتل الشيخ العياشي بتاريخ 9 محرم 1051 = 21 أبريل 1641 من طرف حلفائه السابقين من الدلائيين بحجة أنه أهدر دماء الأندلسيين عند ذلك سعت أنجلترا لعقد اتفاقية مع زعيم الدلاء المرابط محمد الحاج الذي أمسى صاحب الكلمة في فاس وسلا وتطوان، كانت الاتفاقية شبيهة بالاتفاقيات السابقة مع سائر الذين «أهلوا أنفسهم» لعقد الاتفاقيات من الزعماء الظاهرين...

☆ ☆ ☆

علاقات المغرب مع الطوسكان
بين فاس وفلورانس
على عهد الدولة السعدية...

- □ المصادر التي تتحدث عن صلة المغرب بإيطاليا...
- □ بين فاس وفلورانسا على عهد السعديين.
- □ وثائق مغربية في فلورانسا.
- □ رسالة أُولى من محمد الشيخ المامون إلى الملك فيردينان الأَول.
- □ رسالة ثانية إلى الملك المذكور.
- □ أهمية الخطابين بالنسبة للمرحلة التي كان يعيشها المغرب.
- □ دوقية طوسكانا تهنئ العاهل المغربي وتُهاديه بتشكيلةٍ من الكريسطال...
- □ العاهل المغربي يتدخل لتأمين أحد رعاياه اليهود...
- □ رسم الرسالتين التاريخيتين...

علاقات مملكة المغرب
مع دوقية الطوسكان
أو علاقات فاس مع فلورانسا
على عهد الدولة السعدية...

بالرغم من أن سائر المصادر سواء منها العربية أو غيرها اقتصرت على الحديث عن علاقات السعديين بمن أسلفنا من الأُمم... فقد وجدتُ في أرشيف الدولة بفلورانسا بعض الآثار التي تدل على وجود صلات بين الدولة السعدية وبين دوقية فلورانسا التي أخذت منذ عام 1569 ـ بتشجيع من البابا بيي (Pie) الخامس ـ اسمَ الدوقية الكبرى لطوسكانا....

وهكذا عثرنا ـ من بين الوثائق العديدة التي لها صلة ببلاد المغرب ـ على رسالتين اثنتين مرفوعتين من حاضرة فاس إلى كَراند دوكة دي تُسكانة فيرديناند الأول.

الأُولى تحمل تاريخ شهر ربيع الأول 1013 = غشت 1604، أي بعد سنةٍ من تمكن أحد أبناء السلطان أحمد المنصور من مدينة فاس : ونعني به مولاي محمد الشيخ الملقّب بالمامون.

والثانية تحمل تاريخ أواخر جمادى الأُولى 1013 = اكتوبر 1604... أي بعد نحو من شهرين أو ثلاث على الرسالة الأُولى، وهي كذلك محررة بالعاصمة فاس...

وقبل أن نعرف عن موضوع الخطابين النادرين نحب أن نشير إلى الأهمية البالغة لهما بالنسبة لتاريخ الفترة الدقيقة للبلاد التي شهدت تنافس أبناء المنصور على الحكم، والتي لم يكن أحد يعرف، ـ على ما يبدو ـ عن الصلات

المبكّرة للشيخ المأمون بدول الحوض المتوسط، وعلى سبيل التعيين : إمارة أو دوقية طوسكانا.

ومن قراءة الرسالة الأُولى يظهر أن الذوق الكبير لطوسكانا بعث يهنئ الشيخ المأمون بجلوسه على كرسي الحكم بفاس في أعقاب وفاة والده، وقد صحبت هذه التهنئة طائفةٌ من الهدايا الثمينة التي هي من اختصاصات الإقليم، موائد من العود الرفيع، وجرار من البلاّر (الكريستال) الذي عرفت به إيطاليا... فالعاهل المغربي يشكر الذوق الكبير على هداياه التي كان لها وقع كبير لدى المأمون...

أما عن الرسالة الثانية فعلاوة على أنها في شقّها الأول تجدد الشكر والامتنان لذوق طوسكانا الكبير... إلا أنها مع ذلك تكشف لنا عن بعض المعلومات الجديدة، ويتعلق الأمر بطلب إعطاء «التأمين» لأحد رعاياه اليهود يحمل اسم يهوذا لولو مع ثلاثة من أصحابه....

والمهم أن نعرف أن العاهل المغربي يطلب أن يصله ذلك «التأمين» بالطرق الدبلوماسية «على يد خدّامكم الذين بطاعتنا» وكان الغرض من طلب هذه «الحماية» ضمان تحرك المبعوثين المغاربة في حال كونهم في البحر، «حمايتهم من قرصلة قد تهددهم» من سفنكم وأهل طاعتكم...

وهذا نص الرسالة الأُولى :

هذا الكتاب الكريم والمدرج العلي الجسيم، صدر عن المقام العلي الإمامي المولوي الهاشمي السلطاني الحسني المأموني المنصوري وصل الله له اطّراد عوائد الإقبال وسوابغ العوارف المنثالة في البكر والآصال إلى المكانة المعظمة التي لها المزية، والحظوة المكينة، والمنزلة الراسخة الرصينة، المعظّم في رتبته، الرفيع قدره في أهل ملته، مكانة المكرّم الأثير الأصيل الأرفع الأشنع المرعى، الأنجد الأمجد، المكين الأوجه، الغرندّوكة ذي تسكانة أبقاه الله تعالى مرفوعاً، ولأمره مستطيعاً مسموعاً، أما بعد فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا الفاسية حرسها الله تعالى وصنع الله تعالى متّصل الإمداد، مزهر الأغوار والأنجاد، هذا والذي أوجبه إليكم، أنجدكم الله، على شأن ما انتهى لمقامنا العليّ من جميلكم في مسألة ما بعثتم لمقامنا العلي صحبة خدامكم من المايدة والبواقل البلاّر، قد جاء ذلك على

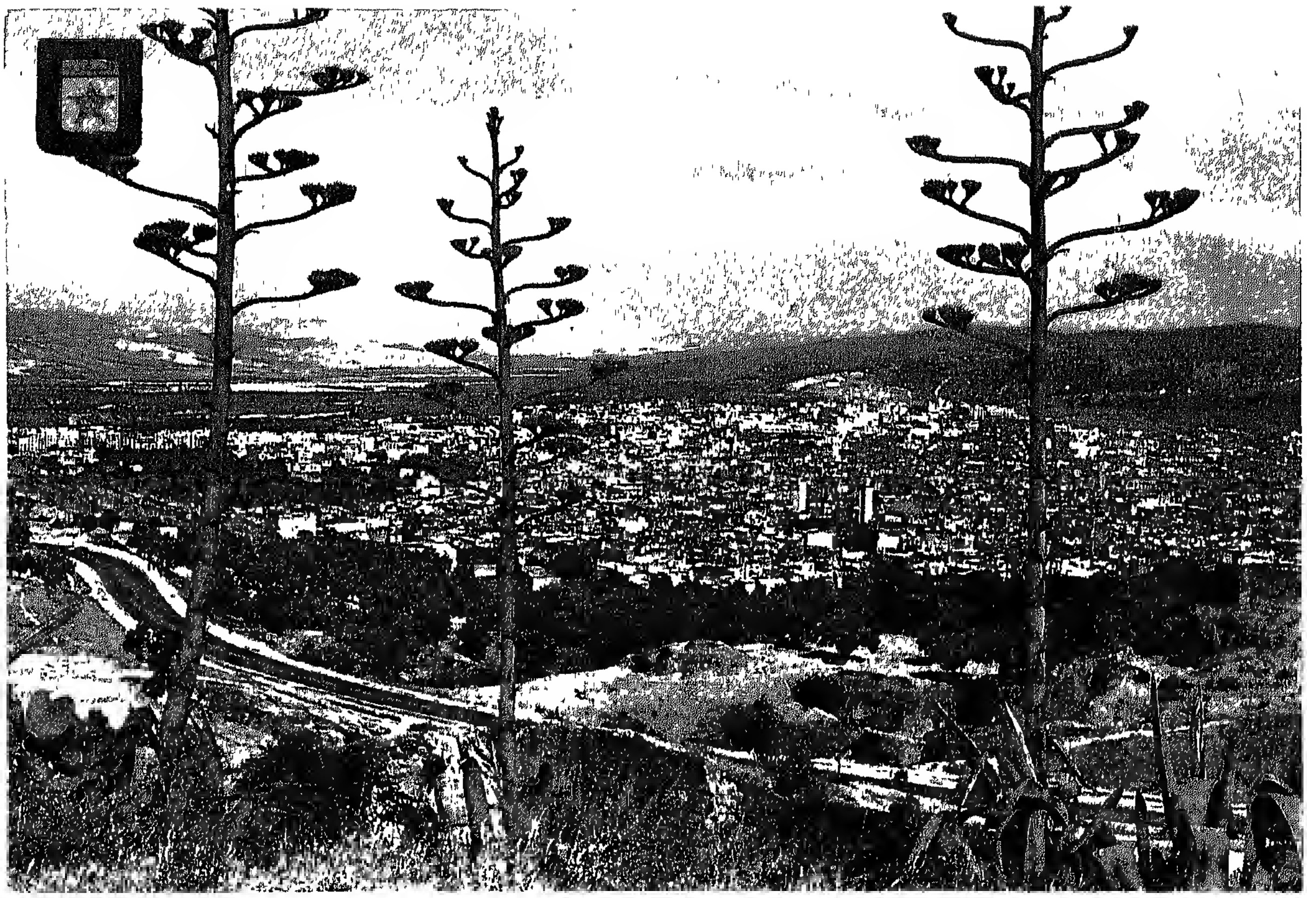

صورة مدينة فاس

صورة مدينة فلورانس

خاطرنا، على حسن المراد وأليق بالاعتقاد، وعلى غرضنا في أحسن حال، ولاق ذلك بمقامنا العلي غاية، وأنهى نهاية، فبارك الله فيكم وجوزيتم عنا خيراً، تحققنا وفهمنا عنكم، أنجدكم الله، من أجل هذا الجميل خلوصَ المحبة، والعقيدة المخلصة، في جنابنا العالي حماه الله، فأنتم لدينا أنجدكم الله، بمنزلةٍ رفيعة ومكانةٍ كبيرةٍ شنيعةٍ، وجمع هؤلاء الحوائج الذين (كذا) أتونا من أيديكم ما لهم (كذا) بمقامنا العلي شيء يساويهم : ثمن ولا غيره، فهم بمقامنا العلي من أكبر الذّخائر التي نراعوا ؟ بهم محبّتكم ومكانتكم الرفيعة عندنا ولا نزال نراعوا ؟ لكم هذا الجميل على الدوام، وليكنْ في علمكم ومنتهى اعتقادكم أن جميع ما يكون إليه احتياجكم وأغراضكم بملكنا، وما احتوت عليه طاعتنا على أيّ وجه كان وتعيّن تبعثوا لمقامنا العليّ بالإعلام بكيفيته يقضي لكم إن شاء الله على حسن المراد والاعتقاد، بأعزّ ما عندنا، وإن جميع خدامكم وكل ما يأتي من جنابكم بسطنا عليهم وقرنا وحرمنا وجلباب عنايتنا، فلا يخشون في الله لومةَ لائم، فيقضون أغراضهم في ملكنا وطاعتنا كيف شاؤوا وحيث شاؤوا وبالنا معهم في حال ورودهم وصدورهم فلا ينالهم بعون الله وقوته عدى ما يتطرق سماعكم من عمل الخير مراعة (كذا) لوجوهكم، فتهنّى، أنجدكم الله، منهم ومن أغراضكم وأغراض الذين من جانبكم، فسنعاملوهم جميعاً بكل خير وجميل ولا تلحقهم إذاية ولا ضرورة من كل أحدٍ بوجهٍ من الوجوه كلّها، حيث حلوا ونزلوا، ولهم ما يناسب محبتكم لمقامنا العلي من الأمان التام والتوقير العام، فثق بهذا أنجدكم الله وكن منه عن حقيقة وصفاء نية واعتقاد.

والله يرعاكم وهذا ما أوجبه، وكتب في شهر الله ربيع النبوي المبارك من عام ثلاثة عشر وألف.

وهذا نص الرسالة الثانية :

هذا الكتاب الكريم والمدرج العِلي الجسيم، صدر عن المقام العلي الإمامي المولوي الهاشمي السلطاني الحسني المأموني المنصوري وصل الله له اطراد عوائد الإقبال وسوابغ العوارف المنثالة في البكر والآمال، إلى المكانة المعظمة التي لها المزية، والحظوة المكينة، والمنزلة الرائعة الرصينة، المعظم في رتبته، الرفيع قدره في أهل ملته، مكانة المكرم الأثير الأصيل الأرفع الأشنع المرعى الأنجد

الأمجد المكين الأوجه الغرندوكة ذي تسكانة أبقاه الله تعالى مرفوعا ولأمره مستطيعاً مسموعا.

أما بعد : فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا الفاسية حاطها الله وصنع الله تعالى متصل الامداد، مزهر الأغوار والأنجاد، هذا والذي أوجبه إليكم، أنجدكم الله، على شأن ما انتهى لمقامنا العلي من جميلكم في مسئلة ما بعثتموه صحبة خدامكم من المايدة وبواقل البلار، فقد جاء ذلك أنجدكم الله على خاطرنا على حسن المراد وأليق اعتقاد، وعلى غرضنا في أحسن حال، وأتم مآل، ولاق ذلك بمقامنا العلي غاية، وأنهى نهاية. فبارك الله فيكم وجزيتم عنا خيراً، تحققنا وفهمنا عنكم أنجدكم الله من أجل هذا الجميل خلوص المحبة والعقيدة المخلصة في هذا الجناب العلي، حماه الله، فأنتم لدينا أنجدكم الله بمنزلة رفيعة ومكانة كبيرة وجميع هؤلاء الحوائج الذين (كذا) أتوا من أيديكم ما لهم (كذا) بمقامنا العلي شيء يساويهم ثمن ولا غير، فهم بمقامنا أكبر الذخائر التي نراعوا بهم (كذا) محبتكم ومكانتكم الرفيعة عندنا ولا نزال نراعوا (كذا) لكم هذا الجميل على الدوام، وليكن في علمكم ومنتهى اعتقادكم أن جميع ما يكون إليه احتياجكم وأغراضكم بملكنا وما احتوى عليه من طاعتنا على أيّ وجه كان وتعين، تبعثوا لعلي مقامنا عليه يقضى لكم إن شاء الله على حسن المراد والاعتقاد بأعز ما عندنا، وأن جميع خدامكم وكل من يأتي من جنابكم الرفيع بسطنا عليكم حرمنا ووقرنا وجلباب عنايتنا فلا يخافون في الله لومة لائم، يقضون أغراضهم في ملكنا وطاعتنا كيف شاؤوا وحيث شاؤوا، وبالنا معهم في حال ورودهم وصدورهم بحيث لا ينالهم بعون الله وقوته عدى ما يتطرق سماعكم من عمل الخير مراعة (كذا) لوجهكم فتهنّى (كذا)، أنجدكم الله، منهم ومن أغراضكم وأغراض خدامكم والذين من جانبكم فسنعاملهم إن شاء الله جميعاً بكل خير جميل ولا تلحقهم إذاية ولا ضرورة من كل أحد بوجه من الوجوه كلّها، حيث ما حلّوا ونزلوا ولهم ما يناسب محبتكم لمقامنا العلي من الأمان التام والتوقير العام فثق بهذا أنجدكم الله وكن منه عن حقيقة وصفاء نية واعتقاد.

وقد أردنا أنجدكم الله أن تبعثوا لمقامنا العلي كتاباً من خطكم بالآمان على شأن خديمنا المسمى يهوذا بن لولو وثلاثة من أصحابه على يد خدامكم الذين

بطاعتنا يتأمنون به في حال كونهم في البحر من مّا يلاقون ؟ من سفنكم وأهل طاعتكم ويتحصنون به من عوائقهم وإذايتهم، وإذا صادفوا فتنةً هنالك أو هربوا من العدو وخرجوا في طاعتكم يكون به عليهم الأمان التام ولا يجروا عليهم شيئاً بأمانكم وهذا موجبه إليكم والله يرعاكم وكتب في أواخر جمادى الأولى من عام ثلاثة عشر وألف.

إن أهمية هاتين الرسالتين المرفوعتين من مولاي الشيخ إلى دوك طوسكانا تبدو جليةً عندما نقرأ المصادر الأوربية وبخاصة موسوعة الكونط دوكاستري، عن أن مولاي المأمون كان يعتزم في ظرفٍ لاحق من الظروف العصيبة التي مرّ بها أثناء الحروب الأهلية التي صدمت الإخوة فيما بينهم من أجل الحكم، أقول : كان المامون يتهيأ، وقد بلغته الاستعدادات الحربية لأخيه أبي فارس، للالتجاء إلى أوربا بواسطة سفينة تابعة للدوق الكبير في طوسكانا.[1]

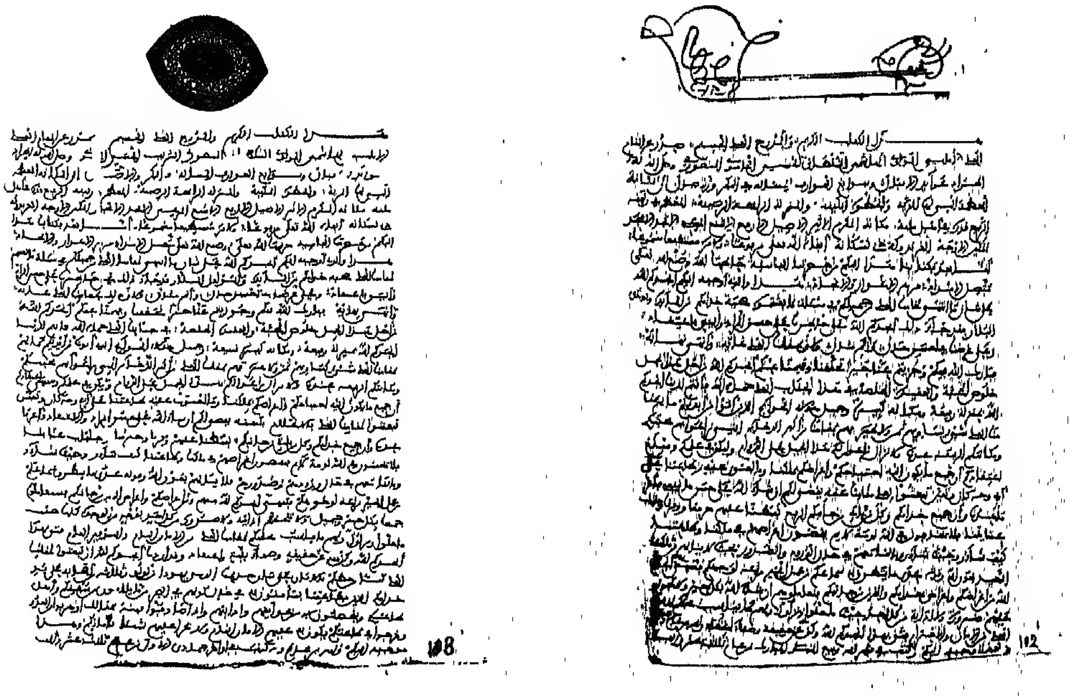

رسالتا ملك فاس إلى حاكم فلورانس

(1 Antony Sherley et le Maroc 1606 (S.I.H.M) – Angletère, T. II p. 301

علاقات المملكة المغربية
مع باقي ممالك إفريقيا...

- □ موقف المغرب من الوجود العثماني في إفريقيا.
- □ التنافس بين الممالك في إفريقيا السوداء.
- □ استقبال سفير ملك بورنو في بلاط فاس.
- □ محاولة أحمد المنصور مع امبراطور كاغو.
- □ توالي الرسائل بين المملكتين الإفريقيتين : المغرب وكاغو.
- □ المنصور يثير أمام مجلس الشورى قضية وجود «العجم» في الممالك المجاورة !
- □ تجهيز الأسطول السعدي.
- □ بين تقرير ميلتشيور بيطوني وجواب المنصور السعدي.
- □ الرسائل الأخيرة قبل الصدام، حديث التاريخ عن نهاية أمبراطورية سنغاي...
- □ الشعر العربي يخلد الأحداث التاريخية.
- □ الرسائل السعدية إلى بعض الملوك والأمراء في إفريقيا الغربية : داوود كانته.

علاقات المغرب ببلاد السودان على العهد السعدي...

كان في الإمكان أن تظل صلات المغرب الأقصى بممالك السودان على نحو ما كانت عليه أيام بني مرين وبني وطاس من بناء الأمر على ما عهد من تبادل البعثات الدبلوماسية وإرساء الجسور الودية لولا أن حدثاً هاماً جد على الساحة الدولية، ونعني به من جهةٍ تسابق الاستعمار الأروبي، لعدد من البقاع في العالم، كان فيها المراكز التي وصلها البرتغال على ساحل الأطلسي... ومن جهة أخرى فقد اقترنت هذه الفترة بظهور العثمانيين الذين أنسابوا في المنطقة في محاولةٍ لتحقيق مكاسب أكثر، ويخطئ تاريخياً من يعتقد أن هدف الأتراك كان يقتصر في إفريقيا على السيطرة على السواحل المتوسطية فقط، فقد كانوا يخططون - وهذا ما تؤكده الوثائق - للتوغل داخل الممالك الإفريقية وبالتالي لوضع قدمهم على ساحل المحيط الأطلسي على حساب السعديين الذين يعتبرون أنفسهم الوارث الشرعي للحكم.

لقد كانت العقبة الكئود التي تقف أمام جيوشهم لتحقيق تلك الأمنية، تتمثل في عدة عوامل، فمن ناحية نراهم ينهزمون أمام قسوة الصحراء... ومن جهةٍ ثانية نراهم ينشغلون مع بعض الدول الأروبية التي صمدت في وجه المد التركي، ومن ناحية ثالثة فإن المملكة المغربية هي الأخرى، وبالرغم من مساندتها للأتراك فيما يتعلق بالدفاع عن حوزة الإسلام، كانت تقف بالمرصاد للعثمانيين إزاء محاولتهم التسرب إلى المملكة المغربية شمالها وجنوبها...

ولعلّ ما يمر بنا من فصول سواء في علاقات المغرب مع تركيا أو علاقاته مع بعض الدول الأوربية الأخرى يكفي وحده لتصور الموقف على حقيقته، كما يكفي أيضا لإدراك أبعاد ردود الفعل المغربية حيال ذلك الموقف... فقد علمنا الكثير عن تتبع بعض لبعض وفهم بعض لبعض، فأولئك كانوا يصرون على «تتريك» البلاد جميعها، وهؤلاء كانوا حريصين على «تعريب» مشمولاتهم.

ويمكن أن نستشف ذلك التنافس المتبادل بين الفريقين من خلال التقارير والمذكرات التي كان يكتبها السفراء المغاربة عن الإيالات العربية التي زاروها، وهم في طريقهم إلى الباب العالي، كما نستشفها من خلال الرسائل السعدية التي كانت ترفع إلى قادة الفكر سواء في الشام أو مصر أو الحجاز... هذا إضافةً إلى القصائد الشعرية التي كانت تلهب الحماس وتبشر بالوصول الوشيك لأقاصي بلاد المشرق بما فيها مصر ودمشق وبغداد وعمان قاعدة الخليج..!

وهكذا فإن السعديين بقدر ما كانوا مهتمين بدرء الخطر الأروبي على السواحل الشمالية والسواحل الغربية بقدر ما كانوا أيضاً مهتمين بالوجود العثماني في الجزائر دون أن يسمحوا للأتراك بفصل المغرب عن بقية الممالك الإفريقية التي تجمعه بها أكثر من آصرة... لقد تحدث بعض عن رغبة المغرب في ضمان استمراره وفرض استقراره، ولكن هذا البعض كان يغفل عما يجيش به صدر المنصور من قطع الطريق على غير الأفارقة وبالتالي على غير المؤهلين ـ في نظره على الأقل ـ لتحمل الرّسالة في المنطقة، ثم عما كان يعتزم عليه من التحرك نحو تحرير ثغوره في الشمال ثم العودة إلى الأندلس... بعد أن يكون قد اطمأن تمام الاطمئنان على الجبهات التي كان يراد فتحها ضده في الجنوب والشرق والشمال من طرف أروبا وتركيا على السواء !

إن استراتيجية هذا البطل الإفريقي : المنصور الذهبي وإن حنكته السياسية، ومصارعته للدول الكبرى التي كانت تعاصره ما تزال تحتاج إلى دراسات عميقة بعد أن تستوعب سائر المصادر وتراجع مختلف الأرشيفات التي تزخر بذكر اسمه اللامع، فلقد استطاع الرجل أن يصانع ملكة إنجلترا حقبةً من الزّمن ولكن من دون ما أن يرضى مطالب ملك إسبانيا الذي كان يتربّص الفرصة بالمغرب، واستطاع مع ذلك أن يحتفظ ـ ولو ظاهراً ـ بصداقته لتركيا وحليفتها فرنسا. واستطاع مع هذا وذاك أن يفتح صدره لهولاندا وهي تصارع من أجل بناء استقلالها... واستطاع قبل هذا أن يكسر شوكة أكبر امبراطورية عرف التاريخ عنها شرقاً وغرباً ونعني بها البرتغال التي انهزمت أمام السعديين في أضخم موقعةٍ تحدث بها العالم : موقعة وادي المخازن... وأخيراً استطاع أن يفرض نفوذه عبر مساحات شاسعة في المنطقة...

لم يكن ليغيب عن علم السعديين النشاط «الاستكشافي» للبرتغال في المناطق الساحلية لغرب إفريقيا منذ عام 1434 = 837 ـ 8 ولم يغب عن علمه كذلك إرسالُ سفارة من مالي إلى ملك البرتغال تستنجد به ضد سنغاي واستجابةُ الملك يوحنا الثاني على الفور بإرسال بعثتين نجحت إحداهما في الوصول إلى تنبكتو عام 1483 = 888.

ولقد كان السعديون يعرفون أن هدف البرتغال لم يكن مساعدة ملك مالي، وإنما كان هدفه حط قدمه في غرب إفريقيا، الأمر الذي تدل عليه مبادرة البرتغال إلى الوقوف إلى جانب سنغاي فور فوز سني علي (1464 ـ 1492) ضد ملك مالي حيث نجحوا في الحصول على امتيازات من سلاطنة سنغاي لبناء عدد من المراكز التجارية على ساحل غرب إفريقيا... ومن جهة أخرى فإنه لم يكن ليغيب عن علم السعديين ما جدَّ من أحداث في سنغاي عندما استولى على الحكم القائد محمد بن أبي بكر توري[1] (1493 ـ 1528) الذي أصبح يحمل عند المؤرخين (أسكية الحاج) والذي قام عام 902 = 1496 بأداء الحج فحصل على تقليد «الإمارة» من لدن «الشريف العباسي»[2] الذي كان يعيش بمصر في خريف ما كان يسمى بالخلافة العباسية، يقول السعدي في كتابه تاريخ السودان : «ولقي في ذلك الأرض المبارك الشريف العباسي فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سُغَيْ فرضى له بذلك، وأمره أن يسلم في امرته التي هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه في اليوم الرابع ففعل وجعله خليفته وجعل على رأسه قلنسوه وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحا في الإسلام... ثم لقى كثيراً من العلماء والصالحين منهم الجلال السيوطي رحمه الله وسالهم عن أشياء من أموره فأفتوه فيها...»[3].

لقد كان ذلك «التقليد» الذي توارثه ملوك سنغاي في نظر السعديين، تقليداً من الأتراك وبالحرى فإنه يعني التهديد بتسرب عناصر إلى منطقته من خارج إفريقيا !

---

1) توري تعني الانتساب لمذهب أهل السنة المالكية على ما عرفناه في المجلد السابع عند الحديث عن ابن بطوطة في إفريقيا السوداء.

2) تاريخ السودان ص 73 تاريخ الفتاش ص 16 ـ 17 تاريخ الدولة العلية ص 76، حصل هذا قبيل أن يتدخل العثمانيون 923 = 1517 ليقضوا على بقايا العباسيين في مصر...

3) القلقشندي : صبح الأعشى، 5 ص / 282 ـ 297.

وأكثر من هذا فقد تناهى إلى السعديين أن امبراطورية سنغاي واصلت الاتصال بممثلي العثمانيين أنفسهم سواء في مصر أو مكة بمناسبة موسم الحج، ألم يتحدث القلقشندي في (صبحه) عن الأتراك الذين استقدموا من مصر وكانوا يقومون على حراسة سلاطنة سنغاي[4]... وبالرغم من أن أرشيف اسطامبول ما يزال في طريق الترتيب والجرد فإن بعض المصادر المغربية تتحدث عن اتفاقية حلف بين سنغاي وتركيا أثناء وجود بعثة من الأولى باسطامبول حوالي سنة 988 = 1581 أيام أسكياداود...

على أن هناك إفادات أخرى تدل على تخوف مملكة بورنو من سطو أمبراطور سنغاي ـ وهو حليف تركيا ـ من جهة، وتهديدِ القبائل المجاورة التي اعتنقت المسيحية في أعقاب النزول البرتغالي بالمنطقة منذ 1471 = 875 ـ 6 وهو الأمر الذي يؤكد تطارح مملكة بورنو بدورها على الباب العالي وإرسال سلطانها إدريس إلى السلطان مراد الثالث طالباً للمدد العسكري..!

فعلاً راحت بعثة 984 = 1576 من ملك بورنو إلى اسطامبول تحمل رسالة إلى الباب العالي أجاب عنها هذا الأخير برسائل احتفظ أرشيف اسطامبول ببعض مبيضاتها العربية والتركية وهي بتاريخ : 5 ربيع الثاني 985 = 23 يونيه 1577 وقد عهد إلى مرعى تونس بتسليمها إلى بورنو[5].

☆ ☆ ☆

ومن هنا سنتحدث عن مبادرة السلطان إدريس الثالث ملك بورنو بإرسال سفارة من لدنه إلى العاهل المغربي سنة 990 = 1583 في أعقاب تلك الاتصالات...

وقد خصصت المصادر التاريخية المغربية المعاصرة فصولاً طويلةً عن مقدم السفارة وعن الاستقبال الضخم الذي خصص لها مما يبرر انشغال المنصور ورغبته من جهة في أن يترجم لملك بورنو عن مركز الخلافة بالمغرب بما

---

4) ZAKARI DRAMANI – ISSIFOU : l'Afrique Noire dans les relations internationales au XVIe Siècle (Analyse de la crise entre le Moroc et Sonrhaï, Edi. KARTHALA, PARIS, 1982 P. 129 – 130.

5) الاستقصا 5، 126 : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 122.

تضمه من ترتيبات وإمكانيات، ومن جهة أخرى فإنه يتوق إلى وضع الأمور في نصابها مع بعض جيرانه المغرّر بهم من الذين أخذوا يهددون أطراف مملكته...

ولنفتح الآن كتاب «مناهل الصّفا» لأبي فارس الفشتالي وزير المنصور السعدي لنقتبس منه هذه الإفادات ممزوجةً ببعض الإيضاح : «ثم وصل في ذي الحجة من عام 990 = يناير 1583 رسول صاحب مملكة بُرنو من ملوك السودان وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه في مهاداتهم من فتيان العبيد والإماء المختلفة الأعمار، وكان من ذلك عدد كثير ناهز المئين... وافى أمير المومنين المنصور أيده الله بمعسكره على رأس الماء من ناحية فاس، وكان يوم سلامه يوماً مشهوداً حسناً وفخامة، وأبهةً وجلالة، وجلس لهم أمير المومنين أفخم جلوس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقباب الخليفة... واستوقف الموالي والمماليك سماطين، من القبتين التوأمتين إلى القبة العربية، ثم منها إلى فسطاط الجلوس المعروف بالديوان[6] ثم منه إلى باب المعسكر القبلي... ونودي على الرسول الذي اتجه يخترق السماطين حتى أنزل بالديوان، وكان الملأ من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً به، وكرسي الإمامة وسرير الخلافة منصوب به وآماط ؟ الإمامة الكريمة ممهدة، وأوطيتها مبسوطة والمهابة قد أخرست الألسن، وخشعت القلوب والأبصار فجلس الرسول هناك مليّاً، ثم سلك به على سبيل الترقي إلى القبة العربية فتلبّث بها ريثما بلغ الإذن الكريم بإيصاله إلى مقر الامامة الكريمة العلية، فسلك به إلى التوأمتين... فمثل بين يدي أمير المومنين وشرف النظر إلى طلعته السعيدة والاقتباس من أنوارها النبوية فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية، وأعرب عن مقاصد مرسله في الاعتراف للامامة الكريمة...

ثم سير به إلى معسكر ولي عهد الخلافة العلية أبي عبد الله محمد الشيخ وكان لصق معسكر أمير المومنين والده أيده الله فأشرف الرسول على دنيا أخرى

---

6) هذا هو (الخباء الماهوني : أي الملوكي) المعروف ببيت الجماعة الذي أنشد فيه الغماد الشعر، وكان مما طرزّ به الخباء :

أنا القبة الحسناء التي راق منظري وكم في من حسنٍ بديع وإحسان

المقري : روضة الآس ـ المطبعة الملكية الرباط 1964 ص / 78.

وأبهة مدهشة ومئابة هائلة، فوقف الرسول موقف الحيرة، واستدرج إلى أن وصل لولي العهد، وقد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود فحيى وفدّى وهنّا... وانصرف إلى موضع منزله ودار كرامته بالقصبة من فاس : البلد القديم فاستدر عليه من النعم مالم يكن في حساب.

وكان من أغراض الرسالة - يقول الفشتالي - التي أنفذه فيها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البنادق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم، زعموا، بقاصية السودان من الكفار...

وكان الملك إدريس قد أوفد من قبل ذلك رسوله هذا على سلطان بلاد الروم والمشرق (تركيا) ووصل إلى حضرته بالقسطنطينية يسأل منه الإمداد بما طلب فأخفق لديه مسعاه وردّه خائباً فأوفده إدريس إذ ذاك على أمير المؤمنين يشحذ منه أجناده الإمامية بالمغرب...

ويتابع الفشتالي حديثه عن هذه السفارة ليكشف عن اضطراب وقع للسفير بين حديثه الشفوي ومضمون الرسالة «...» ثم لما عرض كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح، فكان الذي دلّ عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول..!!

وقد علّل الفشتالي ذلك بضعف منشئ الرسالة وعدم تمكنه من حسن الإعراب عن المقصد...

وقد اقتضى هذا الحادث استفساراً من قبل السلطان أحمد المنصور إلى السلطان إدريس، وهكذا عاد السفير إلى بلاده يحمل معه هدايا من عتاق الخيل وخلعة شرفه منها بالملابس النبوية...

ولما وصل الرسول وألقى المعذرة إلى سلطانه استأنف الهدية وأعرب إذ ذاك عن قصده ومراده، وورد الرسول ثانية إلى الأبواب العلية المشرفة فوافى أمير المؤمنين بحضرته العلية مراكش دار الخلافة، فأزاح اللبس وبيّن الغرض فصدع له أمير المؤمنين بكلمة الحق وطالبهم بالمبايعة له والدخول في دعوته المباركة النبوية على أساس الشرع وأوثق قواعد الإيمان... وقرّر لهم أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب عمله ما لم

يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله اليوم أمير المومنين بوصفه الشريف ومفضله على جميع أولى الأمر والسلطان من ملوك الأرض بالنسب القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع علماء الإسلام... وعلّق لهم أيده الله الإمداد على الوفاء بهذا الشرط فالتزمه الرسول... عن سلطانه بالقبول والإجابة فودع وانصرف يحمل معه نص المبايعة المقترحة على عاهل مملكة بورنو التي أنشأها الكاتب أبو فارس برغبةٍ من السفير نفسه خوف الإخلال ببعض شروطها من قبل رجال الإنشاء في بورنو وقد قرئت البيعة عليهم وفهموا معناها وأجابوا عنها بمقتضاها من إعطاء البيعة والدخول في الطاعة ولزوم حزب الجماعة وقد أورد نصّها أبو فارس في كتابه (مناهل الصّفا) ولكن بدون تاريخ...[7]

وما لبث أن عاد السفير ثالثة يحمل الهدية والرسالة وخاض القفار لدار الخلافة، لكن المنية أدركته وهو في تيكورارين في طريقه إلى المغرب. وهناك بعث أولوا الأمر بالهدية صحبة رفقاء السفير فوصلوا بها أواخر عام 991 = 1583 إلى حضرة أمير المومنين بمراكش يحملون معهم كذلك مصادقة ملك بورنو على البيعة للعاهل المغربي...

وهنا نرى من الفائدة لموضوعنا أن نذكر ما ورد في مخطوطة إسبانية معاصرةٍ للأحداث مجهولة المؤلف نشرها الكونط دوكاستري[8] حول قيام الأتراك بشن هجوم عنيف على مملكة بورنو عن طريق مصر من أجل احتلال تلك المملكة ورغم أن المصدر المذكور لم يتعرض لتاريخ هذا الهجوم فإن الأمر يدل على أن الأتراك كانوا سائرين في مخططهم للتوغل في إفريقيا الغربية... وقد ذكرت المخطوطة المشار إليها أنه لم يقهر الأتراك سوى العطش وسوى مقاومة بورنو الضارية، ومع هذا فإن المصدر يؤكد أن طائفة من المنهزمين استسلموا لملك بورنو الذي أكرم مثواهم

7) مناهل الصفا تحقيق عبد الله كَنون بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي... 1384 ـ 1964 ص 63... هذا وقد كتبت البيعة غالبا بعد عودة المنصور إلى مراكش أي في أواخر عام 990 أو مطلع عام 991 = 1583، د. التازي : اللغة العربية في التعامل الدولي للمغرب، ندوة علال الفاسي، أبريل 1987.

8) يرجح الكونط دوكاستري أن يكون المحرر لهذه الوثيقة أحد الدبلوماسيين المعتمدين لدى البلاط السعدي من أمثال باثالزار (Bathalzar) قنصل فيليب الثالث.

De castris : la conquete du Soudan pr Elmansour 1591.

Hesp : T III année 1923 Tremeste P : 475 – 476.

والسنة • وأرشدها الذي حباه منشيدها وشيدها والحمد لله الذي اكتفى من نفوذ الزوجة الـ ...ية الشماء • والنجم الكتيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في الـ
وصولي ... الله على نعمائه سبحانه علانية ودليلا • وخليفة استرعاه وكان بحسن الرعي ... له وعباده كفيلا • وانتضى من بأسه وسلالة لحماية حمى الشريعة حسـ
...ية في الأرضين • سليل خاتم النبيين ووارث الأنبياء والمرسلين • المفترضة طاعته على الخلق أجمعين • والممنون بإمامته المقدسة على العالمين • محيي الندى والبأس وعصمة ا
...أبي العباس • أولاه الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين • والأئمة المكيين الكرام • وكتب بأنفاس المغيرة لجودهم أجمعين • أولا تمتز لذكرها أعطافـ
من نعيسا ...وابع • وتستضيء البلاد بإكليل شيء من التراجع • وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الواقي • أبقى الله أيامه الغر ... يصحب النعم
...يم إلى يوم الـ...ة • ولما طلعت أيده الله على معين الإصلاح الزنجية كطلائع إمامته النبوية وخلافته • ولاحت في سمائهما شهب مناقبه المنيفة الدالة على مخايل شرفه وإنافته • وتلبث
• وتقضي له ... الإسلام وعلى الأنام بحكم الولاء والكفالة • وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بإمامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته • مما جاء به كتابه
...ليم السلام • كلا ... إن الخلافة في قريش ما بقي منهم اثنان • وكما ورد في صحيح الخبر • أن الخلافة في قريش و... قضاء في الأنصار وفي الحبشة الأذان • ويدل على عز انتظام الحق والعيان •
...الله من ثان • ...نهض بدليل الشرع أنه إمام الجماعة حفظا للمستوفين شروطهما • والوارث للخلافة الـ... وته والحريص على بيضة الإسلام أن يحوطهما • وأن القائم بهذا الأمر على
...شروع بدعي • فيعين لذلك أن الرجوع إلى الحق فريضة • واستبان بما ذكر وعلم أن إمارة الإقلال ... في الشروع بحكمها المشروع مبنوءة ومرفوضة • وعم وتمهد الذلك معهودة ومعقو
...ونحوهم إلى رضوانه العناية ووقع من الشرائع المشروعة حيث مركز التراضي ومنتهى الغاية • الذي ... رأى أبو العلاء إدريس أكرمه الله اقترابا من وقعت به مكنية التوفيق • على حكمها
...إلى حيث العون من الله ورضا رسوله حقيق • والتأييد صاحب ورفيق • وروض الآمال أنيق • ...راح الراحة والاطمئنان عتيق • إلى تقلد أمام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنـ
...شاء الله على تقوى من الله ورضوان • وتشهد عقد بيعته الكريم ملائكة الرحمن • وأتم استعداء الله أن يؤيد ... فيما المعهود من ... الأعيان • وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع العام إلى
في نفعهم وما يليهم من الاندفاع والبلاغ بالسوء أن تقلدها يستهدي إن شاء الله بأنواره • ويستشهد في للعز الكبير على مناره • ويحمر به المجهول جزوة ناره • وتنتظم به في اتباع الحق
...ستوجب من الله عوارف فضله وإحسانه • ويرفع به للقرع على العدوان حد سيفه وسنانه • ويدفع به لمن نال الله باب القبول • ويتضاعف له بسببه الكم المقبول • ويستنشق
...ل له به الرحمان للشبان والعبوة • ويرفع به منار الإمارة على قواعد الشرع الوثيقة • ويعدل به في كل الأحوال عن المجاز إلى الحقيقة • وتسني له به وبعد الفخر الأسنى والخاتمة الحسـ
...بتلاع والمنهور • وتحيي ...ميما التي نعلمها اتفاق الأعلام والكبراء في مبايعتهما الإمام الخليفة المهدي الأكبر سليل سيد المرسلين وجد مولانا أمير المؤمنين الذي رأى إمامة دار
في منصب الإمامة على ثقتهم ... العرف • ويسمح بها ومنع بها البين • وتناول المنتسب أكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب المنيفة العز والفخر • وأنجز له فيما أراده صادق الوعد • و
على الله بها على الأمي والأمة ... والعقاب والرضوان • والعدل الذي يشير للمجبر أركانه • مبايعة شايعه على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه • وجموعهم وأشياعهم بحكم الولاة والأ
...ن الثلاثة للإيمان • أ...قوا بها صفقة أيديهم • ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم • وأمضوها على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة

وأدخلهم في خدمته حيث كون منهم فرقةً كانت درعاً لبلاده التي كانت تتاخم بعض القبائل التي لا تدين للإسلام...

☆ ☆ ☆

لقد كانت مملكة بورنو أمام عدد من الاختيارات فأما أن تسير في ركب العثمانيين الذين أرهقوها بفرض الأتاوات، وإما أن يستسلموا أمام حملات القبائل المجاورة وإما أن يقبلوا شروط امبراطورية سنغاي التي كانت تطمع في ضم جميع الأقاليم إلى حكمها، وإما أن يتحالفوا مع بطل وقعة وادي المخازن...

وهكذا تم اختيارهم على مصادقة المنصور وإخلاص الود له، الأمر الذي اشتهر ببلاد المغرب على ما نلاحظه أيضا في الرسائل المرفوعة إلى المنصور من بعض عماله من الجنوب الذين تحدثوا عن سفير بورنو...[9]

وفي أثناء الاتصالات المغربية مع ملك بورنو كان المنصور يخطط أيضا لإقناع أمبراطور (كاغو) سيما والأيام تثبت على التوالي تضاعف أطماعه التوسعية ومبادراته العدائية...

وقد رأينا السلطان أبا العباس أحمد الأعرج أو أخاه مولاي محمد الشيخ[10] يرسل بمبعوث إلى أسكيا إسحاق الأول (1539 - 1549) ليفاوضه في شأن التخلي عن مملحة تيغازى، فكان جواب إسحاق إرسال قوة لمداهمة درعة ![11] الأمر الذي دفع بالشريف السعدي للإجابة المماثلة حيث نراه يشن غارة في اتجاه غينيا، ويصل إلى الودّان (أصله الوادان). ثم لم يلبث أن شن، سنة 1556 - 1557، غارة أخرى على أمين تيغازى المنصّب من قبل أسكيا داود (1549 - 1582) الذي عوض إسحاق مما اضطر السكان إلى ترك المملحة والابتعاد عنها بنحو مائة وخمسين ميلاً حيث مملحة أخرى تحمل اسم (تاودن) ؟...[12]

9) عبد الله كَنون رسائل سعدية ص 86.

10) Hesp : 1923 P. 437 – Hesp : 1953 P : 187

11) يتحدث بوفيل في كتابه (بالإنجليزية) : تجارة الذهب ص 41 عن رسالة مغربية إلى سنغاي بتاريخ 953 = 1546.

12) ورد في ترجمة أبي عبد الله سيدي محمد بن يعلى الشهير بالتاودي دفين خارج باب عجيسة، أنه منسوب إلى قرية تاودة التي بها معدن الملح الذي يحمل منه إلى سائر بلاد السودان، وهي ببلاد الصحراء التي بين السودان وبلاد المغرب... ومن المعروف أن (البرْبرة) تقتضي إلحاق النون بالعلم، وهكذا تصبح تاودة : تاودن... الكتاني : السلوة 3، 110.

وبعد ثلاث سنوات على وقعة وادي المخازن رأينا المنصور يبعث سنة 1581 إلى أسكيا داود طالباً إليه أن يتنازل له عن المملحة لفترة سنة كاملة، وقد أرفق البعثة بعشرة آلاف قطعة ذهبية... وكان من الممكن أن تسير العلاقات نحو الانفراج... لكن الموت عاجل أسكيا داود فعوضه أسكيا الحاج محمد (1582 ـ 1586) الذي كان يحمل نفس اسم جده السابق، وقد توجه إليه المنصور سنة 1584 بوفادته المحملة بالهدايا والتحف للتهنئة وكانت برئاسة الشيخ مؤمن بن موسى المعقلي العمري، حيث أجاب عنها أسكيا الحاج بقافلةٍ أُخرى حملت بدورها الهدايا ولكنها لم تحمل معها ما كان ينتظره المنصور مما يدل على الإعراب عن الولاء.!!

وقد أوعز المنصور في هذه الأثناء وبالضبط سنة 992 = 1584 بإرسال الشيخ منصور بريبش الفلاني المعروف بخبرته الجيدة برجال تلك المناطق ودروبها ومسالكها، راح في الظاهر بقصد التجارة ولكن هدفه كان استمالة العناصر التي لم تكن على اتّفاق مع وجهة النظر السعدية ! وخاصة منها التي تتصل بأُسرة أسكيا ذاتها[13]، وقد صمد الشيخ منصور أمام مختلف الامتحانات طوال ثلاثة أعوام إلى أن اختفي أسكيا الحاج محمد في شهر ذي الحجة 994 = نونبر 1586 حيث تدهورت الحالة السياسية والاجتماعية في سنغاي، الأمر الذي بلغ على التوّ إلى المنصور... وهكذا كتب إلى أسكيا إسحاق الثاني المعترف به سلطاناً على البلاد سنة 996 = 1588 حول مملحة تغازّى مطالبة بتعويض مثقالٍ عن كل حمل ينقل من المملحة إلى السودان لمعونة الجيش الإسلامي بناء على فتوى العلماء حول استغلال المعادن... فكان جواب إسحاق الثاني إرسالية تنذر المنصور وتوعده !!

وهنا جمع كبراء البلاد ليكشف لهم عن نواياه في السودان... إن ضم السودان يعني إثراء المملكة، ويعني تقوية الجيش الإسلامي... وهكذا طرح قضية عدم استحقاق إسحاق للقب الخلافة لأنه ليس من قريش !!

وقد كان جواب أعيان البلاد يتلخص في إبراز المصاعب المادية التي تحول دون تحقيق رغبة المنصور من بعد المسافات وقلة الماء والزاد... إن المرابطين

13) الفشتالي : مناهل الصفا، تحقيق عبد الله كَنون، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المهدية 1384 = 1964 تطوان، ص 56/55.

والموحدين وبني مرين لم يستطيعوا تذليل تلك الصعاب، على ما ينقله الرواة، لكن المنصور استطاع أن يقنعهم بأن مخاوفهم مبالغ فيها !! إن المرابطين والموحدين وبني مرين إذا لم يفكروا في الجنوب فلانهم كانوا مشغولين عنه في مواجهة إسبانيا ! وفي مقاومة الحركات الانفصالية في شرق المغرب... أما اليوم فإن الإسبان يتمكنون من الأرض، وإن الأتراك يحتلون تلمسان !!

وهكذا اقتنع الأعيان بوجهة نظر المنصور الذي أخذ في الاستعداد...

سنغاي من خلال أجوبة المغيلي

يحتفظ التاريخ باسم عددٍ من رجال العلم الدين كانوا يترددون من **بلاد البيضان** على **بلاد السودان** لأداء الرسالة الملقاة على كاهلهم..!

ونذكر من هؤلاء أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار **الفجيجي** الذي اشتهر بمواقفه الصريحة، والذي انتهى به المطاف ـ بعد حياة علمية حافلة في المغرب والمشرق ـ إلى مدينة جني (سنغاي) وأخذ يلقن العلم ويقضي بين الناس إلى أن أدركه أجله هناك.

كما نذكر من أولئك الرجال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان يعاصر الفجيجي والذي احتفظ التاريخ بأجوبته على أسئلة الحاج محمد أسكيا صاحب سنغاي. ونرى من المفيد أن نسوق بعض هذه الأسئلة باعتبارها تعطي فكرة عن الوضع الاجتماعي هناك قبل أن يتردى إلى ما تحدث عنه السعدي في كتاب السودان (ص 144)...

ما قولكم في هذه البلاد وأهلها فأنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون، وكان (سني علي) ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة..!! ومن صفاته أيضا أنه حلّل دماء المسلمين وأموالهم فقتل القراء والفقهاء ونهب الأموال وسبى الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى.!!

وسأل أيضا عن أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة وإنما يأخذ مال الميت ابن أخته مثلا ! فهل هذا المال لبيت مال المسلمين أو يترك بأيديهم ويجبرون على التوارث فيه على شريعة الإسلام..؟

أبو القاسم : الفريد في تقييد الشريد
تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي
نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي
أجوبة المغيلي عن أسئلة الأمير الحاج محمد أسكيا، تحقيق وترجمة د. جون هونويك جامعة أكسفورد

وتتحدث رواية أخبار السودان للسعدي عن المسمى ولد كِرِنْفِل (Ould Kirinfil) على أنه رجل من خدام أمراء سنغاي، غضب عليه الأمير أسكيا إسحاق بن داوود ابن الأمير أسكيا الحاج محمد فبعثه إلى تغازي برسم السجن هناك، وهو من بلادهم الذي في ملكهم وحكمهم فكان من قدر الله وقضائه انطلاقه من ذلك السجن، وهروبه إلى مدينة حمراء مراكش... وإخباره المنصور بأهل سنغاي وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة وحضه على أخذ الأرض من أيديهم...

مهما يكن فلقد قام المنصور بإرسال سفارة جديدة إلى السلطان إسحاق تحمل خطاباً إليه حول استغلال المنجم المذكور وحول مقدم «أخي» أسكيا إلى بلاد المغرب مستجيراً مستصرخاً. كما تحمل إليه نسخة من ملتمس «الأخ» المذكور للعاهل المغربي، وفي هذه الرسالة يذكر العاهل المغربي سلطان سنغاي بالدور الذي ينبغي أن تقوم به مملكته كترس حصين يحفظ السودان من طواغيث الشرك، وحررت هذه الرسالة بفاس، وقد حملت البعثة رسالةً ثانية ودية يجدد فيها المنصور دعوته لإسحاق من أجل جمع كلمة المسلمين...

وكان قصد المنصور على ما يبدو الوصول إلى تفاهم «من غير كبير كلفة ولا إعمال حركة» على حد تعبير الفشتالي.

كانت الرسالة المرفوعة إلى إسحاق من إنشاء أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي لما أن الفشتالي كان متغيبا يومه بسبب مرض ألم به، ولقد أشكل على أبى مالك المصطلح في استهلال الرسالة بما يليق في حق خطاب أمير المومنين بالنسبة إلى المخاطب فتفادي من ذلك - يقول الفشتالي - بالإحالة عليّ لتكرر الكتب إلى إسحاق من إنشائي واقتصر هو على ما دون الصدور...

ونظرا لأهمية هذه الرسائل نسوق نصها عن مجلة هيسبيريس.(14)

---

14) Georges Pianel : Conquète du Sudan par Moulāy Ahmed Al-Mansour : Hesp. 1953 p.185.

الرسالة الأولى :

(إلى كبير كاغو وأميرها ومالك زمام أمورها وتدبيرها والمرجوع إليها عند خاصتها وجمهورها الأمير الأجل الأثيل الأحفل، الأمير عسكية وصل الله كرامته، وجعل التقى سمته وعلامته. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمدا لله مسهل المرام، وميسر أسباب الكمال والتمام، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام، المبعوث بالحنيفية السمحة إلى الخاص والعام، والرضى عن آله الأيمة الاعلام، وخلفاء الإسلام، وعن أصحابه الذابين عن كلمته بالسنان والحسام، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم بالعز السامي المقام، والنصر المنشور الرايات والأعلام، فإنا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله، وعناية الله وارفة الظلال، ونواسم النصر والإقبال دائمة الهبوب بالبكر والآصال، لله المنة.

هذا وموجبه إليكم سدّد الله طريقكم وجعل التقي رفيقكم، إعلامكم أن معدن الملح بتغازى التي من إيالتنا، وفي حكم إمامتنا، هو كما لا يكاد يخفاكم من جملة المعادن التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد، وللإمام فيها النظر والاجتهاد، وبحسب هذا فإنا رأينا إن شاء الله من الرأي السديد، والنظر المبارك الرشيد، الخطاب الكريم لتعلموا ما وقاكم الله بسيوفنا التي أقرتكم في هدو وسكون، في جنات وعيون وتقابلوا ما رأيناه من النظر الكريم بالإسعاف والإسعاد، جرياً على مقتضى إشارتنا العلية في إصلاح البلاد وأن لا تسعوا فيما يبطل هذه الفريضة العائدة بالنفع على الإسلام، وتؤيد[15] حزب الله على مواصلة قتال عبدة الأصنام.

ثم اعلم أن أخاكم الذي قد نزل بنا واستجار بحرمنا الكريم النبوي، وأم إلى هذا الجناب العلي العلوي قد وصل إلى حضرتنا المراكشية وأناخ منها على أبوابنا الشريفة، وعتباتنا السامية المنيفة، وكتب لمقامنا العلي من هنالك لأول وصوله، ومناخه ونزوله، وها كتابه يصلكم طي هذا المكتوب الكريم لتتأمله، وتقف على ما قصده من جنابنا العلي وأمله.

15) كذا والسياق للخطاب بالجمع.

وهـا نحن أمهلنـاه في الجواب، وعـاملنـاه بمـا نعـامل بـه كـلّ من يرد على مقامنا العلي من القبول والبر والترحاب، حتّى نرى إن شاء الله ما يبـدو منكم، ويصل في أمره عنكم، وبهذا وجب الكتب إليكم والله يرشدكم بمنه والسلام.

أما الرسالة الثانية هذا نصّها عن مناهل الصفا...

إلى رئيس كاغو وكبيرها والقائم بأمرها وتدبيرها إسحاق سكية بن داود، وصل الله لكم أسباب هدايته وتوفيقه، وجعلكم ممن انتمى إلى حزب هذا الجناب النبوي الكريم وفريقه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمـدا للـه الـذي صرف لهذه الإمامة النبوية الكريمة وارثة الأرض ومن عليها وجعل زمـام الأمـة بيـدهـا والنظر فيمـا لهم وعليهم موكـولا إليهـا، والصـلاة والسـلام على سيـدنـا ومـولانـا محمد المبعوث من أطيب المعادن وأشرف من تنصرف إليه الوجوه من كل ظـاعن وقـاطن والرضى عن آلـه الأئمـة الأعلام خلفـاء الإسـلام وأصحـابـه الـذين عـزروه ونصروه بـالسنـان والحسـام وصلـة الـدعـاء لهـذا المقـام العلي الإمـامي النبـوي المنصـوري الأحمـدي الحسني الفـاطمي بنصر تـدور بـه الأفـلاك وتستـنـزل بـه الملائك وتخضع له الأملاك، فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية وكرسي إيالتنا العلوية ومقر إمامتنا الهاشمية الحسنية مراكش حـاطهـا اللـه ونِعَم اللـه على هـذا المقام المنصور ضـافيـة السربـال وافيـة السيـال، والاعتنـاء بحفـظ نظـام الـدين وتشييد قواعده من كأسه الغبوق والاصطباح، والاهتمام بمصالح الأمة المحمـديـة مستغرق فيه المساء والصباح، وإرسال سوابق في تتبع المصالح التي تتعلق بهـا أعلام التوحيد، على أهل التثليث هو الديدن في الغدوّ والرواح، كل ذلك علم الله لنقدم في هذا الدين المحمدي المقام الشريف، ونبرأ على أكمل الوجوه من عهـدة التكليف فقـد نيطت بنـا التكـاليف الشرعيـة التي لم تنـط بغيرنـا أيّ منـاط، وارتبطت بنـا أي ارتبـاط، ولا مطمـع في التقصي من ربقتهـا والانفـلات من عهـدتهـا إلا بمـواصلـة الجـد في السـالمـات والأنـا وإعمـال الحـزم والعـزم وترك الهوينا، ومتى يقع الخلاص من أعباءِ عَرض حملها على السموات والأرض فـأبت، ووعدها بالثواب عليها خالق العالم فتابت، فإليه سبحـانـه نمـد أكف الضراعـة في تيسير الخلاص من هذه الأثقـال، ومنـه نستمـد الأمـانـة التي بهـا تنـال الآمـال، وغير خفي على من ذاق حـلاوة الإيمـان وخـالطت بشـاشتـه قلبـه، وألقى إلى

هواتف الشريعة كتابا وسنة سمعه ولبه، أننا بهذه الأثقال دون غيرنا مطالبون، وبأعبائها مضطلعون، إذ الناس في هذا الأمر تبع، ونحن المتبعون، وأن طاعة هذا الأمر الذي تقلدنا قلادته مفروضة على أهل الأرض، وواجبة على كل من أحاط من أسياج المعمور على الطول والعرض، لما اختصنا الله به من إمامة الجماعة التي أوتيتها حكم الولاء والكفالة، ووراثة الأرض ومن عليها لا عن كلالة، وقلدنا من حماية بيضة الإسلام، والذبّ عن أمة نبيه عليه السلام، وأني لمن بهذه المنزلة أن تطرق أجفانه سمة اغتماض، أو يتأتي له عن رعي المصالح الخاصة والعامة صدود أو إعراض، وعدو الدين إلى شق عصى الإسلام، وإفساد بيضته على طول المدى فأغر فاه، معمور الفكر والبال فارغ مما سواه، ولهذا ومن أجله لم تزل بحمد الله سهام أنظارنا السديدة إلى أهداف مصالح الأمة المحمدية مفوقة، وآراؤنا، ولا كفران لله بحوله وقوته، إلى صوب الصواب موفقة، نعثر منها على ما جر عليه قبل الأيام ذيل الإغفال، فأسدل دونها رواق الإهمال، وكلما أثرنا من مهامه الفيح قنصا وقعنا به على مهارق الإعلام والتعريف لكم ولغيركم ممن أوجب الله عليه الإنصات لأمرنا قصصا لتلبي في الأقطار والأفاق دعوتنا إليه المطاعة، وتعطي إشارتنا به على الأنام ما يجب لها من الشهرة المقرونة بامتثال الإذاعة، ويشتد به أزر هذه العصابة الإسلامية وهذه الجماعة، ويحصل لها به بعد سبر غوره الفرح والاغتباط، ولنا إن شاء الله أجر الإشارة به عليها والاستنباط، هذا وإن مما وقف بنا عليه بعد استخارة الله زائد الاختيار، وسبرنا غوره من سديد النظر بمسبار، وما تعاضدت شواهد الشرع على اعتباره، وإباحة اجتناء ثماره، وإنه من القلادة التي طوقتنا دلائل الكتاب والسنة طوقها، وأسالت أرواح الإذن الإلاهي من سماء التمكين على أكناف ودقها، وأوجبت عليكم خصوصا وعلى الناس عموما تلبية منادينا، وإنهاء التعريف بالقبول لها إلى شريف نادينا، وذلك هذه الملاّحة المعدنية التي تضرب إليها أكباد الإبل، وتشد بسببها لبلاد تَغَازّى على الدوام الأقتاب والرحال، وتعمل المطي إليها الوخد والإرقال، وتشق البيد نحوها بأحمال الثقال قد انطوى على مصلحة لهذا الجيش الإسلامي، والأسطول الجهادي، الذي جعل المولى سبحانه بأيدينا زمامه وصرف بفضله إلى إحياء دينه ظعنه ومقامه، وشرق من أجله طاغية التثليث بريقه وضاق متسع الفضاء فرقا به وبحزبه وفريقه لا يصلح في

قانون الشرع أن تقابل بالإهمال ولا يبرى من عهدته إلا البدار إليها والإعمال لما فيها من الإعانة لهذه الجيوش الإسلامية والعساكر المظفرة بالله الهاشمية الأمامية وتقوية هذه العصابة النبوية التي بها يقع الدفاع عن الملة ويحمي حماها بسيوفها المستلة، وصرفها في إقامة أسطول الجهاد، وفيما اعتدناه للرباط في ذات الله من الصافنات الجياد، مع ما فيها للأمة المحمدية من المنفعة التي إن ضيعناها توقعنا فيما ولانا الله من أمرها تقصيراً وزجراً بارتكابها وانتهاز الفرصة فيها من عظيم فضله أجراً كبيراً وذلك بأن وظفنا زنة مثقال تبراً على كل حمل من الجمال التي تغشى هذه الملاحة للحمل على طول المدى، وألزمناهم ذلك ما أعقب غدا بحيث لا يوسق رحل إلا بعد إعطائه ونقده، ومن تأبى فليتيقن بصده عن حملها ووروده، وها نحن قد أنفذنا إليكم بما لأيمة المذهب في هذه المسئلة على الخصوص، وما لعلماء السنة فيها من الحجج والنصوص والبراهين المحكمة كالبنيان المرصوص، لتعلموا أن للإمام فيها النظر والاجتهاد، وصرفها فيما يراه من وجوه السداد، وبخاصة في إقامة فريضة الجهاد، وتستشعروا مالكم في امتثال ذلك من السعادة التي تجدونها ذخرا، والفلاح الذي تفوزون بليله إن شاء الله دنيا وأخرى، وعرفناكم بهذا لتكونوا أول من ثنى إليه أعناق الرحال وأول من أجرى الاستماع إليه والامتثال، ومن شممتم منه رائحة الانحراف عن هذا الأمر العلي والأزورار فقوّموا اعوجاجه بثقاف الإلجاء إليه والاضطرار، فأنتم أحق الناس والحمد لله بحشر الناس لهذا الباب وما يذكر إلا أولو الألباب.

لقد ذهب السفير المغربي صحبة بعثة كانت بالمغرب من مملكة بورنو وردت للحصول على المدد العسكري... وقد طلب المنصور إلى السفير المغربي على ما يقول الفشتالي أن يقدم أولاً الرسالة الودية المتعلقة باستغلال المنجم مصحوبة بالفتوى، فإذا لم يجد إستجابة قدم إليه رسالة المنصور التي يخبره فيها بملتمس أخيه عليّ... فإذا لم يذعن قدّم له نسخة من الملتمس ذاته المقدم من طرف اللاجئ السنغائي..!!

وقد وصل المبعوث المغربي إلى كاغو في شهر صفر 998 = 10 دجنبر 1589 ـ 8 يناير 1590 حيث سلم المستندات التي يقول السعدي في تاريخ السودان : إنه

رآها رؤيا عين بما فيها ملتمس «ولدسكية» كما يسمى صاحب المناهل أوولد كِرِنْفِل كما يقول صاحب تاريخ السودان...(16)

ولم تكن هذه الخطابات هي الأخيرة التي طيّرت إلى امبراطورية سنغاي، فقد احتفظ التاريخ بعدد من الرسائل التي تنم عن الأمل الذي كان يساور المنصورَ في الوصول إلى حلّ آخر يرضي رغبته غير الالتجاء إلى القوة !

وهذا فصل آخر من رسائله إلى عسكية وهي من إنشاء أبي فارس :

هذا وأن نبينا عليه السلام لما ابتعثه الله تعالى بهذه الحنيفية السمحاء، وأرسله بالحق إلى الخاصة والدهماء، كان من الشرائع التي سنّها ﷺ وفرضها الإعذار بالكتب من قبل الكتائب، والترغيب من قبل الترهيب باصطكاك الركائب، قال تعالى فيما أنزله على نبينا عليه السلام : «فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» وقال عليه السلام : «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»، ونحن بحمد الله في هذا وغيره للسنة متبعون، وبكتاب الله عاملون لا نوقع قبل وعيد، ولا نزمع إلا بعد إعذار نبدي فيه ونعيد، فمن وفقه الله لسبيل الرشاد، وجنح إلى التي هي أحسن في الحال والمعاد، يتفيأ من أمان الله ورعايته ظلا ظليلا ومددنا عليه وعلى بلاده جناحاً مستطيلاً، لا يروعه رائع، ولا تشير إلى جهته الوقائع، ولا تثير الغبار في وجهه الطلائع، ومن أضله الله تعالى ودام على الاستعصاء أمره، والتهب بوقود الغواية جمره، جهزنا نحوه من جنود الله تعالى كتائب كالليل البهيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، تزأر زئير الضراغم وتخر كالبحر المتلاطم، تنتشف ماءه، وتكشف سماءه وتغنم طارفه وتلاده، وتخرب أرضه وبلاده، فيلوم نفسه حين لا يغني الملام، ويستسلم ولا ينفعه الاستسلام.

وبحسب هذا فإنا ندعوكم إلى ما فيه إن شاء الله الخير العاجل والآجل والنجاح الذي هو بحول الله بعز الدارين شامل وهي طاعة الله ورسوله، والجري على نهج الهدى وسبيله، ثم مداينة الله بمفروض طاعتنا، والدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين من مبايعتنا، والائتمام بشريف إمامتنا...

وهذا فصل آخر من تلك المخاطبات.

---

16) السعدي : تاريخ السودان ص 137 ـ 156.

«... وإذا تقرر لديكم أن من البر اقتفاء أثر الآباء، والجري في المآثر الجميلة على جادتهم، البيضاء، وأخبرتم أن جدكم ابن ذي يزن[17] أول من آمن بجدنا المصطفى ﷺ وصدّق، وبشر جده شيبة الحمد بما من أمره الحكيم قد تحقق، وأتحفه لذلك بأجل التحف.وخصه من بين عشيرته بمزية الفضل والشرف، هذا والرسول ﷺ لم يتفق عن جوهره المكنون صدف الوجود، ولا اعتمت بأنواره الساطعة الأغوار والنجود، بل آمن به وهو عليه الصلاة والسلام حينئذ بستر الغيب محجوبا، وصدّق بنبوته وأمره لم يكن إلا في الكتب المنزلة مسطوراً وفي اللوح مكتوباً، فأحرى أن تؤمنوا أنتم باتباع شرائعه ﷺ التي هي بعد البعثة أوضح من شمس الظهيرة، وأضوى من الكواكب المستنيرة، وأمره ﷺ قد لاح للعيان كالفلق، وطلع طلوع البدر في الغسق، وتأتموا بهذه الإمامة المقدسة التي عمت أنوارها مشارق الأرض ومغاربها، وجابت جيوب البسيطة ومناكبها، وتمتثلوا أوامره الشريفة فيما افترض الله لهذه الخلافة النبوية من السمع والطاعة، والانخراط بمبايعتها في سلك الجماعة، وتساجلوا جدّكم في مثل هذا المضمار، وتقتفوا أثره في الارتقاء إلى ذروة هذا المنار، والاستضاءة بهذه الأنوار، وتحرزوا ببركتها خير الدارين في الإيراد والإصدار، وتنتظموا في سمط حزب الله الملحوظ بعين العناية والاعتبار...

هذا ما وجد من هذه المكاتبة بمبيضة بخط منشئها الوزير المذكور رحمه الله تعالى بمنه ويمنه[18].

---

17) أخبرت رسالة من إسحاق بأن جد آل أسكية يمنى حميري من ذرية سيف بن ذي يزن (تـ 50 قبل الهجرة) الذي بشر جد النبي بما سيكون عليه حال الحفيد ﷺ، فيكون بذلك قد آمن بالنبي العربي قبل ظهوره..! وهي نسبة فاجأت بعض المعلّقين من المستشرقين... الذين مع ذلك أوردوا حديث (النزهة) عن الإمام التكروري عندما قال إن أسرة سكية تعود في الأصل إلى صنهاجة التي تعتبر حميرية... والذين، إضافة إلى ذلك كانوا يشكون في أن سيف بن ذي يزن أول من اسلم إلا على ضرب من الاعتماد على الأساطير الشعبية، ومن المعروف أن سيف بن ذي يزن الحميري استنجد ضد احتلال الأحباش (les Abyssins) بالنعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة والعراق الذي أوصله إلى كسرى أنو شروان (Chasroes Anosharwan) فأسعفه أنوشروان بالجند واستطاع أن يكسر الجيش حيث أمسى (سيف) ملكاً على اليمن تابعاً لكسرى وهو آخر من ملك اليمن من قحطان.

عبد الله كَنون : رسائل سعدية ص 138 Hesp 1953 P. 193 Note 1 – 197 نزهة الحادي ص 89.

18) رسائل سعدية ص 139.

وقد كان جواب إسحاق على سفارة المنصور ورسائله... سبباً في وصول التوتر إلى قمته، وهكذا فعلاوة على تسويفه للرسول ومماطلته تعمد أن يبعث للمنصور بجواب شديد اللهجة على ما يقول «تاريخ السودان» ومع هذا الجواب كذلك هدية ترمز إلى المواجهة المسلحة، وهي عبارة عن حراب سودانية تستعمل في حروب الأدغال كما كان من ضمن الهدية المحمولة للمنصور نعلان من حديد إشارة إلى القيد..!!

لقد اشتط المنصور غضباً من جواب إسحاق... وهنا كانت دعوة «مجلس للشورى» من سائر أطراف المملكة الخلافية «جمع فيه الملأ من طبقات الأجناد وذوي الحل والربط وأولي البصيرة والحنكة وخبرة الأمور لم يستثن مُشَارٌ إليه ولا مشاور».

والحديث عن مجلس الشورى هذا في ذلك العصر يدل من جهة على تعلق المغرب بمبدأ الشورى طوال ممارساته السياسية، ويدل من جهةٍ ثانية على مدى اهتمام المنصور بموضوع سنغاي...[19]

وقد تبين للمنصور من خلال استشارته أن الرأي الإجماعي الذي صدر عن المجلس والذي يتلخص في معارضة المغامرة بالجيش المغربي في تلك المجاهل والقفار، تبين له أن المستشارين يعتبرون إرسال العساكر غير داخل في حيز الإمكان مسترشدين بواقع التاريخ على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين الذين لم يفكروا في مشروع كهذا على ما قدّمنا..!

وقد أجاب المنصور عن احتجاجهم بالمجاهل والقفار بأنهم لا يعرفون أن هناك طريقاً مسلوكاً للتجار بكل يسر ودون صعوبة، موضحاً لهم أنهم من هذه الناحية لا يتوفرون على المعلومات اللازمة... وفيما يتعلق بالاعتراض الثاني فقد بين لهم أن المرابطين والموحدين كانوا منشغلين بمقارعة الصليبية والثوار في الأندلس وأن بني مرين كانوا هم الآخرين يقارعون من أجل استرجاع تلمسان من بني عبد الواد كما أسلفنا...

وأسهب المنصور في ذكر ما يتوفر عليه الجيش من استعدادٍ حربي كامل يجعله على ثقة من نفسه... متخلصاً إلى نقطة جدّ هامة تستحق الوقوف طويلا

19) الوفراني : نزهة الحادي ص 90.

ولو أن بعض المؤرخين مرّوا عليها مرّ الكرام بينما هي من أحجار الزاوية في نظرنا...

إن المنصور، وهو يعرف أكثر من غيره عن «الوجود الأجنبي» الذي أخذ يستفحل في إفريقيا... كان يعلل عدم تدخل المرابطين والموحدين وبني مرين بعدم وجود ما يبرر ذلك لأن الممالك الإفريقية التي كانت على صلة قوية بالمغرب لم تكن معرضة لاستغلال خارجيّ أو تهديد أجنبي، أما اليوم... فإن وجود عنصر آخر بتلك الجهات المجاورة له يعني تهديده هو واستزافه هو، وبالتالي الإجهاز على تلك الممالك بالغرب الإسلامي وهذا ما يقصده بقوله للعلماء : «والأقاليم الإفريقية والأندلسية قد شغلت لهذا العهد بمن استولى عليها من العجم...[20] فصرف الوجهة لأصقاع الجنوب وممالك السودان أحق وأولى بالتفاف العزائم، فهي وإن كانت أصعب مراماً فإنها أغزر نفعاً... وأقوى بمعادنها... على الاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين والإجلاب عليه في عقر داره حسبما هو مبنى النية الصالحة...».

وهكذا راجع مجلس الشورى موقفه فزكى رأي العاهل فيما إليه يقصد... وصدرت الأوامر باتخاذ الاستعدادات اللازمة بما في ذلك إعداد المراكب والأساطيل وما في ذلك صدور الأوامر بحفر المئات من الآبار واقتناء المئات من الدواب وصنع آلاف القِرب[21].

ونفضل قبل الاستمرار في الحديث عن الاستعدادات ـ أن نقف عند حديث المنصور عن «الوجود العجمي» في الأقاليم الإفريقية والأندلسية على حد نقل الفشتالي وهو شاهد عيان... فماذا كان يقصد بالعجم ؟ إن سياق الحديث يوحي بأنه يقصد إلى إسبانيا وارثة البرتغال بعد وقعة وادي المخازن، ولكن الذين يعرفون لغة المنصور ويعيشون معه صراعه الظاهر والخفي مع العثمانيين لا يسعهم أن يتجاهلوا أن القصد إلى الأتراك أيضا..!

20) الفشتالي : مناهل الصفا ص 128 مطبوعات وزارة الأوقاف 1972.

21) د. محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر 1982 ص 7.

حول الأسطول السعدي...

نرى من المفيد أن نسجل هنا دور الأسطول السعدي في نجاح المنصور الذهبي في حركته نحو سنغاي، ولعل أصدق إفادة تاريخية هي الرواية المعاصرة التي أوردها الفشتالي في كتابه المناهل :

«ثم صرف همته، أيده الله، إلى اتخاذ الأسطول برباط سلا... فتعددت مراكبه ـ القطائع والشواني ـ وعقد على رياسته لرجلٍ من أهل المغرب يدعى الرايس إبراهيم الشط المتّل المشروب في الشجاعة والمعرفة بأحوال البحار والحصون، وقد كتب له العاهل بذلك ظهيراً شريفاً من إنشاء الكاتب محمد بن عيسى كان على النحو التالي :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

هذا الظهير الكريم ربع للجهاد أعلى منار واستل لإعزاز الله عضبا ماضي الغرار وهيأ للجواري المنشآت
تمخر البحار أمر به عبد الله تعالى أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو العباس المنصور
ابن أمير المؤمنين محمد الشيخ ابن أمير المؤمنين محمد القائم أيد الله تعالى أمره وأعز نصره لما يسر الأسطول الأحظى
الأسنى الجامع الأوجه الأكمل أبو سالم إبراهيم الشط ولما كان ممن علمت كفايته واشتهرت في الجهاد
عنايته ووردت في البر والبحر على الغايات غايته ولحقت بتجاربه ذوات الألواح والدسر
درايته رأى أيده الله أن يقلده قيادة الأسطول ويفضي به لوكيله الجهادية دفة المحمول
ويسند إليه رياسة القطائع والشواني ويجعل زمامها من يده الحازم اليقظ الذي لا يلم به
الكسل والتواني بعزم أعلى الله قدره وعرفه الخير والبركة في كل ما توجه إليه عزمه ويحمد
على العمارة البحرية والقطائع الجهادية وليستفرغ لذلك بما الحرية من الجد والمضاء والكفاية
التي يستمد منها النصر والمستفي عمل بما يقتضي له من الثواب ومنا من يد العز ومن بيده
الرضى وإنا نسأل الله توفيق الأعمال والبلوغ في هذا القصد الراقي مراتب الكمال
بيمنه وكرمه ومن وقف عليه فليعمل بمقتضاه ولا يتعداه والسلام

وقد كان في عداد رؤساء الأسطول علاوة على أبي سالم إبراهيم الشط أحد الذين فضلوا العيش بممالك المنصور، ويتعلق الأمر بالرايس شعبان الذي كان وقت تحرير الفشتالي لكتابه المناهل ـ قبطان الأسطول الإمامي ورئيس الجماعة من رؤساء المراكب الجهادية والقطائع البحرية ولم يفت المؤرخين لحركة المنصور في بلاد السودان أن يذكروا في أكثر من مرة، بدور الأسطول السعدي في كسب المعركة...

«...فاعتمل جوذر في إنشاء الأساطيل والسفن لاقتحام النيل والعبور لعدوته القصوى خلال مدة انتظارهم لرجوع جواب مولانا الإمام المنصور بالله... فيجدهم ذلك على أوفى أهبة واتم استعداد لغزو جيش (أسكيا) والانقضاض عليه بجوارح الأساطيل الإمامية السريعة الطيران... وأرسلت في النيل إرسال الأجادل المنقضة تقطع أنفاس الرياح وتستقل بالفيلق الجم والأوقار الثقيلة من البضائع... وهو اليوم ـ أيده الله ـ لهذا العهد بصدد الإكثار في الأساطيل رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين... بتسخير المجاذيف الثقيلة بالأساطيل كأجنحة الطير خفقانا وسرعة وطيرانا...».

وحتى نضع أنفسنا في الجو... ينبغي أن نستعرض هنا وثيقتين اثنتين : الأولى : التقرير الذي رفعه ميلتشيور بيطوني (Melchior Petoney) من جزيرة أركَين (Arguin) جنوب الرأس الأبيض إلى دون ميكيل دي مورا (Miguel de Moura) كاتب الدولة في ليشبونة بتاريخ 20 يناير 1591 حول التّجارة السرية المزدهرة من داخل القارة الإفريقية...[22]

«... أما فيما يتعلق بالتجارة مع هذه الجزيرة (أركَين) فإن جنابكم يجب أن يكون على بينة، إنه إذا كان جلالته يحب أن يرسل في كل عام إلى هنا مركبين أو ثلاثة مراكب محملة بالحاجيات الهولاندية والإسبانية كالأساور الزجاجية والسكاكين والأجراس والكتان والمرايا وبعض الحاجيات الصغيرة الأخرى فإن جلالته يستطيع أن يقوم بأعمال وافرة الخير هنا. فعلى بعد خمسين فرسخاً في داخل البلاد يملك السكان المحليون (Moors) مناجم عديدة غنية جدا بالذهب إلى درجة أنهم يحملون ذهبهم إلى هذا الحصن للتجارة والتبادل معنا، ومقابل بضاعات بسيطة تافهة يعطوننا قطعة ضخمة من الذهب ! ولأنهم لا يجدون سلعا للتبادل هنا فإن هؤلاء السكان من المدن يحملون ذهبهم إلى مدينة فاس وهناك يستبدلون الذهب بالحاجيات أو السلع المذكورة أعلاه. وبهذه الطريقة أيضا يستطيع جلالته أن يوقف هذه التجارة ويحول دون حصول ملك فاس على هذه الكمية الضخمة من الذهب. فالثياب القرمزية اللون والبنفسجية تلاقي إقبالاً كبيراً في هذه الإنحاء والأرض خصبة إلى حدّ كبير في داخل البلاد وتنتج كميات كبيرة من الحنطة ولحوماً من كافة الأنواع وكثرة وافرة من الفاكهة. ولذلك، إذا كان ممكنا يستحسن أن تتصل بجلالته لكي يرسل هو بنفسه مركبين أو يأذن لعظمتك بالتبادل التجاري هنا، وذلك لأن عندنا هنا مرفأ صالحاً جدا تستطيع المراكب أن ترسو فيه على مقربة من الحصن.

والبلاد التي تقع فيها جميع مناجم الذهب تسمى مملكة (Darha) وفي هذه المملكة عدد كبير من المدن والقرى، وفي كل مدينة وبلدة متنفذ مع عدد من الجنود، وهؤلاء الحكام المتنفذون هم أسياد المدن وأصحابها. وهناك مدينة بين

(22 Sources inedites, Saadiens, Angleterre, T II P. 44 – 45

هذه المدن تدعى Couton وأخرى Xonigeton كما أن هناك مدناً أخرى Tubguer وAzegue وAmader وQuaherque وكذلك بلدة Farao. وهذه المدن كلها عامرة وكبيرة ويقطنها سكان أغنياء من المدن، كما أنها غنية بأنواع كثيرة من المواشي وبالشعير والتمر. وتوجد هنا كميات وافرة من الذهب فوق الرمال بجانب الأنهار إلى درجة أن السكان المذكورين من المدن يحملون هذا الذهب شمالا إلى مراكش وجنوبا إلى مدينة تُنْبُكْتُ Tombuto في بلاد الزنوج، وفي مدينة تقع على بعد 300 فرسخ من مملكة Dorha (ادرار ؟) وهذه المملكة هي على بعد 60 فرسخا من هذه الجزيرة ومن حصن Arguin.

لذلك أتوسل إلى جنابكم أن تطلعوا صاحب الجلالة على كل ذلك، لأن المدن والقرى المذكورة ليست أبعد من سفر عشرة أيام من هنا. وأنني أتمنى من كل قلبي لو استطاع صاحب الجلالة أن يرسل تاجرين أو ثلاثة لكي يطلعوا على حالة البلاد ووضعها ويسافروا إلى المدن المذكورة ويتعرفوا على مدى ثروتها التجارية. فأي رجل يستطيع أن يسافر بأمان من تلك الأماكن. وهكذا، ودون أن أزعج عظمتكم بالمزيد من التفاصيل، استسمحكم عذراً لإنهاء رسالتي.

حرّر في جزيرة وحصن أركين (Arguin) في 20 يناير 1591.

خادم عظمتكم

Melchior Petoney

وبعد هذا التقرير الذي لا تخفى دلالته نتعمد أن نسوق هنا نص الرسالة الفريدة التي بعث بها المنصور إلى إحدى الشخصيات السامية المسؤولة في الباب العالي نرجح أن تكون السلطان مراد أو على الأقل الصدر الأعظم، وهذه النسخة رغم أنها لا تحمل تاريخاً ورغم أنها تعبر عن الأشخاص بلفظ (فلان) وعن المدينة بلفظ (كذا) إلا أننا نستشف من ثناياها أنها تتعلق بتحرك المنصور عبر جنوب المغرب في اتجاه بعض بلاد السودان !!

إن الأمر يتعلق كما أشرنا في فصل العلاقات المغربية العثمانية بشكاية رفعت إلى الباب العالي من «جهة بلد كذا» وبتدخلٍ من أسطانبول لدى المغرب، حيث نجد السلطان المنصور يجيب برسالةٍ على هذا النحو :

«...الشكاية التي بلغت مقامكم من جهة بلد كذا... إن منشأ هذه الشكاية إنما هو من جهة صاحب فلان لعلمه ما بيننا وبينكم من الممازجة والاتحاد والألفة التي لا تزال، بحول الله وقوته، موصولةً إلى يوم التناد... والذي يتقرر لدى مقامكم أن بلاد كذا ما وصل إليها أحد أصلاً ولا سمت إليها كتائبنا رجلاً ولا خيلاً ولا جابت إليها نهاراً ولا ليلاً... ولا طرقت لها ساحلا ولا أعملت إليها غدوا ولا رواحاً فضلاً أن يقع ما قيل من سبي الحرائر ونحو ذلك مما تاباه الشريعة والشعائر... وإنما كنا توجهنا إلى جهةٍ أخرى بعضها لنا كبلاد كذا، وما يليها من البلاد، والبعض الآخر مهمل غفل لأنه من لدن هلك فلان صاحب كذا فسدت في تلك البلاد الأحوال وظهر الاختلال وفشت المناكر وارتكبت المعاصي ونبذت الأوامر حتى إن أهلها لا يرون في ارتكاب المئاثم من جناح ونبذوا الشرائع فلم يضرب قط بين اثنين منهم عقد في نكاح، ولا وقع تزاوج ولا تناسل بين أحد على وجه مباح، هذا مع ما هم عليه من التشبه بأهل الأصنام في اتخاذ التصاوير والتماثيل وضرب النواقيس ونزع القلانس عند السلام، ولم يبق لهم غير التستر بظواهر الإسلام، وبلغ الحال إلى الغاية في اختلاف النظام وبقي أمر البلاد مهملا وأهلها فوضى وهملاً، فرفعنا لذلك عن تلك الجهة غائلة عدو الدين، خذله الله وهلك أحزابه وصب على أرضه نكاله وعذابه، لأن صاحب بلد كذا كان ملك الكثير من سواحل البلدان، ولما تغلب الطاغية صاحب بلد كذا على فلان زاد استئساداً فوق ما كان، وازداد شرها إلى الاستيلاء على القاصي منها والداني، لكونه كما لا يخفاكم أقوى من صاحب كذا يداً وملكا وسلطاناً، ولقد ملك اليوم من سواحل البلاد كذا وكذا وبلغ به الشره لا لتهامها حتى نقل إليها الرجال من ثغوره وجعلها أهم أموره، واحتفل لها باتخاذ سفن يريد بها ملك مصب الماء منها في البحر... ثم اتخذ سفنا أخرى صغاراً ليتأتى له تصعيدها مع الماء حتى يستولي بها على سائر البلاد الكدائية ويورثها للكفر مع أن أمرها أيضا ـ خذله الله ـ أسهل شيء عليه وأقرب من كل متناول إليه لما يتأتى له من سرعة الوثبة عليها بأسطوله الذي يسافر إلى الهند على الدوام ذاهباً عليها وجائياً، ورائحاً عليها وغاديا، ولما خشينا على من بها من المسلمين سوء المغبة وتوقعنا من الشيطان أن ينال من حزب الله حزبه، وخفنا إن أهملنا عدو الدين حتى يصل جناحه بأهل الكفر من أممها المتراكمة السواد، الوافرة الأعداد أن يستشري الداء ويعوز الدواء، وعلمنا مع ذلك أن أهل البلاد لا

يطيقون عن أنفسهم دفاعا ولا يمدون إلى الذب دون حماهم شبراً ولا باعاً، ووافق ذلك ما كان أيضا من استدعائهم لنا واستجارتهم بنا وموافاة إرسالهم إلينا وتطارح وفودهم علينا، تعينت علينا حينئذ إجابتهم، فوجهنا نحوها حماية للإسلام وتخذيلا لعباد الأوثان والأصنام، وعلى هذه النية بتنا من أول الأمر في تجهيزنا إليها لا لأجل مطمعة أو حرص على حصول منفعة، وإلا فنفقاتها إلى اليوم إنما هي من عندنا ومن طارفنا وتلادنا، وإمدادها إنما هي من أقطارنا وبلادنا، وهي اليوم بحمد الله من كل ما يخاف آمنة مطمئنة وراتعة في ظل السكون والهدنة، وأكابرهم كلهم عندنا هنا وهناك، قد انتالوا على إيالتنا مغتبطين بولايتنا شاكرين ما شملهم وشمل بلادهم من معداتنا، وصاحب كذا قد عرفنا مقامكم أن أحداً ما وصل البلاد ولا سلك أرضا من أغواره وأنجاده... ومع هذا بعدما جاءنا كتابكم بادرنا بما يقتضيه جميل ودكم ويرتضيه سلطانكم فكتبنا إلى من ببلاد الكدائية من خدامنا وأوصيناهم أن يتحاموا بلاده وجنابه ولا يطؤوا وهاده ولا هضابه لأنه ما قدم الشكاية لمقامكم إلا لمجرد ما يكون يتوقع من زيادة كتائبنا لجهته وصمودها لناحيته، أو ربما يكون صاحب الحضرة قد ساعده على هذه الشكاية لغرض له هو فيها وهو ما يريد من جعلها ذريعة لما يحب أن يستأثر به من الخراج الذي لكم على يده والجباية لما عسى أن يتسبب به من الفترة التي وقعت في جلب التجائر (كذا) لهذه البلاد في السنين الماضية عند الأخذ في توطين أحوال البلاد وإجراء أمورها على طريق السداد، على أن هذه المسألة ليس مما يؤثر ضعفاً حتى تكون سببا يسند إليه واسّاً يبنى عليه لأن هذه البلاد المغربية على ضعفها وتوقف أسبابها على هذه الجهة لأنها هي التي تليها على قلتها ؟ من البلاد الكدائية وتستمد منها ولا يستغنى في أسبابها عنها... ومع ذلك ما أثرت فيها هذه الفترة ضعفاً ولا استحالت عن حالها المعتاد وصفاً، فكيف ببلاد الحضرة التي هي أوسع أعمالا وافسح مجالا وأقوى بسطة وأوسع خطة، هذا مع استغنائنا أيضا عن هذه الجهة القليلة بما والاها من الجهات الكثيرة العديدة والأقطار الفسيحة المديدة التي هي معظم بلاد الكدائية وجلها وأنفعها وأجلها والسلام في تاريخ كذا...»[23].

23) مخطوطة الخزانة رقم ك / 278 ص 139.
د. التازي : الوثائق الدبلوماسية للمغرب كمصدر لتاريخ إفريقيا...
ندوة اليونيسكو بالمغرب (أبريل 1987).

وهذه الوثيقة أيضا مما يكشف عما كان يقصده السلطان أحمد المنصور بكلمة (العجم) الذين يحتلون الديار الإفريقية كما يكشف عن مدى اهتمام العثمانيين بالموضوع بل وتدخلهم بصفة مكشوفة في الشؤون الإفريقية..!

☆ ☆ ☆

ولقد فضل المنصور قبل إعطاء الإذن الأخير للجيش أن يبعث بخطاب إلى قاضي تنبكتو الشيخ عمر بن محمود بن عمر المسموع الكلمة في أجيال السودان أملاً في أن يصل إلى حل سلمي مع السلطان إسحاق، وقد كان الخطاب بتاريخ شوال 998 = غشت 1590 وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرقة التي خطت فيها يمين الإمام وبنان سبط النبي عليه السلام اسمه الشريف المبارك الكريم بتدبيج يبهر العيون حسناً ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبدأ الخطاب الكريم[24].

من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني أيد الله أوامره وظفر عساكره إلى القاضي عمر ابن محمود بن عمر، أسعدكم الله بتقواه وطاعتِه وعرفكم بركة الانطواء إلى حزب الهدى وجماعته، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد حمدا لله الذي جعل حركة أحمد كلما انتصب، حركة فتح وأمره إذ جزم أمر إقبال، وعلمه بالغلبة على سائر الأعلام معرُوفاً عند العرب والعجم فلذلك تتلى عند رفعه سورة الفتح قبل القتال، والصلاة والسلام على نبيه الذي أرسله بالحق بشيراً ونذيراً إلى الأبيض والأسود، وابتعثه أحمد الفاتح الخاتم فكان بالرعب منصوراً على الأقرب والأبعد، والرضى عن آله فروع النبوءة والرسالة وينابيع السماحة والبسالة أهل البيت والمشعر وكفلاء الأبيض والأسود والأحمر والأيمة الذين إن مكنوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وعن أصحابه الفائزين بسعادة الورد والصدر، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه،

---

24) الفشتالي : مناهل الصفا... ص 131 ـ 132.

يقول الإنسان يومئذ أين المفر، كلا لا وزر، ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الإمامي الأحمدي المنصوري الحسني الفاطمي بنصر لا تزال عزائمه مرهوبة، وغنائمه مجلوبة ومجنوبة، فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية دار الإسلام ومقر كرسي الإمام مراكش حاطها الله وبركة هذه الدعوة النبوية الشريفة التي عمت الربى والوهاد وطبقت أنوارها الساطعة الأغوار والأنجاد، وتنسكب كالمطر وتنسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر والظفر، وسعادة الورد والصدر، بحول الله وقوته والذي نوصيكم به تقوى الله العظيم والعمل بطاعته وأن توقنوا أن هذا الأمر العزيز منصور اللواء مديد بجنود الأرض والسماء، موعود إن شاء الله بالظهور والاستيلاء وأنه المصيب المنصور المفتوح له، لا يناوئه مناوئ أو يُعانده معاند الا قصمه الله وخذله، فهذا أمر الله الذي وعد بالظهور ظهيره ولم يخف الخذلان نصيره فلا يغلب حزبُه ولا يستطاع حربُه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، والدعوة التي قضى لمن اعتصم بحبلها ولجأ إلى ظل ظليلها بالاثرة الدائمة والسعادة الأبدية، ولمن تنكب عن حزبه وانتصب لحربها بالأسنة السمهرية والقواضب المشرقية بحول الله وقوته وعزته وقدرته، هذا وإنه وفقكم الله وسددكم وأعانكم على اتباع كلمة الحق وأنجدكم، فمما لا يخفى على كل مومن ومسلم موقن أن هذا الأمر الذي نيطت بجيدنا الكريم قلادته وكان لأولنا إبداؤه ولآخرنا إعادته، وهو أمر بغير عروتنا الوثقى لا يناط، وعقد بغير سلكنا المنتظم لا يتم له اتساق وارتباط، إذ نحن بأعبائه دون غيرنا مضطلعون والناس لنا فيه تبع مُتّبعون، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : الأئمة من قريش وقال عليه السلام لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى منهم إثنان، وقال عليه السلام إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه وقال عليه السلام الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم، وبهذه الآثار الشريفة وضروبها ظهر على الحق حتى درج سلفنا، وعليه حتى تقوم الساعة بحول الله يمضي خلفنا ونحن مذ ولاّنا الله هذه الأمانة العظمى التي قلدنا بها إمامة الجماعة، وأوجب لنا بها سبحانه على الخلق السمع والطاعة، وصرف لايالتنا الشريفة بها وراثة الأرض ومن عليها حتى تقوم الساعة، لم نغمد سيف الحق ولا أرحنا يوماً في مرابطها جيادنا المبارية للبرق، وعساكرنا الهاشمية التي إذا أرعدت نيرانها ذكّرت برجة الصعق، نفتح البلاد

المقفلة أرضاً أرضاً ونقيم من أعمال الجهاد ومصالح البلاد نفلا وفرضا، حتى انفتح في الجنوب إلى من يليكم، وأقيمت دعوتنا الكريمة في الأقطار التي تصافيكم وتدانيكم، وعلمنا أن التوكل لا يسع مع القدرة، وأن الله لا يقبل منا في إهمال ما استرعانا من أمور العباد والبلاد سوى معذرة فتعين حيئنذ استصحاب العمل، وتخطى المرعى من البلاد إلى العمل حتى ينجز الله وعده الكريم في الاستيلاء على الأقرب والأ بعد وملاك الأحمر والأسود، ونأتي بفتح الأرضين إن شاء الله على الوجه الأكمل، ولما كنتم بتلك المملكة معيد بابها ومدبر أحكامها الشرعية ومدير أسبابها وأنكم بالآثار الشريفة التي سردنا والأحاديث النبوية التي أوردنا بحقوق هذه الإمامة النبوية التي تجب طاعتها قطعاً وتحرم مخالفتها شرعاً، أعرف من سواكم، وأعلم بالتي هي أحسن لكم في دينكم ودنياكم، خاطبناكم بهذه الرسالة الشريفة لتكونوا أول من لبى دَاعيها، وأجاب مناديها، ولترفعوا بها عقيرتكم في تلكم الأقطار، وتوضحوا للناس هذه الحجج الساطعة الأنوار، حتى يعلموا منها ما أوجب الله عليهم من طاعة هذه الإمامة النبوية الشريفة التي لا يقبل الله إلا بطاعتها الأعمال، ولا يتم لمسلم نفل ولا فرض إلا بأداء ما افترض الله على الخلق من الانقياد الذي تكمل به الفرائض وتتم الأنفال، وتشعروهم أن من كان بهذه المراشد مقتدياً، ولنداء هذه الدعوة الشريفة ملبيا، ولأوامرها العلية المطاعة مقتفيا، وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله على الخلق الاستمساك بشريف طاعته والائتمام بواجب إمامته، فأزاحت قداحه، وتضاعفت من أقسام السعادة متاجره وأرباحه، فإن ذلك عند ذوي الإيمان أوثق العرى والذخر النافع الذي يجده كل موفق سعيد، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، ولتقف إن شاء الله لندب الناس إلى أداء ما افترض الله عليهم من طاعتنا على قدم، وتعقد مالكم في ذلك عند الله وعند خليفته الإمام من عظيم الأجر وجزيل المغنم، وتستشعروا ما قال عليه السلام لأن يهدي الله بك رجلا خير من أن يكون لك بها حمر النعم، واعتقدوا مع ذلك أن كل من أمنتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلكم الأقطار السودانية إن شاء الله طلوع الفجر، وكتائبنا المتلاطمة تلاطم أمواج البحر، فقد أمناه، ومن أجرتموه فقد أجرناه إظهاراً لمزيتكم وإشعاراً بمكانتكم لدينا ورفعة وإيذانا بجليل منصبكم عندنا وسمو رتبتكم والله تعالى يصل توفيقكم ويجعل الخير

رفيقكم وحزب الهدى قرينكم والسلام وكتب في شوال عام ثمانية وتسعين وتسعمائة.

ولكن رسالته بقيت دون جواب وهكذا عهد بقيادة الجيش للقائد جؤذر باشا... وكان يوم الإثنين 16 ذي الحجة 998 = 16 اكتوبر 1590 موعداً لاستعراض الجيش الذي كان في جملة قواده أحمد العمري وأحمد بن عطية وعمار العلمي وأحمد العلمي وبوشبير العمري وأبو غيث العمري وأبو حسن العلمي وقاسم الأندلسي...

وقد غادر الجيش الحضرة العلية في صدر المحرم عام 999 اكتوبر 1590 وسار الجيش على وثيرة الانضباط على ما يحكي الفشتالي... وبعد أن خيموا بأصقاع درعة حيث شيعهم هناك الحاجب القائد أبو محمد عزوز بن سعيد الوزكيتي، استقبلوا الصحراء يوم 24 صفر 999 = 22 دجنبر 1590 مستعينين بالبوصلة... على خطٍّ فصل الكلام عنه الكونط دوكاستري في بحثه عن فتح المنصور للسودان[25].

وقبل أن يلتحم الجيشان بعث القائد جؤذر إلى السلطان إسحاق برسالة يتوسل إليه أن يفكر في عروض المنصور ويتجنب إراقة دماء لا مبرر لها لكن مستشاري السلطان أوعزوا إليه أن محاولة جؤذر تنمّ عن خوفٍ وشعورٍ بالهزيمة، وهكذا رفض إسحاق سائر ما جاء في الرسالة...

وكان الصدام المؤسف على بعد ثلاث مراحل من (كاغو) يوم 16 جمادى الأولى 999 = 13 مارس 1591 على ما يقول الفشتالي بينما تمّ اقتحام العاصمة يوم 20 رجب (13 مايه) حيث استقبله خطيب جامع العاصمة الشيخ محمد دارامي وحيث أعطى القائد جؤذر أمراً صارماً باحترام أصحاب البلاد وبإعدام كل من سوّلت له نفسه الوصول إلى ممتلكات المسلمين.

وبعد محادثات بين الجانبين كان المفاوض المغربي فيها القائد أحمد بن الحداد العمري تم الوصول إلى مشروع اتفاق مشروط بقبول المنصور. إن إسحاق يعترف بسيادة المنصور ويقبل نقل الملح من عنده وكذلك المحار... وقد توجّه علاوة على هذا بهدية إلى المنصور تشتمل على «عشرة آلاف مثقال ذهباً ومائتي من

25) Hesp 1923 P. 446.

---- طريق الجيش المغربي من مراكش إلى كاغو 999هـ = 1591م حسب دوكاستري

كَراب من تنبكتو

الرقيق والتزم له بأداء مبلغ من الودع كان السكان هناك يستعملونه كعملةٍ على نحو ما هو الأمر في الهند...

وبمقتضى الاتفاق الموقت انسحب الجيش المغربي في بداية أبريل 1591 من كاغو في اتجاه تنبكتو التي دخلها يوم 6 شعبان 999 = 30 مايه 1591 حيث وجد فيها من جهة أخرى ما خفف عن الجيش مما كان يشعر به أثناء مقامه في كاغو من مناخٍ وخيم...

وفي نفس هذا اليوم كان القائد على العلمي مبعوث جوذر إلى المنصور قد وصل إلى مراكش يحمل معه مشروع الاتفاق المشار إليه كما يحمل أخبار انسحابه من كاغو..! وخلال انتظار جواب المنصور استمر القائد جؤذر في استعداداته في إنشاء السفن وبناء المراكب لاقتحام وادي النيجر في حالة رفض الملك لعروض سلطان كاغو...

وهكذا بادر المنصور بتطيير الجواب الذي كتب فيه بخط ذات يده : ﴿أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون...﴾[26]

وقد كان من نتائج ذلك «الاجتهاد» من القائد جوذر أن أصدر المنصور أمره بإعطاء قيادة الجيش لمحمود بن زرقون باشا، عوض جوذر... فهل كان هناك احتياط من تصرف جؤذر أو شكّ في تواطؤ محتمل مع قادة المنطقة أم إن المنصور خاف من أن يكون جؤذر قد توفّى ؟!

مهما يكن فقد تقلّد محمود زمام الأمر معززا بقائد كبير كان المنصور أسند له من ذى قبل استرجاع إقليمي توات وتيكورارين، هو القائد حمو بن بركة، وقد كانت مغادرة الجيش لمراكش في أواخر يونيه 1591 = أوائل رمضان 999.

وهكذا أخذ القواد الجدد طريقهم نحو الجنوب في عز الصيف حيث وصلوا إلى تمبكتو إلى يوم 26 شوال 999 = 17 غشت 1591 حيث قاموا بتنظيم الجيش وتجديد القيادة...

وكان أمبراطور سنغاي قد أعد العدة. وبإشارة من بعض رجاله ـ للكرة على الجيش المغربي سيما وهو يعلم عن عدم تحمل قطاعات الجيش المغربي لمناخ العاصمة... وكان الصدام مرةً أخرى على بعد من العاصمة وبالضبط في سهل بامبا (Bamba) شمالي النيجر بين كاغو وتنبكتو يوم الإثنين 25 ذى الحجة 999 = 14 اكتوبر 1591، وكان الموقف نفسه بالأمس فقد اضطرّ إسحاق إلى التراجع بعد أن كان قد أطمر سائر الآبار ونسف مباني العاصمة وتركها أقفر ما تكون !!

ولكن القائدين محمود باشا وابن بركة كانا بالمرصاد متتبعين ـ تساعدهم قطع الأسطول القوى ـ آثار إسحاق وراء نهر النيجر... حيث فرّ عنه أشياعه بمن فيهم أخوه محمد كاغ الذي انخزل عنه في نحو من ثلاثمائة من قرابته وعيون عساكره ورؤساء دولته... متطارحاً على قواد الجيش المغربي مظهراً أنه لم يكن على اتفاق مع أخيه إسحاق حول موقفه إزاء المنصور... طالبا أن ينضم إليهم

26) الأوفراني : نزهة الحادي ص 94.

في الإجهــاز على أخيــه... لكن قــواد المنصــور قرروا في الأخير أن ينفردوا بمطاردة عسكية حذراً من التعرض لمؤامرة تدبر ضدهم من طرف هؤلاء الذين كانوا بالأمس القريب في صف عسكية...

وقد فضّل أمبراطور كاغو أن يلتجئ إلى مملكة وثنية مجاورة دون أن يرضى بالاستسلام أمام عساكر أحمد المنصور لكن تلك المملكة لم تلبث، وقد خافت على نفسها من إنذار الجيش السعدي، إن لم تسلم له اللاجئ، أن أقدمت على تصفية إسحاق ! معتذرةً أنها بذلك قد درأت عنها خطر المداهمة...

ومن جهة أخرى فقد تأكد أن الأمير محمد كاغ الذي كان قد تظاهر بمشاقة أخيه إنما كان يراوغ من أجل استصفاء الملك لنفسه أو بالحرى الإجهاز على محمود باشا الذي كان يحسب لذلك ألف حساب !

لقد كان محمد كاغ اغتنم فرصة صدور الأمر بشمول الأمان لسائر السكان بعد مصرع أخيه فالتمس من قواد الجيش التنازل عن الأسطول الذي غنمه السعديون من السنغائيين بحجة أنه ملك للرعية وليس لأخيه وقد أرضى طلبه تأليفاً له وتأنسياً لكنه عمد في أعقاب هذا إلى إجراء تغييرات في القيادة مبعداً كل الذين لهم صلة سابقة بالجيش المغربي !

وحتى يعرف القائد محمود جلية الأمر بعث بسفير إلى الأمير الجديد يستقدمه وكان الرسول هو محمد بن عبد الملك الذي هاله ما رأى من استعداد حربي يناهز ما كان معروفاً لدى إسحاق الأمر الذي جعله يطيّر الأخبار إلى القائد محمود حاملاً معه اعتذار الأمير عن تلبية رغبة محمود بما هو مقبل عليه من تنظيم أحوال البلاد...

وكان الصدام المؤسف مرة أخرى مع هذا الذي ورد يجر الشوك والمدر على حد قول الفشتالي... فكانت نهايته في خاتمة عام ألف = اكتوبر 1592.

ويتحدث الفشتالي عن نفر آخر من أبناء عسكية بلغوا ستة امتذروا بعض الأطراف الشاسعة من تلك الممالك، لكن الملاحم أدركت أربعة منهم وألحقت الخامس بهم بينما نجى سادس يعتقد أنه عسكية نوح الذي قاد المقاومة ضد القائد منصور باشا...

لقد عقد المنصور مجلساً بمراكش استمع فيه إلى القصائد الشعرية التي نظمت في هذه الوقعة التي حملت عند بعضهم إسم (وقعة النيل)، وكان مما أنشد أمامه قصيدة لأبي فارس الفشتالي كان منها :

جيش الصباح على الدّجى متدفّق	فبياضُ ذا لسوادِ ذالك مُمْحق
صعقت بهنّ رعود نارك صعقة	رجّت لصيحتها العراق وجلّق !...

وكان مما أنشده أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي :

وطويت في السودان مملكةً لها	بين المشارق والمغارب مجثم !

وكان مما قاله شاعر الدّولة أبو عبد الله الهوزالي :

لئن أسلمت **أرضُ الجنوب** مقادها	فعن كثبٍ تُلقي مقاليدها مصر !!
وتزورٌ زوراء العراق فتهتدي	إليكم وأعناق العدا خضع صغر !![27]

وكان مما قاله أبو الحسن علي ابن منصور الشيظمي في الوقعة مشيراً أيضا لوقعة القصر :[28]

شامت بوارقها القتام وأرعدت	**هنداً مع السّند البعيد بأرعد**
وقُبَيْلهم تركت عساكر قيصر	**بالقَصْر** هلكى كالرماد الأرمد

وكان مما قاله أيضا أبو الحسن مشيراً لوقعة القصر أيضا ولوقعة النّيل أي وادي النيجر : **سنغاي :**

فالقصر جر لقيصر الحتف الذي	أبقاء منقطع العرى بعراء
والنّيل نال به الخليفة فتح ما	قد كان قبل أصم في عمياء !

هذا إلى نونية الفشتالي في المخازن والسودان :

من اللائي جرَّعْن العِدا غصص الردى	وعفّرن في وجْة الثرى وجه بَسْتان !
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت	تؤدي الخراج الجزلَ أملاك سودان !!

---

27) المناهل، تحقيق كنون 1964 ص 72 ـ 77 ـ 79.

28) وجدت في سيمانكاس أن ملف وقعة وادي المخازن يحمل اسم (وقعة القصر).

وكان مما سمعه - في جلسة أخرى - بهذه المناسبة من لامية لأبي فارس الفشتالي أيضاً :

فـــــــأدرك مصر والعراق ويمم   حرم الحيّ، آلكم خير آل
إن شرق البـلاد يرجـوك شـوقـــا   مثـل مـــا يرتجي طلـوع الهـلال !

وكان مما سمعه من أبي عبد الله الهوزالي أيضاً :

فـلا زالت الأقطـار تعطي مقـادهـا   لسيفـك من سوسٍ إلى خراسـانهـا !

وسمع أيضا من هذا الكاتب عن عزم المنصور على استرجاع الأندلس :

فملكت أقطـار الجنـوب ومـــا سمت   لمنـــال ذلـــك همـــة الاسكنـــدر
وتنـال أنـدلسـاً يجود ربـوعـوهـا   برد المنيــــة من قتـــــام الْعِثْيَرِ..

وكان مما سمعه من هذا الكاتب أيضا :

وقـــد كنت أعثرت جـــد الصليب   ستعثره ضعف ذاك العثـــــــــــار
وهـــاذي الشـــآم وهـــاذي العراق   ستمسي لكم وهي دار القرار !

وكان مما سمعه من أبي العباس ابن القاضي المكناسي :

واسعـــد فقـــد دانت ملـوك الـورى   لمـــا رأت في الانقيـــاد النجـــاح

وكان مما سمعه من القائد أبي الحسن الشيظمي :

يـا ابن النبيّ هنيئـا إن سعـدك قـد   أغنى وصـــار لـــه في الأمر تمهيـــد
لغيره من فتـوح الأرض فـــانتهض   لهـا فـأنـك بـالتـأييـد موعـود !

وكان فيما قدم للمنصور **بهذه المناسبة** الترجمة التي أعدها **الشيخ أبو القاسم الوزير الغساني لكتاب طبيّ بالقلم الأعجمي كان أهدى للمنصور من طرف بعض أكابر الروم، بعد أن قدّم له وأضاف إليه إضافات وسمّاه : «مغنى الطبيب عن كتب أعداء الحبيب...» وقد خاطب أميرَ المؤمنين بهذه الأبيات :**

هنيئـا لـك المنصور دانت لـك الـدنا   وذلت لـــــك الأمـــلاك ذل الترهب
فضضت ختـامـــاً لم يفض لســابـقٍ   بفتح الزنوج «والكتاب المعرب» !![29]

☆ ☆ ☆

29) المقري : روضة الآس ص 217 - 218 - المطبعة الملكية.

فلنعد بعْدَ هذه المجالس الشعرية إلى موضوعنا ! تتحدث المصادر المغربية المعاصرة عن جواب المنصور على كتاب محمود بالإذن له في العودة إلى البلاد وادالة العساكر بأخرى وتكليف القواد من عرب معقل وجشم وأهل سوس وبلاد حاحة وقبائل المصامدة بتمهيد تلك الممالك التي انتظمت مع المغرب فيما بين المحيط إلى بلاد أكنو (Kano) المتاخمة لمملكة بورنو التي تنتهي إلى بلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر والتي بادر ملكها بتجديد إرسال سفرائه إلى بلاط المنصور مؤكداً مسالمته...

وقد عهد بالقيادة العليا للباشا جوذر الذي رجع من جديد صحبة عدد من القبائل المغربية بقصد توطينهم هناك حيث سار معه القائد أبو علي منصور بن عبد الرحمن بلارباي صاحب جيش الاصباحية وعساكر النار... إلى لكتاوة للبقاء في منطقة تنبوكتو، وأوعز المنصور إلى باشا بملاك أمر معادن الذهب الثلاثة التي اكتنفتها تلك الممالك وأمره بالبناء عليها واختطاط الحصون حواليها وترتيب الجيش لحراستها...

ويدل على تمكّن جيوش المنصور من جل تلك الممالك، ما قدمه سكرتير البلاط السعدي من معلوماتٍ دقيقة عن البلاد والمقارنة بين نهر النيجر أو نيل السودان، وبين نيل مصر اللذين يصدران معا من جبل القُمُر فوق خط الاستواء ولو أن الأول منهما أطول امتداداً وأوفى عمراناً وأكثر أمماً...

وقد كان في جملة المشاريع العمرانية للقائد جؤذر باشا أن يقوم باختطاط جدران وبناء سدود لنهر النيجر لتعود تلك الأمصار زاهيةً على جلّق وشطّ الفرات..!

وكما هو الشأن في عملية ضخمة كهذه فلابد أن نجد متسللين هنا وهناك، ولابد أن نجد حركات معارضة كذلك لما أصاب بعض الجهات من تلف وخراب يلازمان الحرب عادة ولابد أن نجد من جهةٍ أخرى مناصرين مؤيدين موالين...

وبهذا الصدد نجد عدداً من الرسائل السعدية التي تقصد طريقها إلى هؤلاء أو أولئك على نحو ما تحتفظ به النصوص...

ونشير إلى رسالة المنصور إلى بعض رؤساء الأقاليم الجنوبية والمرابطين فيها يطلب إليهم أن يصفحوا عن كلّ من يظهر الإنابة والطاعة...

كما نذكر رسالة أخرى بعثها المنصور إلى داود كانته ملك كَابية (Kebbi) وهي تترجم عن الحالة هناك أثناء مطاردة نوح عسكية، وسنلاحظ أن أسلوبها مزيج بين الترغيب والترهيب : «... كتابنا هذا إليكم من حضرتنا المراكشية... ونظرنا متكفّل بإقامة الأولياء تحت ظل الأمن والهناء والاعداد الأشقياء باسترسال سحائب البؤساء والضراء[30].

هذا وأنك تعرف أن سكية جارك المقطوع الدابر قد كان، ومالنا في بلاده من أرب... إلى أن كاتبناه على مصلحة تعينت من مصالح المسلمين المهمة، ثم ندبناه إلى طاعتنا التي أوجب الله على الأمة فلما لم يستجب إلى المصلحة التي كاتبناه عليها... سال عليه من عساكرنا أعظم سيل وأنت خبير بما آل إليه أمره... ورأيناك قد تساهلت في الأمر، وأخذت في أمور تقود إلى التي هي أدهى وأمر، وذلك بغفلتك عما أوجب الله عليك من الطاعة، ثم بإيواء من استبقته من الشرذمة السنغائية، فقد بلغ أنك تؤويهم وتصل يدك بأيدهم وتمدهم بالخيل... وأنك مع ذلك تصدّ من جاء من أهل الممالك التي وراءك كأهل (أكنو) وأهل (كاشنة) ومن إليهم ممن يبتغي الدخول في الطاعة فتردهم وتصدهم بذلك عن السبيل المنجح، ونحن وإنْ أقدرنا الله... فلابدّ وأن نجري في طريق الإعذار على مجاري السنة... ونحن ندعوك أولا إلى الطاعة والدخول في سلك الجماعة... ثم نأمرك بمقاطعة الشرذمة الباغية السنغائية وبالقبض على كلّ من هو منهم بأرضك وتمكين ولاة مملكتنا منهم على يدك، ثم سدّ باب القبول بعدُ في وجه كل من أمك منهم وقصدك ونفيه عنك كل النفي... ثم بإعطاء كل ما كنت تعطيه لسكية عن كل سنة من القوارب... لأنك إذا كنت لا تستنكف من إعطاء ذلك لسكية الذي هو مثلك لا مزية له عليك إلا الغلب الذي له عليك، فكيف لا تعطيه لإمام أوجب الله طاعته عليك وعلى من وراءك من ممالك السودان على الطول والعرض...

---

30) كَنون : رسائل سعدية ص 127.

وإلى هذا فإن أجبت إلى الطاعة وشروطها من تمكين من هو لديك من سنغاي لولاة مملكتنا السودانية، وطرد من أم بلادك منهم إلى الأرض الخالية، والتزمت أداء ما كنت تعطي لسكية من القوارب وتخليت عن كل من جاءك من أهل الممالك التي وراءك إلى الدخول في طاعتنا التي عليك وعليهم فرض واجب، فأنت آمن مطمئن في نفسك وفي رعيتك وبلادك... ولك منا مع ذلك الاعتضاد بأجنادنا المظفرة بالله على أعدائك واضدادك «ثم إن أبيت الإجابة... فأبشر بعساكرنا... الظافرة وأجنادنا المنصورة تسيل على أرضك من هنا ومن تكَرارين وتوات، ومن الأجناد التي هناك بإزائك كسيل العرم... حتى ترد أرضك قاعاً صفصفاً وتلحقها بسكية... وقد أعذرنا إليك وأنذرناك فاختر لنفسك وتوخّ سبيل رشدك...».

وبالرغم من أن هذه الرسالة لا تحمل تاريخاً إلا أنها فيما يبدو كانت بعد سنة 1591 ولو أن بعض المؤرخين الأفارقة يضعونها في سنة 1594[31].

☆ ☆ ☆

لقد ظل القائد جوذر باشا ومنصور باشا عاملين على تلك الممالك : الأول في أقصى الجنوب، والثاني في الجنوب الأدنى من المغرب[32]، وقد كانت ترد عليهما الرسائل من طرف السلطان المنصور مخبرة بما تجدد من أخبار المملكة المغربية، وهكذا نجد رسالة بتاريخ سادس ذى الحجة 1003 = 12 غشت 1595 تخبر بالقضاء على تمرد الناصر الذي أنزلته إسبانيا في مليلية للتشويش على المنصور بعد الأخبار التي تناهت إليها عن استعدادات المنصور للنزول على الشاطئ الأندلسي دفاعاً عما تبقّى من المسلمين هناك...

وقد كان من ضمن ما تحدث به العاهل المغربي في رسالة على حدة ـ إلى القائد منصور باشا «...بما أنه تم القضاء على نوح عسكية فعليكم أن تتوكلوا على الله وتقلعوا عن تنبكتو إلى جهة كوكية ودندي وما يليهما طلباً لتوفر

31) ZAKARI DRAMANI au XVI^e Siecle Karthala 1982 P. 207

32) يذكر تاريخ السودان للسعدي ص 268 ـ 269 : أن الباشا (محمود ؟) أصيب بسهام أودت بحياته وأن رأسه قطع وبعث به إلى عسكية نوح الذي بعث به إلى كانطا ملك كابية الذي علقه في سوق (ليكا) وهي معلومات لم تشر إليها المصادر المغربية المعاصرة ؟

الخراج بتنبكتو، وتختم الرسالة بإعطاء تعليمات مدققة للقائد منصور حول الذخائر التي خلفها نوح ومصير أولاد عسكية بمن فيهم الذكور والإناث[33].

وتأكيداً لما سبق أن أشرنا إليه حول الهدف من توحيد إفريقيا تمهيدا للحركة نحو الأندلس، نجد أن المنصور يفصح عن ذلك أيضا في رسائله لقادة المشرق : صاحب مكة والمدينة وأرض الحجاز السلطان أبي المحاسن حسن بن أبي نمى بواسطة شيخ ركب الحاج المغربي المرابط محمد بن عبد القادر[34] وقاضي القضاة المالكية بمصر الشيخ أبي عبد الله محمد بن البكري الصديقي وأبي عبد الله محمد بدر الدين القرافي على ما قلناه في علاقات السعديين بهولاندا وإنجلترا وبلاد المشرق...

ومما له تعلق بموضوع علاقات المنصور بالسودان قضية الشيخ أحمد بابا الذي نقل عنه في حاضرة تنبكتو - العاصمة العلمية - انتقاده لصنيع المنصور إزاء تلك الممالك وتحريضه الناس على معاكسة الجيش المغربي، الأمر الذي أدى إلى القبض عليه من طرف القائد محمود باشا سنة 1002 = 1593 وترحيله إلى مراكش صحبة عدد من الفقهاء حيث بقى رهن الثقاف إلى أن أنجلت محنته يوم الأحد 21 رمضان 1004 = مايه 1506 بالإفراج عنه وإلزامه المقام بمراكش...

وهنا نرى من الطريف أن نسمع عن حوارٍ دار بينه وبين المنصور يعطي فكرة عما كان يؤمله العاهل من «جمع الكلمة» للتصدي للإسبان، وعما كان يراه الشيخ أحمد بابا من البداءة بأتراك الجزائر !

لقد سأل الشيخ عن الباعث الذي جعل المنصور يصدر أمره بالقبض عليه وتصفيده من تنبكتو إلى مراكش، فأجاب المنصور : أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم. فأجابه الشيخ أحمد : «فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فأنهم أقرب إليك منا ؟!» فأجاب المنصور بما قيل إنه حديث نبوي : «أتركوا الترك ما تركوكم» فقال الشيخ أحمد : «ذلك زمان»،

---

33) كَنون : رسائل سعدية ص / 178 - 179.

34) مناهل الصفا : 187 - 188. الاستقصا : ص / 147 - 150 - 151.

وبعده قال ابن عباس : «لا تتركوا الترك وإن تركوكم»[35] على ما ذكرناه في علاقات المغرب بالأتراك...

☆ ☆ ☆

أعتقد أن الملك المنصور كان يشعر بمضاضة وحرج معا، وهو لا يستطيع أن يكاشف الشيخ الجليل بما كتب به لقادة مصر والحجاز... وبمخططه مع هولاندا، ثم بالمهمة السرية البالغة الخطورة التي عهد بها للسفير المغربي عبد الواحد عنون لدى ملكة بريطانيا والتي بلغت حداً في الأهمية أن أشاع المنصور عنها أنها سفارة إلى الشام... على ما قلناه في العلاقات المغربية الهولاندية والإنجليزية وبلاد المشرق.

لعل الشيخ الجليل كان غافلاً عما جاء في رسالة المنصور التي بعث بها إلى الباب العالي كاشفا فيها تدخل «الطاغية» المباشر في غرب إفريقيا، وكيف استطاع هذا الطاغية أن يحمل الناس على عاداته من رفع القلنسوات عند السلام..! وكيف أنه اتخذ المنطقة معبراً له إلى الهند ذهابا ورواحا، مما أثبتنا نصه قبل قليل...

☆ ☆ ☆

وقد أثارت تلك الفتوح من جهة أخرى قضية شرعية استرقاق بعض المجلوبين من هناك الأمر الذي حرك من أقلام رجال الإفتاء سواء في السودان أو في المغرب أو حتى في مصر مما يعتبر منطلقاً، في نظرنا، لحظر الرق في الغرب الإسلامي، وهكذا فعلاوةً على توجه المنصور لعلماء المغرب، بعث لعلماء الأزهر يستفتيهم في رسالة طويلة[36].

☆ ☆ ☆

35) يلاحظ أن كتب الحديث المعتمدة لا تردد صدى لكل من الأثرين الواردين... هذا وقد أذن السلطان زيدان ـ بعد وفاة والده ـ بعودة الشيخ أحمد إلى وطنه... نزهة الحادي ص 97.

36) وقفت على نص هذه الرسالة في تقييدٍ مخطوط يوجد بالخزانة الحسنية بالرباط حول ابتداء اضمحلال المغرب من إنشاء السلطان مولاي عبد الحفيظ بن السلطان مولاي الحسن (الأول)...
هذا وقد كان من أقدم المؤلفات التي عالجت موضوع الاسترقاق كتاب (معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود) للشيخ أحمد أقيت من أسرة القاضي عمر أقيت الذي كان ضمن المرحلين من تنبكتو إلى مراكش...

وقد أدركت الوفاة المنصور دون أن تتحقق جميع مشاريعه في السودان ودون أن يتمكن من الوصول إلى الأندلس... وترك وراءه عدداً من المعارضين لحركته في الجنوب، وطائفة أخرى كانت تبرر تدخلاته تلك : فيهم الفقهاء والمؤرخون والسياسيون.

☆ ☆ ☆

ولا شك أن البحوث العلمية المجردة التي أخذت في الظهور ستزيد في كشف الجوانب الخفية لذلك الصدام...

مهما يكن فقد ظلت تلك الممالك بعد وفاة المنصور على صلة بملوك المغرب تدعو لهم على المنابر بينما ظلّ هؤلاء يبعثون لها بممثلين عنهم، باشاوات وقواداً، وهكذا نجد رسالة من السلطان المولى زيدان إلى المملكة الجوفية (الجنوبية) السودانية وقائدها محمود باشا وسائر القواد والكواهي والمقدمين والبادشوظات وجملة الظاش وبَلَكباشيات والأوظاباشيات وجملة اليولظاش[37]...

ينهي إليهم ما تجدّد من أخبار الحالة الداخلية بالمغرب حيث نراه يتحدث عن مصرع قائده مصطفى باشا ربيع الثاني 1018 = يوليه 1609 في أعقاب حادثة عثور فرسه وعزم السلطان على مواصلة السير نحو فاس العاصمة. وإلى جانب هذا يخبر زيدان بتوافد البعثات الدبلوماسية على بلاطه الأمر الذي كان يريد به أن يعلم قواده بالسودان أن الأمور تسير في طريقها وأنه يتمتع داخلاً وخارجاً بالقوة والمهابة...

ورغم أن الأمراء السعديين تعرضوا لظروف داخلية قاسية... فقد ظلوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين بتلك الجهات، وهو الأمر الذي تفسره تسمية الباشاوات هناك بظهائر رسمية، ويمكن أن نقرأ ذلك في التحلية التي كانوا يصدرون بها رسائلهم السياسية إلى ممالك أروبا... وهكذا نجد السلطان محمد

---

37) ألقاب في النظام الانكشاري : الآغا (السيد) الكاهية (المعتمد) البادشوظات ـ (الحرس السلطاني) بَالاكَبَاشيات (أصحاب السيوف) ـ الأوظا باشيات (حراس الغرف السلطانية) واليولظاش (جنود المشاة)... المعجم التركي العربي وزارة الثقافة والإعلام بغداد 1981.

الشيخ الأصغر في آخر رسائله إلى هولاندا ينعت نفسه بأنه «خضعت لأوامره جبابرة الملوك السودانية وأقطارها القاصية» وذلك بتاريخ رجب 1054 = 1644..!

وفي سنة 1628 = 1037 أعلن في دييني (Dienné) عن موت السلطان المولى زيدان وتنصيب ابنه المولى عبد الملك، وفي سنة 1632 = 1041 ـ 42 عين السلطان المولى الوليد الحاكم على السودان. وهكذا نجد موريس دولافوس يجعل تاريخ 1660 = 1070 ـ 71 بداية لنهاية الحكم المباشر للأشراف في السودان[38].

ومن جهة أخرى فقد استمر أهل السودان في صلاتهم الودية بالملوك السعديين فكانت البعثات إلى الديار المقدسة سنوياً تتم تحت قيادة رئيس الركب المغربي الذي ينتظر وفود حجيج السودان ليشق بها طريق الصحراء نحو المشرق على ما تفيده رحلة ابن مليح التي ترجع لتاريخ 1040 = 1630 والتي تتحدث عن وصول باشا السودان القائد علي بن عبد الله الشرقي الذي كان يصحبه محمد بن الشيخ أحمد بابا السوداني، وهي أخبار تدل من جهةٍ أخرى على أن النفوذ التركي في المغرب الأوسط والأدنى لا يتعدى سيف البحر إلا قليلا...[39]

38) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص 645 Not 3 Hesp, 1921 p. 439.

39) ابن مليح : أنس الساري والسارب تحقيق محمد الفاسي، فاس 1388 ـ 1968.

العلاقات المغربية مع البلاد المنخفضة على عهد السعديين.

- العوامل التي قربت البلاد المنخفضة من المغرب.
- سفارة أفُوقاي إلى لا هاي 996 = 1588.
- تبادل الرسائل بين المملكة المغربية والولايات العامة.
- قرض من المغرب للولايات لمساعدتها على بناء استقلالها.
- سفارة مغربية أُخرى في لاهاي.
- المعاهدة المغربية مع البلاد المنخفضة.
- توسيط المغرب للولايات لاسترجاع الخزانة السّعدية.
- خبراء من الولايات في بناء المراسي يعملون في الجنوب.
- أول بعثة مغربية مقيمة كانت بلاهاي...
- الموقف الهولاندي من الزعامات المحلية بالمغرب.
- لِيبيدْكِيرك في مراكش وابن عسكر في لاهاي.

العلاقات المغربية مع البلاد المنخفضة على عهد السعديين.

منذ أن استقلت البلاد المنخفضة أواخر القرن السادس عشر كوّنت حكومة فيدرالية متركبة من سبع دويلات تحتفظ كلّ منها باستقلالها الداخلي تحت اسم جمهورية الأقاليم السبعة وقد تكون من مجلس الأقاليم ما سمي بالولايات العامة.[1]

ولم يمض وقت طويل على استقلال البلاد المنخفضة حتى صار أسطولها سيّد البحار، وكانت السفن الهولاندية لا تستطيع أن تعبر مضيق جبل طارق دون أن تتعرض لخطر مزدوج، فهي إن اقتربت من الساحل المغربي تعرضت للأسر والحجز وإن جنحت إلى الساحل الآخر استهدفت للتحطيم واقتناص البحّارة لاستغلالهم في السفن الإسبانية الكبيرة...

وتعتبر هولاندا ـ وهو الاسم الذي غلب عليها ـ من الدول الأوربية السبّاقة إلى التقرب إلى المغرب وخاصة بعد وقعة القصر الكبير (وادي المخازن) التي لقى فيها ملك البرتغال دون سباستيان مصرعه على ما قلنا في (فصل العلاقات المغربية البرتغالية).

وكانت هناك عوامل متعددة ساعدت على هذا التقارب، منها شعورهما المشترك ضد اسبانيا، وإقامة جالية يهودية من المطرودين من الأندلس في البلاد المنخفضة نظراً لما اشتهرت به من التسامح الديني فكوّن أفراد هذه الجالية اليهودية الثرية علاقاتٍ تجارية مع إخوانهم المقيمين في المغرب والجزائر وربطوا معهم صلات متينةً فكانت السفن الهولاندية تتردد بدون انقطاع على الموانئ المغربية...

1) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 122 تعليق 1.

وهكذا لم تمر بضع سنوات على تولّي الحكم حتى وجدنا رسالة من الولايات العامة إلى مولاي أحمد المنصور صادرة من البلاد المنخفضة وهي تحمل تاريخ 15 اكتوبر 1596 = 22 صفر 1005 تتحدث عن أن الولايات العامة توجد في حالة حربٍ ضد اسبانيا... وتخبر بأن أُسطولها الذي يتحالف مع أُسطول أنجلترا قد استولى على قادس... وأنهم أثناء العمليات الحربية عثروا على بعض المواطنين المغاربة في المنطقة لكنهم - تعبيراً منهم على ما يكنونه للمغرب من مودّة - أطلقوا سراحهم... وأنهم بهذه المناسبة يخبرون العاهل المغربي بأنهم يتركون لجلالته الفرصة للتفكير في عقد اتفاق سلام بين هولاندا والمغرب وهم يعينون لهذه الغاية السيد بارتولوموز (PARTULOMOSE) وكيلاً عنهم...[2]

ولم تلبث لاهاي أن بعثت إلى السلطان أحمد المنصور برسالتها بتاريخ 31 اكتوبر 1596 = 9 ربيع الأوّل 1005 إليه أن يمنح رعاياها جوازاتٍ على نحو ما يمنحه لأنجلترا والأصدقاء المقربين إلى المغرب، وأن يساعد على إيواء اللاجئين إليه من الولايات العامة...

ولقد احتفظت هولاندا بصداقتها مع المغرب بعد وفاة السلطان المنصور السعدي، وهكذا نجد جواباً باللسان العربي من السلطان الواثق بالله أبي فارس ابن السلطان المنصور[3] (1012 = 7 شتنبر 1603 - 1018 = 1610) وكان مرفوعاً من مراكش بتاريخ 18 رمضان 1014 = 27 يناير 1606 إلى الكونت موريس دوناصو (MAURICE de Nassau).

ويظهر أن الخطاب كان جواباً عن رسالةٍ من الولايات العامة حملها المبعوث الهولاندي بييطر مارتينيز كُوي (Pieter Maertenez coy) وقدمها لأبي فارس عند الاستقبال الذي تم من طرف العاهل يوم 5 يوليه 1605 = 18 صفر 1014.

إن السلطان أبا فارس لم يكن على علم كامل بالتنظيم السياسي للولايات العامة، ولهذا فإنه يكتب إلى دوناصو (de NASSEAU) على أنه ملك هولاندا ولعل مردّ ذلك لأنه كان المشهور بانتصاراته في اسبانيا...

2) J. Caillé : Ambassades... Marocaines au Pays-Bas Hes. 1963 p. 6

3) لقد كان المنصور وزع المغرب بين بنيه : أبي فارس - زيدان - محمد الشيخ.

لقد أخبر العاهل المغربي الكونط الهولاندي بأنه استقبل سفيره كوي (Coy) وأنه يرحّب به كسائر الهولانديين...

ولم تلبث هولاندا أن ربطت علاقاتها بالسلطان زيدان ابن أحمد المنصور الذي تمكّن من مراكش أواخر 1015 = أبريل 1606، وهكذا بعثت الولايات العامة برسالةٍ من لاهاي بتاريخ 27 يوليه 1607 = 2 ربيع الثاني 1016 تذكره بالعلاقات الحسنة الموجودة بين البلدين إلى الأيام الأخيرة... وتشكو من توقيف سفيرها بـ.م.كوي (Coy) بدسائس من بريطانيا، والولايات تعتبر هذا التدبير جائراً، وتطلب التدخل لتحرير مبعوثها مع سائر الهولانديين الأسرى... وبالإضافة إلى هذا فإن الرسالة تذكّر بأن الإشارة أُعطيت للسفن الهولاندية لضمان أمن مواطنيها ولكن من غير نيةٍ سيئة حيال الأمبراطورية المغربية ويتخلص الخطاب بعد هذا إلى مناشدة السلطان زيدان بالعودة إلى ما تفرضه الصّداقة التقليدية بين الدولتين...

وقد كان إطلاق سراح كوي (Coy) خطوةً نحو تحسين العلاقات وهو الأمر الذي يشعر به طلب تقدم به من لاهاي بتاريخ 31 يبراير 1609 صامويل بالآش (Samuel Pallache) إلى أمير أُورانج (ORANGE) باسم السلطان زيدان، يتعلق بتسليم ثلاث سفن حربية لنقل العكسر الهولانديين إلى تطوان...

وبعد رسالةٍ من الولايات العامة إلى زيدان من لاهاي بتاريخ 9 أبريل 1609 تلتمس فيها منه منح بعض تجار أمستردام الإذن بحرية التجارة بالمغرب نجد رسالة ثانية من الولايات إلى السلطان زيدان بتاريخ 11 أبريل 1609 تخبره بأن باخرتين حربيتين جاهزتان استجابة لطلبه السابق على لسان وكيله صامويل بالاش...

وقد اغتنمت الولايات العامة هذه الفرصة لتجدد طلبها للعاهل بأن يبذل مساعدته للرعايا الهولانديين بالمغرب على نحو ماتقوم به الولايات بالنسبة للرعايا المغاربة المقيمين في هولاندا...

---

4) يظهر أن هذه الرسالة كانت جوابا عن رسالة من الولايات العامة حملها (P.M. Coy).

والولايات بعد هذا ترجو إلى السلطان زيدان أن يتفضّل بتخصيص مقابلة لقائد الباخرتين المذكورتين وولفير هيرمانز (Wolffaert hermanrz).

وتوجد رسالة أخرى من الولايات العامة إلى زيدان من لاهاي بتاريخ 5 مايه 1609 تطلب إلى الملك زيدان مساعدة عددٍ من تجار ميدل بورغ (Middelbourg) لضمان ما لهم من مبالغ مالية متبقية على دييكو دوكوصكِي (Diego de Cosgaie).

☆ ☆ ☆

وكما تفيده المصادر المغربية من استيلاء الأمير زيدان على فاس أواخر 1017 = أوائل 1609 وفرار أخيه محمد الشيخ عنها إلى العرائش ثم إلى اسبانيا... فإن هناك رسالةً باللسان العربي حررها السلطان زيدان في قصره بضواحي فاس (رأس الماء) بتاريخ 15 صفر 1018 = 20 مايه 1609 إلى ب.م.كوي (P.M. Coy) يعترف له بالجميل على الخدمات التي أداها ويخبره بأنه أعطى أوامره لأهل الصيجة[5] بأداء الصلات له إلى أن يعود السلطان إلى مراكش من قصر رأس الماء...

وعندما شعروا بأن (صامويل بالاش) يعمل على أن يحتكر لنفسه سائر التجارة الهولاندية بالمغرب كتبت الولايات العامّة من لاهاي بتاريخ 21 مايه 1609 تحتج لدى السلطان زيدان على هذه المحاولات ملتمسة أن تضمن الحرية للتجار الهولانديين ليتعاملوا مع من شاءوا وذلك ضماناً لمصلحة المغرب ومصلحة هولاندا معاً...

وتقديراً من السلطان لاستجابة الولايات العامة في إرسال السفينتين الحربيتين المطلوبتين منه كتب باللسان العربي من مراكش إلى لاهاي بتاريخ 18 ربيع 1018 = 21 يوليه 1609 يشكر على إرضاء طلبه، ويخبر بأن الباخرتين وصلتا فعلاً إلى أسفي بيد أن الغرض الذي من أجله كان قد طلبهما، أنجز قبل وصولهما..!

5) أهل الصيجة : أصحاب صندوق المال والكلمة من أصل تركي : صايجي، محاسب، ومن الملاحظ أن عدداً من الكلمات التركية دخلت المغرب منذ عهد السلطان عبد الملك...

وقد شفع الرسالة العربية بأُخرى باللاتينية يخبر فيها بأنه توصّل بعروض الولايات العامّة عن طريق مبعوثها القائد وولفير هيرمانز (Wolffaert Hermansz)[6] وأنه جواباً على ذلك يبعث بسفيره القائد حمو بن بشير ليؤكد عن عواطفه نحو هولاندا...

وقد تميز مقام السفير حمّو بن بشير في لاهاي بعددٍ من الاتصالات، وهكذا نجد رسالةً له من لاهاي بتاريخ 12 اكتوبر 1609 = إلى رؤساء الولايات العامة يخبرهم فيها بأن السلطان زيدان عهد إليه برفع رسالة خاصة إلى المسؤولين في أمستردام...

كما نجد له رسالة أُخرى إلى رؤساء الولايات العامة من لاهاي بتاريخ 7 نونبر 1609 يشكرهم فيها على الاستقبال الذي خصصوه له ويطلب إليهم تزويده بنسخةٍ من مختلف القرارات التي اتخذوها ليرفعها للعاهل المغربي.

ورسالة ثالثة منه إلى الرؤساء حررها في لاهاي بتاريخ 18 نونبر 1609 حول العُود الذي كان العاهل المغربي اقتناه لمصالحه الخاصة... فهو يذكر في رسالته بأنه علم بأن التجار الذين أمروا بوضع اليد على البقم (خشب البرازيل) يريدون رفع القضية أمام محاكم أمستردام... وأنه يأسف لذلك لأن فيه مضيعة للوقت... وهو يعرب عن أنه لا يستطيع العودة إلى المغرب قبل أن تسوى هذه القضية ويرفع الحجز عن العُود الموجه إلى سلطان المغرب... وقد ظهر من خلال الوثائق اللاحقة أن القائد حمو بن بشير وعد هولاندا ـ باسم العاهل المغربي ـ بتقديم مبلغ مالي هام مساعدة لهولاندا على بناء استقلالها...

ومن جهة أُخرى نجد رسالة من الولايات العامة إلى مولاي زيدان من لاهاي بتاريخ 5 دجنبر 1609 تلتمس منه فيها أن يرجع إلى وولفير هيرمانز (Wolffaert Hermansz) المبالغ المالية التي أخذت منه لقاء الغرامة التي ترتبت على هولاندي آخر هو : بول فان ليبّيلو (Paul Van Lippeloo) الذي نال عفو العاهل...

---

6) تسميه الرسالة ورفط هرمان.

كما نجد رسالة من لاهاي إليه بتاريخ 19 دجنبر 1609 تشكره على جهوده المبذولة من أجل ضمان الأمن للتجار الهولانديين المشتغلين في المغرب ويضمنون له المعاملة المماثلة بالنسبة للرعايا الموجودين في هولاندا...

وقد وجّه السلطان زيدان إلى الولايات العامة من المعسكر بتاريخ 10 ذي الحجة 1018 = 6 مارس 1610 يشكرها على حسن استقبالها لوكلائه لديها... ويخبرها بأن الهولانديين العاملين بجيشه يعاملون معاملة حسنة، كما يحيطها علماً بتحركات وولفير (Wolffaert) في قضية بيريس (Peres) وليبّيلو (Lippeloo)... وبعد هذا يتقدم بطلب لصالح وكيليه : أحمد بن عبد الله المرني، وصامويل بالاش... ثم يشير إلى أن هناك منتوجاتٍ مختلفة يمكن أن تصدر إلى المغرب، ويشعر بأن موقف اسبانيا من المغرب يقرّب العاهل إلى هولاندا أكثر فأكثر ويتخلّص في الأخير إلى طلب العاهل بناء ثلاث أو أربع سفن خاصّة لملك المغرب.

☆ ☆ ☆

وقد تميز وجود السفارة المغربية في لاهاي بالتفاوض حول عقد اتفاقية بين المغرب وهولاندا بتاريخ 29 يونيه 1610 وقد تضمنت رسالة من البعثة المغربية إلى الولايات العامة بتاريخ 8 يوليه 1610 إعطاء التفسيرات المطلوبة إلى البعثة حول بنود الاتفاقية المقترحة...

وقد تجلّى من خلال هذه الرسالة أن السلطان مولاي زيدان قَبِل مبدأ منح قرض لهولاندا يبلغ زهاء مليون ونصف المليون لبناء استقلالها... كما تجلّى منها أن الطرفين يلتزمان بفتح موانئهما في وجه سفن بعضهما سواء كانت السفن تجارية أم عسكرية، وسواء في ذلك الموانئ الموجودة حالياً أو الموانئ التي يتم فتحها في المستقبل... ومن جهةٍ أُخرى فإن الدّولتين تتفقان على استمرار تبادل السفراء بينهما رغبةً في دعم الصلات الودية بينهما، وبالجملة فإن الاتفاقية تدل على صداقة أكيدة راسية الأساس ثابتة الدعائم.[7]

(7 Caillé (Vacques): Ambassades et missions marocains aux Ray – Bas à l'époque des sultans Saadiens H.T. 1963 P.P. 5 – 67.

وهذه صورة لتوقيع كلّ من أحمد بن عبد الله المرني ورفيقه صامويل بالآش على رسالة 8 يوليه 1610. التي تمهد للاتفاقية المذكورة :

وفي أثناء مقام السفارة المغربية بلاهاي بعثت الولايات العامة إلى السلطان زيدان بتاريخ 3 دجنبر 1610 = برسالة توصية لصالح مبعوثها أنريك دي أكويلا (Enriques de Aguila) الذي قالت الرسالة إنه سيقدم إلى المغرب للاجتماع بالعاهل...

وقد أورد الكونت دوكاستري نص مشروع رسالة اعتماده لدى ملك المغرب وكانت تحمل تاريخ 25 نونبر 1610.

ونعود إلى لاهاي لتتبع نشاط السفارة المغربية حيث نجد رسالة من المرنى وبالآش إلى الولايات العامة بتاريخ 14 دجنبر 1610 حول السفن التي طلب العاهل المغربي بناءها والتي علم أنها ستكون جاهزة للاستعمال خلال شهر... وقد طلب المبعوثان مقابلةً مع عمداء الولايات للتحدث حول شؤونٍ تتعلق بملك المغرب...

وبالإضافة إلى هذا نجد رسالةً من المبعوثين المغربيين إلى الولايات العامة بتاريخ 16 دجنبر 1610 تؤكد أن العاهل المغربي يلتزم دائماً بتقديم المساعدة المالية التي كان وعد بها من ذي قبل القائد حمو بن بشير إلا أن المبعوثين يلتمسان إرجاء التنفيذ إلى أن تتم المصادقة بصفةٍ نهائية على الاتفاقية المذكورة.

الاتفاقية المغربية الهولاندية .

وأخيراً تم اتّفاق الطرفين بتاريخ 24 دجنبر 1610 = 8 شوال 1019 على معاهدة تحتوي على تسعة عشر فصلا حررت باللغة المستعملة لدى الولايات وترجمت منها إلى الفرنسية ثم من هذه إلى العربية...

وقد ختم آخر بند فيها بتوقيع أحمد بن عبد الله المرني وتحته توقيع صامويل بالآش.

وهكذا فلثالت مرة بعد أيام الموحدين والمرينيين توقع دولة مسيحية مع الدولة المغربية اتفاقا مرتّباً، وقد ظهر الأمر حدثاً فريداً بالنسبة للدبلوماسيين المعتمدين في لاهاي الأمر الذي حملهم على رفع نسخ من المعاهدة المذكورة لحكوماتهم نقلا عن النصّ الهولاندي...!

ومن جهة أُخرى فإننا ـ كما أشرنا ـ نلاحظ مساعدة المملكة المغربية للولايات العامة (هولاندا) على بناء استقلالها على نحو ما سيفعل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية.. ومع دول أُخرى في المجموعة الدولية...[8]

☆ ☆ ☆

وقد بعثت الولايات العامة إلى السلطان زيدان من لاهاي بتاريخ 27 دجنبر 1610 تشكره على حسن الاستقبال الذي خصصه للهولانديين بالمغرب وتخبره بأنها أصدرت أمرها بإنجاز طلب بعثته المتلخص في بناء وتأثيث ثلاث أو أربع سفن حربية لحساب الملك ويلتمسون منه في الآخر : المصادقة على الاتفاقية المبرمة بين عمداء الولايات وبين المبعوثين المغربيين...

ولما أوشكت البعثة المغربية على مغادرة البلاد بعثت من ميناء هيلدير (Helder) بتاريخ 4 يناير ثم بتاريخ 21 يناير 1611 تشكر الولايات العامة على حسن استقبالها.

وقد تمت مصادقة السلطان المولى زيدان على الاتفاقية المغربية الهولاندية في مراكش بتاريخ 24 محرم 1020 = 4 أبريل 1611.

وقد وردت في ختام الاتفاقية هذه العبارة التي ترجمت على النحو التالي :

«سائر هذه الفصول مصادق عليها من قبل جلالتنا وهي عندنا موضع استحسان وكدليل على ذلك نضع خاتمنا وتوقيعنا عليها في قصرنا بمراكش بتاريخ 24 محرم 1020 = 4 أبريل 1611».

---

8) S.I.H.M – Pays – Bas – s. 1 T. 1 p. 577 – 585

وهذا يدل على أن المعاهدة كانت تتوقف على مصادقة العاهل المغربي كما هو المعتاد في التقاليد المغربية بالرغم من أن المؤرخين الهولانديين يؤكدون أن المعاهدة لم تحتج إلى مصادقة السلطان زيدان لأنه كان قد خوّل مبعوثيه كامل الصلاحية لتوقيعها في لاهاي....

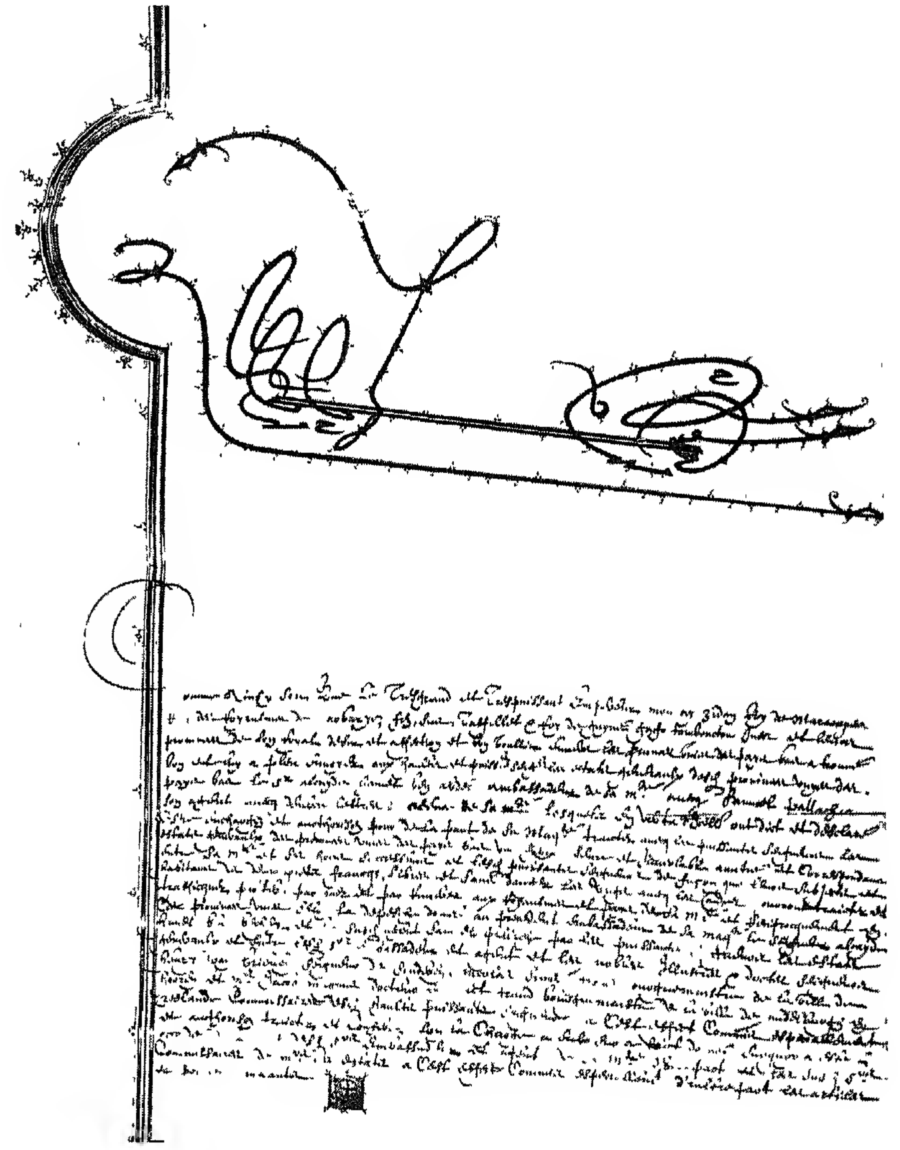

صورة للترجمة الفرنسية التي حررها ساموبل بالآس كديباجة للمعاهدة المغربية الهولاندية التي أبرمت بلاهاي يوم 24 دجنبر 1610 (8 شوال 1019) والتي صادق عليها العاهل المغربي يوم 24 محرم 1020 (8 أبريل 1611) بمراكش.

وقد بعث السلطان زيدان إلى الولايات العامة من مراكش بتاريخ 30 جمادى الأولى 1020 = 10 غشت 1611 يتوجه بالشكر للولايات على الحفاوة التي وجدها سفراؤه أثناء مقامهم بهولاندا، وهو يخبر الولايات بأنه قد صادق على الاتفاقية المعقودة بين الطرفين... ويطلب بهذه المناسبة إرسال مهندسين هولانديين من أجل بذل المساعدة والخبرة لبناء بعض الحصون في عدد من المراكز بالمغرب، وقد أحاط الولايات علما بأنه يعتزم إرسال سفارة إلى اسطانبول من أجل الحصول على مساعدة لوقف أطماع الإسبان في بعض الثغور وخاصة المعمورة...(9)

ونجد بعد هذا رسالة أخرى من مولاي زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 20 رجب 1020 (28 شتنبر 1611) يخبرها بأن أسطول فيليب الثالث هاجم الأسطول المغربي الذي يتألف أصلاً من سفن هولاندية... وقد نجت سفينة بينما عطلت اثنتان. وتأجل إرسال السفارة إلى تركيا... وقد اتخذت التدابير لمواجهة التحرك الإسباني الذي زاد في حنقه وإغضابه الاتفاق الذي تم بين المغرب وهولاندا، ويتخلص السلطان زيدان إلى أن يطلب من الولايات العامة منح المساعدة اللازمة لكل ما يطلبه وكيله صامويللآشلاش..!

☆ ☆ ☆

ويكتب المولى زيدان من ضواحي مراكش بتاريخ 10 ذي الحجة 1020 = 13 - 2 - 1612 إلى نائبه في لاهاي صامويل بالآش يخبره بأنه في طريقه إلى زيارة أسفي، وأنه ينتظر بفارغ الصبر عودة صامويل الذي يطلب إليه أن يلحّ على الأمير موريس ليبعث باليخت الملكي بواسطة سفينة هولاندية ويخبر العاهل نائبه بأن وكيل فرنسا بالمغرب كاسطيلان (Castelane) قدّم اقتراحاً بعقد معاهدةٍ مع فرنسا تشبه المعاهدة التي عقدتها هذه الأخيرة مع تركيا، وأن مشروع البنود التي قدّمها الوكيل المذكور تتفق في مجموعها مع البنودالتي تضمنتها الاتفاقية المغربية الهولاندية... كما يخبره بأنه أطلق سراح الأسرى الفرنسيين بالمغرب وأنه أذن للوكيل الفرنسي بالعودة إلى بلاده مع قائدٍ مغربي

9) لم يتحقق عزم المولى زيدان في إرسال سفارته إلى أسطامبول إلا بعد خمس سنوات حيث كان يخشى سطو الإسبان على السفارة، وهكذا فلم تصل السفارة إلا يوم 24 دجنبر 1616 على ما قلناه في القسم الخاص بالعلاقات مع تركيا...

محمّل بالهدايا التقليدية، وتتخلص الرسالة بعد هذا إلى طلب إنجاده بألف فارس لقمع تمرد ابن أبي مَحَلّي الذي لقب نفسه بالمهدي وتغلب على مراكش !![10]

وتجيب الولايات العامة مولاي زيدان برسالة من لاهاي بتاريخ 14 يونيه 1 تخبره فيها بأنها توصلت برسائله وأنها عملت عن وعوده المتعلقة تمسك بالاتفاقية الثنائية وأنهما على استعداد لإرضاء مطالبه بقدر ما تسمح تهما بذلك وهي تخبره بأن خلاف نائبه صامويل مع التجار سوف يعرض القضاء كما أنها ستعرض ريسبيرجن (Rysbergen) على العدالة امتثالا لشكوى لطان زيدان، وتقدم مع هذا تعزيتها فيما أصاب الأُسطول المغربي من طرف سطول الإسباني، وتختم الرسالة بالإعراب عن استمرار ثقتها في صامويل بالآش ا في أخيه موسى بالآش...

ولا بد أن نذكر هنا مرة أخرى السفير المغربي العالم الحَجَري المعروف بأفوقاي الذي قرأنا عن مقامه بفرنسا والذي سجل له عام 1021 = 1612 ـ 13 مذكرات جدّ طريفة عن مهمته لدى الأمير مور دُوناصو وعن نشاطه العلمي كذلك في لاهاي التي يسمّيها (ألهَاية) والتي تزامنتْ زيارته لها أيامها الصّيفية الطوال على نحو ما حصل معي (يوليه 1275).

«...وأقبل عليّ (الأمير) وعرّى رأسه وأخذ بيدي وأجلسني معه وزرته أربع مرات، وبعد أن جلست يوماً قال لي : ماذا تعرف من الألسن ؟ فقلت له : العربية ولسان إسبانية ولسان أهل برتقال قال وكلام الفرنج نفهمه ولكن ما نعرف نتكلم به، قال لي : فانا نعرف كلام الفرنج ونفهم كلام إسبانية ولا أعرف أتكلم به وإلى هذا فأكلمك بالفرنج وتكلمني بلسان إسبانيا...

---

10) يذكر دوكاستري أن التاريخ المغربي عرف عددا من الخارجين على الدولة حملوا لقب «المهدي» زعما منهم أنهم مبعوثون لتصحيح الأحوال...
دوكاستري : هولاندا 2، ص 20 تعليق 2 ص 117 ـ 440 ـ دوكاستري : إسماعيل وجاك الثاني ص 79 تعليق 2.

وفي معرض الحـــديث عن اسبــــانيـــا خصم الطرفين : المغرب والأراضي المنخفضة، قال الأمير موريس دوناصو لأحمد أفوقاي : لو كنا نتفق مع سلطـان مراكش، ونبعث للسيـد الكبير، أعني السلطــان الأعظم، سلـط الإسلام والــدين، ونتفق جميعاً على سلطـان اسبـانيـا نظفر بـه ونـأخـذ بلاده، قلت لـه : هـذا أمر عظيم لو حصل، وفي تحصيلـه شـك، وأمـا لو كـان هـذا الاتفـاق فيـأخـذون بـلاد الأندلس أعادها الله إلى الإسلام قال للرسول : أُكتب رمزاً في الحروف وأعطـه نسخـة لتكون المكاتبة بيننا وبينه، وأعطـاني، ثم قـال لي : تمنَّ علي... قلت : أن توصي بنـا رايس السفينة...».

الكلام المبارك ! حول المقارنة بين اللغة العربية وغيرها...
عندما كان الحَجَري (أفوقاي) يقيم في «البلاد المنخفضة» ذكر أنه بعد زيـارتـه لأمستردام، اجتمع في ليـدن (Leide) ببعض المستعربين الذين أتوه بكتاب عربي وسألوه : هل ما إذا كان يعرف قراءته فأجابهم : إنّه يستطيع ترجمته لهم بالأعجمية... فأخذهم العجب قـائلين : إنهم أحضروا هـذا الكتـاب من جزيرة نـائيـة من جزر الهنـد الشرقية التي يفصلها عن المغرب زمن طويل... ومع ذلك فهِمَ الحَجَري محتواه الأمر الـذي يـدلّ على أن العربيـة لسان واحـد عـامٌ في كلّ البلاد... بينمـا للهولانـديين لغتهم التي تختلف عن سـائر الألسن، وكـذا الأمر في بلاد الإنجليز التي لها لغة أخرى، والحالة كذلك بالنسبة لأهل فرنسا، وفي بلاد الأندلس أعجميـة أُخرى وفي إيطـاليـا وألمانيا وشقوّبية... كل لسان مختلف عن غيره، وهذه العربية واحدة في الدنيا كلها ! لقد علق الحَجَري على هدا الاستنتاج بأنه، كلام مبارك ولا ينكره إلا مَن لا يعرف فضلها...

وفي رسالة من السلطان زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 27 ربيع الثـاني 1021 = 27 يونيـه 1612 يعرض مـأسـاة اختطـاف أمتعتـه وخزانـة مخطوطـاتـه من قبل القراصلة الإسبان... **فهو يترجى الولايات العـامـة في مسـانـدتهـا لـدى ملـك فرنسـا لويس الثـالث عشر، وكـان يعتبره مسؤولا عن الاختطـاف الـذي تعرضت بسببـه العلاقات الفرنسية المغربية إلى تدهور دام حقبة من الزمن... إن السلطان زيدان يطالب باسترجاع أمتعته وخزانتـه العلميـة التي هرب بهـا** مركب فرنسي **بخيـانـة صاحبـه الـذي كـان في نفس الـوقت وكيـلاً لفرنسـا ! ولم يكن هـذا النـائب غير ج.فـدوكـاسطلان (J. Philippe de Castelane) الـذي هرب بـالمركب من صـانطـا كروز برأس إيغير (على ما قلناه في فصل العلاقات الفرنسية المغربية).**

وقد كان السفير الذي حمل رسـالـة السلطـان زيـدان إلى هولانـدا هو القـائـد أحمد **الجزولي...**

وقد خصص الكونت دوكاستري حديثا عن مخطوطات السلطان زيدان التي قال :
إن عددها يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مخطوط كانت في معظمها مجموعة منتقاةً من قبل والده السلطان المنصور السعدي تعالج الطّب والفلسفة واللغة والسياسة وأن ثروتها وقيمتها تكمن أيضا في الفن الفائق الذي تجلى في كتابتها وتجليدها... ويضيف دوكاستري إلى أن أغلب مخطوطات الأسكوريال (على مقربة من مدريد) قد ضاع بسبب الحريق الذي شبّ هناك يوم 7 يونيه 1671 على ما أسلفنا...

☆ ☆ ☆

وقد كتبت الولايات العامة لمولاي زيدان من لاهاي بتاريخ 18 شتنبر 1612 تشكره على عواطفه نحوها... وفيما يتعلق بتعديل الاتفاقية فإنه حسبما تعطيه الرسالة وكّل لصامويل بالآش بمباشرة الموضوع وكذلك طلب إليه أن يحمل جوابا للولايات العامة عن بعض مقترحات العاهل المغربي...

وتختم الرسالة بالإعراب عن المتمنيات في أن تنجح قوات مولاي زيدان في قمع حركات التمرد التي كانت إسبانيا وراءها... وتحتفظ وثائق دوكاستري برسائل متبادلة بين السلطان زيدان وبين وكيله أثناء مقامه بالمغرب لمباحثة التعديلات المقترحة...

وهكذا فقد كتب زيدان إلى صامويل بتاريخ 19 شوال 1021 = 13 دجنبر 1612 يخبره بأنه توصل برسائله وأنه لم يتوفر لحدّ الآن على أخبار مهمةِ السفير الجزولي في هولاندا وأنه ينوي أن يصل إلى حيث يوجد صامويل إذا سمحت استعداداته لضرب تمرد ابن أبي محلّي، وتختم الرسالة بأخبار نائبه أنه سيهدي خيولاً للأمير موريس...

وفي رسالةٍ مماثلة لاحقة يخبره بأن فترة إثنى عشر يوماً غير كافية للعثور على الجمال الضرورية لشحن البضائع المطلوبة كما يخبره بأن الرقاص الذي يحمل الرسالة مكلف بحمل جواب صامويل...

وفي جوابٍ من صامويل بالآش من ثغر الصويرة إلى مولاي زيدان بتاريخ 17 دجنبر 1612 نجده يخبر العاهل المغربي بأن مركبه سيقلع وأنه ينتظر

بفارغ الصبر وصول الأخبار لأن المواد الغذائية على وشك النهاية وأنه بمجرد ما تُهيّأ البغال التي اشتراها خادم موريس أمير أُورانج فإن السفينة ستغادر الصويرة...

وفي رسالة من مولاي زيدان إلى الولايات العامة من الصويرة بتاريخ 8 ذي القعدة 1021 = 31 دجنبر 1612 يخبرها بأنه توصل - مع رسالة الولايات - بمشروع تعديل الاتفاقية. وأنه توصل بالتعويض الذي أرسلته الولايات عن البضائع التي شحنت.. وهو يطلب التعويض عن المبالغ التي دفعها في مقابلة افتداء طائفة من المواطنين الهولانديين الذين كانوا قد وقعوا في أسر بعض العناصر الغير المسؤولة، ويختم رسالته برغبته في عودة سفيره الجزولي وبإعطاء الصلاحيات الكاملة لصامويل للتفاوض باسمه...

وقد كان من بين الهدايا التي أرسل بها العاهل المغربي إلى هولاندا رطلان من العنبر الأشهب وهو أفضل أنوع العنبر،[11] وأربعة أرطال من الغالية، وأربعة حياطي من الطلس المستعمل لتغليف جدران غرف الاستقبال الملكية مع زربيتيْن فارسيتّيْن اثنتين...

وفي جواب الولايات له من لاهاي بتاريخ 14 غشت 1613 الإعراب عن الأسف في فشل المهمة التي راح من أجلها لفرنسا سفيره السيد أحمد الجزولي قاضي سوس.[12] وهم مع هذا يشكرونه على التفاتته إليهم ويعربون عن متمنياتهم مؤكدين صداقتهم ومعيدين لذاكرته البند الخاص بحرية دخول السفن الهولاندية إلى المملكة المغربية.

لقد كان السلطان زيدان يعاني من محنة ضرب الخناق على المعمورة من طرف الإسبان بعد تسليم العرائش لها من طرف أخيه محمد الشيخ، ومن أخبار ثورة ابن أبي محلي ومن فشله أمام ثورة فاس بزعامة سليمان والمربوع، ومن مصانعة الموريسكيين الذين أخذوا يفكرون في الاستقلال عن بلاط مراكش..!!

---

11) يراجع المجلّد الثاني من هذا الكتاب ص 321 - التعليق 16.

12) محمد المختار السوسي : إيليغ قديماً وحديثاً، ص 165 - 166.

وهكذا ففي رسالة من الولايات إليه بتاريخ 28 يبراير 1614 نجد الإعراب عن سرورها بتوفيقه في حركاته لفرض الأمن في البلاد وتتمنّى له ملكاً مظفراً وهادئاً بعد مصرع ابن أبي محلي (رمضان 1022 = اكتوبر 1613).

وفي رسالة أُخرى من الهولانديين إلى العاهل بتاريخ 22 مارس 1614 يطلبون إليه المواطن الهولاندي بـ ڤان ليبيلّو (P. Van Lippeloo) وإرجاع أمواله إليه.

وفي رسالة كذلك من لاهاي بتاريخ 27 مارس 1614 يخبرونه بأنهم سيجيبون على اقتراحات صامويل بالآش وأنهم يريدون التأكد من رأي العاهل حول تلك المقترحات ويحيطونه علماً بأنهم بعثوا بثلاث سفن هولاندية لمساعدته على مقاومة الخارجين عليه، وتأتي رسالةٌ أُخرى من لاهاي بتاريخ 2 مايه 1614 تلتمس التدخل لتحرير ستةٍ من الرعايا الهولانديين وقعوا في أسر بعض المغاربة، وبعد هذا تأتي رسالة بتاريخ 24 مايه 1614 تترجى العاهل المغربي في أن لا يمنح مساعدته للقائد إبراهيم بن رايس وتلفت نظره إلى أن إبراهيم هذا يتصدّى لمضايقة المسيحيين ويعمل على نسف الاتفاقية المبرمة بين المغرب والأراضي المنخفضة !

وفي رسالة لاحقة بتاريخ 14 يوليه 1614 يؤكدون أن صامويل بالآش هو الشخص الوحيد الذي يمثلهم أيضا فيما يتعلق بالمفاوضات حول قضية (المعمورة)...

وهنا نجد رسالة من السلطان المولى زيدان من مراكش بتاريخ 7 جمادى الثانية 1023 = 15 يوليه 1614 مرفوعة إلى جان ليبفانس (Jean Lievens) يخبره بأنه تدخل فعلاً بواسطة قائده لتحرير الأسرى الهولانديين الذين وقعوا في أسْر حكام سلا، ثم يحيطه علماً بأنه قد يرسل ـ على متن سفينة إنجليزية ـ بسفارة إلى اسطانبول : يطلب من ليبفانس أن يقود البعثة الدبلوماسية إلى فان إيفيرتسين (Van Evertsen) حيث يسلمون الرسالة الملكية...(13)

---

13) لعل السفير المرشح لهذه السفارة كان هو صامويل بالآش. دوكاستري 2، 578.

ثم تأتي رسالة باللسان الإسباني من السلطان زيدان إلى الولايات العامة من مراكش بتاريخ 20 رمضان 1023 = 24 اكتوبر 1614 يخبر فيها الولايات بأنه قد وقّف المواطن الهولاندي فإن ليبيلُوُ (V.Lippeloo) نظراً للدسائس التي يقوم بها في أسفي لتشجيع المتمرد ابن أبي محلّى ! لقد ضبط العاهل رسالةً منه للذين يهربون السلاح لعناصر التمرد، إن معلومات هولاندا حول قضية ليبيلُو مضللة، إن العاهل مستعد للنظر في إبراهيم رايس مع ڤان ليبيلو، وفيما عدا هذا المواطن فإن السلطان لا علم له بالخسائر اللاحقة ببعض الهولانديين، إن هناك قراصلة هولانديين أسروا من طرف حكام سلا يدعون أن جوان بيربير (Juan Berbir) كان يقاتل ضدهم مع الإسبان، ويخبر العاهل مع هذا بأنه تدخل لإطلاق سراح أولئك إلا أن ثورة فاس حالت دون نجاح تدخلاته، وقد أرسل قائداً لسلا ليصحب الأسرى الهولانديين من سلا إلى أسفي، إن التمرد الذي يتفاحش أمره في كلّ من منطقة فاس ومنطقة سوس يضعف من سلطة الملك ويحول دون تقديم المزيد من الأدلة على صداقته للولايات العامة...

وتتجدد الرسائل منهم إليه حول الأسرى، لقد بعثوا بتاريخ 27 نونبر 1614 يطلبون تسريح أرنو (ARNOULT)، وبتاريخ 20 دجنبر 1614 طلبوا تدخله لإطلاق سراح الأسرى الذين وقعوا في قبضة سلا وذلك تنفيذاً للاتفاقية المغربية الهولاندية، ويبعث العاهل من مراكش بتاريخ 13 ذي الحجة 1023 = 14 يناير 1615 يخبرهم بأن قوته تحقق انتصاراتٍ هامة... وأنه اتصل بأهل سلا لإطلاق سراح الأسرى الهولانديين لكن زعماء سلا يؤكدون أنهم ينتقمون للخسائر اللاحقة بهم من طرف جوان بيربير (Juan Berbir) الذي كان يصارعهم مع الإسبان وهم يطلبون الاحتكام إلى العدالة، وهو اعتباراً لصداقته مع الولايات العامة يخبرهم بأنه بعث برسول منه إلى سلا للتفاوض من أجل تحرير الأسرى المذكورين... وفي انتظار تسريحهم فإن الأسرى يعيشون على نفقته، ويخبر بأنه قد بعث للولايات العامة بخطاب أرسله مولاي زيدان لملك فرنسا جوابا على رسالةٍ سابقة من ملك فرنسا، وكان جوابه مصحوباً بنص الرسالة التي بعثتها فرنسا، وهو يطلب من الولايات أن تطلع على الرسالة الفرنسية وترجعها إليه بينما يطلب إليها أن تحصل على جواب فرنسا على خطابه...

هو

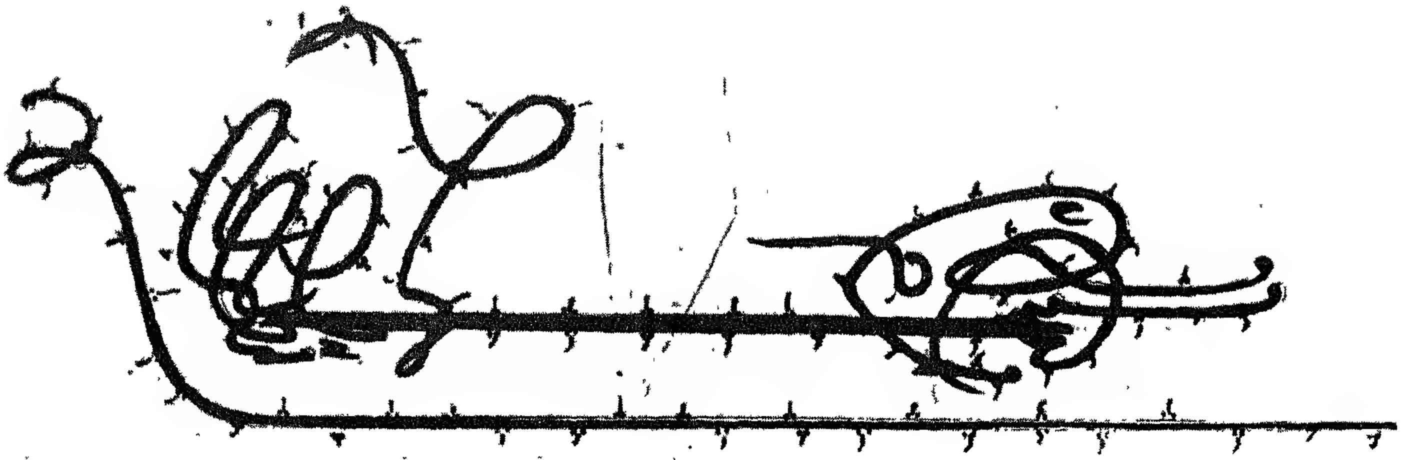

[illegible] y santificacion sobre los santos prophetas y los que [illegible]

En el nombre [illegible] piadoso y misericordioso [illegible]

[illegible] amen [illegible]

[illegible] la justicia [illegible]

[illegible]

[illegible] Juan [illegible]

[illegible]

[illegible] y los que mandamos [illegible] flamencos [illegible]

[illegible]

[illegible] leales vasallos y criados [illegible]

[illegible] costumbres [illegible]

[illegible] particular [illegible] voluntad [illegible]

[illegible] cumplimiento [illegible]

[illegible]

وفي هذه الأثناء نعثر على مراسلات من المقدم أحمد بن عيسى النقسيس قائد تطوان الذي كان يخضع لمملكة فاس لقرب هذه من تلك، مراسلات بين القائد المذكور وبين الأمير موريس دوناصو (Maurice de Nassau) حول الزيت التي سطا عليها المواطن الهولاندي هيندريك (Heindrich)... لقد كان المقدم رحّب في تطوان بالهولاندي المذكور لكن هذا لم يلبث أن استولى على السفينة الإنجليزية التي كان المقدم اشتراها لحساب تطوان وكانت حمولتها زيتاً... إن أهل تطوان يهددون بالانتقام من كل هولاندي اقترب من الميناء ولكنه أي النقسيس وعد التطوانيين بالتدخل لدى الأمير الهولاندي من أجل دفع التعويض وهو يعهد إلى فان ليبيلّو (Van Lippeloo) لتسوية القضية مع الولايات العامة.

كانت هذه الرسالة أوائل سنة 1615، وقد ورد الجواب من الأمير موريس إلى المقدم بتاريخ 19 دجنبر 1615 يخبره بأن الولايات طلبت إلى الهولاندي هيندريك أن يعوض أهل تطوان وأنه طلب استئناف الحكم الذي سوف يتم لصالح المقدم، وتنتهي هذه القضية برسالة من النقسيس بتاريخ 15 ربيع الثاني 1025 = 2 مايه 1616 يشكر فيها الولايات على اهتمامها بأمر الاختطاف ويعلن عن ترحيبه بصداقة هولاندا...

☆ ☆ ☆

وبالإضافة إلى هذه الاتصالات الجانبية نجد رسالة من صامويل بالآش إلى القابطان التركي خليل باشا الذي كان على عهد السلطان أحمد الأول، وكانت بتاريخ أوائل يونيه 1615 يعيد إلى الذاكرة العبارة الواردة في آخر رسالةٍ له تتحدث عن سفره من أنجلترا إلى هولاندا... لقد كان من المقرر أن يرسل سفارة إلى الباب العالي من طرف مولاي زيدان بيد أن سفينته تعرضت لهجوم القراصلة الإسبان. ويتحدث صامويل عن الخسائر التي ألحقها الإسبان بالسواحل المغربية وعن استيلائهم على المعمورة... وهو يترجى القابطان خليل باشا أن يقترح على الولايات العامة إرسال يوسف بالآش عوضه ليحمل هدايا ملك المغرب إليه...

ولم تُنسِ المشاكل الداخلية مولاي زيدان في مخطوطاته وأمتعته الشخصية، وهكذا نجد جواباً آخر من الولايات العامة إليه بتاريخ 29 يونيه 1615 يخبرونه بأنهم بعثوا بطلبه إلى لويز الثالث عشر وكلفوا سفيرهم بفرنسا لمتابعة مطالبته لاسترجاع ذخائره التي

أودى بها جشع كاسطيلان (Castelane)، وهم يجددون عواطفهم نحوه ومتمنياتهم لنجاح جيشه ويطلبون تحرير الأسرى الهولانديين الباقين...

ونجد جواباً آخر منهم بتاريخ 20 يوليه 1615 يذكرون فيه أن المحاولات المبذولة من طرفهم لدى ملك فرنسا لم تأت بنتيجة لأن اهتمام اسبانيا بالقضية يسير ببطء ! ويضيفون إلى هذا أن (كاسْطِلان) يخاف من العودة لفرنسا... وأن الولايات العامّة سوف لا تالوا جهدا في حثّ ملك فرنسا على مطالبة اسبانيا بإرجاع ما اختطفه قراصلتها، والولايات تقترح على العاهل أن يقوم بمبادرة طيبة نحو فرنسا تتجلى مثلاً في تحرير عدد من الفرنسيين المحتجزين بالمغرب فهي تعتقد أن ذلك ربّما يترك بعض الآثر !!

ثم نجد رسالة من الولايات إليه بتاريخ 30 يوليه 1615 يؤكدون فيها ما دأبت اسبانيا على سلوكه إزاء أمتعته من التهاون والتماطل واللاّمبالاة، ويخبرونه بأن سفيره صامويل الذي أُوقفَ من طرف أنجلترا قد أطلق سراحه بتدخل الولايات العامة ويغتنمون هذه الفرصة بتأكيد عواطفهم نحوه ويتمنون أن يكون الشعور متبادلاً... وبعد هذا تأتي رسالة من السلطان زيدان للولايات من مراكش بتاريخ 8 شوال 1074 = 31 اكتوبر 1615 وتتلخص الرسالة في شكر الولايات على صداقتها وعلى مساعيها من أجله، سواءً بفرنسا أو إنجلترا، ويؤكد عن عواطفه، إنه يذكر المعاملة الغير الودية التي قابل بها ملك فرنسا سفيره الذي قصد فرنسا للمطالبة بما اختطفه كاسطِلان (Castelane) والذي «ما وجد السبيل حتّى للوصول إليه» أي إلى ملك فرنسا !! إن زيدان يستغرب من موقف ملك فرنسا الذي بالرغم من موقفه المذكور ينتظر منّا إطلاق سراح مواطنيه، وفيهم من غدرنا صحبة كاسطِلان، ومع هذا فإن الشريف يعرب عن استعداده للإفراج عنهم إذا ما ظهرت بادرة من ملك فرنسا حول ما ضاع له بسبب وكيلهم، إن الهولانديين الذين طالبت الولايات بتسريحهم أُخذوا في مقابلة العدوان الذي لحق بنا من طرف المواطن الهولاندي بِيرْبير (Berbir) في نواحي سَلاَ وأسفي، بالرغم من الاتفاقية الموقعة بين الطرفين، إن الشريف مستعد للإفراج عنهم ولكنه يلح في أن تدعو هولاندا البحريين الهولانديين لاحترام الاتفاقيات المعقودة بين البلدين...

وأمام هذا تجيب هولاندا ـ وكأنها لم تتوصّل بالرسالة السابقة ـ بأنها تطالب بتسريح أسرى سلا وتبعث بلائحة الأسرى المطلوبين مذكرة بأن القبض يخالف بنود الاتفاقية المغربية الهولاندية... وكانت هذه الرسالة بتاريخ 13 دجنبر 1615.

وقد بعث المولى زيدان إلى الولايات من مراكش بتاريخ 18 صفر 1025 = 7 مارس 1616 يؤكد صداقته ويطلب إليها أن تجعل رهن إشارته بميناء أسفي سفينة لتنقل بعض رعاياه إلى بعض جهات أُوروبا بما فيها هولاندا وذلك من أجل إنجاز بعض أغراضه، وفي جواب منهم إلى زيدان بتاريخ 6 يونيه 1616 يعربون فيها عن متمنياتهم له ببسط سلطته على سائر المغرب وهم، استجابة لطلبه، سيبعثون له بسفينة حربية، ويختمون بالإعراب عن الأسف في عدم تمكنهم مرة أُخرى من فشل جهودهم مع ملك فرنسا لصالح استرجاع أمتعته ! وتختم الرسالة بعرض مطالب تخص جوزيف وموسى بالآش...

وفي رسالة منه إليهم بتاريخ 7 شعبان 1025 = 20 غشت 1616 يشكرهم على السفينة التي جعلوها تحت تصرفه ويخبرهم بأنه أعطى لقابطان الباخرة ليمرّ بأسفي عند عودته من اسطانبول ليأخذ معه الخديم المكلّف بتسوية حساباته مع الولايات...

وفي رسالةٍ منه إلى الولايات بتاريخ 20 شعبان 1025 (2 شتنبر 1616) يخبرهم بأنه استقبل جوزيف بالآش حامل رسالة الولايات، وقد تقدّم بطلبٍ لصالح هذا الوكيل...

وأخيراً نجد رسالة منه إلى الولايات من مراكش بتاريخ 24 شوال 1025 = 4 نونبر 1616 وفي هذه الرسالة يخبر العاهل بأن صامويل بالآش لم يخبره إطلاقاً بالطريقة التي تصرّف بمقتضاها في الأموال التي أمّنه عليها ليقضي بها أغراضاً للدولة : أموال لشراء سفن، 120 صندوق من السكر، ألف قنطار من البقّم (عود البرازيل)، كمية من الحرير والعنبر والمرجان... وبما أن مولاي زيدان أصبح يشك في سلوك هذا الوكيل فإنه يكتب إلى الولايات حول الموضوع بيد أن حامل الرسالة المسمّى باطلو (Batlo) توفي قبل أن يبحر... وقد صرّح جوزيف بالآش بأنه لا يعلم شيئاً عن حالة أخيه الهالك فيما يتعلق بأموال الملك، فهو لم يتوصل من

أخيه لا ببضائع ولا بمذكرات مكتوبة، وقد عهد المولى زيدان إلى المسمّى جاك جانكار (Jacques Jancart) بمتابعة تسوية هذه القضية بمساعدة الولايات العامة، إنه من الخطأ أن يقوم دييكَو دوكونيا (Diego de Cuña) سفير اسبانيا بأنجلترا بحجز مركب مولاي زيدان، إن العلاقات الإسبانية المغربية ليست على ما يرام وأنه لاحق للإنجليز في الوقوف بجانب الإسبان بحجة أن من بالباخرة هم هولانديون... لقد عثر العاهل المغربي على رسالتين موقعتين من قبل بالآش فالرجاء الحَذَر من ذلك...[14]

وهناك رسالةٌ من زيدان أيضا إلى الولايات من مراكش بتاريخ 14 صفر 1026 = 21 يبراير 1617 يوصيها خيراً بمواطنين مغربيين من أصل برتغالي هما : إسرائيل بن شلوحة وموسى ليفي التحقا بهولاندا بتكليف من الشريف زيدان للقيام ببيع بعض السلع : 6000 قطعة من جلد البقر - 36 صندوقاً من السكر المغربي - 300 قنطار من لحاء شجرٍ يصبغ به... وهما في نفس الوقت يقومان باقتناء بعض البضائع الهولاندية...[15]

وقد بعث في نفس التاريخ برسالة توصية حول الشخصين المذكورين إلى الأمير دوناصو...

وجواباً على الطلب السابق للعاهل بتاريخ 4 نونبر 1616 حول تسهيل مهمة جاك جانكار أخبرت الولايات بتاريخ 10 مايه 1617 أنها قامت بالمهمة وهي إذْ تجدد عواطفها نحوه تخبره بأنها بعثت صحبة الخطاب برسالة إليه من يوسف بالآش...

ولم تلبث أن أكدت في رسالةٍ لاحقة بتاريخ 12 يوليه مساعدتها لمبعوثه (جانكار)، وقد سجلت سنة 1618 رسالة من الولايات إلى زيدان بتاريخ 23 مايه تزكّي فيها موسى بالآش الذي يتفاني في خدمة مصالح زيدان...

---

(14) جاكس جنكر Jacques Jancart

(15) المصدر السابق.

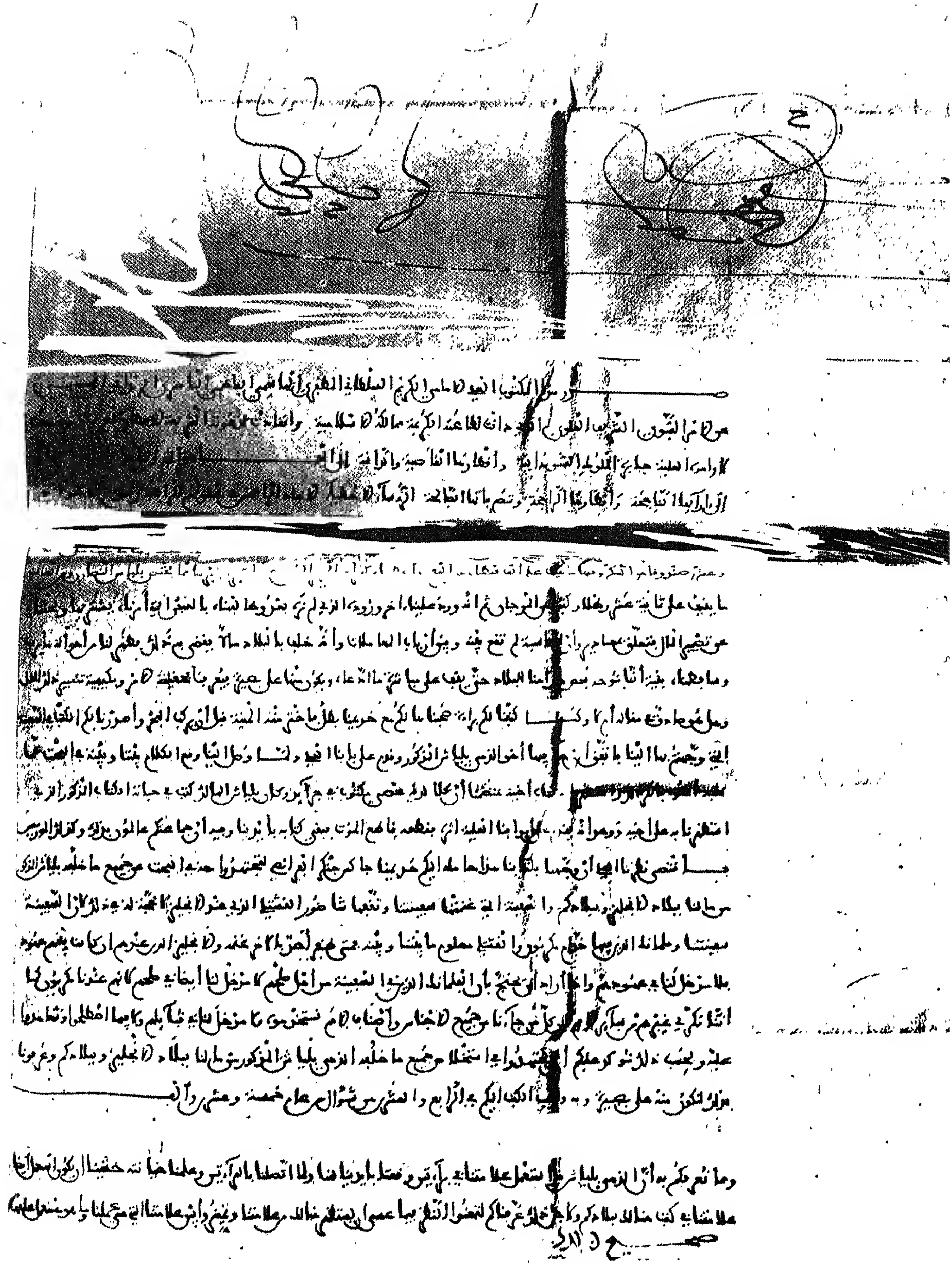

رسالة مولاي زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 24 شوال 1025 موافق 4 نونبر 1616.

وبعد هذا نجد رسالة من زيدان إلى الولايات بتاريخ 5 جمادى الأُولى 1028 = 20 أبريل 1619 بعث بها بواسطة جاك فابر (J. FABRE) يزف إليهم البشرى بالعودة الوشيكة إلى هولاندا لعشرة من الأسرى الفلامنكيين افتداهم العاهل من الأَتراك... وهو يغتنم هذه الفرصة ليطلب إلى هولاندا تسهيل عودة طائفةٍ من المواطنين المغاربة كانوا قصدوا الأَراضي الواطئة لتذويب عددٍ من المدافع...

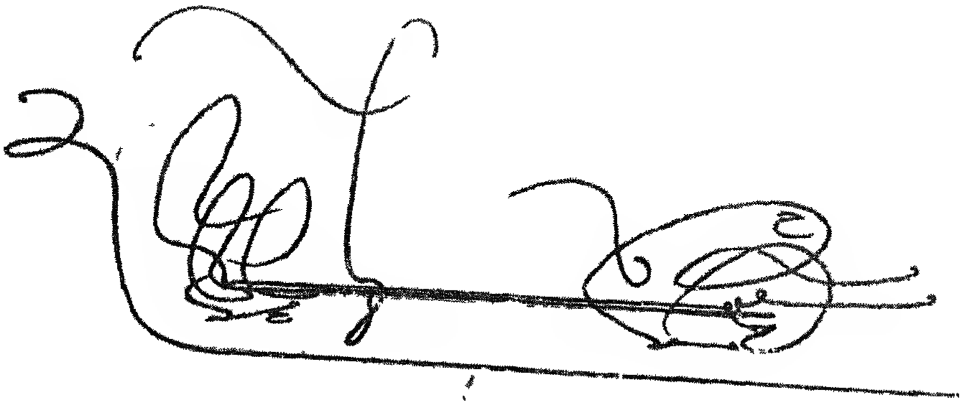

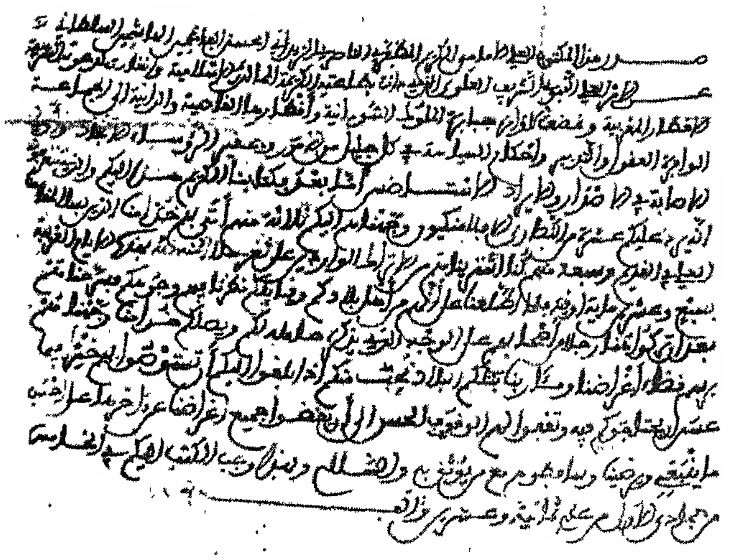

رسالة مولاي زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 5 جمادى الأُولى 1028 الموافق 20 أبريل 1619.

---

16) من الأَغراض تذويب مدافع...

وقد كان مما يشير لوجود أطباء جرّاحين بالبَلاط المغربي في ذلك التاريخ... هذه الرسالة التي تطلب فيها الولايات العامة من السلطان زيدان بتاريخ 29 يونيه 1619، الإذن بعودة طبيب جراح يحمل اسم سيبرانت ألبيرتز (Sibrant Albertsz) إلى هولاندا حيث إن والدته توجد في حاجةٍ إلى مساعدته...

وبعد رسالة منهم إليه بتاريخ 1 اكتوبر 1619 تطلب إليه تحرير جاكوب ورجاله الذين ما يزالون في قبضة حكام سلا، تأتي رسالة من زيدان إلى الولايات بتاريخ 13 ذي الحجة 1018 = 21 نونبر 1619 يعرب فيها عن امتعاضه من وضع العراقيل في طريق مهمة جاك فابر (J. FABRE)، الذي عهد إليه بتذويب المدافع... وهو الأمر الذي لا يتفق مع العلاقات الطيبة الموجودة بين الطرفين، وهو يجدد الطلب إلى الولايات بأن تسمح لوكيله بالتحرك لقضاء المهمة، ويضيف السلطان زيدان إلى هذا أنه إذا كانت الولايات تنوي فسخ معاهدة التحالف فإن عليها أن تعيد قبل ذلك سفراءه إليه ومعهم شهادة أمان، ويخبر الولايات، مع هذا، بأن هناك اثنين وعشرين فلامانكيا (هولانديا) تكسرت بهم سفينتهم على مقربة من سلا لكنهم يتمتعون بسلامة كاملة كالحال في الهولانديين الموجودين بأسفي... وفي استطاعة هولاندا أن تغتنم فرصة وجود سفن هولاندية على السواحل المغربية لتحمل إلى الولايات العامة مبعوثين مغاربة جدداً يذهبون لتجديد الأوفاق... إن مولاي زيدان ينتظر جواب الولايات الذي على ضوئه ستكون معاملته القابلة معهم !

ولكن الولايات أجابته بتاريخ 22 مارس 1620 بأنهم يأسفون لما وصل من أخبار خاطئة عن مهمة فابر فإنه يتمتع بحريةٍ كاملة لأداء واجبه، وهم يشكرونه على مبادرته نحو الهولانديين الذين تكسرت بهم السفينة ويخبرونه بأن سفينةً من أسطولهم في طريقها إلى العاهل المغربي تحمل سفيرا منهم إليه...

ولم يلبثوا أن أكدوا في رسالةٍ بتاريخ 8 يوليه 1620 الأخبار عن السفينة المرسلة إليه وعن المدافع المذابة مطالبين بسراح أسراهم بتطوان، كما أنهم أرسلوا في نفس اليوم بخطاب يخبره بأن المدافع على وشك أن تبحر ومن غير أداء ضرائب، مجدّدين الطلب بتحرير أسراهم بالمملكة المغربية، وقد وصلت السفينة

التي كانت تنقل على ظهرها القابطان أوتجير شيز (OUTGER Choesz) وهذا ما تخبر عنه رسالة من السلطان زيدان إلى الولايات بتاريخ 12 شعبان 1030 = 2 يوليه 1621 يشكرهم على نواياهم حول مهمة فابر، ويخبرهم بأن القابطان أوتجير (Outger) وصل إلى المغرب وخصص له استقبال حافل، إن عدداً من الأسرى سيعود صحبة أوتجير ويوسف بالآش... وفي هذه الرسالة يعطي زيدان الإذن للولايات العامّة باستخراج ملح البارود (Salpêtre) من باطن الأرض المغربية، ويطلب مركبا لنقل موسى بالآش وبعض المغاربة كما يطلب إرسال عمال مختصين بمعداتهم لتقطيع الحَجر لبناء ميناء برأس إيغير...(17)

وفي جواب منهم إليه بتاريخ 13 اكتوبر 1621 زفوا إليه التهاني ببسط نفوذه على البلاد واسترجاع حصن المنكب من يحيى الحاحي...(18) وشكروا مساعيه لتحرير أسراهم كما شكروه على الامتياز الذي أعطاهم لاستخراج ملح البارود، وأخبروه بأنهم أعطوا الإذن ليوسف بالآش بتجهيز مركبين فوق رغبة العاهل.

ورغبةً من زيدان في المزيد من استتباب الأمن طلب إليهم مجدّداً في رسالته بتاريخ 20 صفر 1031 = 5 يناير 1622 أن يمنعوا بصفة باتّة مواطنيهم من الاتجار في السلاح مع رعاياه إلا بواسطته قمعاً للتمرد...

وفي رسالة من لاهاي بتاريخ 6 غشت 1622 تشكر الولايات مولاي زيدان على مبادرته نحوها... وتخبره بأنها بعثت إليه بالكوميسير ألبيرت رويل (ALBERT Ruyl) صحبة المركب الحربي المخصص للخدمة التي طلب ويترجون الثقة

17) محمد المختار السوسي : إيليغ قديما وحديثا، تعليق محمد عبد الله الروداني، مطبوعات القصر الملكي 1966 ص 166 ـ الكانوني : آسفي وما إليه ص 40 ـ 41 ـ د. التازي : أكادير إيغير من خلال التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية 10 ـ 11 ـ 12 أبريل 1986.

18) رسائل سعدية : ص 227 ـ 228.

الكاملة بمبعوثهم الجديد الذي ورد صحبته المستشرق الهولاندي البروفيسور جاكوب فان كوول (Jacob Van Gool).(19)

وبمجرد وصول المبعوث المذكور بادر السلطان زيدان بالكتابة إلى الولايات العامة من مراكش بتاريخ 5 شعبان 1032 = 4 يونيه 1623 يخبرهم بأن ألبيرت رويل وصل إلى ميناء أسفي منذ بعض الوقت وأنه سيخصص له استقبالاً حافلاً حالما يتفرغ من إنجاز بعض المهام الملحّة، وهو ساهر - في انتظار استقباله للسفير الهولاندي - على أن توفر للمبعوث الهولاندي ظروف طيبة، لكن العاهل المغربي علم أن الوكيل (رويل) اغتنم فرصة مقامه بأسفي للدس والاختلاق وإثارة المشاكل، وأنه بالرغم من شكوى عددٍ من القواد والأُمناء فإن زيدان - اعتباراً لصداقته مع هولاندا - غضّ الطرف عن سلوك المبعوث الهولاندي، وزاد الطين بلّة عندما أمر رويل (Ruyl) بإقلاع المركب من أسفي في نفس الوقت الذي كان السلطان زيدان على وشك الوصول إلى الميناء المذكور! إن رويل لا يمكنه أن يتذرع بحجة أنه لم يجد «الإقامة» : أي التموين الذي يتعهد به المركب فقد كانت بين يديه سائر الإمكانيات المطلوبة... ومن جهة أُخرى فإن الرسالة تخبر الولايات بأن يوسف بالآش وصل إلى مراكش وجدد للعاهل شواهد صداقة هولاندا للمغرب وتختم الرسالة بأنه سيحيطهم علماً بنواياه حول المراكب وذلك بواسطة خديمه المذكور...

وفي أثناء مقام (رويل) بالمغرب وردت رسالة من الولايات إلى زيدان بتاريخ 20 يونيه 1623 تترجاه تحرير سفينة هولاندية أسرت من طرف أحد القواد السلاويين وتحرير أُخرى صارت إلى سلا في ظروف تكشف عنها رسالة الولايات مباشرةً إلى القائد عبد العزيز الزّعروري قائد زيدان على عسكر

---

19) هذا هو بالذات (كَوليوس) الذي أُصبح أستاذا للغات الشرقية بجامعة ليدن، والذي نال حظوة كبيرة لدى السلطان زيدان، كان يقرأ العربية ويكتبها بإتقان ولو أنه لا يتكلمها بطلاقة، وقد اجتمع بعلماء جامعة القرويين من فاس... وأخذ تصميمات للقصر الملكي بالعاصمة العلمية... هذا التصميم - يقول ويندوس - هو الآن بيد المستشرق (Corbier) يعنى بالتعليق عليه... واعتقد أنه بهذه المناسبة حصل على نسخةٍ من تاريخ ابن صاحب الصلاة عادت إلى مكتبة بودليان باكسفورد.
عبد الملك ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين تحقيق د. عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987 ص 32.

الأندلس بقصبة سلا،[20] تتحدث عن أن أحد القراصلة الأجانب يحمل اسم جان جانز (Jan Jansz) استولى على هذه السفينة وقادها إلى سلا...

ويورد الكونط دوكاستري نص مخاطبات بين ألبير رويل وبين السلطان زيدان أثناء عرض مذكّرات المبعوث الهولاندي المذكور عن مقامه بالمغرب...

وبعد هذا يأتي جواب الولايات العامة عن رسالة زيدان حول سلوك ألبيرت رويل، وهكذا فإنها - بتاريخ 20 شتنبر 1623 - تعتذر عن صنيع مبعوثها الذي أغضب الشريف زيدان وهم يذكرون أن ما صدر منه لم يكن صادراً عن قصد، وأنه غير مسؤول عن السفينة التي أقلعت من أسفي لأنها تعود للقابطان أدريانز (Adriaensz) ويلتمسون منه في الأخير بأن يسمح بتخصيص مقابلة للقابطان رويل معتذرين عن إرسال فراقط (مراكب) للمملكة المغربية...

☆ ☆ ☆

وفي خطاب من السلطان زيدان من مراكش إلى الولايات العامة بتاريخ 27 محرم 1033 = 20 نونبر 1623 يخبرهم بأنه خصص استقبالاً لائقاً لألبيرت رويل (ALBERT Ruyl) الذي سلمه رسالة اعتماده لدى العاهل المغربي، وبعد أن يجدد عبارات الود يخبر بأن المبعوث المذكور قدّم له مطلبين :

أولهما - يتعلق بأسر حكام سلا للسفينتين الهولانديتين وأنه سيعطي أوامره لإرجاع ما أخذ....

ثانيهما - يتعلق بأداء مصاريف الأنفاط المصنوعة في هولاندا والمنقولة إلى المغرب، وبهذا الصدد يخبرهم بأنه سلم المبالغ المستحقة إلى رجال ثقاة في أسفي ريثما تسمح الفرصة بإرسالها إلى هولاندا.

ونظراً لحدّة الظروف التي صاحبت مقدم المبعوث الهولاندي ألبيرت رويل نجد رسالة أخرى في نفس التاريخ 27 محرم 1033=20 نونبر 1623 مرفوعة إلى الولايات العامة يخبرهم العاهل فيها أن يوسف بالآش حمل إليه رسالة الولايات العامة وبعد أن يشكرهم السلطان على عواطفهم والإعراب عن أنها متبادلة

20) الاستقصا، 6، 51 - 52.

21) الأنفاط المدافع.

رسالة مولاي زيدان إلى الولايات العامة، بتاريخ 27 محرم 1033 = 20 نونبر 1623

وهذه رسالة أُخرى تحمل نفس التاريخ

يخبرهم بأنهم سيتوصلون - إضافة لهذه وتلك - برسالتين أخريين إحداهما من سفيرهم ألبيرت رويل والثانية لأحد القراصلة الهولانديين سماه العاهل (مَنْوَار) ربّما ترجمة للتعبير الإنجليزي (Man of War)، وقد أدعى هذا القرصال أنه أذن له من طرف الولايات العامة بالتحرك في المياه المغربية وقد أسر بالفعل مركباً للسلطان زيدان كان بعث به محملاً بالحبوب من أسفي إلى حصن المكنب[22] (أكادير) الأمر الذي سبب توتراً بين أهل أسفي وبين بعض الهولانديين... وقد حرر الشريف هذا الكتاب الثاني منه في نفس اليوم رغبة منه في جعل حدّ لهذه القضية، وهو يغتنم هذه الفرصة ليشكر الولايات على إعلانها جهاراً منع بيع السلاح بالمغرب بدون إذن سابق من سيّد البلاد الذي لم يتردد مع هذا في إخبار الولايات في هذه الرسالة ذاتها بأن هولاندياً آخر بعد هذا الإعلان من الولايات قام بالتجارة في السلاح مع بعض العناصر المتمردة ولكن العاهل إدراكاً منه لما تُكنه هولاندا من صداقة للمغرب فإنه تجاوز عن هذا التصرف، وتختم الرسالة بإخبار الولايات بأنه عمل على تحرير اثنين وثلاثين أسيراً من سلا، وأنه سيقوم بمثل هذه المساعي كلما تناهى إلى علمه تعرض الهولانديين للخطر...

وبعد هذا نجد رسالةً من مراكش بتاريخ 6 شعبان 1033 = 24 مايه 1624 مرفوعة من السلطان زيدان إلى «المملكة الفلامنكية» وهو يعلن فيها عن إرساله لسفيره يوسف بيسكاينو الذي تسميه الرسالة الملكية يوسف (بن مامي) وقد عهد إليه السلطان بالتفاوض مع هولاندا...[23] إن يوسف سوف يسلم للسلطات الهولاندية مبلغ خمسة آلاف مثقال (Once) كتعويضٍ لما دفعته هولاندا عن

---

22) حصن المنكب يعبر عنه ترجمان الرسالة بأكادير... ويقال : أكادير إيغير بمعنى حصن المنكب وهكذا يعربه السوسيون في تآليفهم ووثائقهم. وقد ورد في رسالة من إنشاء أبي فارس الفشتالي تهنئ السلطان المولى زيدان باسترجاع (حصن المنكب) أواخر رمضان 1029 = 29 غشت 1620 من يد يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي الروداني... راجع جواب زيدان ليحيى المذكور الاستقصا 6، 35 وما بعدها...

المختار السوسي : إيليغ قديماً وحديثاً ص 166. ع. التازي : أكادير إيغير (المصدر السابق).

23) S.I.H.M - Pays-Bas :

الأنفاط والمدافع المنقولة من طرف يوسف بالآش،[24] وقد كان بيسكاينو مصحوباً بمواطن يهودي عهد إليه الشريف بقضاء المهام الشخصية ويطلب من الولايات العامة مساعدته على قضائها...

وبعد وصول السفير المغربي بيسكائِنُو إلى هولاندا نجده يبعث برسالةٍ من لاهاي إلى الولايات تحمل تاريخ 24 يوليه 1624 يخبرها بأنه أرسل من طرف زيدان للولايات العامة لتأكيد العلاقات الطيبة بين البلدين، وليفاوض حول بعض القضايا ويخبر في نفس الوقت بالمعاملة السيئة التي لقيها أبناء يوسف بالآش من طرف الكوميسير ألبيرت رويل المبعوث الهولاندي إلى المغرب، فلقد لطمنا وقيّدنا بالحديد ونحن في القارب، على حدّ قول السفير المغربي مع أن خدام السلطان يجب توقيرهم واحترامهم وهو يطلب من الولايات إنصاف المظلومين..!!

لقد وقّع السفير رسالته هذه هكذا : «يوسف بسكاين عامله الله بجميل لطفه بمنّه».

☆ ☆ ☆

وتأتي رسالة من وكلاء المملكة الهولاندية إلى مولاي زيدان من لاهاي بتاريخ 22 اكتوبر 1624 يلتمسون من الشريف أن يعامل البرتغاليين الملتجئين في أمستردام والذين يتعاطون التجارة بالمغرب بنفس المعاملة التي يتمتّع بها الهولانديون، وتستمر مراسلتهم للسلطان زيدان فنجد رسالة بتاريخ 4 نونبر 1624 يطلبون مساعدته من أجل تحرير مركب لهم، كما نجد جواباً لهم بتاريخ 8 نونبر يخبر عن وصول رسائله المعبّرة عن عواطفه والتي تؤكد المنع الباتّ من بيع السلاح في الموانئ المغربية..!

ويغتنمون الفرصة ـ في هذا الجواب ـ لطلب المزيد من تحرير الأسرى الهولانديين الذين يقعون في قبضة قواد سلا... ونجد رسالة منهم بتاريخ

24) بالرغم من الصداقة المتينة التي كانت تجمع بين المغرب وهولاندا فقد كانت مبنية على أساس الأخذ والعطاء، ولم يقبل زيدان مرة واحدة أن يستجدي، وهو ما يؤكده جوابه العظيم للثائر يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي عندما قال له : لو أردت من الفلامنك خمسمائة ألف مثقال لما توانت في دفعها... الاستقصا، 6، 49.

29 نونبر يلتمسون فيها التدخل للإفراج عن القابطان إدوارد روبيرت (EDOUARAD Robert) المقبوض عليه من قبل السلاويين، ورسالة بتاريخ 13 دجنبر يطلبون تحرير مركبين أسيرين في سلا... ورسالة كذلك بتاريخ 23 دجنبر حول تاجرين من أمستردام... ورسالة بتاريخ 12 يبراير 1625 حول توصل مبعوثه التاجر المغربي يامين بن رمّوخ بالنحاس المشحون إليه من بلاده، ورسالة بتاريخ 13 مايه 1625 حول الشكوى من خيانة أحد الأوروبيين للثقة المجعولة فيه والتجائه إلى المغرب !

ويظهر أن جشع بعض التجار الهولانديين كان يصمّ آذانهم عن الإعلان بتحريم التجارة في السلاح بالموانئ المغربية بالرغم من توالي التذكير بذلك... وهكذا نجد السلطات المغربية تصادر كمية من السلاح في حوزة جاكوب أدريانز J.ADRIANDESZ وتهدّد بسحب سفيرها من لاهاي إن استمرت هولاندا في مطالبة وكيل المغرب يوسف بالآش بالتعويض....

كان هذا مضمون رسالةٍ مرفوعة من السلطان زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 26 رمضان 1034 = 2 يوليه 1625...

وقد طلبت هذه الرسالة أيضا تسوية قضية تتعلق بمركب اضطرّ صاحبه القابطان جان فيرفرين (Jan Vervren) لتركه في سلا نظراً لخللٍ واقع في المركب، وقد عهد به قائد سلا إلى أحد الرؤساء فأصلحه وأثّثه وانطلق في عرض البحر وحينئذ ورد القابطان ليطالب بمركبه دون أداء تعويضٍ للذين تعهدوه...

إن العاهل المغربي يعيد إلى الذاكرة الأوفاق المعقودة بين الطرفين...[25]

وبعد هذا نجد رسالةً أخرى من زيدان إلى الولايات العامة بتاريخ 12 شوال 1034 = 18 يوليه 1625 يطلب إليهم أن يسهلوا مهمة يامين بن رمّوخ الذي أرسلت إليه أيضا ثمانون غرارة (الكيس الكبير) من القمح على أن يساعدوه وبعد انتهاء مهمته على العودة إلى المغرب.

25) المصدر السابق.

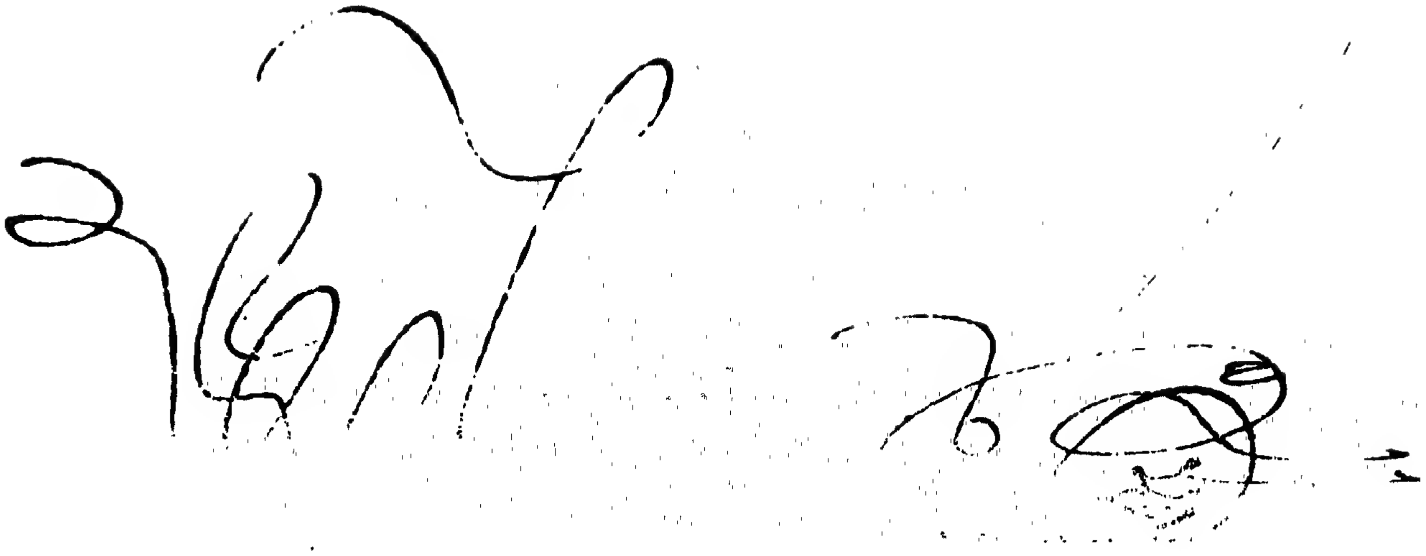

صـــــدر هذا الكتاب العلي الإمامي الكريم السلطاني الهاشمي الحسني [illegible]
عن أمر النبوي الشريف العلوي أيد الله لها عند الكريمة ممالكه [illegible] الملوك السودانية
لعونه الشريفة [illegible] المغربية وخضعت لها [illegible] العلية جبابرة الملوك [illegible]
وأقطارها الناصية [illegible] إلى الجمـــــاعة التي [illegible]
إلى [illegible] الناجحة وأقطارها الراجحة [illegible] الرؤساء الأنجاد
جماعة [illegible] أما بعد فموجبه أننا كنا ما بعثنا [illegible]
بسلا [illegible] إليكم الأمين [illegible] لقضاء بعض أغراضنا العلية
وطلب منا أننا نبعث له شيئا من الزرع لبعض [illegible] تلك الأغراض وهذا ما وجبنا
له بما تيسر [illegible] لتكونوا منه على بصيرة والمراد أن
[illegible] بعد تمام أغراضه [illegible] ونحن
امتثالا [illegible] وكتب [illegible] شوال سنة أربع وثلاثين [illegible]

رسالة ابن زيدان بتاريخ 12 شوال 1034 موافق 18 يونيه 1625

ثم تأتي رسالة منه إلى الولايات بتاريخ 9 ذي القعدة 1035 = 2 غشت 1626 يستعجلها في مساعدة مبعوثه يامين بن رمّوخ على الالتحاق بالمغرب كما يطالب برفع الحجز عن المفاتيح (يعني الرماح) التي اقتناها يوسف بالآش بأمر العاهل.

وبعد أن يتوجهوا إليه برسالة بتاريخ 15 يبراير 1627 يترجون فيها التوسط لدى قواد سلا لإرجاع سفينة هولاندية نجده يرسل بمبعوث جديد هو يعقوب بن روش الذي ذهب ليتعجل القضايا التي عهد بها إلى يامين بن رمُّوخ، وهذا ما تتضمنه رسالة العاهل بتاريخ 18 شعبان 1036 = 14 مايه 1627.

ثم تأتي رسالة منه إلى الولايات العامة بتاريخ 29 شعبان 1036 = 15 مايه 1627 يرجوها أن تعمل على إرجاع البضائع الموجهة من المغرب إلى داود بالآش على متن سفينة آتية من سلا.

وبعد هذا نجد جواب الولايات عن رسالته المتعلقة بالمركب الذي تركه القابطان جان فيرفيرين (Jan. Ververen)، والذي كان أي المركب يحمل اسم فيجين دو هيرت (Viegen de Hert) وهم إذْ يشكرونه على اهتمامه يفوضون له في تكليف حكام سلا بتقدير ما صرفوه على إصلاح المركب حتى يدفعوا الواجبات ويعود المركب إلى صاحبه... وكان الجواب بتاريخ 21 مايه 1627.

وكانت آخر رسالة من الولايات العامة وصلت إلى السلطان زيدان[26] هي التي حررت إليه من لاهاي بتاريخ 7 اكتوبر 1627 تترجاه تحرير جبريل دورازيللّي (Gabriel de Razilly).

☆ ☆ ☆

لقد توفي زيدان في مطلع سنة 1037 = شتنبر 1627 فكانت وفاته نذيراً بالخطر والتمزّق، وإنه إذا كان والده أحمد المنصور قد استطاع أن يرفع اسم المغرب فقد

---

26) بالرغم من وفاة زيدان منذ محرم 1037 = 1627 حسب المصادر المغربية فقد ظلت الولايات تراسل باسمه إلى 3 مارس 1628 وهكذا نجد رسالة منها إليه بتاريخ 19 يبراير 1628 يخبرونه بأنهم ساعدوا يعقوب بن روش ويامين بن رموخ على شحن البضائع المطلوبة وقد أعفيت من سائر الواجبات، ورسالة بتاريخ 3 مارس 1628 يؤكدون أنهم ذوبوا المدافع وشحنوها إلى المغرب معفاة من الضرائب، ويسرون إليه أن حروبهم ضد الإسبان أرهقت ميزانيتهم ولذلك فهم يطلبون مساعدته من جديد ويعتمدون عليه في تزويدهم بملح البارود !!

خدمته ظروف النصر المتوالي وخدمه الاستقرار الذي عرفتـه البلاد، لكن زيـدان استطاع أن يخوض غمـار قلاقل وفتن ونكبـات بقلب مليء بـالشجـاعة وفكر متحلٍّ بالحكمة ودأبٍ قل أن سجلـه التـاريخ لملـك من ملوك وقتـه، فلقـد عرف كيف يضرب المتمردين عليـه، كمـا عرف كيف يستفيـد من الوضع الـدّولي في المنطقـة، وإن الحقيقة التي لامراء فيها هي أن زيدان كان وطنيّاً ملتزماً، وكان عالماً فطناً وكان رجل سلطة يتوفر على نصيب كبير من سياسـة الحكم ومـا يزال في حـاجـة إلى من ينصفه بدراسة موضوعية لشخصيته كعالم متضلع، وكسيـاسيّ مـاهر وكقـائـد شجـاع، وأنـه ليكفي لمن يريـد أن يعرف شيئـاً عن مقـدرة زيـدان أن يقرأ جوابـه العظيم على انتقادات يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاحي الروداني، هـذا الجواب الذي يظل في نظرنا أمثولةً لمن اختبره الله بأمر حكم النّاس..!!

لقد برزت مع وفاة زيدان طائفة من الأَحـداث التي كـان زيـدان بشخصيتـه يجثم عليها بثقله واتّصالاته ومبادراته...

إن أهل سلا الـذين كـانوا بـالأمس يتحـاشون الخطـاب المبـاشر مع الولايـات العامة في المواضيع الخطيرة نراهم يحررون خطـابـاً من سلا بتـاريخ 15 ينـاير 1628 يعربون عن عواطف السلاويين حيال الولايـات العـامـة ويخبرونهـا بـأنهم على اتصال مع ملك بريطانيا صديق هولاندا..!!

كما يحيطونها علماً بأنهم خصّصوا استقبـالاً ممتـازاً للقـابطـان جورج جـان **(Georges Jan)**.

لقد تم اتفاق بين إنجلترا وزعماء سلا... وبعث الملك شـارل الأَول بتـاريخ 12 اكتوبر 1627 إلى كلّ من حكام سلا وإلى الشيخ العياشي (على ما أشرنـا إليـه في العلاقات ـ المغربية الإنجليزية).

كـانت رسـالـة السلاويين موقعـةً من طرف ثلاثـة أشخـاص : أحمـد بن علي بيكسير **(Bexer)** الـذي نراه يوقع مع زميـلٍ لـه آخر هـدنـةً بين سـلا وبين لـويـز الثـالث عشر عـام 1630، كمـا وقعت من طرف علي مينّـو **(Menno)**، والثـالث هـو عليّ بن هيزاريوس **(Hezarios)**.

وقد مهد الكونت دوكاستري[27] للحديث عن هذه المرحلة الجديدة من تاريخ المملكة بعرضٍ حول أُصول وتطور ديوان سلا الذي عُرف فيما بعد عند بعض المؤرخين المتأخرين بالجمهوريات الثلاثة لوادي بوركَراكَ !!.

إن الموريسكيين الذين كانوا يقيمون بسلا و ـ الرباط ـ والقصبة لم يلبثوا أن قطعوا صلاتهم ببلاط مراكش وأقاموا عنهم عاملاً عليهم جعلوا مسؤولاً أمام مجلس مختارٍ لمدة محدودة يقع تجديده بطريق الانتخاب فتكونت بذلك أولاً حكومة الرباط !.

وقد تبعت القصبة صنيع رباطها فكونت حكومة ثانية مماثلة حوالي عام 1040 = 1630 !!.

وقد مدّت «الحكومتان» اليد للإسبان الذين يحتلّون المعمورة وتواطأتا معها على ضرب المجاهد العياشي الذي كان يقارع الوجود الإسباني هناك الأمر الذي دفع بالمجاهد إلى حصار الحكومتين.

وفي خضم تدخل الدلائيين لضرب العياشي تكوّنت حكومة ثالثة على هذا المنوال بمدينة سلا ذاتها.!!!

وهكذا شاهدت رقعة لاتتجاوز الميل الواحد ثلاث حكومات بمجالسها وقادتها وزعمائها..! وأمست نظرة السياسة الأُروبية، نتيجةً لذلك، خاضعة للمصلحة الخاصة لتلك الدول، فهي تتصل مع هذه وتلك بل ومع الزعامات الأُخرى الظاهرة هنا وهناك مستغلةً هذه الثغرات ومشجعةً هذا التمزّق والتفكك ولكن من غير أن تغفل إطلاقاً علاقاتها بالسلطة المركزية للبلاد...!!.

وهكذا نجد رسالة من الولايات العامة إلى السلطان الجديد مولاي عبد الملك بتاريخ 31 مارس 1628 تخبره بأن السفير المغربي يوسف بالآش نعى إليها السلطان زيدان، وأنها إذ تعرب عن تأثرها تتمنّى للعاهل الجديد التوفيق والعون،

---

(27) دوكاستري : (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب) هولاندا ـ سلسلة أولى ـ المجلد الخامس المقدمة إضافة إلى ما ساقه في المجلد الثالث من السلسلة الأولى من قسم (فرنسا) : السعديين ص 187 ـ 198.

وتختم الرسالة بالتذكير في الاتفاقية المغربية الهولاندية التي وقعت أيام والده ويعتمدون عليه في معاملة المواطنين الهولانديين بروح تلك الاتفاقية.

ومن جهة أخرى فجوابا على الرسالة التي كان ديوان سلا بعث بها، أرسلت الولايات العامة إلى أحمد بن علي بيكسير بتاريخ 27 يوليه 1628 تعرب عن سعادتها بعواطف أهل سلا حيال هولاندا..!

وتتوالى المراسلات بين «ديوان سلا» وبين الولايات العامة في وقت لم نسجل فيه غير رسالة واحدة صدرت من هذه الولايات إلى مولاي عبد الملك الذي قضى في الحكم ثلاث سنوات..!

☆ ☆ ☆

وبجلوس الوليد بن زيدان على العرش عرفت العلاقات نوعاً من الانبعاث، وهكذا نجد رسالة من السلطان مولاي الوليد بن زيدان إلى الولايات العامة، من مراكش بتاريخ 19 صفر 1041 = 16 شتنبر 1631 يخبر هولاندا بأن الأمن مستتب في سائر جهات مملكته، وأنه بالنسبة للسياسة الخارجية سيتبع نهج أسلافه حيال الولايات العامة... وبهذه المناسبة أحاط الولايات علما بأنه سيبعث بيوسف بالآش للتفاوض حول بعض القضايا، من بينها اختيار خبراء من هولاندا من أجل المساهمة في تصنيع المغرب...[28]

ويختم رسالته هذه ـ التي توجد في أعلاها كلمة (الله أكبر) ـ بإعلان القرار الذي اتخذه في متابعة الحرب ضد القشتاليين (الإسبان) بدون هوادة وأنه من أجل هذا يطلب إلى الولايات مساعدة أسطولها لمحاصرة الإسبان في المعمورة...

وقد عين السلطان الوليد داود بالآش كوكيل لمتابعة القضايا المعلقة وزوده برسالة «أمان» بتاريخ 5 ربيع الأول 1041 = اكتوبر 1631.

28) يظهر أن الوليد تابع الاهتمام بمشروع جدّه (زيدان) لبناء مرسى شمال آسفي بساحل دكالة وهو المشروع الذي حضرت من أجل إنجازه بعثة ألبيرت رويل صحب المستشرق كوليوس... ويبدو أن هؤلاء الخبراء الجدد هم الذين خططوا سنة 1634 ميناء (الوليدية) التي أسهم في بنائها عدد من الأسرى الأجانب والتي نعتها الزياني في كتابه الترجمان المعرب بأنها من أحسن المراسي... الكانوني : آسفي وما إليه ص 41.

دوكاستري : هولاندا ـ المغرب ـ سلسلة أولى مجلد 4 ص 587 فرنسا ـ المغرب سلسلة أولى ـ مجلد 3 ص 55.

ومع احتفاظ هولاندا بعلاقاتها المنتظمة مع الوليد، فإنها استمرت في صلاتها بديوان سلا، وهكذا نجد رسالةً من وكلاء الولايات إلى قائد سلا بتاريخ 12 ـ 12 ـ 1631 يحيطونه علماً بأن التاجرين أبراهام، وهارون كيريضو يعتزمان إرسال بعض السفن للتزود من سلا بما يخفف البؤس الذي يحل بالبلاد المنخفضة... وأن هولاندا ترجوا من القائد والدّيوان تسهيل عملية التاجرين المذكورين...

وجواباً من الولايات للوليد بن زيدان الذي طالب بمساعدة الأُسطول الهولاندي لمحاصرة المعمورة، نجد رسالةً منها بلاهاي بتاريخ 12 نونبر 1633 يخبرون بأنهم تلقوا بسرورٍ بالغ أخبار جلوسه على العرش ورغبته في استئناف علاقات الصداقة مع الولايات العامة، وهم يبعثون إليه ستة عشر مغربياً وجدوا في هولاندا بصفةٍ تلقائية... وفي الآخير يعتذرون عن إرسال أسطولهم لمحاصرة المعمورة بما يوجدون عليه من حربٍ مع اسبانيا..!

وفي رسالة منهم كذلك إلى الوليد بتاريخ 27 مايه 1634 يخبرونه أن يوسف بالآش سيحمل إليه دلائل حسن استعداد هولاندا ويؤكدون رغبتهم في أن يتمسك بحمايته ورعايته للهولانديين الموجودين بالمغرب ضمن الاتفاقية المبرمة بين الطرفين...(29)

وقد كتبت الولايات إلى الوليد بتاريخ 24 يبراير 1635 تحيطه علما بأن ملك فرنسا قد خدع من طرف داود بالآش... وأنه أي ملك فرنسا التمس من الولايات توقيف هذا الوكيل ومصادرة أوراقه، لكن الولايات قبل أن تتخذ قراراً في الموضوع تريد أن تعرف ما إذا كان مولاي الوليد يوافق على ذلك...

وفي رسالة لاحقة منهم إلى الوليد بتاريخ 18 مايه 1635 يخبرونه بأنهم لما علموا بالعدوان الحاصل على بعض السلاويين أعطوا الأوامر بزجر المعتدين...

---

29) في هذه السنة 1634 تم بناء (الوليدية) وقد كانت فيما يبدو من تخطيط خبراء هولانديين وشارك في بنائها أسرى من أروبا... دوكاستري...

ثم يأتي جواب من الوليد للولايات بتاريخ 27 محرم 1045 = 13 يوليه 1635 عن رسالتها حول شكوى ملك فرنسا ونبارة من داود بالآش... إن مولاي الوليد يفسر للولايات الظروف والملابسات التي سلّم فيها داود بالآش رسالةً إلى لويس الثالث عشر... وأن العاهل لم يكلف داود بتمثيله لدى ملك فرنسا... ولهذا فإن داود قام بمهمةٍ تخرج عن اختصاصه... وأن الولايات تحسن صنعاً إذا ما سلمته للعدالة... وتختم الرسالة بشكر الولايات على معاملتها الحسنة لرعاياه ويعدهم بالمثل فيما يتعلق بالمواطنين الهولانديين...

ثم تأتي رسالة منهم إلى السلطان الوليد بتاريخ 29 ـ 12 ـ 1635 ينقلون إليه عواطف رعاياه المقيمين بهولاندا بمناسبة اعتلائه العرش وخاصةً عندما سمعوا بتجديد نيته في متابعة السياسة الخارجية لوالده والمتعلقة بمعاملة هولاندا...

وهم مصممون على إصلاح الأحوال واحترام النظام بإرسال قنصل عنهم إلى الديار المغربية، هو جوريان فان بيسطير فيلت (Jurian Van Bystervelt) ولكنهم يخبرونه بأن القنصل سيقيم بسلا !! ويلتمسون من الشريف الاعتراف به وتسهيل مهمته،[30] وفي مقابلة هذا فإنهم يرحبون دائماً بكل ممثل يرد عنه إلى هولاندا...

وقد أرسلت الولايات مثل هذه الرسالة إلى ديوان سلا... لقد كانت الولايات حريصة على أن يعالج قنصلها في عين المكان ما يجدّ بينها وبين سلا معتمدةً على أن صداقتها مع السلطة المركزية لاتحتاج لمثل هذه الاحتياطات ! ولا بد أن نقتبس فقرة قصيرة من تقرير رفعه إسحاق بالآش إلى هولاندا بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين أخيه داود الذي أخذ العاهل المغربي يعتمد عليه... قال :
«انه من قلة الحزم أن ترفض هولاندا تموين هذين المرابطَيْن : (العياشي بسلا وأبي حسون بإيليغ)، بالعُدد الحربية لكونهما مستوليين على المرافئ المغربية وفي استطاعتهما منع الذين يتجرون مع الهند الشرقية والغربية وغينيا من التزود...[31]»

30) وصلت هذه الرسالة للمغرب بعد وفاة الوليد فهل رضي بها أخوه السلطان محمد الشيخ (الصغير ؟) سنراه يشتكي من دسائس هذا القنصل ويطلب توبيخه في رسالة رسمية...
31) السوسي : إيليغ ص 190.

أوردنا هذا.. لنعرف أثر مثل أولئك المستشارين على توجيه السياسة الخارجية الهولاندية التي كان يهمها أن تستمر في عدم قطع صلاتها مع ديوان سلا...

☆ ☆ ☆

ويصفّى الوليد ليبايع أخُوه محمد الشيخ (الصغير)... الذي نجده يوالي صلاته بهولاندا فيبعث إليها من مراكش بتاريخ 10 جمادى الثانية 1046 = 9 نونبر 1636 يؤكد بأنه أيضا سيحافظ على العلاقات الطيبة التي كانت موجودة بين هولاندا وبين أسلافه... إن الرسالة التي بعثت بها الولايات إلى أخيه مولاي الوليد بهدف تجديد الحلف قد وصلت بعد وفاة هذا الأخير، إن العاهل الجديد يخبر الولايات أن سفير يوسف بالآش حامل هذه الرسالة والذي كان عليه أن يذهب من هولاندا إلى بيت المقدس يؤكد أن الاتهامات الموجّهة، ضد داود بالآش والتي وصلت إلى أخيه مولاي الوليد كانت اتهامات ظالمة ولا تعتمد على أساس من الصحة ولذلك فإن العاهل يطالب الولايات ـ نتيجة لذلك ـ برد الاعتبار لداود ومنحه الحصانة اللازمة له..!

وهذا نصّ الرسالة التي يتصدّر أعلاها بشعار : (هو) على نحو ما كان في بعض رسائل السلطان زيدان...

عن الأمر العلي الإمامي المحمدي الشيخي الحسني النبوي الناصر لدين الله أيده الله بعزيز نصره وأمده بمعونته ويسره وخلد جميل ذكره بمنه.

إلى الجماعة التي وكل تدبير (المملكة الفلمانكية) إلى آرائها الناجحة وأنظارها الراجحة، وتصرفاتها الصالحة، الرؤساء الأنجاد، الراسخين في عقولهم رسوخ الأطواد، (جماعة لستاضس).

أما بعد : فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية، حمراء مراكش المحروسة بالله المحمية، والأحوال بحمد الله في ممالكنا الشريفة على ما يسر من كمال التدويخ والتمهيد، واجتماع كلمة المسلمين على السمع والطاعة، في كل قريب منها وبعيد لله المنة، هذا وإنه لما تقرر عندنا ما كان سلف لكم مع والدنا السلطان الأعظم مولانا الإمام المقدس المنعم، نور الله ثراه، وجعل الجنة قراه،

رسالة محمد الشيخ ابن السلطان زيدان بتاريخ 10 جمادى الثانية 1046 = 9 نونبر 1936

بإخواننا الأئمة بعده، من جميل المواصلة، وحسن المجاملة، خاطبناكم بهذا الخطاب الكريم، لتعلموا أن كلما كان لمكانكم عند والدنا وأسلافنا رحمهم الله من الاعتناء المشهور، وجميل الإيثار المعلوم، فنحن في ذلك على عهد والدنا رحمه الله، وقد كانت كتبكم وردت على أخينا بن الوليد رحمه الله صحبة حامله خديمنا الذمي يوسف بلياش تأسيساً لمحبتكم وتجديد الصلة بكم فتوفي قبل مراجعتكم بكتبه، فلتعلموا أن حبل المحبة بيننا وبينكم موصول، وغرضكم لدينا بالبر مقبول، وحامله الذمي المذكور وارد بكتابنا هذا عليكم، ليذهب لبيت المقدس من هنالك لديكم فالمراد أن تستوصوا به خيراً على جميل عادتكم حتى يذهب لسبيله فأوصوا به من يمر عليه من خدامكم وولده داوود، الله الله فيه، إن شاء الله أن يقيم في خدمتنا هنالك لديكم، وولده أخونا الوليد رحمه الله كتب في مسألته إليكم قد بحث وبحث وبحثنا بعد، فلم نقفوا ؟ لذلك على حقيقة فاستوصوا به خيراً وعاملوه معاملة جميلة مرضية ولا تسمعوا فيه كلام الفرانصيين لأنهم لهم فيه غرض وشهوة فهو في حرمكم وأبوه كذلك فلتوقروهم ولتحترموهم على عادتكم معهم في عهد والدنا السلطان رحمه الله.

وكتب في عاشر جمادى الثانية سنة ست وأربعين وألف.

وجوابا على رسالة محمد الشيخ الصغير نجد الولايات تبعث بتاريخ 12 نونبر 1636 معزية في أخيه الوليد ومهنئه باعتلائه الحكم ومؤملة في استمرار معاهدة 1610 مطالبة بمعاملة الهولانديين المقيمين بالمغرب على أساس تلك الاتفاقية...

وتنقطع رسائل الولايات عن محمد الشيخ إلى سنة 1638 حيث نجد رسالة بتاريخ 19 مارس 1638 تخبر بتوصلهم برسالته حول استقرار الأحوال بالمغرب ويأسفون لكونهم لم يتمكنوا من إرسال سفارة عنهم إلى العاهل رغم رغبتهم في ذلك، وهم يعتذرون بوجودهم في حالة حربٍ مستمرة مع اسبانيا... ويعبرون عن عزمهم الصادق على المحافظة على الحلف الموجود بين الدولتين مؤكدين اعتذارهم عن تأجيل إرسال سفارتهم إلى المغرب...

كما نجد رسالة هامة منهم إلى محمد الشيخ بتاريخ 29 مارس 1638 يذكرون فيها بأنه نظراً لكون ملك بولونيا سنّ قانوناً جديداً بإيعازٍ من ملك اسبانيا يقضي بفرض واجبات جمركية جديدة في مراسي البلطيق (La Baltique)...

وبما أن هذه القوانين التي صودق عليها من قبل الولايات البولونية تمس الحبوب المنقولة لهولاندا من المناطق المجاورة، وبما أن هذا يؤثر على تموين الجيش الهولاندي فإنه، للخروج من الخطر، ترجو هولاندا من العاهل المغربي أن يمنح إذنه للتاجر صامويل صوتين (S. Sautyn) ليشتري حمولة ستة سفن من الحبوب المغربية...

وتختم الرسالة المذكورة بأن القنصل المقيم بسلا بيسطيرفِيلت (Bystervelt) عهدت إليه الولايات بمساندة هذا الملتمس لدى الشريف فالرجاء إرضاء الطلب...

وتأتي رسالة أُخرى منهم إليه بتاريخ 1 أبريل 1638 تؤكد الطلب السابق مضيفة إليه تزويدهم بكمية من ملح البارود (Le Salpêtre) لأن حربهم مع الإسبان لا تغنيهم عن هذه المادة الستراتيجية..!

وبشأن القنصل الهولاندي المعتمد بسلا، نجد العاهل المغربي يرفع رسالةً بتاريخ آخر رمضان 1048 = 25 يناير 1639 يخبرهم فيها ـ بعد أن يؤكد عن نياته الطيبة إزاء هولاندا ـ أن سفينة هولاندية حالت، وبإيعاز من الكونصول افلامينك (Flaminque)، دون اتصال مراكب السلطان محمد الشيخ بحاميته التي تدافع عن القصبة ضد المرابط العياشي الذي سقطت في يده سلا الجديدة (مدينة الرباط) منذ يوليه 1639[32] وهو إزاء هذه البادرة الخطيرة ـ يطالب الولايات التدخل لدى قنصلها وتوجيه التوبيخ والزجر له على هذا السلوك الغير اللائق... مختتماً بالتوصية بأسرة بالآش...

32) كتب القائم بأعمال قنصلية فرنسا دوراستان (De Rastin) في رسالة إلى رئيس الوزراء (Richelieu) بتاريخ 16 يوليه 1639 يخبره أن سلا الجديدة (يعني الرباط) قد سقطت في يد العياشي وأن حصاره قائم الآن حول القصبة التي تمون من قبل الإسبان.
دوكاستري: مصادر لم تنشر لتاريخ المغرب ـ فرنسا، سلسلة أولى جـ ـ 3، 584.

وهذه الرسالة تتميز عن سابقتها بأنها تحمل ختماً مستطيلاً.

ويستفحل أمر زعيم جديد في إيليغ جنوب المغرب وهو المرابط أبو حسون الذي أشرنا إليه سابقا والذي نراه يستولي على سفينة هولاندية أواخر سنة 1638...

وهكذا فإن هولاندا - مع احترامها للسلطة المركزية ! - لم تر مانعاً أيضا في مكاتبة «السيد المحترم المعظم» بتاريخ 21 مايه 1639 تخبره بأنها سترسل إليه يإسحاق بالآش الذي عهد إليه بتطمينه عن نواياها الودية والإعراب عن الرجاء في تحرير الهولانديين المحجوزين «تحت سيطرة حكومة عظمته» على حدّ تعبير الرسالة الهولاندية...

☆ ☆ ☆

لقد أخذت الولايات العامة تفكّر جيداً في إرسال سفارة إلى المملكة المغربية للاتصال بالسلطان محمد الشيخ الذي كان يرغب بدوره في إظهاره مركزه الدولي أمام الزعماء الظاهرين هنا وهناك، تم لتعرف جلية الأمر حول حركة هؤلاء الزعماء الذين أخذوا فيما بينهم أيضا يتقاتلون على نحو ما يسمع هذه الأيام بين المرابط العياشي وبين ديوان «القصبة»...

وهذه مذكرة بتاريخ 6 يونيه 1640 = 15 صفر 1050 من الولايات العامة إلى سمو أمير الولايات فريديرك هنادريك حول المهمة التي اسندت إلى القابطان أنطوان دوليدكيرك (Antoine de Liedekerke) كسفير للولايات لدى ملك المغرب... ولدى المرابط العياشي[33] والمذكرة تخبر الأمير بأن الولاة زودوا السفير المذكور بالتعليمات اللازمة وطلبوا إليه العمل على تحرير بعض المراكب الأسيرة بالمغرب، وأنهم نتيجة لذلك يلتمسون من صاحب السمو أن يتفضّل بالإذن بكتابة أوراق الاعتماد وبسامي التوجيهات...[34]

33) المختار السوسي : إيليغ قديما وحديثا ص 186 - وما بعدها.

34) حصلت عليها أوائل السبعينات بواسطة زميلي السفير الهولاندي في بغداد سعادة لافاليت...

وهنا تأتي رسالة من الولايات إلى موسى بالآش بتاريخ 8 يوليه 1640 يطلبون إليه مساعدة القابطان (Antoine de Liedekerke) المبعوث من قبلها لدى الشريف، ثم نجد جواباً من موسى إلى الولايات من مراكش بتاريخ 15 يونيه 1641 - وبعد مقتل المرابط العياشي من قبل أنصار مساعده السابق عبد الله الدّلائي يوم 9 محرم 1051 = 21 أبريل 1641 - يَعِدُ بمساعدة السفير الجديد ويخبرهم بعطف الشريف على الولايات...

وقبل أن تصل السفارة الهولاندية نجد رسالة من السلطان محمد الشيخ الصغير إلى مجلس وكلاء المملكة من مراكش بتاريخ 20 ربيع الأول 1051 = 29 يونيه 1641 وقد طلب فيها العاهل من الولايات العامة أن تبعث له بعامل خبير في تفريغ المدافع صحبة وكيله إسحاق بالآش...[35]

وتتميز هذه بالختم الذي يحيط فيه بالاسم : الآية الشريفة ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً - رب أوزعني أن أشكر نعمتك...﴾.

السفارة الهولاندية بمراكش !

لقد أمسى قرار الولايات العامة نافذاً فيما يتعلق بإرسال سفارة إلى السلطان محمد الشيخ، فقد كانت ظروف اعتلائه الحكم مناسبة لمثل هذه التهنئة كما أنها كانت مناسبةً لدعم المعاهدة المبرمة بين الطرفين منذ 1610 مع السلطان زيدان، هذا إلى علاج بعض المشاكل التي كان سببها تعرض قواد سلا وقواد إيليغ لبعض المراكب الهولاندية....

لقد كانت السفارة برئاسة القابطان ليدِيكيرك (Liedekerke) الذي ورد على متن سفينة حربية صحبة حاشية هامة كان من بينها الرسام الهولاندي أدريان ما ثام الذي أثرى السفارة بما تركه من لوحاتٍ جميلة لقصر البديع الذي قال عنه إنه «أُعجوبة الأعاجيب»، ومن رسوم للعاصمة وتصميمٍ كذلك يعتبر الركيزة

---

35) S.I.H.M – p. 526 Note 3

الأُولى لكل حديث عن مراكش ورسوم لبعض المواقع المغربية مثل أسفي وجزيرة الصويرة الآهلة وجزيرة الحمام الغير المسكونة بالصويرة أيضا وسلا الجديدة أو مدينة الرباط...

لقد وصلت السفارة إلى أسفي يوم 24 دجنبر 1640 وكانت قد غادرت هولاندا في مطلع شتنبر... وقد أخرجوا إحدى عشرة طلقة، وقد ورد مبعوث من طرف قائد المدينة حيث سلمه السفير رسالة، ولم يلبث أن أرسل بكاتب السفارة فان ديرسطير (Van der Sterre) لتحية القائد...

ويوم 8 يناير تراءت للبعثة جزيرة الصويرة حيث صادفوا يوم السبت 12 يناير يوم عيد عيد الفطر 1050.

ويبدو أن احتياج البعثة للتزود بالماء وانشغال المواطنين بما قبل يوم العيد ويومه وما بعده نبه الكاتب إلى ملاحظة أن البعثة تعيش في كل أسبوع ثلاث عطل : الجمعة لأنه عيد المسلمين ! والسبت لأنه عيد اليهود ! والأحد لأنه عيد النصارى !

وقد قام السفير الهولاندي يوم 9 يبراير بزيارة لمدينة أسفي التي قضوا فيها زهاء ثلاثة أسابيع ريثما جهزت الفرسان لمرافقة الركْب إلى العاصمة مراكش...

وقد دخلت السفارة للعاصمة دخولاً رسمياً رائعاً يوم الاثنين 26 ذي القعدة 1050 = 11 مارس 1641 حيث تجمع الناس لرؤية ترتيبات المرور بما صحبها من جند وخيالة...

وبعد أربعة أيام قضتها البعثة في تقبل بعض الزيارات والقيام ببعض الجولات، تم استقبالها من لدن السلطان مولاي محمد الشيخ بإحدى الردهات الجميلة بقصر البديع يوم السبت 16 مارس فاتح ذي الحجة...

وقد صادف تاريخ 25 مارس يوم عيد الأضحى الذي وصف الرسام فيه موكب خروج السلطان للمصلى مصحوباً بأعضاء الحكومة والحاشية وبجوقة للموسيقى... وبعد أن يتحدث عن انطباعاته حول قيام العاهل نفسه بسنة ذبح

الأضحية[36] يحكي عن انطلاق الأصوات التي تردد الدعاء للملك «الله يبارك في عمر سيدي !!».

وقد استقبل السفير مرة ثانية في البهو الدّاخلي من طرف من نعته بالباشا الذي كان مرفوقا بشخصيتين ساميتين وبالكاتب الخاص للعاهل، وكان الباشا هو الشخصية الثانية في الدّولة بعد الملك وقد كان مثلاً في اللياقة والبشاشة والرقة والنباهة، بينما تمت المقابلة الوداعية من طرف العاهل نفسه حيث تناول الحديث عن عددٍ من المسائل التي تهم الدولتين واستعرضت طائفة من القضايا...

وقد اقترح العاهل على الرسّام ماثام وزميل له رسّام كذلك، البقاء في المغرب، لكنهما اعتذرا عن العرض شاكرين... ويتحدث ماثام في مذكراته عن بعض الهدايا التي قدّمها ملك المغرب إلى السفير الهولاندي فيذكر أن في جملتها عشرة جياد أصيلة وإثنى عشر صقراً وجملين نادرين وسيفاً ثميناً ذا مقبض مطرز بخيوطٍ من ذهب...

وقد غادرت السفارة مدينة مراكش يوم ثامن مايه في حفلة وداع مشهودة...

وتحكي مذكرات أدريان ماثام عن صلاتٍ ناجحةٍ تمت أوائل شهر يونيه في (سانطاكروز) بين السفير وبين من نعته بأخي أبي حسون صاحب إيليغ من أجل افتكاك الأسرى الهولانديين المحجوزين هناك عندما حرثت سفينتهم إيراسموس (ERASMUS) هناك.[37]

☆ ☆ ☆

كان أول رسم للعاصمة مراكش - على ما في علمنا - هو الذي كان سنة 1641 من تخطيط الرسّام السّالف الذّكر الذي ظل مشغلته بعد عودته سنة 1646، ونظراً لأهميته من الناحية التاريخية نحاول توضيح بعض جوانبه للمهتمين بتتبع الصورة....

---

36) لم يكن الكاتب مرتاحا من مباشرة السلطان بنفسه لعملية الذبح واعتبرها «طليعة شؤم بالنسبة للمملكة ! (c'est un mauvais presage pour ce royaume) ! فياله من فرق بين العقليتين !

37) دوكاستري : هولاندا - سلسلة أولى مجلد 4 ص 598 - المختار السوسي. إيليغ ص 173 - 174.

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

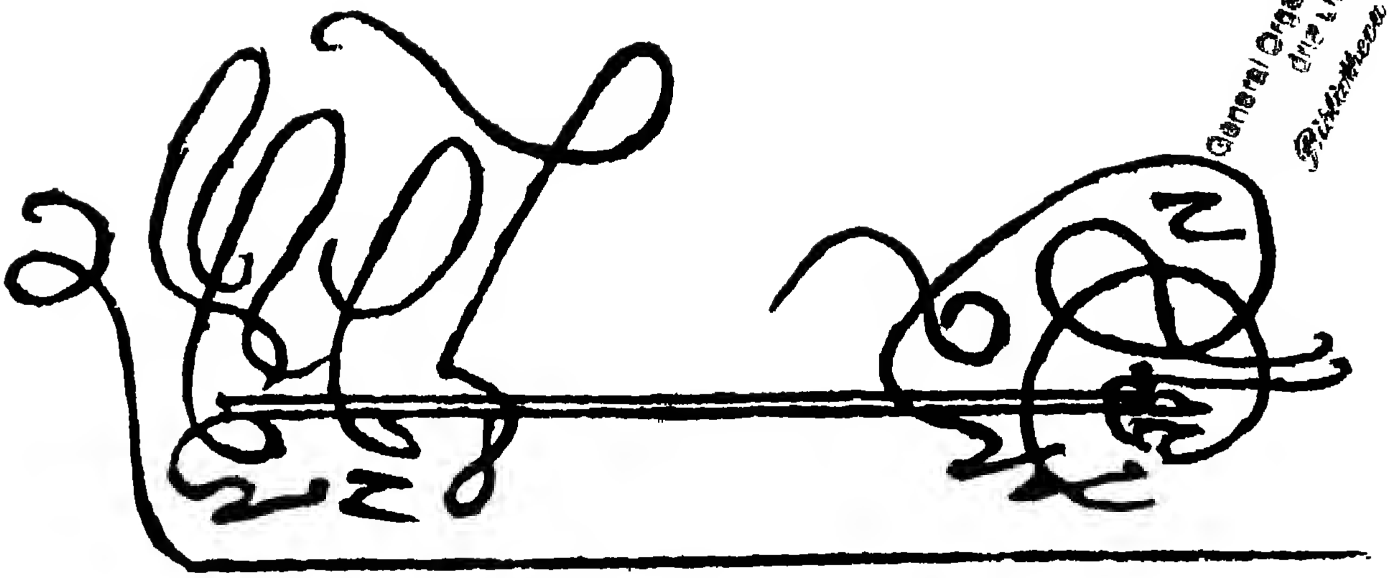

توقيع مولاي محمد ولد مولاي زيدان

تحمل اللوحة الأُولى على اليسار في أعلاها طغراء السعديين...

وتحمل اللوحة الثانية صورة العاهل المغربي وتحتها اسمه مولاي محمد ولد مولاي زيدان، ويلاحظ أن الزّي تركي...

واللوحة الثالثة ـ وهي الوسطى ـ تحتوي على قطعةٍ كتب عليها مدح لمدينة مراكش ـ التي زارها في فصل الربيع ـ عبارة عن اثنين وعشرين بيتا من الشعر من نظمه : يمكن ترجمتها هكذا :

إيه مراكش ! أيتها المدينة التي تفوق كلّ ثمن والتي طبقت شهرتها الآفاق...

من حين بزوغ الشمس إلى أن تغيب في الأفق

أعجوبة تفوق كلّ الحدائق الملكية..

في نضارتها في إبداعها، في ترتيبها

روضك الذي يحمل اسم (المسرّة)

خمائل رائعة فتّانة جذّابة على مر الزّمن

لا يقع البصر في سائر جهاته إلا على خضرة...

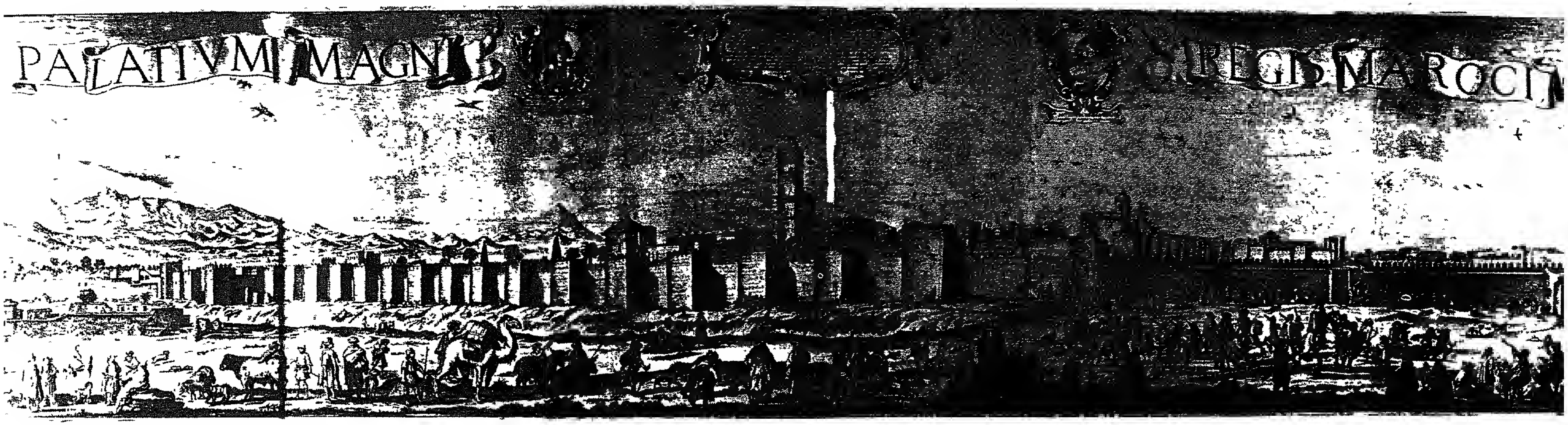

يتألف الرسم في الأَصل من خمس لوحات تؤلف مجموعةً، قطعةً من طول مترين وستين سانتيماً على عرض 54 سانتيماً ويحاكي في صياغته بعد خمس سنوات الرسم الأَصلي مع إضافات جد قليلة، ولأَجل أن يعطيَ الرسّام روحاً للوحته أَضاف إليها صور أَشخاص وحيوانات، وقد رسم السفير لُبيدكيرك على فرسه متبوعاً بحاشيته (حرف ب) نحو باب الملاّح (حرف الكاف) (K) وفي أعلى الرسم نقرأ على لافتتين ذات اليمين وذات اليسار ما ترجمته : «بلاط الملك العظيم بالمغرب بإفريقيا».

وفي آخر هذه اللافتة تحتها يلاحظ توقيع (ماثام).

غابة من البرتقال تكسوها أوراق لامعة... وأُخرى من الليمون المتعانق...
النخل فيها يتعالى متشامخاً مائلاً يناجي أنثاه...
حيث يلقّح أزاهرها بأريج عرفه !
غابات الزيتون المثقلة تسمع لها حفيفاً يناغي الفضاء وتتجه بأفنانها نحو السماء.
وهذه جداول تنعرج هنا وهناك في أناةٍ تداعب العيون بصفحات أكثر إشراقاً من البلّور !
استمعي إليّ أيتها المدينة الجليلة ! يقال : إن جدرانك التي أمعنت في الاتساع، وتعالت حتى بلغت النهاية، ستنهار في يومٍ من الأيام ولكن روحك ستبقى خالدة عندما تستهدف معالمك للفناء !
إن كل شيء سيقف في الأخير عما عهده منذ البداية...
الوقت... الوقت سريع... يغير كلّ شيء !

أما اللوحة الرابعة، فيلاحظ يسارها في القسم الأعلى رسم للسفير ليدكيرك (Lidekereke) في موازاة رسم السلطان محمد الشيخ...

واللوحة الخامسة، في القسم الأعلى منها جعل الرسام ماثام صورة لعلم الأمير فريديريك هنري دوناصو (Fréderic Henry de Nassau) في موازاة طغراء العاهل المغربي... وتلاحظ وسط الرسم منارة (حرف ألف...) هي المنارة التي كان العاهل المنصور السعدي يصعد إليها بفرسه وهي التي أشار إليها الفشتالي في (مناهله)، كما يلاحظ أن حرف الباء (B) هو مقام العاهل، وحرف الصاد (C) منارة الكتبية وحرف الدال (D) مقبرة السعديين وحرف الهمزة مخففا... حريم زوجات الملك، وحرف الفاء (F) حريم سرّياته، وحرف الجيم (G) حدائق قصر المسرة وحرف الهاء (H) مقبرة اليهود وحرف الهمزة مكسوراً (أ) جبال الأطلس...

☆ ☆ ☆

وبعد مغادرة السفارة الهولاندية للمغرب أواخر نونبر 1641... ووصولها أوائل سنة 1642 توالت المراسلات بين الطرفين، وهكذا كتب السلطان محمد الشيخ الصغير يطلب خبراء مختصين جُدداً في تذويب المدافع الأمر الذي نجد

الجواب عنه في رسالة الولايات إليه بتاريخ 6 مايه 1642 حيث يخبرونه بأنهم أذنوا لمبعوثه داود بالاش في أن يبحث في الولايات عن «معلم ماهر... وأنه بمجرد الحصول عليه سيبعث إلى المغرب...

ونجد رسالةً أخرى منهم إليه من لا هاي بتاريخ 8 مايه 1642 تقدم الشكر إلى العاهل المغربي على حسن الاستقبال الذي خصصه للسفير ليبدكيرك (Liedkerke)، وعلى العواطف الودية التي يكنها العاهل للولايات العامة وهم يتقدمون بهذه المناسبة بطلب كميات أخرى من القمح وأن داود بالاش سيلتحق بالمغرب من أجل هذا الغرض...

ونجد رسالة منهم إليه بتاريخ 23 مايه 1643... يقدمون إليه قنصلهم الجديد هيندريك دوبر (Hendrich Dopper)... ويترجونه في أن يصلح الخسائر الملحقة من طرف حكام سلا بالتجار الهولانديين والعمل على تحرير الأسرى بالمغرب...

ويظهر أن مراضاةً سريةً تمت بين الجانبين على أن يتولى القنصل الهولاندي لدى محمد الشيخ أيضا معالجة المشاكل والقضايا التي تمس هولاندا مع صاحب إيليغ وحكام سلا..! فقد حرصت الولايات العامة ـ بناء على رأي مستشاريها ـ أن تعزز علاقاتها بالزعماء الآخرين ليس فقط رعياً لمصالحها ولكن أيضا لأنهم يلتقون معها في معاداة إسبانيا..!!

وهكذا توالت المراسلات بين لاهاي من جهة وبين سلا وإيليغ من جهة أخرى على ما نقرأه في موسوعة دوكاستري... وفي خضمّ هذه الاتصالات مع العناصر الانفصالية تستمر علاقات الولايات العامة مع السلطان محمد الشيخ وهكذا فجواباً على رسالةٍ منهم إليه يعرب الشريف بتاريخ 1 رمضان 1053 = 13 نونبر 1643 عن رضاه حول العواطف التي تضمنتها رسالتهم، ويعد بمنح الهولانديين سائر المساعدات. وقد منح قنصلهم (دوبر) حصانة تمكنه من مباشرة مهمته...

ومن جهةٍ أخرى فإن السلطان محمد الشيخ ـ إدراكاً منه لحقيقة الموقف ـ استمر كالسابق ـ في علاقته بالولايات وهكذا نجد رسالة منه من مراكش إلى لاهاي بتاريخ أوائل رجب 1054 = 13 ـ 22 شتنبر 1644 يخبر الولايات بمقابلة تمت

بينه وبين القنصل دوبر (Dopper) حيث تسلم رسالةً من الولايات تتعلق بطلب إذن لوسق الحبوب، وأنه سيرضى طلبهم، وفي مقابلة هذا فهو يعرب عن حاجته إلى سفينة تتوفر على عشرين مدفعا... يمكنه أن يتحرك بواسطتها في الوليدية ويطلب الولايات أن تصنع له هذه السفينة... وبهذه المناسبة يحيطها علما بأنه سيرسل سفيره القائد محمد بن عسكر للسهر على المهمة، وأنه من ناحية الثمن فإنه مستعد لأدائه بالحبوب أو ملح البارود... وهو يجدد ضماناته بعمله على منع أسر أيّ مواطن هولاندي... ويختم رسالته هذه بأن يسر إلى الولايات أن سفيرها لديه دوبّر رفض أن يحمل معه شحنات من الحبوب وملح البارود بحجة أن باخرته مملوءة !

وعلى نحو ما عرفنا فإنّ العاهل المغربي يحلّي نفسَه بأن جبابرة الملوك السودانية تخضع لأوامره...[38]

وفي موضوع سفارة القائد محمد بن عسكر كتبت الولايات العامة من لاهاي إلى السلطان محمد الشيخ تخبره بأنهم استقبلوا مبعوثه القائد بن عسكر الذي حمل إليهم رسالة العاهل وأنهم أذنوا له في أن يبني السفينة المقترحة وأنهم يعاملونه معاملةً تليق بمركزه ويرحبون في نفس الوقت بأية سفارة يبعث بها العاهل إلى هولاندا وأنها ستلقى منهم كل المساعدات...

وأمام الأخبار التي تناهت إلى العاهل من هولاندا حول «تفشيل» مهمة سفيره ابن عسكر ومساعدة داود بالاش، وعزم السفير على الالتحاق بالمغرب، قام السلطان محمد الشيخ ـ وقد شعر بالميل الزائد لأمير الدلاء برفع رسالةٍ إلى الولايات من مراكش في أوائل جمادى الأولى 1056 = 14 يوليه 1646 يتأسف على عودة سفيره ومبعوثه دون الباخرة المقترحة.... ويرفع عقيرته بالشكوى

38) يلاحظ أن الملوك السعديين ظلوا إلى آخر واحد فيهم حريصين على أن يجعلوا ضمن تحلياتهم الإشارة إلى ولاء ملوك السودان لهم، وكان ذلك يعني استمرار السلطة المغربية على بعض أطراف إفريقيا الغربية، ونحن نعلم أن القائد جوذر دخل إلى كاغو سنة 1591، وفي يونيه 1618 رجع الباشا عمار من السودان إلى مراكش، وفي سنة 1628 أعلن في مدينة دييني (Dienne) موت السلطان المولى زيدان وتنصيب ابنه المولى عبد الملك وعند عام 1632 عين السلطان الوليد الحاكم على السودان واستمر ذلك على ما يؤكده موريس دولافوس إلى نهاية دولة السعديين.
.Hesp. 1923 P. 439 Note 3

من أن التجار الهولانديين يتاجرون في السلاح مع خصومه ! إن بنجامين كوهن (Ben jamin Cohen) المقيم بسلا يجلب أدوات الحرب، وقبل أن يقوم بمقارنةٍ بين سلوكه هو وسلوك سلا مع الهولانديين يتساءل هل ما إذا كان الهولانديون يهدفون إلى فسخ اتفاقيتهم مع السعديين !!

والجدير بالذكر أن الجواب عن هذه الرسالة لم يتحقق إلا بتاريخ 1 شتنبر 1648 حيث نجدهم يترجونه في الإبقاء على العلاقات الطيبة التي ما فتئ يعرب عنها ويخبرونه عن مبعوثٍ جديد لهم جان سوتان (Jean Sautin) سيرد بقصد الحصول على إذن بوسق القمح الذي تحتاج إليه هولاندا !

وبعد سبعة أيام من هذا التاريخ تحرر رسالة منهم إلى محمد الشيخ «تعتمد» الشخصية المذكورة كقنصلٍ مقيم بآسفي مطالبين منحه سائر الامتيازات المخولة للقناصل الآخرين مؤكدين الطلب بمنح التسهيلات لوسق القمح...

إن الاتجاه نحو قواد سلا ما يزال في طريقه نظراً للضغط المتوالي من هؤلاء على المصالح الهولاندية وهو ما تفسره رسالة الولايات إلى السلاويين بتاريخ 21 يناير 1649 تطالب بتحرير من تبقى لديهم من أسرى سفينة القابطان زيل (Zeyl).

لكن سعيد أجنوي النائب عن الدلائيين والمتحدث باسم المجالس الثلاثة : مجلس سلا والرباط والقصبة أجاب بتاريخ 27 مايه 1649 أن السفينة المذكورة وقعت من جديد في الأسر عندما وقفت في مالقة، وهو يغتنم هذه الفرصة لتجديد المطالبة بتحرير المغاربة الموجودين في أمستردام...

وأمام تزايد نفوذ الدلائيين في المغرب وتقلص دولة السلطان محمد الشيخ تحولت أنظار الولايات العامة نهائياً عن بلاط مراكش وهكذا فباستثناء رسالة من هولاندا إلى محمد الشيخ قبل سنة من وفاته، أعني بتاريخ 25 يونيه 1652 حول مطالبتهم بإنصاف تجار هولانديين في ديوان لهم بمراكش، باستثناء ذلك نجد الثقل كله يلقى على ديوان سلا...

وقد انتهت سلسلة تلك الاتصالات بما مرت به من احتكاكات وانفراجات إلى إبرام اتفاقية بين البلاد المنخفضة وديوان سلا تمت المصادقة عليها في 11 من ذى القدة 1068 = 10 غشت 1657.

وقد تبع هذه الاتفاقية إرسال سفارة في السنة الموالية من عبد الله الدلائي أمير سلا إلى الولايات العامة...

تم كل هذا في غياب آخر ملك من ملوكِ الدولة السعدية بيد أن السفارة عند عودتها وجدت أن الثورة شبت في البلاد ولهذا فعوض أن تلتحق بسلا اضطرت للنزول في تطوان !

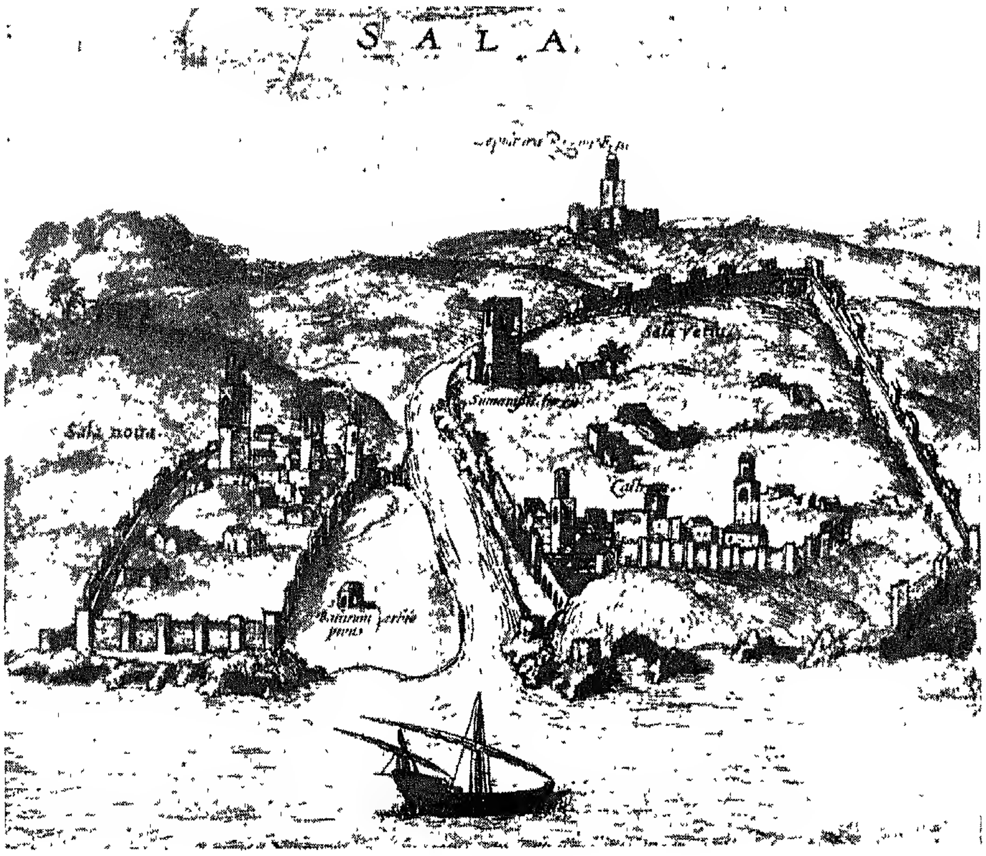

منظر لمدينة سلا في القرن السادس عشر

انتهى المجلد الثامن
ويليه المجلد التاسع الذي يبتدئ
بالفترة الأُولى من دولة العلويين :
من الملك محمد الأَول إلى بداية
السلطان مولاي عبد الرحمن
وهي تصادف انتقال الحكم في الجزائر
من تركيا إلى فرنسا

فهرس الصور

صفحة	الصور
6	خريطة المغرب على عهد السعديين
11	صورة قلة بني مرين المشرفة على مدينة فاس
18	رسالة من العثمانيين إلى ملك المغرب
19	رسم السلطان سليمان القانوني
20	رسالة من العثمانيين إلى العاهل المغربي
41	خطاب السلطان سليم لحاكم ولاية فاس
48	شعار السلطان عبد الملك
86	صورة أنطوني شيرلي
91	رسالة من مولاي أحمد الأعرج إلى جان الثالث
93	عقد هدنة بين مولاي أحمد الأعرج وجان الثالث
123	مدينة معلقة بماليزيا
124	من آثار البرتغال في مسقط ـ سلطنة عمان
125	صهريج المنارة بمراكش
130	صورة الموريسكيين في طريقهم إلى التعميد
131	رسم للمتحجبات في الأندلس
137	نسخة طبق الأصل لمولاي عبد المالك
141	رسالة محمد بن عبد الله الغالب إلى فليب
158	مراسلة المنصور لفليب الثاني
166	رسالة من مولاي عبد الله الغالب إلى أنطوان
197	رسالة المنصور الذهبي إلى الملكة إليزابيث الأولى
202 ـ 203	رسالتا المنصور الذهبي إلى الملكة إليزابيث بواسطة عبد الواحد عنون
225	صور لمدينة فاس ومدينة فلورانس
228	رسالتا ملك فاس إلى حاكم فلورانس
238	بيعة حاكم برنو للمنصور السعدي
251	ظهير تسمية قائد الأسطول السعدي
260	رسم طريق الجيش المغربي من مراكش إلى كاغو
261	بائع الماء في تنبكتو
283	المعاهدة المغربية الهولاندية
291	رسالة ابن زيدان بتاريخ 20 رمضان 1023 = 24 أكتوبر 1614
296	رسالة ابن زيدان بتاريخ 24 شوال 1025 = 4 نونبر 1616
297	رسالة ابن زيدان بتاريخ 5 جمادى الأولى 1028 = 20 أبريل 1619
303/302	رسالتا ابن زيدان بتاريخ 27 محرم 1033 = 20 نونبر 1623
307	رسالة ابن زيدان بتاريخ 12 شوال 1034 = 18 يوليوز 1625
315	رسالة محمد الشيخ ابن زيدان بتاريخ 10 جمادى الثانية 1046 = 9 نونبر 1636
322	توقيع مولاي امحمد ولد مولاي زيدان
323	منظر لمدينة مراكش 1641 بريشة أدريان ماثام
328	منظر لمدينة سلا في القرن السادس عشر

فهرس الموضوعات

صفحة	الموضوع
5	علاقات المغرب بالعثمانيين وبلاد المشرق على عهد السعديين
87	علاقات السعديين بالبرتغال
127	العلاقات المغربية الإسبانية على عهد السعديين
161	العلاقات المغربية الفرنسية على عهد السعديين
187	العلاقات المغربية الإنجليزية على عهد السعديين
221	علاقات المغرب مع الطوسكان بين فاس وفلورنس على عهد الدولة السعدية
229	علاقات المملكة المغربية مع باقي ممالك إفريقيا
273	العلاقات المغربية مع البلاد المنخفضة على عهد السعديين

رقم الإيداع القانوني : 1986/25

تم طبع هذا الكتاب بمطابع فضالة ـ المحمدية